الدعم الأوربي للإمارات الصليبية في بلاد الشام

تاريخ أوربا في العصور الوسطى

د. ياسر عبد الوهاب





الدعم الأوروبي للإمارات الصليبية في بلاد الشام

دكتور

ياسر عبد الوهاب

الناشر

المكتب العربي للمعارف

عنوان الكتاب : الدعم الأوربي للإمارات الصليبية في بلاد الشام
اسم المؤلف : د. ياسر عبد الوهاب
تصميم الغلاف : شريف الغالي

الناشر
المكتب العربي للمعارف
٢٦ شارع حسين خضر من شارع عبد العزيز فهمي
ميدان هليوبوليس – مصر الجديدة – القاهرة
تليفون/ فاكس: ٢٦٤٢٣١١٠-٠١٢٨٣٣٢٢٢٧٣
بريد إلكتروني : Malghaly@yahoo.com

الطبعة الأولى يناير ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٢٠١٣/١٤٣٠٩
الترقيم الدولي : I.S.B.N. 978-977-276-634-5

إهداء

إلى زوجتي

و أبنائى٠٠مصطفى ٠٠٠روان٠٠٠رزان

المقدمة

نجح صليبيو الحملة الصليبية الأولى في تأسيس أربع ركائز صليبية في الشرق الأدنى الإسلامي، ويعتبر العقدين الأولين من تاريخ الإمارات الصليبية في الشرق فترة مد صليبي لم تواجهه مقاومة إسلامية منظمة أو فعالة، أو تتناسب وحجم الخطر الصليبي، وبظهور عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود الذين وضعا اللبنة الأولى لجبهة إسلامية متحدة تواجه الكيان الصليبي، في الوقت الذي انشغلت أوروبا فيه بمشكلاتها الداخلية، حدث توازن في ميزان القوى بين الطرفين بظهور صلاح الدين الأيوبي، الذي تمكن من توحيد القوى الإسلامية في الشرق، وتكوين دولة ذات إمكانية مادية وبشرية، الأمر الذي مكنه من توجيه ضربة شديدة للكيان الصليبي، سقطت على إثرها مملكة بيت المقدس الصليبية، وفتح صلاح الدين غالبية ما كان بأيدي الفرنجة في بلاد الشام، وذلك بعد أن أحرز انتصارًا حاسمًا على القوت الصليبية في حطين عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ.

وإذا كان الكيان الصليبي قد بدأ في الانهيار، حتى سقط تمامًا في بداية العقد لأخير من القرن الثالث عشر الميلادي، فإن ما أبقى على هذا الكيان بعد موقعة حطين وحتى سقوطه نهائيًا، كان في حقيقة الأمر، الدعم الأوروبي للإمارات الصليبية، فالحرب ضد المسلمين أو عقد الهدن واتفاقيات السلام معهم، لم تكن لتكفي لتأمين الكيان الصليبي في بلاد الشام، كما لم تكن الموارد الخاصة بالإمارات الصليبية تكفي لذلك، إلى جانب ذلك فإن الحملة الصليبية المتتابعة من الثالثة إلى السابعة، لم تحل مشكلات الفرنج في بلاد الشام، وكان لابد من قيام علاقات مستمرة بين الإمارات الصليبية وغرب أوروبا، دعمًا لهذه الإمارات ولم تكن الحملات الصليبية إلا مظهر من مظاهر هذا الدعم ، فقد تنوعت أشكال الدعم الأوروبي للإمارات الصليبية –إلى جانب إيفاد الحملات العسكرية إلى الشرق– فبذلت أوروبا جهودها الدبلوماسية والاقتصادية والمادية، لدعم هذه الإمارات، وكان لهذه الجهود أهمية لا تقل –إن لم تكن أكثر– أهمية من الحملات الصليبية، بل كانت أكثر دعمًا لهذه الإمارات، لأنها لم تعمل فقط على

تعويض ما فشلت في تحقيقه الحملات الصليبية، بل عملت أيضًا على حل المشكلات الداخلية بين القوى الصليبية في الشرق، تلك المشكلات التي كانت سببًا من أسباب ضعف الكيان الصليبي في مواجهة الجهد الإسلامي الرامي إلى القضاء عليه.

كل ذلك دفع الباحث إلى اختيار "الدعم الأوروبي للإمارات الصليبية في بلاد الشام" فيما بين عامي ١١٨٧-١٢٩١م /٥٨٣-٦٩٠هـ،موضوعًا للدراسة، وإلى جانب ذلك، فهناك عدة أسباب أخرى تجعل هذه الدراسة تحظى بأهمية خاصة، من بين هذه الأسباب، خلو المكتبة العربية من بحث قائم بذاته في هذا الموضوع، كما أن الحملات الصليبية قد شكلت في كتابات المؤرخين المحدثين الشكل الأهم من أشكال العلاقات بين الإمارات الصليبية وغرب أوروبا خلال الفترة موضوع الدراسة، ولم تحظ بقية أشكال هذه العلاقات بين الطرفين باهتمام هؤلاء المؤرخين، ولم تتعد معالجتهم لهذه العلاقات مجرد عرض سريع في ثنايا استعراضهم العام لتاريخ الحروب الصليبية، لذلك بقيت هذه العلاقات وطبيعتها وأثرها على العلاقات بين الصليبيين والمسلمين، في حاجة إلى مزيد من الدراسة لإلقاء الضوء على ما يكتنفه الغموض من شتى جوانبها.

وللقيام بذلك، اتبع الباحث منهاجًا محددًا يتفق وطبيعة الدراسة، فلم يكن التركيز على أحداث الحملات الصليبية هو الهدف الأساسي للباحث، بقدر ما كان تحديد مدى نجاح هذه الحملات في حل مشاكل الفرنج، وما كانت في حاجة إليه من دعم لم توفره لها هذه الحملات، فإلى جانب تقييم نتائج هذه الحملات، كان التركيز على المظاهر الأخرى للعلاقات بين الإمارات الصليبية وغرب أوروبا، التي غالبًا ما كانت تبدأ باستغاثات فرنجية تنطلق من الإمارات الصليبية طلب للدعم الأوروبي، وكان من أهداف البحث تحديد طبيعة رد الفعل الأوروبي تجاه هذه الاستغاثات، سواء أكان إيجابيًا أم سلبيًا، وإذا كان إيجابيًا فهل كان في شكل معونات مادية أو بشري، أو في شكل قرارات سياسية أو جهود دبلوماسية تتخذ في الغرب، لدعم هذه الإمارات، وكل كان هذا الدعم يصل إلى الفرنج في بلاد الشام من أو لا، أما إذا كان رد الفعل الأوربي سلبيًا، فكان على الباحث

تحديد أسباب ذلك، وفي الحالتين تحديد أثر رد الفعل الأوروبي على العلاقات بين الصليبيين والمسلمين.

هذا بالنسبة لموضوع الكتاب وأهميته وسبب اختياره والجديد فيه. وقد تم تقسيم الكتاب إلى خمسة فصول: الفصل الأول عنوانه "دعم الغرب الأوروبي للإمارات الصليبية بعد حطين وحتى نهاية الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٧-١١٩٢م/٥٨٣-٥٨٨هـ)، ويلقى هذا الفصل الضوء على أهمية عام ١١٧٨م/٥٨٣هـ كبداية لموضوع البحث؛ الأمر الذي يحتم الرجوع إلى الوراء قليلاً لتفهم أسباب ذلك، وأبدأ الفصل بالحديث عن صليبيي الشام وعلاقتهم بالغرب الأوروبي قبيل حطين، ثم ما تلا ذلك من استغاثات الصليبيين بالغرب الأوروبي؛ التي تضمنت استغاثة رجال الدين والقادة الصليبيين، وكونراد دو مونتفرات والدفاع عن صور انتظارًا للمدد الأوروبي ونتائجه والذي تمثل في أن وليم الثاني ملك صقلية أول من لبى استغاثة صليبيي الشام، وجهود البابوية في دعم الإمارات الصليبية والإمبراطور فريدريك باربروسا ومحاولته دعم الصليبيين دبلوماسيًا وعسكريًا، ثم دور فرنسا وإنجلترا في دعم الإمارات الصليبية، ودور الأساطيل الإيطالية في مساندة الإمارات الصليبية، وأتممت هذا الفصل بالحديث عن تقييم لدور الغرب الأوروبي في دعم الإمارات الصليبية عقب حطين.

أما الفصل الثاني وعنوانه : "الدعم الأوروبي الإمارات الصليبية بين الحملتين الثالثة والخامسة (١١٩٢-١٢٢١م/ ٥٨٧-٦١٨هـ)"، ويبدأ باستعراض أحوال الإمارات الصليبية بعد الحملة الثالثة، ثم شرح لعلاقة صليبيي المشرق بالغرب الأوروبي حتى نهاية الحملة الألمانية ، وكذلك دور البابا إنوسنت الثالث وأثر تحول الحملة الصليبية الرابعة على صليبي المشرق (١١٩٨-١٢٠٤/٥٩٥-٦٠١هـ) وانشغال الغرب الأوروبي عن الإمارات الصليبية في الشرق ونتائج ذلك، ثم عالجت بالشرح والتحليل جهود البابوية في مساندة الإمارات الصليبية في بلاد الشام، بما في ذلك دورها في اختيار جان دي بريين ملكًا على صليبيي الشام، وفي استقبال التقارير من الشرق، ثم الدعوة

للحملة الخامسة ومؤتمر اللاتيران، وأخيرًا دورها في الإعداد للحملة وأتممت الحديث بتقييم الدعم الأوروبي لصليبي الشام في تلك الفترة.

أما الفصل الثالث وعنوانه : الإمارات الصليبية بين البابوية والإمبراطورية (١٢٢١-١٢٤٠م/٦١٨-٦٣٧هـ)، وفيه يبدأ الحديث عن أحوال الصليبيين بعد رحيل الحملة الصليبية الخامسة، ثم أثر الخلافات بين البابوية والإمبراطور فريدريك الثاني على الإمارات الصليبية في بلاد الشام حتى نهاية الحملة السادسة (١٢٢١-١٢٢٩م/٦١٨-٦٢٦هـ) مع الإشارة إلى الحروب الأهلية الصليبية وأثرها على توتر العلاقات مع الغرب الأوروبي، ثم معالجة بالشرح والتحليل جهود البابا جريجوري لدعم الإمارات الصليبية (١٢٣١-١٢٢٤م/٦٢٨-٦٣٧هـ)، مثل محاولاته حل مشكلات الصليبيين في بلاد الشام، وجهوده في إيفاد حملة صليبية جديدة ونتائج ذلك، خاتمًا بتقييم للدعم الأوروبي للصليبيين في تلك المرحلة.

أما الفصل الرابع وعنوانه: "وضعية الإمارات الصليبية في السياسة الأوروبية (١٢٤١- ١٢٥٤ م/٦٣٨-٦٥٢هـ)، فيعالج أحوال الإمارات الصليبية عقب رحيل الحملة الإنجليزية، وانعكاس الصراع بين البابوية والإمبراطورية على صليبي الشام، مع بيان موقف البابوية من الإمارات الصليبية، والذي تمثل في مؤتمر ليون ودعوة البابا للحملة الصليبية السابعة عام ١٢٤٥م/٦٤٣هـ ومراسلات البابا إنوسنت الرابع مع حكام بني أيوب في عامي ١٢٤٤-١٢٤٦م/٦٤٢-٦٤٤هـ، والمساعدات البابوية للجماعات الرهبانية العسكرية، وانشغال البابا بصراعه مع فريدريك الثاني عن مساندة صليبي الشام، وموقف الإمبراطور فريدريك الثاني، من حيث تقديمه لبعض المساعدات للحملة الصليبية السابعة، واحتفاظه بعلاقاته الطيبة بحكام بني أيوب، وأثر ذلك على الإمارات الصليبية، ثم تناولت بالدراسة والتحليل موقف ملوك إنجلترا وفرنسا، والذي تضمن قرار لويس التاسع في قيادة الحملة الصليبية السابعة، وتم -وعلى النقيض تمامًا- قرار هنري الثالث بمنع التبشير للحملة في إنجلترا، ثم المحاولات الإنجليزية الفردية من أجل مساعدة الإمارات الصليبية،

خاتمًا الحديث ببقاء لويس التاسع في الشرق وجهوده لتحقيق الاستقرار في أحوال الإمارات الصليبية في ظل تخاذل بقية قوى الغرب الأوروبي .

أما الفصل الخامس وعنوانه : الدعم الأوروبي للإمارات الصليبية حتى سقوط عكا (١٢٥٤-١٢٩١م /٦٥٢-٦٩٠هـ)، ويبدأ باستعراض أحوال الصليبيين واستغاثاتهم المستمرة بالغرب عقب رحيل لويس التاسع عن بلاد الشام ثم الإشارة إلى سياسة الغرب الأوروبي تجاه الصليبيين حتى عام١٢٦٠م/ ٦٥٨ه، والتي تضمنت الحديث عن التحالف البابوي الإنجليزي وأثره على الصليبيين، ثم جهود فرنسا في مساندة الصليبيين عقب عودة لويس، كذلك فشل أوروبا في التحالف مع المغول لمساندة صليبي الشام ، ومعالجة بالدراسة والتحليل مكانة الصليبيين في السياسة الأوروبية ، والتي احتوت على نداءات الصليبيين المتتالية للغرب في ظل فتوحات بيبرس لركائزهم، ومحاولة البابا جريجوري العاشر لإحياء الكيان الصليبي، في ظل انشغال الغرب عن صليبي الشام، وآثار حملة إدوارد الأول على الإمارات الصليبية،ثم فشل السياسة الأوروبية في إنقاذ الكيان الصليبي ، كإخفاق المحاولات الأوروبية في استمالة المغول، و فشلهم في المحافظة على بقايا الإمارات الصليبية في النهاية، وأتممت هذا الفصل بتقييم للدعم الأوروبي للصليبيين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي.

أما الخاتمة فتتضمن ملامح الدعم الأوروبي للإمارات الصليبية مع تقييم للموقف بصفة عامة، والإشارة إلى أهم القضايا والنقاط التي تعرض لها موضوع البحث، مع إبراز الاستنتاجات والنتائج التي تم التوصل إليها من خلاله.

ولا يسعني في النهاية إلا أن أتوجه بأسمى آيات الشكر، ودلائل العرفان بالجميل والامتنان إلى الأستاذ الدكتور/ حسين محمد عطية- أستاذ تاريخ العصور الوسطى بآداب طنطا، على إرشاداته وتوجيهاته العلمية خلال جمع المادة العلمية،وعلى ما أمدني به من مصادر قيمة بلغاتها الأصلية ما كان لي أحصل عليها إلا من مثل أستاذي الفاضل . وأشكر أيضا الأستاذ الدكتور / بيتر وليام إدبيوري Peter Welliam Edbury أستاذ تاريخ العصور الوسطى

بجامعة ويلز بالمملكة المتحدة، على تعاونه في إمدادي بما أحتجت إليه من بعض الوثائق الغير متوفرة لدي، كذلك أتقدم بخالص الشكر إلى العاملين بمكتبات جامعة الإسكندرية، وَمركز الفرنسيسكان للدراسات المسيحية بالقاهرة، و دير الدومنيكان و الجامعة الأمريكية و المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

والله ولي التوفيق

دكتور / ياسر مصطفى عبد الوهاب

الإسكندرية ٢٠١٣م

الفصل الأول

دعم الغرب الأوروبي للإمارات الصليبية
بعد حطين وحتى نهاية الحملة الصليبية الثالثة
(١١٨٧-١١٩٢م/ ٥٨٣-٥٨٨هـ)

كانت الحملة الصليبية الأولى أنجح الحملات الصليبية على الإطلاق من حيث الإنجاز العسكري، فقد تمكن صليبيو الحملة من إقامة أربع ركائز صليبية في الشرق الأدنى الإسلامي خلال عقد واحد من الزمان، ولم يكن ذلك بفضل شجاعة، أو فنون حرب وقتال تميزوا بها عن المسلمين، ولكن لضعف المقاومة الإسلامية التي واجهتهم، وتشتت كلمة مسلمي الشرق الأدنى، لكن الأمر تغير بعد أن استطاع صلاح الدين الأيوبي توحيد الجبهة الإسلامية، وأطاح بما توصل إليه الصليبيون من "نمط الحياة Modus Vivendi" في بلاد الشام عقب موقعة حطين عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ[1].

ومنذ تلك اللحظة وحتى خروج آخر صليبي من عكا في عام ١٢١٩م/ ٦٩٠هـ، لم يرجع بقاء الصليبيين في بلاد الشام إلى حروبهم ضد المسلمين، أو ما عقدوه من اتفاقيات سلام معهم، أو حتى إلى الحملات الصليبية المستمرة التي بعث بها الغرب لدعم الإمارات الصليبية التي لم تكن تكف عن طلب النجدة عقب حطين، لذلك كان بقاء الصليبيين يتطلب أن يكون الغرب الأوروبي على اتصال دائم بهم، لاسيما في السنوات التي كانت تنقضي بين مجيء كل حملة من الحملات الصليبية والتي تليها، وبالرغم من أن علاقة الطرفين قد تأثرت كثيرًا بأحوال الغرب الأوروبي وخلافات الأباطرة مع البابوية، أو تلك التي كانت بين ملوك فرنسا وإنجلترا، فإن الغرب لم يتخل عن الإمارات الصليبية، بل واصل الدعم العسكري والمبادرات السياسية والدبلوماسية والاقتصادية للدفاع عما تبقى من الكيان الصليبي ببلاد الشام، وهو ما سنعرض له في الصفحات التالية.

قبل أن نخوض في طبيعة علاقات الإمارات الصليبية بالغرب الأوروبي، واستغاثاتها المستمرة به عقب حطين، يجب أن ننتبه إلى أن تلك الاستغاثات قد عرفت طريقها إلى الغرب قبل حطين بفترة ليست قصيرة وإن كانت بشكل محدود، وذلك بعد أن تأثرت الإمارات الصليبية بفشل الحملة الصليبية الثانية عام

---

[1] حسين عطية: المراسلات المتبادلة بين بابوات روما وسلاطين مصر من بني أيوب(١١٨٣-١٢٤٥م/٥٧٨-٦٤٣هـ) ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب – جامعة الاسكندرية ، مجلد ٣٨ ، عام ١٩٩٠م، ص ٢٥٧.

١١٤٨م/ ٥٤٣هـ، التي لم تفشل في استرداد الرها من قبضة المسلمين وحسب، بل تسببت أيضا في ميل ميزان القوى –الذي كانَ متوازنًا لخمسين عامًا مضت بين المسلمين والفرنج– لصالح المسلمين، وذلك مع بداية النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري[١].

وعلى أية حال فقد شعر عموري الأول Amoury I ملك بيت المقدس (١١٦٣-١١٧٤م/ ٥٥٨-٥٦٩هـ) بخطورة الأوضاع التي آلت إليها أحوال الصليبيين في المنطقة ومدى الأخطار التي تحيط بهم، بعد نجاح نور الدين محمود في توطيد أقدامه بمصر عام ١١٦٩م/ ٥٦٤هـ، وأدرك أن الصليبيين وقعوا بين شقي الرحى، وأن القوات النورية أحاطت بالمملكة الصليبية من الشمال الشرقي والجنوب الغربي[٢]، ومن ثم سارع بإرسال سفارة إلى الغرب الأوروبي، تطلب من البابوية وحكام الغرب الإسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة لنجدة الكيان الصليبي في الشرق[٣]، وبالفعل وصلت السفارة إلى روما في منتصف عام ١١٦٩م/ ٥٦٤هـ، وحمل البابا إسكندر الثالث Alexander III(١١٥٩-١١٨٤م/ ٥٥٤-٥٧٦هـ) أعضاءها رسائل توصية إلى معظم حكام أوروبا، غير أن الأوضاع السياسية في الغرب كانت مضطربة، إذ كان يمر بما يعرف بالمرحلة الثانية من أدوار الصراع بين البابوية والإمبراطورية، ومن ثم

---

[١] أجمع المؤرخون على أن فشل الحملة الصليبية الثانية يرجع إلى انقسام قادتها وتضارب مصالح الصليبيين المحليين، وجهلهم البين بأحوال البلاد الإسلامية آنذاك، انظر:
Odo of Deuil, De Prefection Ludovice VII, Trans by Vifginia Gingerick, (New York, 1984), pp. 116-122.
وانظر أيضًا: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة وتقديم حسن حبشي، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٩١-١٩٩٥م، ج٣ ص ٢٩٥-٢٩٩.

[٢] Jonathan ,P., The Latin East, in the Oxford Ill ustrated History of the Crusades, (Oxford, 2001), p. 123.

[٣] تكونت تلك السفارة من فريدريك رئيس أساقفة صور (١١٦٤-١١٧٤م)، ويوحنا أسقف بانياس، وجليبرت مقدم الأسبتارية (١١٦٣-١١٧٠م)، انظر :
وليم الصوري : الحروب الصليبية، ج٤ ، ص ١١٥.
وعن رسائل عموري التي حملها أعضاء السفارة الصليبية ، انظر :
Bonquet ,M., (ed), Recueil des Histories des Gaules et de la France, 24 vols, (paris, 1738-1904) vol. 16., pp. 187-188.

ذهبت جهود البابا أدراج الرياح[1]، وعندما بلغت السفارة باريس، استقبل الملك الفرنسي لويس السابع Louis VII (١١٣٧-١١٨٠م/ ٥٣٢-٥٧٦هـ، رجالها بحفاوة بالغة واستضافهم شهورًا عدة، لكنه اعتذر لهم بما يشغله من نزاع مرير مع الملك الإنجليزي هنري الثاني Henry II(١١٥٤-١١٨٩م/ ٥٤٩-٥٨٥هـ)، وأيقن السفراء الصليبيون كذلك عدم جدوى التوجه للإمبراطور الألماني فريدريك بارباروسا (١١٥٢-١١٩٠م/ ٥٤٧-٥٨٦) المنشغل بصراعه مع البابا فعادوا بعد أن أدركوا أنه لا طائل من حث الغرب الأوروبي على إرسال حملة صليبية لإنقاذهم من الخطر المحدق بالمملكة الصليبية[2].

لكن رد الفعل الغربي جاء أخيرًا على يدى هنري الثاني ملك إنجلترا، الذي أراد أن يكفر عن خطاياه الممثلة في تسببه في اغتيال القديس توماس بيكيت St.Thomas Becket[3]، فقرر إرسال مبالغ مالية بصفة مستمرة إلى الإمارات الصليبية في بلاد الشام، تحفظ لدى جماعتي الأسبتارية والداوية في

---

[1] لمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث ، انظر :
Tout, T.,The Empire and Papacy, (London, 1924). pp. 253-258; Bryce ,J., The Holy Roman Empire, (London, 1950), pp. 168-170.
وكذلك: سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، جزأن، ط٧، لقاهرة ١٩٩٤م، ج١، ص٣٧٩-٣٨٢؛ رأفت عبد الحميد: السمو البابوي بين النظرية والتطبيق، بحث منشور في مجلة ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثالث، القاهرة ١٩٨٥م، ص ١٩٥-١٩٩.

[2] وليم الصوري : الحروب الصليبية، ج٤، ص ١١٦.
والجدير بالذكر أن المصادر العربية لم تغفل استغاثة الصليبيين بالغرب الأوروبي ، يقول ابن الأثير: "كان إفرنج الساحل، لما ملك شيركوه مصر، قد خافوه وخافوا على بيت المقدس من المسلمين، فأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضوهم على الحركة" انظر:
ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ١٢ جزء، بيروت ١٩٨٢، ج١، ص٣٥١.

[3] توماس بيكيت هو رئيس أساقفة كانتربوري، وقد خاض نزاعًا مريرًا مع هنري الثاني الذي تحدى سلطة الكنيسة الإنجليزية، وعندما قتل في التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١١٧٠م، ثار الراي العام وعده الناس قديسًا وشهيدًا، متهمين الملك الإنجليزي بالتسبب في مقتله، مما دفع هنري الثاني إلى أن يعلن في كل مناسبة بعدة -ولمدة طويلة- أنه برئ من التسبب في مقتله، انظر :
نورمان كانتور: التاريخ الوسيط "قصة حضارة البداية والنهاية"، جزأن، ترجمة وتعليق: قاسم عبده قاسم، القاهرة ١٩٩٧، ج٢، ص٥٣٧-٥٣٩.

بيت المقدس، فيما عرف بوصية ولثامWaltham، وذلك في عام ١١٧٢م/ ٥٦٧هـ[١].

ومما تجدر الإشارة إليه، أنه بوفاة الملك الصليبي عموري الأول عام ١١٧٤م/ ٥٦٩هـ انتهى عهد الملوك الصليبيين العظام؛ خاصة وأن تلك الوفاة أوجدت نوعًا من الفراغ السياسي في المملكة الصليبية في بلاد الشام[٢]. إذ خلفه على العرش ابنه بلدوين الرابع Baldwin IV (١١٧٤-١١٨٥م/ ٥٦٩-٥٨١هـ) الذي كان في سن الثالثة عشر من عمره ومصابًا بالجذام، فكان هذا نذيرًا بوقوع المملكة الصليبية في حالة يمكن أن توصف بالفوضى الإقطاعية والنزاع على الوصاية على الملك المجذوم[٣]، وفي المقابل استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يسيطر على مصر، ويبدأ مشروعه الكبير وهو محاولة توحيد العالم الإسلامي تحت رايته وكان يحرز نجاحًا مطردًا في ذلك، ولذلك ذهل الصليبيون عندما وجدوا أن أولى إمدادات الغرب الأوربي لهم، وهي حملة فيليب كونت فلاندر Philip Count Flanders في عام ١١٧٧م/ ٥٧٣هـ، ولم تكن تأت من أجل تحقيق المصالح الصليبية بقدر اهتمامها بأمور خاصة أخرى بعيدة عن هذا الهدف[٤].

---

(١) Maryer ,H.E., Henry II of England and the Holy Land, CF., E.H.R., (London, 1982), vol. XCVII, pp. 721-739, p728.

(٢) كانت وفاته خسارة كبرى للصليبيين في ذلك الوقت، لأنه -بحكم خبراته وتجاربه- كان أقدر زعماء الصليبيين على الاستفادة من ظروف المسلمين السيئة عقب وفاة نور الدين محمود في أوائل عام ١١٧٤م/ ٥٦٩هـ، انظر :

وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤ ص ١٦٨، وراجع أيضًا:

Grousset, R., Histore des Croisdes et du Royaume France de Jerusalem, 3 toms, (paris, 1984), t.2, p. 656.

(٣) من المعروف أن بلدوين الرابع كان صغيرًا، لذا تطلب الأمر تنصيب وصي على العرش، وقد ثار الخلاف على الوصاية بين ميلون دي بلانسي وريمون الثالث، وفي الحقيقة لم يكن ميلون مقبولاً، لاسيما من الطبقة الارستقراطية التي نشأت في المملكة، فاعتمد ريمون على مساندتها له، ونجح في الحصول على الوصاية في النهاية، انظر :

وليم الصوري : الحروب الصليبية، ج ٤، ص ١٦٩.

(٤) ما إن وصل فيليب إلى بلاد الشام، حتى كان واضحًا أنه لا يريد الاشتراك في أي عمل فعلي في الشرق، وعندما عرض عليه بارونات المملكة اقتراحًا بالقيام بحملة مشتركة مع الأسطول البيزنطي لمهاجمة مصر، رفض هذا الاقتراح مدعيًا أنه إنما حضر إلى

وهكذا بينما كان صلاح الدين على وشك إتمام توحيد الجبهة الإسلامية، كانت الإمارات الصليبية تتصدع بسبب مشكلة الوصاية على الملك المريض، وباتت المملكة الصليبية على وشك السقوط[1]، وَلم يكن في استطاعة البابا لوكيوس الثالث Lucius III (١١٨١-١١٨٥م/ ٥٧٧-٥٨١هـ) أن يدفع بحملة صليبية جديدة، أو أن يشعر حكام الغرب بحساسية موقف الصليبيين في الشام، في ظل انشغالهم بصراعاتهم الخاصة، لذا بدأ في مراسلة صلاح الدين وأخيه العادل نائبه على مصر طالبًا منهما قبول مبدأ تبادل الأسرى مع صليبيي الشام فردا موافقين على اقتراح البابا بشرط أن يحترم الصليبيون تلك المحاولة السلمية، وذلك في عام ١١٨٣م/ ٥٧٨هـ[2]، ومن المرجح أن البابا أراد بموضوع الأسرى أن يعوض صليبيي الشام عن عجز أوروبا عن مساعدتهم آنذاك، وفي وقت كان ميزان القوى في المنطقة قد بدأ يميل -بشكل واضح- لصالح المسلمين، خاصة وأن صلاح الدين كان على وشك إنهاء مهمته في

الأراضي المقدسة للحج ولتزويج الأميرتين سبيلا وإيزابيلا -ابنتي الملك الراحل عموري الأول وأختي الملك بلدوين الرابع- من ولدي أحد أتباعه المخلصين، لا لتحمل مسئولية القيام بتلك الحملة المشتركة، ومع مرور الوقت بات واضحا فشل حملة فيليب فشلا ذريعًا في تقديم الدعم المطلوب لصليبيي الشام في تلك الفترة، لمزيد من التفاصيل، انظر:

وليم الصوري : الحروب الصليبية، ج ٤ ، ص ٢٠٠-٢١٢.

راجع أيضًا : محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل كومنين (١١٤٣-١١٨٠م)، الإسكندرية ١٩٨٥م، ص ٣٥٧-٣٥٩.

(١) عندما اشتد المرض على الملك بلدوين الرابع سعى إلى تزويجه أخته الأميرة سبيلا، لكي يضمن استمرار الحكم في أسرته، فزوجها من أحد أمراء شمال إيطاليا، وهو وليم دي مونتفرات سنة ١١٧٦م، وما لبث وليم أن مات في سنة ١١٧٧م، بعد أن أنجبت منه ابنان هو بلدوين الخامس، وفي أثناء البحث عن زوج جديد لها أعلنت قبولها الزواج من جي دو لوزينيان، بالرغم من المعارضة الشديدة من جانب الملك بلدوين الرابع، ومعظم نبلاء المملكة لتلك الزيجة، وقد انشغل صليبيو الشام فترة طويلة بهذا الأمر، انظر :

Ernoul, pp. 48, 59-60; CF. also: Runciman,S., op.cit., vol. 2, pp. 425-433.

راجع أيضا: محمد مرسي الشيخ: عصر الحروب الصليبية في الشرق، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٧م، ص٢١٢.

(٢) Radulf de Diceto, Ymagines Historiarum, 2 vols, ed. W. Stubbs, in R.S., (London, 1876), vol 2., p. 25.

توحيد الصف الإسلامي وضم حلب إلى مناطق نفوذه، ليحيط بأملاك الفرنج في بلاد الشام، أما موافقة صلاح الدين والعادل على مطالب البابا فلعلها ترجع إلى رغبتهما في عدم إثارة الغرب الأوروبي في تلك الفترة، حتى لا تأتي حملة صليبية من أوروبا توقف مشروع الوحدة الإسلامية، وتضيع على صلاح الدين فرصة الإنفراد بصليبي الشام[1]، وفي الحقيقة لم تكن الإمارات الصليبية ترغب في حلول دبلوماسية في ظل ضعفها الواضح، بل كانت تريد عملاً عسكريًا، وحملة تخرج من غرب أوروبا تنقذها من السقوط الذي لاح في الأفق.

على أن صليبي الشام لم ييأسوا من الاستنجاد بالغرب الأوروبي، فأرسلوا سفارة في يونيو ١١٨٤م/ جمادي الثانية ٥٨٠هـ، برئاسة هرقل Eracles بطريرك مملكة بيت المقدس (١١٨٠-١١٩١م/ ٥٧٥-٥٨٦هـ)[2] ، طالبًا لمساعدة حكام الغرب، بعد أن تدهورت أحوال الإمارات الصليبية في مواجهة صلاح الدين الأيوبي[3]، وعندما وصلت السفارة إلى فيرونا Verpna التقى رجالها بالإمبراطور فريدريك بارباروسا وبالبابا لوكيوس الثالث إلا أن تلك المقابلات لم تسفر عن نتيجة، اللهم إلا ما زودهم به البابا من خطاب للملك هنري الثاني، يحثه فيه على نجدة الإمارات الصليبية[4]، ثم توجهت السفارة إلى باريس حيث التقت بالملك الفرنسي فيليب أغسطس Philip Augusts (١١٨٠-١٢٢٣م/ ٥٧٦-٦٢٠هـ)، في يناير ١١٨٥م/ ذي القعدة ٥٨٠هـ، ثم إلى إنجلترا حيث عقد الملك هنري الثاني مجلسًا ملكيًا في ضاحية كلركنويل

---

[1] حسن عطية : المراسلات ، ص ٢٦٢.

[2] ضمت السفارة أيضًا روجر دي مولين مقدم الاسبتارية (١١٧٧-١١٨٧م)، وأرنولد دي تراجو مقدم الداوية (١١٨٣-١١٨٤م)، وعن ذلك انظر :
Benedict of Peterbrough, Vol. 1, p. 338; CF. also: Mayer,H.E., Henry II ofEngland,p.731.

[3] تدهورت أحوال الإمارات الصليبية بسبب مرض الملك بلدوين الرابع، وعدم سيطرته على الأمور، وخلافه مع جي دو لوزينيان -زوج أخته سبيلا-، ونزع الملك يافا منه، فاستقر جي في عسقلان ورفع راية العصيان فيها، في الوقت الذي نجح فيه صلاح الدين في توحيد الشام ومصر تحت لوائه، انظر :
وليم الصوري ، الحروب الصليبية، ج ٤ ، ص ٢٤٩ .

[4] Pope Lucius III, Letter to Henry II Kikg of England (dec, 1185), in Roger of Hoveeden, op. cit., vol. 2., p. 46.

Clerkenwell بلندن ليستمع إلى طلبات السفراء في مارس ١١٨٥م/ ذي الحجة ٥٨٠هـ[١]، وحاول أعضاء السفارة الصليبية إقناع الملك الإنجليزي بالذهاب إلى الشرق على رأس حملة صليبية، وعرضوا عليه تاج المملكة الصليبية بالإضافة إلى زواج أحد أبنائه من وريثة عرش المملكة[٢]، لكن هنري الثاني أجل الرد، وقرر مصاحبة السفراء إلى فرنسا، حيث اجتمعوا مع الملك الفرنسي في مدينة فودريل Vaudreuil في مايو ١١٨٥م/ المحرم ٥٨١هـ، واستمر الاجتماع ثلاثة أيام، وأخيرًا رفض ملك فرنسا وإنجلترا التوجه إلى الشرق، واكتفى الملكان بالوعد بتقديم مساعدات مالية للصليبيين في الأراضي المقدسة[٣]، وعندئذ رحل البطريرك غاضبًا بعد أن صرخ في وجه الملك الإنجليزي قائلاً: إننا نريد أميرًا يحتاج إلى الأموال ولا نريد أموالاً تتطلب وجود أمير[٤].

أما فيما يخص الأحداث الداخلية في المملكة الصليبية، فقد توفي الملك بلدوين الرابع، وخلفه على العرش بلدوين الخامس Baldwin V الذي لم يكن قد تجاوز السادسة من عمره آنذاك، وذلك في مارس ١١٨٥م/ ذي الحجة ٥٨٠هـ، وعهد بالوصاية على الملك الطفل إلى ريمون الثالث Raymound

(١) Benedict of Peterbrough, vol. 1., p. 336. Radulph de Diceto, op. cit., vol. 2., pp. 32-33;

(٢) Roger of Hoveden, op. cit., vol. 2., pp.48-49.

(٣) ما أن عرض هنري الثاني على مستشاريه ما قدمه البطريرك من عروض حتى رأى هؤلاء أنه من الأفضل أن يبقى الملك في بلاده، ثم في اجتماع فودريل، كان واضحًا أن ملكي فرنسا وإنجلترا لا يرغبان في التوجه إلى الشرق ففيليب أغسطس يريد التفرغ لحياكة الدسائس، التي يؤلب بها أبناء هنري ضده، لإضعاف النفوذ الإنجليزي في فرنسا، وهنري الثاني بدوره يريد التفرغ للتصدي لتلك الدسائس، لذا فلم يكن هنري يستطيع أن يأمن بترك السلطة في يد أحد أبنائه في حالة الذهاب إلى الشرق، انظر:
Radulf de Dicero, op. cit., vol. 2., pp 33-34; Roger of Hoveden, op. cit., vol.2., pp. 50-51.

(٤) Gervas of Canterbury, Opera historica, ed. W. Srubbs, 2 vols. In R.S., (London, 1879-1880), vol. 1., p. 325; CF. also: Mayer, Henry II, p. 733.

III كونت طرابلس [١]، ومع فشل مهمة السفارة الصليبية السابقة إلى الغــرب، وإحساس الصليبيين بخطر صلاح الدين الداهم وفقدانهم الأمل في مجــئ حملــة صليبية لنجدتهم، وافقوا على مقترحات ريمون الثالث بأن يلتمس مــن صــلاح الدين عقد هدنة لمدة أربع سنوات، تبدأ من عام ١١٨٥م/ ٥٨٠هــ، حتى تستعيد الإمارات الصليبية بعض قوتها، وتنهي الخلافات الداخلية [٢]، وقبــل أن تظهــر الآثار السياسية والاقتصادية للهدنة حلت كارثة مــوت الملــك الطفــل بلــدوين الخامس في أغسطس ١١٨٦م/ جمادة الأخرة ٥٨٢هــ بالصليبيين، وفي الشــهر التالي توج بطريريك الأميرة سبيلا Sibylla وزوجها جي دو لوزينيان Guy de Lusignan ملكين على المملكة الصليبية وأوشكت المملكة الصليبية علــى الدخول في حرب أهلية[٣]، بعدما خيب تتويج جي آمال ريمون الثالث في ارتقاء عرش المملكة، لذا لم يجد ريمون مفرًا من التقرب من صلاح الــدين، وأرســل يطلب مساعدته على بلوغ هدفه، وهو ما رحب به صلاح الــدين[٤]، واصــطدم ريمون أيضا مع جيرار ريدفورت Gerard Ridefort مقدم الداويــة (١١٨٥-١١٨٩م/ ٥٨١-٥٨٥هــ[٥]، حتى أن المؤرخ الشهير وليم الصوري William of Tyre فكر في ترك قلمه والإقلاع عن الاستمرار في سرد تــاريخ المملكــة الصليبية[٦]، ولا شك في أن ذلك الانشقاق في صفوف الصليبيين وفي تلك الفترة

---

(١) Ernoul, p. 114

(٢) Eracles, L'Estorire, pp. 12-14; CF. Also: Gruousser,R., op. cit., 2., p. 764

(٣) عقب وفاة الملك الطفل بلدوين الخامس، فوجئ ريمون كونت طــرابلس والوصــي علــى الملك الراحل، بقيام البطريرك هرقل بتتويج الأميرة سبيلا وزوجهــا دي دو لوزينيــان ملكين على المملكة الصليبية، وأصبح الموقف في غاية الخطورة بعدما اعتصم ريمــون ومعه بعض النبلاء الصليبيين في مدينة نابلس رافضين هذا التتويج، واغلــق فرســان الداوية مدينة بيت المقدس تحسبًا لأي هجوم متوقع من قبل ريمون وأتباعه، انظر:
Ernoul, pp. 129-134; Eracles, L'Estoire, pp. 26-30; CF. also: Grousset, R.,op. cit., t. 2, pp. 764-768.

(٤) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزأن في مجلد واحد ، القاهرة ١٩٥٦-١٩٦٢م، ج٢، ص ٧٤-٧٥.

(٥) عن العلاقة بين جيرار وريمون وأسباب العداء بينهما، انظر :
إبراهيم خميس: العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين في مصر والشام، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص ١٥١-١٥٦.

(٦) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤ ، ص ٣٤٣.

بالذات كان نذيرًا بما ينتظرهم من كوارث محققة، في ظل سلبية الغرب الأوروبي غير المتوقعة وامتناعه عن نجدة الإمارات الصليبية في الشام.

وفي ظل تلك الظروف العصيبة التي أحدقت بصليبي الشام، قرر الفارس المتهور رينو دو شاتيون Reynold de Chatillon خرق الهدنة مع صلاح الدين ليزيد من حرج موقف الصليبيين، ويوقعهم في مأزق خطير، ويكفي أن انشقاق الصليبيين وصراعاتهم أدى إلى حرمان المملكة الصليبية من مساعدة أقوى إمارتين صليبيتين في الشام، وهما أنطاكية وطرابلس، بعد ما حرمت من مساعدة الغرب الأوروبي، فلم يكن ريمون الثالث كونت طرابلس الوحيد الذي راسل صلاح الدين، وإنما حذا حذوه بوهمند الثالث Behemond III أمير أنطاكية (١١٦٣-١٢٠١م/ ٥٥٨-٥٩٧هـ) مفضلاً مصلحة إماراته على مصلحة سائر أجزاء المملكة الصليبية[١]، فضلاً على اضطراب الأمور الداخلية للمملكة الصليبية نفسها، بدليل تجرؤ فارس مثل رينو على مخالفة أوامر الملك، وهو أمر كان من الصعب حدوثه في عهد ملك قوي مثل عموري الأول أو غيره، لكن الهيبة الملكية زالت وبات الملك جي وحيدًا في تقديم المساعدة للمملكة من ناحية أخرى.

وزاد الأمر تعقيدًا بعد أن أشار مقدم الداوية على الملك بمحاربة كونت طرابلس، والاستيلاء على طبرية التي اعتصم بها عقب تتويج جي، واقتنع الملك بتلك الفكرة، واستعد لتنفيذها، وأعدت القوات اللازمة للقيام بذلك[٢]، على أن بعض النبلاء الصليبيين تدخلوا في اللحظة الحاسمة، واستطاعوا إقناع جي بخطورة هذا التصرف -في ظل مساندة محتملة من المسلمين لكونت طرابلس- ونبهوه إلى ضرورة إرسال مبعوث إلى كونت طرابلس للوساطة بينه وبين الملك، وتوحيد الجبهة الصليبية ضد المسلمين[٣].

---

[١] حسين عطية: إمارة إنطاكية والمسلمون (١١٧١-١٢٦٨م)، الإسكندرية ١٩٨٩م ،ص ٢٠٧.

[٢] Emoul, pp. 141-143.

[٣] استطاع باليان دي إيبلين حاكم نابلس (١١٧٧-١١٨٧م)، إقناع الملك الصليبي بضرورة وقف الحرب ضد ريمون قائلا له: "إنك إذا خسرت مساعدة ريمون ونصيحته انتهى أمرك"، كما قاد السفارة التي اتجهت إلى ريمون لإحلال السلام بينه وبين الملك، انظر: ياسر عبد الوهاب: آل إيبلين ودورهم في الصراع الصليبي الاسلامي (١١٣٠-١٢٩١م/٥٢٤-٦٩٠هـ) رسالة ماجستير لم تنشر بعد، الاسكندرية ٢٠٠٠م ، ص ١١٤-١١٥.

وتم الصلح المؤقت بين الأطراف الصليبية المتنازعة، والتقى الجيشان الصليبي والإسلامي في يوم السبت الموافق ٤ يوليو ١١٨٧م/ ٢٥ ربي الأول ٥٨٣هـ في موقعة حطين الشهيرة، وفيها انتصر المسلمون انتصارًا حاسمًا[١]، واستغل صلاح الدين ما أحرزه من نصر أيما استغلال، مثبتًا كفاءته الحربية الفريدة، فبدلاً من أن يتجه مباشرة إلى مدينة المقدس، إذ به يتجه إلى عكا ويقرر الاستيلاء أولا على المدن الصليبية الساحلية[٢]، واستطاع بالفعل وفي إيقاع سريع مبهر الاستيلاء على عكا ويافا وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها من مدن الساحل الشامي[٣]، وتهاوت أمامه معظم القلاع الصليبية التي طالما أغار فرسانها على المسلمين مثل قلاع طبرية وصفد وهونين وغيرها[٤]، وأثبت صلاح الدين بعد نظره بسعيه لحرمان الصليبيين من قواعدهم الحربية المتصلة بالغرب الأوروبي، كي يصيروا محصورين داخل بلاد الشام وينقطع الشريان الذي يربطهم بقلب الحركة الصليبية في الغرب الأوروبي.

وكان لتردي الأحوال داخل الكيان الصليبي، وللمنازعات والانقسامات بين القادة –على الرغم من تسويتها بشكل مؤقت قبيل حطين– أثره الكبير فيما لحق بهم على يد صلاح الدين، مع تقصير الأوربيين الواضح تجاه بني جلدتهم من صليبيي الشام، وعدم إدراكهم لخطورة الوضع هناك، وظهر لكل ذي عينين

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن معركة حطين ، انظر :
ابن شداد: النوادر، ص ٥٨–٥٩، ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ٥٣٢–٥٣٤، أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص ٧٧–٨٥، ابن واصل: مفرج الكروب، ص ١٨٩–١٨٦، راجع أيضًا:
Eracles, L'Estoire, pp. 68-71; Ernoul, pp. 170-172

(٢) Ernoul, p. 175.

(٣) عن موجة سقوط المدن الساحلية الصليبية في قبضة صلاح الدين في أعقاب حطين، انظر:
ابن شداد: المصدر السابق، ص ٦٦–٧١، العماد الكاتب: الفتح النفسي في الفتح القدسي، ص ص٨٨–٩٤. وانظر أيضا:
Roger of wendover, op. Cit., vol. 2., pp. 64-64; Eracles, L'Estoire, pp. 78-79; Ernoul, p. 184.

(٤) ابن شداد : النوادر، ص ٧٤–٧٦، العماد الكاتب، الفتح القدسي ص ٩٥–١٠٩.

فشل الصليبيين بإمكاناتهم المحلية المحدودة في أول معركة حاسمة كبرى هـي حطين، وأنه لابد من حلف دفاعي استراتيجي لهم مع الغرب الأوربـي إذا مـا أرادوا إنقاذ بقايا الوجود الصليبي في بلاد الشام، خاصة صور من مملكة بيـت المقدس، ومدينة طرابلس وقلعة أنطرطوس من كونتية طرابلس، ومدينة أنطاكية ومواقع ثانوية أخرى، ومن الممكن أن تتهاوى تلك البقايا القليلة ما لـم تصـل إمدادات سريعة من الغرب الأوروبي.

وما كاد وقع معركة حطين ينكشف عن هزيمة الصليبيين المروعة حتـى هرع الرسل الصليبيين إلى الغرب الأوروبي مستغيثين مسـتنجدين، يطلعـون الأمراء ورجال الدين على أحوالهم السيئة، وكان تجار جنوة من اوائل من أذاعو خبر حطين، فوصلت رسلهم إلى الإمبراطور فريدريك بارباروسا وغيـره مـن الحكام، يستحثونه لإرسال نجدة سريعة للإمـارات الصـليبية[١]، ثـم تتابعـت الاستغاثات لاسيما من جانب الجماعات الرهبانية العسكرية، فأرسل تيريكيـوس Terricius مقدم الداوية في صور، فـي أغسـطس ١١٨٧م/ ربيـع الثـاني ٥٨٣هـ، رسالة استغاثة إلى المسيحيين في الغرب كافة، طالبًا منهم ومن البابـا على وجه الخصوص، إنقاذ ما تبقى من الكيان الصليبي في الشرق[٢]، كما بعث الاسبتارية بخطاب في أواخر أغسطس ١١٨٧م/ أوائل جمادى الأولى ٥٨٣هـ، إلى أرشيمبالدو Archumbaldo رئيس إسبتارية إيطاليا، يذكرون فيها ما جرى في حطين، وكيف سقط عدد كبير من القتلى والأسرى الصليبيين، وعلى رأسهم الملك الأسير جي دي لوزينيان[٣]، راجين أن يسـرع البابـا وحكـام الغـرب الأوروبي بالنجدة قبل انهيار الكيان الصـليبي بأكملـه[٤]، ومـن الملاحـظ أن الصليبيين تعمدوا في خطابهم الأخير ذكر وقوع مدينة صور في يد صلاح الدين

---

(١) Rohricht, R., Regesta Regni Hiersosolymitani, (Innsberuck, 1893), on. 658, p. 175.

(٢) Letter of Terricius Master of the Templars, to pope Urban III, Tyre, (August 1187) in roger of Hoceden, op. cit., vol. 2., pp. 68-69.

(٣) Benedict of Peterbrough, vol. 2., p. 22.

(٤) Letter from the East to Master of Hospialers (August 1187), in http: II history. Hannover, Edu/texts/decline 2. Html. December 2001.

–وهو أمر لم يكن قد حدث– ويرجح الباحث أنهم أرادوا من ذلك إثارة حماسة الغرب الأوروبي تجاه القضية الصليبية.

ولم يقتصر الاستغاثات المرسلة من صليبي الشام إلى الغرب الأوروبي عقب حطين على جماعتي الداوية والإسبتارية، بل أرسل بوهميند الثالث أمير أنطاكية –الذي شعر بأنه الوحيد بين قادة الإمارات الصليبية الذي لم يتأثر بعد بنتائج موقعة حطين، وربما ترقبًا لإخطار المستقبل القريب[١]، أرسل مع مستشاره ألبير Albert كبير أساقفة طرسوس، برسالة إلى مسيحي الغرب الأوروبي، يخبرهم بالكوارث التي حلت بالصليبيين ويحثهم على النهوض لإنقاذ بقايا الكيان الصليبي في الشرق، وذلك في سبتمبر ١١٨٧م/ رجب ٥٨٣هـ[٢]، وفي الشهر نفسه بعث عموري Amoury بطريرك أنطاكية (١١٤٠-١١٩٣م/ ٥٣٥-٥٨٩هـ) برسالة مماثلة إلى هنري الثاني ملك إنجلترا، يخبره فيها بكارثة حطين، ويستغيث به لإرسال نجدة وإلا سقطت أنطاكية نفسها في أيدي المسلمين، ويقول فيها: "ربما نضطر لو تأخرت علينا النجدة أن نحني أعناقنا لسيوف جلادينا، وسواء أتيت إلينا بنفسك أم بعثت إلينا بالعون المنشود، سينسب إليك عندئذ الفضل بعد الرب في تحرير الأراضي المقدسة"[٣]، غير أن تلك الاستغاثات الصليبية المتتالية بالغرب لم تجد فتيلاً، كما أنها لم تثر قلق صلاح الدين ولم تمنعه من أن يتوج جهوده بالمضي إلى بيت المقدس، حيث قوبل بدفاع مستميت من جانب قائدها الأمير باليان دي إيبلين الذي استغل أموال الملك هنري الثاني التي كانت في خزائن الداوية الإسبتارية، ولكن جهوده كلها ذهبت سدى بسبب نقص العنصر البشري وخاصة الفرسان المدربين[٤]، وأخيرًا

---

(١) حسين عطية : إمارة أنطاكية ، ص ٢١١.

(٢) Rohricht,R.,Regesta,no.663,p.176.

(٣) Letter of Aoury patriach of Anioch to Henry II, King of England (Sept 1187). In Roger of Hoveden, op. Cit., vol. 2., pp. 84-85.

(٤) Letter of Aoury patriach of Anioch to Henry II, King of England (Sept 1187). In Roger of Hoveden, op. Cit., vol. 2., pp. 84-85.

استطاع صلاح الدين أن يفتح بيت المقدس بعد ثمان وثمانين عامًا من الاحتلال الصليبي لها، وأظهر المسلمون ما يدل على التسامح والعفو عند دخولهم المدينة في ٢ أكتوبر ١١٨٧م/ ٢٧ رجب ٥٨٣هـ[١]، وأصيب الغرب سواء البابوية أم الحكام العلمانيين بما يشبه الصدمة عند سماعهم بما حدث في الشرق، وذلك على الرغم من معرفتهم بسوء أحوال صليبي الشام قبل حطين؛ أو لم يكونوا يتوقعون ما حدث من نجاح المسلمين في تحقيق مثل هذه الانتصارات العسكرية المبهرة فيما لا يزيد عن شهرين، علاوة على أن قيام الغرب بعمل حربي كبير وسريع كان أمرًا صعبًا للغاية، في ظل ما كانت أوروبا تواجهه من صراع بابوي إمبراطوري، ونزاع دائم بين ملكي فرنسا وإنجلترا.

وأصبحت مدينة صور القاعدة التي جمع الصليبيون فيها ما تبقى لهم من قوة، وعقدوا عليها الأمل في استمرار الوجود الصليبي لأنها كانت المنفذ البري الوحيد المهيأ لاستقبال مساعدات الغرب الأوروبي المتوقع قدمها بين لحظة وأخرى، ووصل إليها أخيرًا في يوليو ١١٨٧م/ ٦ جمادي الأولى ٥٨٣هـ كونراد دو مونتفرات Conrad de Montferrat فكان حضوره سببًا مباشرًا من أسباب ارتفاع الروح المعنوية لصليبي الشام، لمكانته المميزة في الغرب وشجاعته[٢]، وعندما وصل إلى صور وجدها مكتظة بمن استطاع النجاة

---

[١] العماد الكاتب: الفتح القسي، ص ١٣٠، وابن الأثير: الكامل، ج١١، ص١١١، أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص ٩٦، وابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٢١٥، وانظر أيضا: إبراهيم طرخان: الناصر صلاح الدين وتحرير القدس، القاهرة ب.ت، ص ١٠٥.

[٢] كونراد دو مونتفرات، ابن وليم الثاني مركيز مونفرات بشمال إيطاليا، وكان على صلة قرابة بآل كابية الأسرة الحاكمة في فرنسا، وكانت والدة كونراد أختا غير شقيقة لوالد الإمبراطور الألماني فريدريك باربروسا، كما كان كونراد عما لبلدوين الخامس ملك بيت المقدس السابق وكونراد ممن أشهر محاربي الغرب، ذهب إلى القسطنطينية حيث ساعد الإمبراطور إسحق الثاني (١١٨٥-١١٩٥م/ ٥٨١-٥٩٢هـ) في إخماد ثورة اندلعت ضده، وتزوج من شقيقة الإمبراطور البيزنطي، الذي ما لبث أن تشكك في نوايا كونراد وساءت العلاقة بينهما واضطر كونراد لمغادرة القسطنطينية ومعه فرسانة الإيطاليون ورسي في مرفأ عكا، حيث علم أنها سقطت في أيدي صلاح الدين، فتظاهر بأنه تاجر من الغرب حتى تمكن من الإبحار إلى مدينة صور، انظر :
ذيل وليم الصوري: ترجمة حسن حبشي، ص ٩٧-٩٩.

من طوفان حطين من الصليبيين، فصمم أهلها على مقاومة صلاح الدين ومطاولته بعد أن كانوا على وشك الاستسلام للمسلمين[١]، وبفضل ما جلبه معه من امدادات نظم الدفاع عن المدينة، انتظارًا لمجئ أحد ملوك أوروبا المتوجين الأربعة –فريدريك بارباروسا، وهنري الثاني، وفيليب أغسطس، وليم الثاني William II ملك صقلية ١١٦٦-١١٨٩م/ ٥٦٢-٥٨٥هـ)- لتسلم المدينة[٢].

وفي تلك الأثناء وصلت النجدة الغربية الأولى إلى مدينة صور في شهر أكتوبر ١١٨٧م/ شعبان ٥٨٣هـ، في صورة ثلاث سفن بيزاوية محملة بالمؤن وأدوات الحرب، وعدد قليل من الفرسان[٣] "مما أدخل الطمأنينة في نفوس الصليبيين المحاصرين في صور"[٤]، وبالفعل وقفت المدينة سدًا منيعا أمام هجمات صلاح الدين، ولم يستطيع دخولها[٥].

وفي خضم تلك الأحداث، كان كونراد قد قرر إيفاد سفارة صليبية للاستنجاد بالغرب الأوروبي، لينقذ ما تبقي من الإمارات الصليبية في بلاد الشام[٦]، وجعل على رأس هذه السفارة جوسياس رئيس أساقفة صور (١١٨٦-١٢٠٢م/ ٥٨٢-٥٩٨هـ)، وجعل برفقته بعض القساوسة والرهبان، واستقل سفينة ذات أشرعة سوداء، حتى إذا ما قاربت على الرسو في مكان أدرك من يراها أنها تحمل أخبارًا محزنة[٧]، وحمل معه بعض الصور التي تم رسمها في الشرق لإثارة الغرب الأوروبي[٨]، وقد انفردت المصادر العربية بالإشارة إلى

---

(١) Ernoul, p. 182.

(٢) Historia Regni, in M.G.H.SS., vol. 18., pp 55.

(٣) Chronica Salimbene de Adem, in M.G.H.SS., vol. 32., p. 6

(٤) ذيل وليم الصوري: ترجمة حسن حبشي، ص ١٠٢.

(٥) Ernoul, pp. 179-183; CF; also: Hernkrut, A., The place of Saladin, in the Noval History, in J.A.O.s., vol. 75., p. 3.

(٦) يذكر العماد الكاتب ذلك بقوله: "وأرسل رسله إلى الجزائر، يستدعي ويستودع ملة الصليب"، انظر:
العماد الكاتب : المصدر السابق، ص ١١٠ .

(٧) ذيل وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي، ص ١٤١.

(٨) Radulf de Diceto, op. cit., vol., 2., p. 61.

تفاصيل تلك الصور، فقالت: "إن بطريريك القدس أخذ جماعة مـــن الرهبـــان، وطاف جميع الجزائر والبلدان، على عبدة الصلبان، وصوروا بكفرهم صـــورة على أنها صورة المسيح وأسالوا على وجه الصورة الـــدماء، وأقـــاموا صـــورة أعرابي، وقالوا هذا نبي المسلمين قد جرح المسيح، وأجرى دمه علـــى وجهـــه فانهضوا لنصرته"[1].

وصل جوسياس ومن معه أخيرًا إلى صقلية، فوجد حـــزن ملكهـــا ولـــيم الثاني شديدا لما سمعه من شائعات[2]، وعندما حدثه جوسياس حديثه ارتدى ثوبا من الخيش والتمس مكانا اعتزل فيه الناس لمدة أربعة أيام[3]، ثم أرسل إلى بقية ملوك أوروبا يدعوهم للتضامن معه في مشروع حملة صليبية جديـــدة، وأخبـــر جوسياس أنه يرى نفسه من المسئولين عن الكارثة التي حالت بالصليبيين، وأنه سيكفر عن خطيئته بإنقاذ الأراضي المقدسة[4]، كما يأمل لهزيمته الســـابقة فـــي الإسكندرية في عام ١١٧٤م/ ٥٦٩هـ[5]، ولم ينتظر وليم تحرك ملوك أوروبـــا

---

[1] حدث خلط عند كل من ابن واصل وابن أيبك فقالا أن رئيس هذه السفارة هرقل بطريـــرك بيت المقدس، والصحيح أنه جوسياس رئيس أساقفة صور، أما ابن شداد فأشار إلـــى أن السفراء هم بعض الدعاة الصليبيين الذين توجهوا إلى الغرب دون تحديد لشخص بعينه، إلا أن هذه المصادر نجحت في عرض تفاصيل الصور التي حملتها السفارة معها إلـــى الغرب الأوروبي، انظر :

ابن واصل: مفروج الكروب، ج٢، ص ٢٨٨، ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق / سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢م، ص ٩٩، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١١٦.

[2] من المرجح أن يكون وليم قد علم بما حل بصليبي الشام من خلال الصليبيين الفارين مـــن هناك إليه، انظر :

جاك دي فيترى: تاريخ بيت المقدس، ترجمة / سعيد البيشاوي، دار الشروق –عمان– ١٩٩٨م، ص١٥٤.

[3] Helen, W., The Nerman Kingdom of Sicily and The Crusades, p. 38, in Setton, K., A 38 History of the Crusade., vol. 2., (London, 1969).

[4] رأي وليم أن حروبه السابقة ضد بيزنطة أثرت بالسلب على الصليبيين في بلاد الشام، إذا تسببت في منع عدد كبير من الفرسان الأوروبيين من التوجه إلى الإمارات الصليبية لمساعدتها، انظر : نيل وليم الصوري: ترجمة ، حسن حبشي، ص ١٤٢.

[5] Franceseco Pipino, La Lumia, Storia Sicilia Sotto Guglielmo il Buono (Florecne, 1867), p. 625; CF. also: Helen, W., op. cit., p. 37.

للاشتراك معه في حملته، فاستدعى قائده أمير البحر مارجريت Margaritus ذي السمعة الحربية الطيبةِ، الذي لم يهزم قط في اشتباك بحري، وعينــه قائــدًا للأسطول الصقلي[١]، وجهزه بأسطول كبير بلغ خمسين سفينة تحمــل ثلاثمائــة فارس، أتبعهم بمائتي فارس آخرين، على أن يتحرك الأسطول إلى سواحل الشام مباشرة[٢]، ويرى المؤرخ كلود كاهن Claud Cahen أن هذا الأسطول الصقلي كان بمثابة الإسعافات الأولية للإمارات الصليبية في بلاد الشام[٣].

وعندما وصل الأسطول الصقلي إلى سواحل الشــام فــي أوائــل عــام ١١٨٨م/ ٥٨٤هــ، تمكن من الاستيلاء على طرابلس ثم تحصينها، كما استطاع حماية اللاذقية وصور عن طريق البحر[٤]، وعندما حاول صلاح الدين عبــور الطريق الضيق الواقع بين حصن المرقب وساحل البحــر، حــاول الأســطول الصقلي منعه، مما أضطر صلاح الدين إلــى المــرور بقوتــه بعــد أن جعــل الطارقيات والجفتيات بين رجاله والساحل، إلى أن وصــل إلــى مدينــة جبلــة واستولى عليها في ١٧ يوليو / ١٩ جمادى الأولى من السنة نفسها[٥]، ويروي

---

[١] كان مارجريت من أشهر القادة البحريين في الغرب في تلك الفترة، حتى لقبه روجر أوف هوفدن بالأدميرال Adiral، وقد غزا عددًا من الجزر المهمة، مثــل كورفــو Korfu، وأونيو Ionion، وذاع صيته في إيطاليا في عام ١١٩٢، ثم وقع في أسر الإمبراطــور هنري السادس وتوفى في روما في عام ١٢٠٠م، انظر :

Roger of Hoveden, op. cit, vol. 2., pp. 63-85

[٢] يرى جاك دي فيتري أنها ثمانون سفينة، وأنهم ثمانمائة فارس، وهو رقم مبالغ فيه، نظرًا لقصر مدة تجهيز القوات، كذلك أخطأ هانزماير عندما أعلن أن وليم الثاني هو الذي قاد الأسطول بنفسه إلى الشرق، وعن ذلك انظر :

ذيل وليم الصوري: ترجمة ، حسن حبشي، ص ١٥٤، وكذلك .

CF: Benedict, vol. 2, p. 12; Eracles. L'Esoire, p. 111.

وانظر أيضا: جاك دي فيتري: المصدر السابق، ص١٥٤، هانز ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: عماد الدين غانم ، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، ١٩٩٠م، ص ٢٠٦.

[٣] كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة / أحمد الشيخ، مركز سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٥، ص ١٩٢.

[٤] Eracles, L,Estoire, pp. 119-120; CF: also: Helene, W., op, Cit., p. 39.

[٥] الطارقيات والجفتيات أنواه من الستائر أو المتاريس، تتخذ سترة للرجال الذين يستعان بهم في جر المنجانيق وما شاكله من قذائف المنجانيق المعادية، وعن ذلك انظر:

ابن واصل : مفرج الكروب، ج٢ ، ص ٢٥٨، وراجع أيضا:

ابن الأثير، أن القائد مارجريت طلب مقابلة صلاح الدين، وعندما مثل أمامه قبل الأرض بين يديه، وقال له: "إنك سلطان رحيم، وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك وجندك، تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بـلادك، وإلا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به، فيعظم عليك الأمر واشتدت الحـال"[١]، بينما يروي المؤرخ الصليبي إرنولErnoul، أن من قابله صلاح الـدين كـان فارسًا إسبانيًا ملثمًا مجهول الاسم من فرسان الأسطول الصقلي، وقد أطلق عليه الفارس الأخضر، وأنه أخبر صلاح الدين بأن النجدة في طريقهـا إلـيهم مـن الغرب الأوروبي، وعلى المسلمين التخلي عن بيت المقدس قبـل مجـئ المـدد المنتظر[٢]، وأيا ما كان الأمر، فإن صلاح الدين اسـتقبل المنـدوب الصـليبي استقبالاً طيبًا على أنه مندوب الملك الصقلي[٣]، وقد يرجع حسن استقبال صلاح الدين له إلى أنه كان يرى في هذا الأسطول النورماني "الصقلي" مقدمة لحملـة صليبية كبرى في طريقها إليه من الغرب الأوروبـي، فـرأى صـلاح الـدين التصرف بدبلوماسية في تلك الفترة الحساسة من الصراع الصليبي الإسلامي.

ومما لاشك فيه، أن الملك الصقلي وليم الثاني شعر بالفخر عندما سـمع بأن أسطوله أستطاع تحقيق بعض النتائج في الشرق، مما دفعه إلى التقدم إلـى ملكي إنجلترا وفرنسا بمشروع مشترك يتم بمقتضاه جعل صقلية مركزًا لتجمـع الجيوش الصليبية القادمة من الغرب الأوروبي، ومع وضـع مـوانئ صـقلية ومواردها في خدمة القوات الصليبية[٤]، وبسبب عدم الوفاق بين ملكـي فرنسـا وإنجلترا في ذلك الوقت، أهمل المشروع، ومن المحتمل أن يكون هذا المشروع نفسه هو الذي كان يقصده مارجريت أو الفارس الأخضر عندما أنـذر صـلاح الدين عندما قابله[٥]، وعندما شعر وليم الثاني بقرب موته، أوصى هنري الثاني

Cahen,C., Un Traite d'Armureric Coppose pour Saladin, inB.E.O., vol. 12 , 1947 -1984, pp. 155-156 .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ١١ .

(٢) Ernoul, p. 252.

(٣) Helen, W., Loc.cit .

(٤) Benedict, vol. 2., p. 54; Helen Wieruszowski, op. cit., p. 40

(٥) Helen, W., op. cit., p 40, note. 49 .

– ملك إنجلترا ووالد زوجته جوانا Jauna في الوقت نفسه– أوصاه بإمداد القوات الصليبية المشاركة في الحملة المرتقبة بمائة سفينة لمائتين من الفرسان، وكمية من الآنية لخدمة القوات الصليبية، مع التأكيد على ضرورة أن تكون موارد مملكته في خدمة الحملة المتوقع قيامها[١]، لكن المنية وافت وليم في سبتمبر ١١٨٩م/ شوال ٥٨٥هـ، وحدثت بعض الاضطرابات في مملكته، فقرر استدعاء الأسطول الصقلي من الساحل الشامي[٢].

وصفوة القول أن النورمان الذين حملوا لواء الحملة الصليبية الأولى، وأسسوا إمارة أنطاكية كانوا على استعداد للقيام بدور مشابه في الحملة الصليبية التي كانت تتجمع في الغرب الأوروبي في تلك الفترة، ويعتقد الباحث أن الملك وليم الثاني كان صادق النية في خدمة القضية الصليبية، ولم تكن دوافعه في ذلك دينية فقط بل أراد إعلاء شأن مملكته بين الدول الأوروبية، وكان على اقتناع تام بأن المشاركة في الحروب الصليبية ستحقق له ذلك، لذا كان أول من لبى نداء الصليبيين من الملوك الكبار، ثم هناك المشروع الذي قدمه، والوصية التي تركها، لكن ما طرأ على صقلية من تطورات بعد وفاته حتم على الغرب الأوروبي أن يبحث عن نصير آخر غير المملكة النورمانية الصقلية، من أجل إنقاذ البقية الباقية من الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

وفي خضم تلك الأحداث، قرر جوسياس وبعثته نقل نشاطهم إلى البابوية، وبالفعل غادروا صقلية متوجهين إلى روما، وزودهم الملك وليم الثاني بالخيول والأموال التي تعوّنهم على إنجاز مهمتهم[٣]،وكان البابا أوربان الثالث Urban III (١١٨٥-١١٨٧م/ ٥٨١-٥٨٣هـ)[٤] ، قد وصلته أنباء حطين عن طريق

---

(١) Benedict, vol. 2., pp. 132-133.

(٢) وقعت صراعات عدة في صقلية عقب وفاة وليم الثاني وانتهى الأمر بتولي تانكريد Tancred –وهو ابن عم غير شرعي للملك وليم– العرش فقرر فور توليه الحكم استدعاء مارجريت والأسطول الصقلي، انظر :
Chalandon, Dominition Normande en Italie, 2 vols, (Paris, 1907). Vol. 2., pp. 419-420.

(٣) Ernoul, pp. 247-248.

(٤) أوربان الثالث هو ألبر تو كريفالي Ulberto Crivell، وكان رئيس أساقفة ميلان، ثم انتخب في فيرونا ليكون على رأس الكرسي البابوي في ٢٥ نوفمبر ١١٨٥م، وتميز

تقرير حملة إليه أحد رجال الجنوية وهو أتريكو دي تسليفر Atricus di Tselver، فما لبث أن أصيب البابا بالحمى الشديدة، تأثرًا بما سمع من أخبار محزنة [1]، وما أن تقابل مع جوسياس في مدينة فرار ، وسمع منه ما حدث في حطين بالتفصيل، وما تبعها من سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين حتى مات كمدًا في ٢٠ أكتوبر ١١٨٧م/ ١٤ شعبان ٥٨٣هـ [2].

وتولى البابا جريجوري الثامن GregoryVIII في ٢١ أكتوبر ١١٨٧م/ ١٥ شعبان ٥٨٣هـ [3]، وقابل جوسياس، فحمل على عاتقه مسئولية انتشال الغرب الأوروبي من وهدة الحزن، وحث الناس على حمل الصليب والسلاح لإنقاذ الإمارات الصليبية المتداعية في الشرق [4]، وبالفعل أصدر مرسومًا في ٢٩ أكتوبر ١١٨٧م/ ٢٣ شعبان ٥٨٣هـ، أطلق عليه "مرسوم الوصايا"، وكان على هيئة رسالة إلى حكام أوروبا الكبار فريدريك باربروسا إمبراطور ألمانيا، وهنري الثاني ملك إنجلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا [5]، وهو حسبما ذكر هانز مايرقطعة رائعة من البيان والخطابة البابوية في العصور الوسطى [6].

وبدأ البابا جريجوري رسالة موجها حديثه إلى المؤمنين كافة في الغرب الأوربي، وحرص في البداية على الإشارة إلى أن فقدان الرها قبل أربعين عاما،

عهده بتجدد النزاع بين البابوية والإمبراطورية الممثلة في الإمبراطور فريدريك باربروسا.

(٣) Benedict, vol. 2., p. 17.

(٤) .Holt,A.M ., The Age of the Vrusades, (London, 1986), p. 83.

(٥) هو ألبرتو دي مورا Alberto de Morra وتولى الكرسي البابوي في اليوم التالي لوفاة أوربان الثالث، واتسم عهده القصير -الذي استمر شهرين فقط- بمحاولاته الدؤوب لجمع كلمة مسيحي الغرب الأوروبي، وإثارة حماسهم لحمة صليبية جديدة لنجدة الإمارات الصليبية في الشام. انظر:

Hans, K.,op. Cit., pp., 83-84.

(١) Anthony ,J.C., The Crusades, (Exeters, 1966), p. 51.

(٢) Roger of Hoveden, op. Cit., vol. 2., p. 70; CF. also: Riley –Smith and Louise, The Crusaders, Idea and Reality, 1095-1274, (London, 1981), p. 64 .

(٣) هانز ماير : المرجع السابق، ص ٢٠٦ .

كان يجب أن يكون نذيرًا لهم، ثم أورد تفاصيل ما مكان في حطين ثم استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس، وانهيار المملكة الصليبية في الشام، ونسب تلك الهزائم إلى غضب الرب، وعبر عن حزنه لوقوع هذه الأراضي في أيدي المسلمين(١)، وطالب الناس بالتوبة والندم والبكاء تكفيرًا عما اقترفوه من ذنوب، وحث الملوك على أن يتناسوا ما بينهم من خصومات وصراعات، ويعبئوا قواتهم لمحاربة المسلمين قائلاً: فليكفر كل إنسان عن خطاياه، وليدخر لنفسه كنزًا في السماء بأن يتخذ الصليب شعارًا(٢)، وقال لهم أيضا: "لا تكرسوا أفكاركم لربح أو لمجد دنيوي ولكن لمشيئة الرب الذي في قضيته الخاصة علمكم أن تضحو بحياتكم من أجل إخوانكم(٣)، ودعا الناس جميعا إلى صيام يوم الجمعة أسبوعيا خمس سنوات والامتناع عن أكل اللحوم يومي الأربعاء والسبت أسبوعيا، ودعا حكام أوروبا إلى الهدنة وإقرار السلام فيما بينهم لمدة سبع سنوات(٤)، ودعا المحاربين كافة إلى عدم التكلف عند ذهابهم إلى الأراضي المقدسة سواء في ثيابهم أو غير ذلك، وإلى عدم حمل الطيور والكلاب وأن لا يحملوا معهم إلا ما هو مفيد في حربهم ضد المسلمين(٥)، وبشر المشاركين في الحملة الصليبية المرتقبة بالغفران التام لذنوبهم ووعدهم بوضع أملاكهم وعائلاتهم تحت حماية الكنيسة(٦).

---

(١) Historia de Expeditione, p. 6.

(٢) Roger of Hoveden, op. Cit., vol. 2., p. 71; CF. also: Anthony,J.C., op. cit., p. 52.

(٣) Roger of Hoveden, op. Cit., vol. 2., p. 72 ; CF. also: Riley –Smith, op. cit., p. 65

(٤) Roger of Hoveden, op. Cit., vol. 2., p. 74; William of Newburgh, Book. 3, p. 37.

(٥) يلتزم المشاركون في الحملة بعد حمل الكلاب والطيور معهم، فقد أشار ابن شداد إلى قصة الباز الذي حمله فيليب أغسطس معه في الحملة الصليبية الثالثة في أثناء حصار عكا، ووقع في أيدي المسلمين، وعرض عليهم ألف دينار لاستعادته ورفضوا العرض، انظر: ابن شداد : المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٦) نشر المرسوم أو الرسالة كاملا في مصادر ومراجع مثل :
Roger of Hoveden, op. cit., vol. 2 pp. 70-74 ; William of Newburg, op cit, Book, 3., pp. 37-38; CF, also: Riley –Smith, op. cit., pp., 63-66;Anthony,J.C.,op.cit.,pp.32-53.

وهناك بطبيعة الحال أشياء ملفتة للنظر في هذا المرسوم البابوي، مثل: العودة مرة أخرى إلى استخدام مدينة القدس في الدعاية الصليبي، مما يعيد للذاكرة ما دعا إليه البابا أوربان الثاني في الحملة الصليبية الأولى، كما قرر جريجوري عرض -أفكار البابا يوجين الثالثUgenns III (١١٥٤-١١٥٣م)، وبرنارد أوف كليرفو Bernardof Cateafu بشأن الحملات الصليبية والإعداد لها، ودعا إلى اتباع أسلوب جديد في التوبة والصيام، وحظر أكل اللحوم، كما أنه منح حماية الكنيسة لكل من يشارك في الحملة المرتقبة ولأسرته وأملاكه حتى عودته، وهو أمر كفيل بأن يبعث الطمأنينة في نفوس المشاركين في الحملة الصليبية، كما كان للأسلوب البلاغي الجيد الذي استخدامه البابا في حديثه، أثره الواضح فيما بعد على صليبي الغرب الأوروبي، وانتشار الفكر الصليبي فيما بينهم، غير أن موضوع الهدنة التي تستمر لمدة سبع سنوات كان أمرًا غير واقعي في تلك الفترة، لما كان يسود الغرب الأوروبي من مشاحنات وصراعات سياسية وعسكرية عميقة.

على أن البابا جريجوري الثامن واصل جهوده، وأرسل مندوبيه إلى معظم أرجاء أوروبا لنشر دعوات الحملة الصليبية المرتقبة[١]، وكان يدرك مدى الفائدة التي يمكن أن تعود على الإمارات الصليبية من مساندة المدن الإيطاليm له، إذ كان اشتراكها جوهريا في أية حرب بحرية في بلاد الشام، لامتلاكهم أساطيل بحرية هائلة[٢]، فارتحل إلى بيزا لتسوية الخلافات المتفجرة بينها وبين

---

(١) كتب البابا إلى أحد أمراء الغرب وهو هنكو أوف سيروتين قائلا: "لأنك قد حملت الصليب، وعزمت على التوجه إلى الأراضي المقدسة، فإننا نحفظ شخصك، وتكون تحت حماية الكنسية أنت وأتباعك وما تملكه، وسيظل كل شئ كاملا غير منقوص منذ رحيلك عبر البحار للأراضي المقدسة وحتى عودتك او وفاتك"، انظر :

pope Gregore VIII, Letter of Gregroey VIII accords th Chruch's Protection to the Crusader Hinco of Zerothin (21 October 1187), in Louis and Riley –Smith, Idea and Realty, p. 101.

(٢) Chronica Regia Coloniensis, in M.G.H.SS., in usum Scholarum (Honover, 1880), p. 137.

راجع أيضا : هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة / أحمد محمد رضا، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٩٨٥-١٩٩٢م، ج١، ص ٣١٩

جنوة[1]، ونجح البابا بالفعل في إتمام الصلح بين الطرفين [2]، لكن يد القدر كانت أسبق إلى إنهاء حياة البابا، فمات في بيزا في ١٧ ديسمبر ١١٨٧م/ ١١ شوال ٥٨٣هـ، وتمت مراسم دفنه في كاتدرائية بيزاء، قبل أن يرى ثمار جهوده وقيام الحملة الصليبية الثالثة [3]، وأتم خلفه كليمون الثالث Clement III (١١٨٧-١١٩١م/ ٥٨٣-٥٨٧هـ)، الجهود[4]، وكان أبر ز ما فعله هو نجاحه إقناع الإمبراطور الألماني فريديريك بارباروسا بضرورة الإقلاع عن محاربة أعدائه في ألمانيا والمشاركة في الحملة الصليبية المزمع قيامها[5]، وواصل جهود سلفه بنشاط بينما قرر جوسياس مواصلة رحلته في الغرب الأوروبي[6].

وبالرغم من جهود البابوية تلك التي توجت بإرسال الحملة الصليبية الثالثة إلى الشرق، فإنها تعرضت لكثير من النقد واللوم، خاصة من قبل شعراء التروبادرو Trobadors [7]، المنتشرين في أوروبا في تلك الفترة، فمثلا وجدنا الشاعر جيرو دي برونيل Girout de Bornelh ينقد البابا جريجوري الثامن

---

(١) William of Newburgh, op. Cit.., book. 3., p. 37.

(٢) هايد: تاريخ التجارة ، ج١، ص ٣١٩-٣٢٠.

(٣) William of Newburgh, Loc. Cit.

(٤) كليمون الثالث هو باولوسكولاري Paolo Scholari أسقف باليستريا Palestria، وقد تولى البابوية في ١٩ ديسمبر ١١٨٧م، وبذل جهودا كبيرة حتى قامت الحملة الصليبية الثالثة، وتوفى في ٣٠ مارس ١١٩١، انظر :

Hans, K., op. cit., p. 84

(٥) كليمون الثالث هو باولوسكولاري Paolo Scholari أسقف باليستريا Palestria، وقد تولى البابوية في ١٩ ديسمبر ١١٨٧م، وبذل جهودا كبيرة حتى قامت الحملة الصليبية الثالثة، وتوفى في ٣٠ مارس ١١٩١، انظر :

Hans, K., op. cit., p. 84

(٦) Roger of Hoveden, op. Cit., vol. 2., p. 75

(٧) يطلق على شعراء التروبادر أيضا شعراء التروبادور البروفانسيون نسبة إلى بروفانس في جنوب فرنسا، وشعرهم أقدم شعر غنائي عرفته أوروبا، فهو شعر نظم ليغني لا لينشد وحسب، وأول هؤلاء الشعراء وليم التاسع Giuom IX دوق أكيتانيا وكونت بواتيه (١٠٧١-١١٢٧م)، وقد قام شعراء التروبادور بدور مهم في إثارة الرأي العام الأوروبي طوال فترة الحروب الصليبية، ولمزيد من التفاصيل عن الشعراء التروبادور، انظر:
محمود على مكي: "الشعر الغنائي" -بحث في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص٤٨-٦٢.

نقدًا لاذعًا، قائلاً أن ما فعله لا يعد شيئا مقارنة بحجم الكارثة التي حلت بالصليبيين نتيجة لا مبالاة البابوية بمصير الإمارات الصليبية، وأن بوادر هذا الأمر منذ فترة ترجع إلى ما بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى في الشرق[١]، بل إن أحد المؤرخين يرى أن البابا جريجوري لم يفعل أكثر من توجيه دعوة عامة واهنة، كالتي أطلقة في نهايات عمره، وأن كليمون الثالث لم يفعل أكثر من توجيه نداء إلى الإمبراطور فريدريك بارباروسا[٢] بالمشاركة في الحملة، وواصل صليبيو الشام استغاثاتهم بالغرب الأوروبي، وازدادت هذه الاستغاثات حدة وإلحاحا منذ أوائل عام ١١٨٨م/ ٥٨٣هـ، ونظم كونراد دو منتفرات تلك الموجة من الاستغاثات، فسارع بإيفاد بانديوس Pandinus كاتبة ومسجل وثائقه الذي رفعه إلى مرتبة مستشاره الخاص في مهمة إلى الغرب الأوروبي ليحث ملوكه وحكامه على القيام بحملة صليبية جديدة [٣]، وسلم بانديوس الخطاب الأول من كونراد إلى بيلا الثالث ملك المجر Bella III of Hungary[٤]، كما سلم عددًا من الخطابات إلى الإمبراطور فريدريك باربروسا والملك الفرنسي فيليب أوغسطس والملك الإنجليزي هنري الثاني، شارحًا لهم أهمية حضورهم إلى الشرق على رأس حملة كبرى، بل إن كونراد أشار في رسالة من رسائله وجهها إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري Baldwin Archbishop of Canterbury، إلى الانقسامات في صفوف صليبي الشام،

---

(١) Girout de Borneljh, Tels gen Perzich, Sernone, ed. A. Kolsen, Samtliche, Lieder des Trobabors Girout de Barnelh, (Halle 1910), vol. 1., pp. 428-430; VF. Alo; Throop ,P.A., Criticism of the Vrussades, in European History, vol. 12.2nd, Edition, (Philadelphia, 1975), pp. 29-30.

(٢) Throop, ,P.A., Criticism, p. 194

(٣) John La Monte, Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100-1291, (New York, 1970), pp. 123-124.

(٤) Letters of Conard de Monlforrat to Bella III King of Hungary (jon, 1188), in Rohricht, Regesta no. 670, p. 179.

وإلى صراعه مع الداوية لأسباب مادية، وكيف يؤثر ذلك على وضع الصليبيين في الشام[١]، وهو الموضوع نفسه الذي أشار إليه أحد رجـال الإسـبتارية فـي رسالته الموجهة إلى ليوبولدLeopoldo دوق النمسا[٢]، بل أن أميـر أنطاكيـة بوهمند الثالث هدد بتسليم المدينة إلى صلاح الدين الأيوبي إذا لم يأت من غرب أوروبا من يساعد في التصدي للمسلمين[٣]، بعد أن أصبحت ترتجف مثل سـاق نبات جافة في مهب الريح، وبات جميع من بالشام ينتظر رد فعل حكام أوروبـا تجاه محنة الإمارات الصليبية[٤].

وأخيرًا وصل جوسياس إلى ألمانيا، لكي يطلب من الإمبراطور فريدريك بارباروسا أن يقوم بحملة صليبية[٥]، وبالفعل دعا الإمبراطور إلى اجتماع مدينة روتسبورج حضره جوسياس والأمراء وكبار رجال الدين في ألمانيا، وفيه نطق جودفري أسقف روتسبورج Routsburg بكلمات أثارت حمـاس الحاضـرين، فأجمعوا على أن الخروج بحملة صـليبية هـو الوسـيلة الوحيـدة لاسـترجاع الأراضي المقدسة، وظهرت مقولة "سعدا هم الذين سافروا إلى القدس، وسـعداء أكثر من لا يرجعون منها"[٦]، وتعهد الإمبراطور فريدريك لجوسياس بقيادة حملة صليبية إلى الشرق، بل وتناول الصليب لهذا الغرض من أسقف ألبانو Albano في ماينزMayance في ٢٧ مارس عام ١١٨٨م[٧]، ويثير قبول الإمبراطـور

---

(١) Letters of Conard de Monlforrat to Baldwin Archbishop of Canterbury (Sept. 1188), In Roger of Wendover, op. Cit., vol. 2., pp. 71-72.

(٢) أرسل هذه الرسالة هيرمنجر Hermenger أحد قادة الإسبتارية في مدينة صور وذلك في نوفمبر ١١٨٨م، انظر : Rohricht,R., Regesta no. 678, p. 181

(٣) انفرد ابن شدا بالإشارة إلى هذا التهديد الذي أطلقه بوهيمند الثالث أـمير أنطاكية، انظر: ابن شداد النوادر السلطانية، ص ٦٨.

(٤) حسين عطية : إمارة أنطاكية، ص ٢٢٠.

(٥) Peter Mounz, Fredrick Barbarossq p. 372

(٦) Ansbert . Ex[edotop Friedrici, in Quellen sur Geschichte des Kreuzzugs Kaiser Friedrich I. Ed.A. Chroust, in M.G.h., (Berlin, 1892), p. 13.

(٧) Otto of Saint Blaise, Chronica (ed. Hofmeister), M.G.H.SS. in Usmscholarum, 1912, Foio, XX, p. 318, CF. Also: Thatchert (O), and

قيادة الحملة المنتظرة عددًا من التساؤلات فلماذا خرج الإمبراطور بعد أن حلت الكوارث بالإمارات الصليبية؟ فهل كان الوضع السياسي في إمبراطوريته والوضع في أوروبا بشكل عام دخل في تأجيله هذا إلى حين؟!

وفي حقيقة الأمر، لم تكن أحوال أوروبا مستقرة في فترة ما قبل حطين منذ عهد فريدريك (١١٥٢-١١٨٧م/ ٥٤٨-٥٨٣هـ، فقد كان فريدريك في حالة نزاع دائم مع البابوية، واستمر أكثر من عامًا، وبالرغم من أنه عقد مع البابوية صلح كونستانس في ٢٥ يناير ١١٨٣م إلا أنه ظل يخشى من اضطراب الأوضاع السياسية في بلاده، بالإضافة إلى انتشار الثورات والفتن في إيطاليا

ضد حكمه هذا من ناحية[1]، ومن ناحية أخرى، كان للمساعي والمفاوضات السلمية التي تقوم بها البابوية مع صلاح الدين، من أجل حل مشكلات الإمارات الصليبية دور في ذلك التأخير[2]، وفوق ذلك كله فإن وضع صليبي الشام في تلك الفترة لم يكن يشع على القول بأنهم على وشك الإنهيار -من وجهة نظر فريدريك على الإقل- وعلى هذا فلا يمكن القول بان فريدريك تخاذل في الدفاع عن صليبي الشام، والدليل على ذلك إعلانه التوجه بحملته لإنقاذهم فور علمه بما حل بهم.

Meneal (E), A source Book for Medival History, (New York, 1905), pp. 571-534.

[1] عقب توقيع صلح كونستانس ظلت العلاقات البابوية والإمبراطورية في حالة منن الهدوء النسبي حتى عام ١١٨٥م، عندما تفجر الصراع مرة أخرى حين طلب الإمبراطور فريدريك من البابا لوكيوس الثالث تتويج ابنه هنري السادس -في حياته- إلا أن لوكيوس مات في ٢٥ نوفمبر ١١٨٥م، فتجدد النزاع في عهد البابا أوربان الثالث الذي كون حلف ضد الإمبراطور يشاركه فيه الأمراء الألمان المناوئين لفريدريك من أمثال هنري الأسد، بل واستعد لإصدار قرار الحرمان ضد الإمبراطور، لولا وفاته في ٢٠ أكتوبر ١١٨٧م، لمزيد من التفاصيل، انظر :

Thatcher, O., and Meneal ,E., op. cit., doc. Log., p. 99; Edward, F., Fredrick The First King of Italy, (London, 1871), pp. 254-258.

[2] المقصود الرسائل التي تبادلها البابا لوكيوس الثالث مع صلاح الدين وأخيه العادل، وعن ذلك انظر : ما سبق .

وهناك أسباب عدة دفعته للقيام بحملته في تلك الفترة، فمن ناحية أراد فريدريك ألا تخلو ساحة المشاركة الصليبية إلا من فرنسا وإنجلترا، وأن يكون لألمانيا دور فعال في ذلك، ثم يترك جنودًا ألمان في الشرق، فتبنى سياسة "الاتجاه إلى الشرقDrang Nach Osten"[1]، ومن ناحية أخرى كان وجود كونراد دو مونتفرات في صور وقيادته للصليبيين واستنجاده بالإمبراطور، وما بين الطرفين من قرابة مما أزال تردد فريدريك في قيادة حملته إلى الشرق، أما السبب الثالث، فهو أن فريدريك أراد أن يمحو آثار ما منى به من فشل في أثناء مشاركته في الحملة الصليبية الثانية قبل أكثر من أربعين عامًا، بالرغم من أن عمره كان قد قارب السبعين عامًا، وأخيرًا فإن وفاة البابا أوربان الثالث –أخر البابوات المناوئين لفريدريك– قد فتحت مجال العلاقة الطيبة بين الأخير والبابوية، والدليل على ذلك نجاح البابا كليمون الثالث في إقناع فريدريك بضرورة قيادة حملة صليبية، والإقلاع عن محاربة أعدائه في ألمانيا، ومن هذا يتبين أن الإمبراطور فريدريك قام بحملته استجابة لنداءات الصليبيين المتكررة، طامحا إلى محو آثار حروب صلاح الدين بصفة عام، وأن يثبت للجميع أنه أقوى حكام أوروبا بلا منازع.

وقرر الإمبراطور فريديريك اللجوء إلى الوسائل الدبلوماسية قبل القوة العسكرية، بل استخدم في الوقت ذاته ما يعرف في العصور الوسطى برسائل إرهاب الأعداء أو الحرب النفسية، وأرسل خطابا بهذا المضمون إلى صلاح الدين الأيوبي[2]، في فبراير ١١٨٨م/ ذي القعدة ٥٨٣هـ، مع مبعوثه هنري دي سيتز Henricum de Zietz[3]، وسرد فريدريك في بداية رسالته ألقابه الفخمة، ثم دعا صلاح الدين بسلطن المسلمين، وأشار إلى الصلات الطيبة التي يجب أن

---

(١) Ansbert, Expiditio Friedrici, p. 14.
راجع أيضا: يوشع براور : عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٤٨.

(٢) Conder ,C.R., The Larin Kingdom of Jerusalm (1099-1291), (London, 1879), p. 250.

(٣) Rohricht,R., Regesta, no, 671, p. 179 .

تكون بينهما، إلا أنه ما لبث أن عدل عن أسلوبه الدبلوماسي، وبدأ في تهديد صلاح الدين متهمًا إياه بتدنيس الأراضي المقدسة، التي لا حق له فيها وحذره من المساس بمدينة بيت المقدس[1]، ثم عاد وطلب منه تسليم الأراضي المقدسة ودفع تعويض عهن البلاد التي خربها، ويعطيه مهلة تنفيذ ذلك مدتها اثنا عشر شهرًا تبدأ من نوفمبر ١١٨٨م/ رمضان ٥٨٤هـ، وإلا هاجمه في مصر مقر حكمه، ثم يذكره بأن أرض العرب كلها كانت تابعة لأوروبا -يقصد فترة الحكم الروماني- وأن الغرب الأوروبي كله سوف يساعده في إعداد الجيوش لاستعادة هذه الأرض، وأن على صلاح الدين ألا يظن أن فريدريك قد صار شيخًا فانيًا لن يقدر على محاربته، قائلاً -في ختام رسالته-: "سترى كيف اعتادت أيدينا حمل السيوف، وهي الأيدي التي طال اتهامك إياها بأنها قد دب فيها الوهن، وأبلى كر السنين جدتها، وأنهك قواها"[2].

وما أن وصلت هذه الرسالة الاستفزازية إلى صلاح الدين، حتى قرر الرد على الفور ولم ينتظر انقضاء المهلة التي أعطاها إياها فريدريك، فأرسل الرد في مارس ١١٨٨م/ ذي الحكة ٥٨٣هـ [3]، وبدأ رسالته إلى فريدريك بذكر نعم الله على العالم أجمع، وبأنه سلطان يؤمن بالأديان السماوية كافة، وأن الإسلام لا يضطهد غير المسلمين، وفي رده على قول فريدريك أن الغرب الأوروبي اتحد ضد المسلمين، قال صلاح الدين إن عدد المسلمين يفوق بكثير ما يعتقده فريدريك، وأن الشعوب الإسلامية كثيرة في أنحاء عدة من العالم، وأضاف لا رابطة بين الصليبيين في الشرق والغرب، إذ البحر يفصل بينهم، على عكس المسلمين الذين لا بحر بينهم، وهم رهن إشارته في وقت الحرب، ثم يذكر له أنه

---

[1] لاشك من أن هذا التهديد من جانب الإمبراطور فريدريك كان في غير محله، لأن مدينة بيت المقدس كانت قد أصبحت بالفعل في حوزة صلاح الدين وكان فريدريك يعرف ذلك جيدا

[2] احتوت الرسالة على ما يزيد على عشرين سطرًا، من الأسطر العادية، وقد نشرت في أكثر من مصدر منها:

Geoffry de Vinsauf, History of Expedition of Richard to the Holy Land, (London, 1848), pp. 87-88; Roger of Wendover, op. cit., vol. 2. pp. 66-68; Benedict of Peterbrough, vol. 2. pp. 62-65.

راجع أيضا: الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد)، ترجمة حسن حبشي، جزأن ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ج١، ص ٥٨-٦٠.

[3] Rohricht, Regesta, no, 672, p. 179.

لن يقنع بالأرض التي يملكها بالشام، ولن ينتظر حضور فريدريك بجيشه إلى الشرق، بل سينقل ميدان القتال إلى بلاد الإمبراطور فريدريك نفسها ويستولى عليها، يقول: "ولن نقنع بالأراضي التي على ساحل البحر، بل سوف نعبره بقدرة الله ونستولى على كل ما تملكه من أراضي"، ويؤكد له أنه سيستولى على صور وطرابلس وأنطاكية، أي ما بقى من مدن في أيدي الصليبيين في الشام، وأنه إذا استسلمت المدن الثلاث له، فسوف يعيد الصليبيين أسراهم الذين لديه"[1].

ولم تكن تلك الرسالة المتبادلة بين الرجلين ذات أهمية، بعدما سيطرت فكرة القيام بحملة صليبية على عقل الإمبراطور الألماني، لكنه لجأ إلى أسلوبه الدبلوماسي، لكسب ود -وربما عطف أو صداقة- الملوك والأمراء الذين سوف يمر بحملته عبر أراضيهم، ولكي يضمن المرور آمنا، مع توفير ما يحتاجه من مؤن، وضمان عدم الدخول في مصادمات قد تعوقه عن هدفه الأصلي وهو الوصول إلى بيت المقدس[2]، وفي أثناء ذلك كانت الترتيبات العسكرية للحملة قائمة على قدم وساق، وفي مايو ١١٨٩م/ ربيع أول ٥٨٥هـ تحركت الحملة الألمانية من راتسبون إلى الشام عن طريق البر، يقودها الإمبراطور ويرافقه ابنه فريدريك دوق سوابيا وكانت أكبر الحملات التي اتجهت إلى الشام في فترة الحروب الصليبية[3]، وكان أول ما اعترض طريق الحملة من عقبات، ذلك

---

(١) نشرت هذه الرسالة مع رسالة فريدريك في المصادر السابقة نفسها، وعن ذلك انظر:
Geoffry de Vinsauf, op. Cit., pp. 88-89; Benedict, vol. 2, pp. 66-68; Roger of Wendover, op. Cit., vol. 2, pp. 68-69

(٢) تفاوض مع بيلا الثالث ملك المجر، ومع جراند زوبان حاكم صربيا والإمبراطور البيزنطي إسحق الثاني، وقلج أرسلان سلطان سلاحقة الروم، وعقد عدد من الاتفاقات، ولمزيد من المعلومات انظر:
Johnson, N., The Crusades of Fredrick Barbarossa, in Setton, vol. 2., p. 91; Peter Mounz, op, cit, p. 389.

(٣) بالغت المصادر الغربية والإسلامية في إعداد الحملة، فقد قدرها أرنولد لوباك بخمسين ألف فارس ومائة ألف رجل، أما ابن شداد فذكر أنها ما بين مائتين ومائتين وستين ألفا، وابن العديم ذكر أنها ثلاثمائة ألف مقاتل وثلاثمائة ألف من السوقة، وبالرغم من المبالغة في الروايات السابقة فإن الحملة كانت أضخم حملة صليبية خرجت من أوروبا طوال فترة الحروب الصليبية، انظر:
Arnold of Lobeck, Chronica Slavorum, in Usum Scholarum, (Hanover, 1868), pp. 130-131.

العداء الواضح الذي أبداه البيزنطيين للحملة -الممثلة للغرب الأوروبي- حين وصلت إلى حدودهم[١].

ولم يغب عن هذا عن أعين صليبي الشام اليقظة[٢]، إذ أرسلت سبيلا - ملكة بيت المقدس السابقة- إلى الإمبراطور فريدريك في صيف ١١٨٩م/ ٥٨٤هـ قائلة أن صلاح الدين عقد اتفاقا مشينا مع إمبراطور بيزنطة، وطلب منه ألا يقث في الإمبراطور البيزانطي، بالإضافة إلى خطاب وجهه كونراد دو مونتفرات للغرب الأوروبي مشهرًا بالإمبراطور البيزنطي وعد إياه خائنا، كما ظهر إدراك الصليبيين للتأثير السلبي وكيف سيؤثر هذا الاتفاق بين صلاح الدين والإمبراطور البيزنطي عليهم في استغاثتهم المتتالية بإخوانهم في الغرب الأوروبي[٣]، وزادت أخبار الحملة من قلق المسلمين بقيادة صلاح الدين، لأن حملة فريدريك تعد أكبر حملة وجهها الغرب الأوروبي لمساعدة الإمارات الصليبية في بلاد الشام، حتى قال ابن الأثير: "لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنا أنه ليس لنا بالشام مقام[٤]، بل أن صلاح الدين بعد أن وصلته أخبار تقدم الحملة في آسيا الصغرى، أسرع إلى إخلاء وتدمير بعض المراكز التي

---

(١) بدا ذلك واضحا عندما أرسل الإمبراطور الألماني سفارة إلى نظيره البيزنطي يطلب منه السماح لجيشه بالمرور في أراضي الإمبراطور، ليفاجأ بالإمبراطور البيزنطي يقبض على السفراء الألمان ويلقيهم في السجن، وتفاقمت المشكلة حين أرسل فريدريك إلى ابنه وخليفته في الحكم أثناء غيابه هنري، يطلب منه تجهيز حملة بحرية كبرى بمساعدة المدن الإيطالية البحرية لحصار القسطنطينية، برًا وبحرًا بغي الاستيلاء عليها، ثم أرسل رسالة إلى ليوبولد حاكم النمسا، يخبره بما فعله إمبراطور بيزنطة، مهيئا أذهان الغرب الأوروبي لما ينوي فعله، وعند إذ تراجع الإمبراطور البيزنطي إسحق عن موقفه، ووافق على عقد معاهدة أدرنة في فبراير ١١٩٠ مع فريدريك، ويتم بمقتضاها الموافقة على عبور الحملة الأراضي البيزانطية، انظر :

Nicetas Choniates, Histria, in C.S.H.B., (Bonn, 1836), p. 451; Ansbert, Expeditio Fredrici, p. 67; CF. also: Ostrogrosk ,G., The Byzantne State., trans. From the Germany by J.Hussey, (Oxford, 1956), p. 347.

(٢) رأفت عبد الحميد: بيزنطة وخيانة القضية الصليبي -ضمن كتاب قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٢١.

(٣) Letter of Sibylla –EX- Queen of Jeruslaem to Frdrick I, in http: History, (Hanover, March 2001).

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢، ص ٢١.

خشي احتلال الصليبيين لها واستخدامها في حرب المسلمين، فهدم أسوار طبرية وأرسوف ويافا وقيسارية، أما صيدا وجبيل فهدم أسوارهما ونقل أهلهما إلى بيروت[١]، ووافق صلاح الدين على رفع حصاره، عن أنطاكية وعقد هدنة مع أميرها بوهميند الثالث، على الرغم من أن فتحها كان متناول يده[٢]، ويؤكد ذلك ما شعر به المسلمون عندما سمعوا بأخبار الحملة وما انتابهم من يأس من استمرار الشام بأيديهم[٣]، و"اشتد ذلك على السلطان وعظم عليه"[٤]، وقدر لفتح أنطاكية أن يتأجل حوالي ثمانين عاما وكان هذا كل ما استفاد منه فرنج الشرق من حملة فريدريك بارباروسا، فقد مات الإمبراطور غرقًا في أحد أنهار أرمينيا في ١٠ يونيو ١١٩٠م/ ٥ جمادي الأولى ٥٨٦هـ[٥].

وبغرقه تحولت حملته إلى موكب جنائزي تفرقت بعده القوات[٦]، وفرح المسلمون بنصر الله، يقول ابن الأثير : "لولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الألمان لما خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشام –وإلا كان يقال إن الشام ومصر كانتا للمسلمين[٧] أما الصليبيون فقد كان وقع هذه الأحداث عليهم مختلفًا، حتى أن أحد المؤرخين المعاصرين للحدث يقول: "أن الصليبيين

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٢ ، ص ١٥٠ ، ١٧٥.

(٢) العماد الكاتب: الفتح القسي، ص ٢٦٠.

(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٤، القاهر ١٣٢٥هـ، ح٣، ص ٨٢.

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٩٥١٠

(٥) Ansbert, Expeditio Frdrici, pp. 90-92; Geoffry de Binsauf, op. cit., p. 100; Epistolae de Morte Frderici Imperatoris, in Quellen Geschichte Kaiser Friderici I, ed, A. Chroust, in M.G.J, (Berlin, 1892), pp. 177-178.

(٦) قاد فريدريك السوابي ابن الإمبراطور ما تبقى من الجيش الألماني، بعد أن قرر بعض قادته العودة إلى بلادهم، ومضى بمن معه إلى أرمينيا، ومنها أنطاكية، التي وصلها في ٢١ يونيو ١١٩٠م، حيث استقبله أميرها بوهيمند الثالث بحفاوة بالغة، وحاول إقناع الألمان بمشاركته في جلسة ضد حلب، ولكنه فشل في ذلك، وتوجه الألمان للجيش الصليبي الذي يحاصر مدينة عكا، ثم ما لبث فريدريك السوابي أن مات في ٢٠ يناير ١١٩١م، وانتهت بذلك حملة فريدريك باربا روسا، انظر:

Arnould of Lubeck, op. Cit., p. 139; Eracles, L'Estoire, pp. 108-110.

راجع أيضا: حامد زياد غنيم: الإمبراطور فريدريك والحملة الصليبية الثالثة، القاهرة ١٩٩٧م، ص ٥٠-٥٦.

(٧) ابن الأثير : الكامل، ج ١٢، ص ٢٣.

انفطرت قلوبهم أسى، وكاد اليأس أن يتملكهم، فقد كان يأسا حاميًا قاتلاً لما كانوا يعتقدونه من الآمال العريضة على الإمبراطور الراحل، وكانوا يطمعون في أن يبلغوا بعونه ما يهدفون إليه، وعندئذ سألوا الله العون، انتظارا لما يأتي من عون من البلاد الغربية[١]، وفي المقابل كان فشل الحملة وغرق الإمبراطور وإخفاق الشق الأول من الحملة الصليبية الثالثة مما أثلج صدور المسلمين –وعلى رأسهم صلاح الدين– إذ حرم الصليبيين من قوة كبيرة كان من الممكن أن تقلب الموازين لصالحهم، وإزاء هذا كان على فرنسا وإنجلترا المسارعة بالتدخل لمساندة بقايا الإمارات الصليبية تداركا للإخفاق الألماني، ودعمًا للتحالف الاستراتيجي بين الإمارات الصليبية في بلاد الشام والغرب الأوروبي.

لكن أحوال الصليبيين في الشام ازدادت سوءًا وتشرد كثيرون منهم في البلاد، فمنهم من اتجه إلى مصر وكان أوفر الهائمين حظًا[٢]، وعاد كثيرون منهم إلى أوروبا حيث قصوا على الناس –في حزن شديد– المصائب التي حلت بمملكة جودفري دي بوايون، ولما كان الغربيون آنذاك على اقتناع بأن خلاص العقيدة المسيحية مرتبط بالمحافظة على الصليبيين في بلاد الشام، فقد أثارت انتصارات صلاح الدين الفزع في الغرب الأوروبي[٣]، ويجب ألا نغفل عن استغاثات الصليبيين التي تتالت بالغرب الأوروبي، ومنها رسالة تيريكيوس – مقدم الداوية في صور– إلى الملك هنري الثاني[٤] يرح له فيها ما تمر به

---

[١] الحرب الصليبية الثالثة: ترجمة حسن حبشي، ج١ ، ص ٨٥.

[٢] عقب فتح صلاح الدين لبيت المقدس، توجه جزء من سكانها الصليبيون إلى طرابلس، فرفض حاكمها ريمون أن يسمح لهم بالدخول إليها، فاتجهوا إلى أنطاكية، وأكمل جزء منهم المسير إلى القسطنطينية، أما من توجه منهم إلى مصر فقد تم تجميعهم في الإسكندرية في معسكر منعزل، حتى لا يتعرض لهم المواطنون المتحمسون، وفي مارس ١١٨٨م، نقلوا إلى صقلية على ظهر أسطول مسيحي، انظر:
Eracles, L'Estoire, pp. 100-103; Ralph Niger, Chronica Anglica, in M.G.G.SS., vol. 27, p. 252.

[٣] Rigord, Gesta Philippi II Augusti, in M.H.H.SS., vol. 26. p.280.

[٤] Rohricht, Regesta, no. 669, p. 178.

الإمارات الصليبية من كوارث، وكيف أنهم بقيادة كـونراد دي مـونتفرات، لا يزالون يدافعون عن صور وغيرها من المدن انتظارًا لقدومه[1]، وحاول البابـا كليمون الثالث إنهاء الصراع المرير بين فرنسا وإنجلترا من أجل خدم القضـية الصليبية وكلف أسقف ألبانو بتنفيذ ذلـك، وسـاعده بلـدوين رئـيس أسـاقفة كانتربري[2]، والواقع أنه لم يكن من السهل أن يشارك الإنجليز والفرنسيون في مشروع واحد، حتى وإن كان هذا المشروع لمصلحة دينية عليـا هـي نجـدة الإمارات الصليبية في الشام.

وفي أثناء ذلك وصلت سفارة جوسياس الصليبية -السابق ذكرها- إلـى منطقة الحدود بين فرنسا وإنجلترا، حيث عقد اجتماع كبير بين مدينتي جيسورس **Gisors** وتريه **Trie** في ١٣ يناير ١١٨٨م/ ١٢ من ذي القعـدة ٥٨٣[3]، وحضره فيليب أغسطس ملك فرنسا وهنري الثاني ملك إنجلترا وفيليب كونـت فلاندر، ورؤساء الأساقفة والكونتات والبارونات فـي مـن إنجلتـرا وفرنسـا وفلاندر، بالإضافة إلى جوسياس لتسوية القضـايا بـين فرنسـا وإنجلتـرا[4]، وبالفعل وبفضل فصاحة جوسياس عقد الصلح بين الطرفين المتنـازعين، ونبـذ خلافاتهم إلى حين القيام بحملة صليبية مشتركة على الشرق[5]، وكان أول مـن حمل الصليب في هذا الاجتماع هنري الثاني وتبعـه أغسـطس، ثـم كونـت

---

(١) Letter of Terricius Master of the Templors to King Henry II, (Jan 1188), in Roter of Hoceden, op. Cit., Vol. 2., pp. 90-91.

(٢) ميخائيل زابوروف : الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو ١٩٨٦، ص ١٩٣.

(٣) William of Newburg, op. cit., Book 3,p. 38

(٤) Roger of Hoveden, op. cit., vol. 2, p. 79.

(٥) Benedict, vol. 2, p. 30; Roger of Wendover, op. cit., Vol.2, p 63.

وقد أضاف المؤرخ جيفري فينسوف أنه فيما عدا فكرة القيام بحملة صليبية لنجدة صليبي الشام، لم يتم إنجاز أي شئ بصدد الهدف الحقيقي لهذا اللقاء بين ملكي فرنسا وإنجلترا بشأن المشاكل القائمة بينها، انظر:

Geoffer de Vinasuf, op. cit., p. 153.

فلاندر[1]، وعلى الرغم من ذلك حرص كل مهم على الاستقلالية، وظهر ذلك واضحا في قرار القادة بأن على كل فريق يشارك في الحملة الصليبية أن يحمل صليبا ذا لون مميز، فالصليب الأحمر يمثل أتباع ملك فرنسا، والأبيض لأتباع ملك إنجلترا، والأخضر يحمله أتباع كونت فلاندر[2]، وفي النهاية قرر ملك فرنسا وإنجلترا فرض ضريبة عامة على الناس في بلديهما وتخصص عوائدها لإحياء مملكة بيت المقدس الصليبية "

"ad Subventionem Terrae Herosolymitane" وقد أطلق عليها "عشر صلاح الدين"The saladin Tithe"[3]، ثم عاد القادة إلى بلادهم للتجهيز للحملة المرتقبة وعاد جوسياس ومن معه إلى الشرق مفعمًا بالأمل[4].

وما أن عاد هنري الثاني إلى بلاده حتى بذل الجهود لخدمة القضية الصليبية، فأرسل في مارس ١١٨٨م/ محرم ٥٨٤هـ[5]، خطابات إلى من استنجد به صليبي الشرق –مثل البطريرك هرقل، وعموري بطريرك أنطاكية، وبهمند الثالث أمير أنطاكية– يطمئنهم على أن مساعدته ستصل إليهم في أقرب وقت، وأنه سيقود الحملة الصليبية بنفسه[6]، ثم توجه إلى مدينة لي مان Le Mans حيث عقد اجتماعا حضره كبار القادة ورجال الدين[7]، وحيث أصدر مرسومه

---

[1] ومن المرجح أن فيليب كونت فلاندر تحمس لحمل الصليب والاشتراك في الحملة، ليعوض خسائره في حملته الفاشلة التي قام بها منذ عشر سنوات على الشرق.

[2] الحرب الصليبية الثالثة: ترجمة حسن حبشي، ج١، ص ١٨٣.

[3] William of Newburgh, op. cit. Book. 3, pp. 39.

[4] Benedict, Vol. 2., p. 32 .

[5] Rohricht, Regesta, on. 673, p. 180.

[6] عبر هنري الثاني عن ذلك بقوله: " بعد تلك الأخطار والمصائب التي ابتليت بها الأراضي في الشرق نعدكم بمساعدة قوية، سنعبر نحن وغيرنا من الحكام البحر إليكم في أقرب وقت"، انظر :

Letter of Henry II Kikg of England, to the Patriarchs of Jerusalem and Antioch and Prince of Antioch, CF. (Mar 1189), Roger of Hovedn, , op. cit., vol. 2., pp.85-89

[7] يذكر روجر أوف هوفدن أن من حضر هذا الاجتماع ريتشارد كونت بواتو –ابن هنري الثاني– وبلدوين رئيس أساقفة كانتربوري، وولتر رئيس أساقفة روان، وآر أسقف لي مان، وعدد كبير من رجال الدين، لكنه أخطأ حين قال أن جوسياس حضره، لأن جوسياس قد غادر أوروبا قبل الاجتماع عائدًا إلى صور، انظر :

الشهير بفرض الضريبة التي عرفت باسم "عشر صلاح الدين"[١]، وبينما تم جمع هذه الضريبة في أملاك هنري الثاني، فإنه لم يكتب لهذه التجربة النجاح التام في فرنسا[٢]، وقد تم صرف عائد هذه الضريبة في الإنفاق على تجهيز الحملة الصليبية التي قرر الملكان القيام بها، ولم يصل عائد هذه الضريبة في مملكة بيت المقدس الصليبية، وربما يرجع ذلك إلى أن قرر ملكي إنجلترا وفرنسا الخاص بفرض هذه الضريبة في أملاكها إنما أرتبط بإعداهما للقيام بحملة صليبية إلى الشرق، وهذه الحملة في حد ذاتها كانت هي المساعدة التي تحتاجها الإمارات الصليبية وليست أموال الضريبة المجباة، ولم يكن إرسال الأموال إلى صليبي الشام هدف ملكي إنجلترا وفرنسا بل وكان هدفهما إعداد الحملة المرتقبة التي في حد ذاتها المساعدة لصليبي الشام[٣].

Roger of Hoveden, op. cit., vol. 2., pp. 79

(١) نص المرسوم على أن يدفع السكان جميعا في فرنسا وإنجلترا سواء أكانوا من رجال الدين أم العلمانيين "عشر إيراداتهم ومنقولاتهم في عام واحد كصدقة لمساعدة بيت المقدس، وتعفي من ذلك الأسلحة والجياد والملابس الخاصة بالفرسان، والكتب والملابس الدينية، وأعلن رجال الدين الحرمان الكنسي على كل شخص يمتنع عن دفع هذه الضريبة، ونسب المرسوم إلى ملكي إنجلترا وفرنسا معا، بالرغم من أن المصادر التاريخية أشارت فقط إلى المرسوم الذي أصدره هنري الثاني وحده في "لي مان"، بعد اجتماعه مع فيليب أغسطس، انظر:

Benedict, Vol. 2., p. 30-31; Gervase of Canter Bury, op. cit., vol. 1. pp. 198-199; William of Newburgh, op. cit. Book. 3, pp. 39-40.

(٢) في السجلات المالية الخاصة بالملك الإنجليزي إشارات عدة تؤكد استلام لجان الملك لحصيلة عشر صلاح الدين من أماكن مختلفة في مملكته، بينما أشاعت الضريبة مشاعر الاستياء والغضب بين الفرنسيين –لاسيما رجال الدين– فقد رأوا أنها ليست لمساعدات الإمارات الصليبية بقدر ما هي إتاوة فرضها عليهم فيليب أغسطس لقضاء مآربه الخاصة، حتى لقد وصفها أحد الشعراء الفرنسيين آنذاك –وهو كانون دي بيتون Canon de Bethune– بأنها سرقة وطمع من الحكام، انظر :

Roger of Hoveden, op. cit., vol. 2., p.100 ; CF.also: Stubbs ,W., Select Charters, 9th ed. H.W.C.Davis, (Oxford, 1913), pp. 186-189, in Louis and Riley-Smith, Idea and Reality, pp. 143-144

(٣) وعن ضريبة عشر صلاح الدين وعائدها بالنسبة لما فرض قبلها من ضرائب فرضت في الغرب وفي مملكة بيت المقدس الصليبية، انظر :

وما لبث الملك الإنجليزي هنري الثاني أن تـوفي فـي مدينـة شـينون Chinon في ٢٦ يوليو ١١٨٩م/ ٢٠ جمادى الأولى ٥٨٥هـ ودفن في كنيسة نونس Nunsفي فونتفرود Fonteveroud بعد حكم دام أربعة وثلاثين عامـًا وسبعة أشهر وأربعة أيام(١).

ويرى الباحث أننا إذا حاولنا تقييم دور الملك هنري الثـاني فـي خدمـة الإمارات الصليبية في بلاد الشام؛ فنجد أن الأوضاع الداخلية والخارجية لـبلاده حالت على الدوام دون مشاركته في حملة صـليبية تتجـه للشـرق، إذ منعتـه التوترات المستمرة مع ملوك فرنسا من أن يفكر في ذلك، فقد كان لويس السابع ومن بعده ابنه فيليب أغسطس، على استعداد دائم لإنهاك خصمهم الوي هنـري الثاني، بتأييدهم المستمر للمتمردين عليه لاسيما أبناءه الـذين كـانوا كالسـيف المسلط بأيدي الفرنسيين على أبيهم، بالإضافة إلى علاقته بألمانيا لم تكن على ما يرام، وكان يخشى من قيام تحالف فرنسي ألماني ضد إنجلترا في حالة غيابه في الشرق، ولذا استغل هنري مشروع الحملة الصليبية في شغل أعدائه منَ ملـوك فرنسا عن تدبير المؤامرات ضده، لذلك قدم هنري الكثير من الوعود بالـذهاب على رأس حملة –طوال فترة حكمه– لكنه كان يتحلل منها بإرسـال الأمـوال للإمارات الصليبية في بلاد الشام.

وما أن مات هنري حتى اعتلى عرش إنجلترا ابنه ريتشارد كونت بواتييه –المعروف بريتشارد قلب الأسد– وذلـك فـي أول سـبتمبر ١١٨٩م/ رجـب ٥٨٥هـ(٢)، وتحسن موقف الغرب الأوروبي من القضية الصليبية، لأن ريتشارد

حسين عطية: عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية في غرب أوروبا ومملكة بيت المقدس الصليبية، في دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ص١١٤-١٦٩.

(١) William of Newburgh, op. cit., Book. 3. p. 41; Geoffry de Vinsauf, op. cit., p. 154.

(٢) ريتشارد هو الابن الأكبر الذي مازال على قيد الحياة للملك هنري الثاني، وقضى سـنوات حكمه كلها في معارك ومغامرات خارجية، بعد أن اشترك مع أشقائه في تمرد ضد أبيه بإيعاز من الملك الفرنسي وحققت له معاركه شعبية كبيرة في الغرب الأوروبي، انظر: Geoffery de Vinsauf, op. cit., pp. 154-155.

كان من أوائل من حملوا الصليب عقب حطين، وما حل بالإمارات الصليبية في الشام[١]، ولأنه كان جادًا في عزمه على الخروج بحملة صليبية، ومع أنه ورث عن والده نضاله ضد فرنسا، إلا أنه كان مستعدًا لعقد أية تسوية معها تتيح له أن يتجه إلى بلاد الشام، لا سيما إذا اشترك فيليب ملك فرنسا في تلك الحملة، مغفلا لفترة ما بين إنجلترا وفرنسا من تنافس سياسي واقتصادي يرجع لأزمنة قديمة[٢]، وأدرك فيليب أنه ليس من حسن السياسة إرجاء توجيه الحملة أكثر من ذلك[٣]، هذا بالإضافة إلى رغبته في إعلاء شأن أسرة آل كابيه الفرنسية بين الأسرات الأوروبية الحاكمة[٤]، وبالفعل وصل إلى إنجلترا في نوفمبر ١١٨٩م/ رمضان ٥٨٥هـ، روثر كونت بيرش Rotrou Count of Perche من فرنسا، ليخبر ريتشارد أن الملك فيليب على أتم استعداد للاشتراك في حملة صليبية مشتركة، تتجه إلى بلاد الشام لنجدة الإمارات الصليبية هناك[٥].

وفي الحقيقة كانت هناك دوافع عدة وراء رغبة كل من ملكي فرنسا وإنجلترا في الإسراع بقيادة حملة صليبية تتجه إلى الشرق، فالملك الفرنسي فيليب أغسطس أراد تدعيم نفوذ أسرة آل كابيه بين الأسرات الحاكمة في الغرب الأوروبي مثل الهوهنشتاوفن في ألمانيا، والبلانتاجنت في إنجلترا، وينبغي ألا نغفل عن أن فرنسا -بالذات- كانت ترى أن الإمارات الصليبية وليدة فكرة فرنسية خالصة، وأنه من الضروري مواجهة تدخل إنجلترا في هذا المجال

---

(١) يذكر روجر أوف وندوفر أن ريتشارد علم بما حق بالصليبيين في نوفمبر ١١٨٧م/ رمضان ٥٨٣هـ، في خطاب أرسله له من روما أحد أتباعه ويدعى بطرس أوف بلوا Peter of Blois ، فحمل ريتشارد الصليب دون انتظار الإذن من والده، وأعلن استعداده للمشاركة في أية حملة تتجه للشرق، انظر :

Roger of Wendover, op. cit., vol. 2., p. 62

(٢) Benedict vol. 2., p. 75; CF. Also: Throop, Criticism, p.77.

(٣) Roger of Wendover, op. cit., vol. 2., p. 81 .

(٤) Sidney Painter, The Third Crusade: Richard The Loin Heart and Philip Augustus in Setton, A History of the Crusades, vol. 2., p. 49.

(٥) Benedict vol. 2., pp. 92-93; CF. also: Sidney, P., The Third Crusade, p. 75.

باشتراك فرنسي فعال، يعكس الثقل السياس لها، مع التنافس التقليدي بين الدولتين في ذلك العصر، واشتراك الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد مع الملك الفرنسي في بعض الدوافع السابقة كرغبته في جعل إنجلترا تسهم بفاعلية في المشروع الصليبي لإعلاء شأن بلاده في الغرب الأوروبي، بالإضافة إلى الاستجابة للاستغاثات المتتالية التي خرجت من الشرق تستنجد بقوى الغرب وخاصة ملكي إنجلترا وفرنسا ولا ينبغي أن نغفل أن سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية بمثل هذه الصورة وهي الفرنسية التكوين والطابع كان إهانة بالغة للملك الفرنسي وكان عليه أن يتدخل لإنقاذ الهيبة الفرنسية، مع ملاحظة أن تردد هنري الثاني في أمر المشاركة في حملة صليبية قابله بعد ذلك حماس من جانب ابنه وخليفته ريتشارد ورغبة صادقة منه في المشاركة في حملة صليبية تتجه للشرق.

كان الرأي العام في الغرب الأوروبي مشحونًا ومتحمسًا لعمل ضخم يساند به الإمارات الصليبية في بلاد الشام[١]، فقد عم الحزن والأسى معظم البلدان الأوروبية، وأصبح كل إنسان هناك يشعر بالخزي والتقصير تجاه إخوانه في الشرق، وانتشرت الصور واللوحات التي جلبها جوسياس معه في شوارع أوروبا كافة، ولعبت الجماعات الرهبانية دورًا كبيرًا في ذلك، وجمعت الأموال مرسلة إياها أولاً بأول إلى الأراضي المقدسة[٢]، وجمع روبير دي سابل Rbert De Sabel مقدم الداوية في إنجلترا عددا من الفرسان وقادهم للاشتراك في جيش الملك ريتشارد المتجه إلى الشرق[٣]، كذلك لعب الشعر دورًا مهما فقد قاد الشعراء الفرنسيون –على وجه الخصوص– حملة أدبية لإثارة حماس الأوروبيين[٤]، وفي أماكن أخرى من العالم المسيحي نجد صنيعا مشابها عند

---

(١) Ambroise, The Crusade of Richard Lion-Heart, p.42.

(٢) Roger of Hoveeden, op. cit., vol. 2., p. 146.

(٣) نتيجة لجهود روبير دي سابل تم تعيينه فيما بعد مقدما لجماعة فرسان الداوية في بلاد الشام في الفترة من ١١٩١-١١٩٦م، انظر :
إبراهيم خميس : جماعة الفرسان الداوية، ص ١٩٨.

(٤) يتصدى الشاعر بوتبيف Butebuf بشعره لكل من يتخاذل عن نجدة الصليبيين في الشرق، ويرى الشاعر كانون دي بيتون Canon de Paitone أن الفرسان الذين ينضمون للحملة المرتقبة يؤدون واجبهم ليس فقط تجاه أنفسهم، وإنماتجاه العالم المسيحي بأسره.

جريجوري الرابع دغا Gregory IV Dgha الذي صاغ مرثية شهيرة عن سقوط بيت المقدس، والمآسي التي لحقت بالصليبيين من جراء انتصارات المسلمين [1]، وكذلك انتشرت الخرافات والأساطير التي تحث حكام الغرب على نجدة صليبي الشام، ومنها ما حدث في نهاية عام ١١٨٨م/ ٥٨٤هـ، عندما وصلت إلى بلاد فيليب أغسطس -ملك فرنسا- رسالة من الشرق تتحدث عن نبوءة من يدعى دانيال الزاهد بأن فيليب يقود الصليبيين لاستعادة الأراضي المقدسة، وأن صلاح الدين يتعرض الآن لمتاعب، من تمرد أتباعه عليه، وأنه هزم قرب أنطاكية[2]، وكان السؤال الذي يلح على أهل الغرب جميعا: "من ذا الذي لم حمل الصليب حتى الآن[3]؟

أما عن أحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام في تلك الفترة، فبعد فشل حملة فريدريك بارباروسا، لم يعد أمام صليبي الشام إلا الاعتماد على أنفسهم، وعلى ما عساه يصلهم من جموع صليبية صغيرة متفرقة، يستغلونها في الدفاع عما تبقى من أشلاء المملكة الصليبية في بلاد الشام، انتظرًا للشق الثاني من الحملة الكبرى التي يعد لها الغرب الأوروبي[4]، وحدث أن قام صلاح الدين في يوليو ١١٨٨م/ جمادى الأولى ٨٥٤هـ بإطلاق سراح ملكهم جي دو لوزينيان -الذي أسر في حطين- فما لبث أن نكث بعهوده مع صلاح الدين، وسعى لقيادة الصليبيين بمدينة صور[5]، على أن صلاح الدين لم يخسر شيئا بإطلاق سراح

CF. Benedict, vol. 2., pp. 50-51

(٥) كان جريجوري الرابع دغا جاثليق الأرمن في الفترة من (١١٧٢-١١٨٩م) ونظم مرثية شهيرة بمناسبة سقوط مدينة بيت المقدس في أيدي المسلمين، وقد أور بها معلومات تاريخية هامة عن معركة حطين وتهاوى المعاقل الصليبية بعدها، انظر :

Gregry IV. Dgha, El egyon the Foll of Jerusolem,in R.H.C. Doc- - Arm, vol. 1, p. 289.

راجع أيضا :

Cahem ,C., La Syrie du Norda L'epogue des Crosiades et al principaute Franque d'Antioche, (paris, 1940), p. 98.

(٢) يوشع بروار : عالم الصليبيين ن، ص ١٢٧-١٢٨.

(٣) الحرب الصليبية الثالثة: ترجمة / حسن حبشي، ج١ ، ص ٥٥.

(٤) Grousset,R., op., t. 3., p. 18.

(٥) تعهد جي بألا يشهر سلاحا في يوجه صلاح الدين، وأن يبحر عائدا إلى أوروبا ويروي أن رجال الدين حل الملك من يمينه التي أخذها تحت الضغط لأنها بذلت لغير مسيحي،

جي بل على العكس، فقد ازداد الوضع سوءا داخل الكيان الصليبي، بالمنازعات الحزبية والانقسام في مملكة بيت المقدس، التي لم تسو إلا قبل أسابيع قليلة من معركة حطين، ثم ما لبث أن اندلعت مرة أخرى بعدها[1]، وتقعد الموقف في صور، عندما أراد جي دخول المدينة لحكم ما تبقى من مملكته السابقة، لكن كونراد دو مونتفرات الذي نظم صفوف الصليبيين، واستنجد بملوك الغرب الأوروبي، أغلق الأبواب دونه ورفض دخول المدينة[2] قائلاً إن جي في حطين وفي أثناء أسره كانت المملكة تضيع لولا تدخل كونراد، وهكذا قضى جي بضعة أشهر خارج أبواب صور، ثم رد عليه كونراد رد أخيرًا بأن صور لم تعد مدينته، وأن الحكم بينهما ملوك الغرب الأوروبي الذين ينتظر وصولهم[3].

وعندما وجد جي نفسه طريدًا شريدًا فكر في غزو عكا ثانية مدن مملكة بيت المقدس الصليبية بعد بيت المقدس، وأهم موانيها الساحلية، وجمع لذلك معظم فرسان المملكة، وتوجه إلى عكا ووصل أمامها في أغسطس ١١٨٩م/ رجب ٥٨٥هـ، وتزامن ذلك مع تصالحه مع كونراد، وما لبث أن حضر الأخير إلى عكا وبذلك تهيأ الجميع للثأر مما حل بالصليبيين على يد صلاح الدين في حطين وما بعدها[4]، وعندما تجمعت الجيوش الصليبية وحاصرت عكا، فضل جي الانتظار حتى تصله تعزيزات عسكرية من الغرب، ليقتحم المدينة[5]، وبالفعل بدأت الإمدادات القادمة من أوروبا تصل تباعا بداية من شهر سبتمبر / شعبان من العام نفسه، وكان أول ما وصل منها أسطول ضخم، ورغم

ويروي أيضا أن الملك أوفى بوعده وتوجه من أنطرطوس إلى جزيرة أوراد أمام الساحل الشامي ثم عاد إلى صور عازما على أن يتولى قيادة المملكة، انظر :

. Eracles, L'Estoire, p. 131; Ernoul. P. 253

وأطلقت المصادر العربية على جي "الملك العتيق" بعد أن اعتقه صلاح الدين.

ابن شداد : المصدر السابق، ص ٧٤.

(١) Ernole, p. 242, CF. also: Grousser,R., op. vit, t. 3., pp. 40-41.

(٢) Eracles, L'Estoire, p. 123; Ernoul. P. 256.

(٣) Eracles, L'Estoire, p. 124; Ernoul. P. 257.

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٧٨، أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص ١٤٣، وانظر أيضا:

سعيد عاشور: الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٦٧٣.

(٥) Ernoul, p. 276; Eracles, L'esroire, p. 125; CF. also: King, op, cit., p. 137.

أن بحارته ينقصهم التدريب، إلا أنهم اشتهروا بالمهارة، ولم يكن للصليبيين غنى عن سفنهم الخاصة في فرض الحصار على عكا من جهة البحر، ولاسيما بعد وفاة وليم الثاني ملك صقلية، وانسحاب الأسطول الصقلي عقب ذلك[1] وبعد أيام قليلة وصلت سفن إيطالية تحمل عدد من الفرسان الفرنسيين والفلمنك Flemings بقيادة الفارس الشهير جيمس أوف أفسينز James of Avesnes، وهو من أشجع فرسان فلاندر[2]، ثم جاءت كونتات بارBar، برين Brienne، ودرية Dreux ، وكان أشهر من قدم معهم فيليب أسقف بيفييهPhilip Bishop of Beauvais[3]، ثم قد أشهر مدد ألماني بقيادة لويس الثالث كونت ثورجيا[4]، وهو الذي استطاع اقناع كونراد بالتصالح مع جي والاتحاد ضد المسلمين، ثم تبعه الأمراء الألمان بقيادة أوتو كونت جيلدر Otto count of Gueldes، فضل هؤلاء الألمانن جميعا الإبحار وحدهم وعدم مرافقة باربارosa، ثم جاء بعض الإيطاليين تحت قيادة جيرار Gerrar أسقف رافنا[5].

---

(1) كان هذا الأسطول يضم بحارة من الدانيين، والفريزيين وقد قاموا بدور هام في تلك الفترة، انظر :

Eracles, L'Estoire, pp. 127-128.

راجع أيضا:

هانز ماير: الحروب الصليبية، ص ٢١١.

(2) الحرب الصليبية الثالثة: ترجمة حسن حبشي، ج٢، ص ٩١-٩٣، جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص ١٦٠.

(3) الحرب الصليبية الثالثة: ترجمة حسن حبشي، ج١، ص ٩٥-٩٧.

وقد أورد سيدني بينتر قائمة طويلة بأسماء من حضر.

Sidney Painter, op. cit., p. 50.

(4) أطلق عليه لقب لاندجراف وتعني باللغة الألمانية "كونت" وتعني أيضا -حسبما يقول فينسوف- "صاحب السعادة"، ويرىمؤرخ الحملة الصليبية الثالثة أنه كانت له مكانة كبرى بين الصليبيين وأن لويس هذا استطاع إتمام صلح كونراد مع جي وأنه تناول مع جيمس أسنز قيادة الجيش الصليبي أمام عكا، واتهمه رالف أوف ديكتو بأنه خائن وعميل للمسلمين، انظر:

Geoffry de Vinsauf, op. cit, p. 107; Radulf de Dicero, op. cit., col. 2., pp. 82-83.

(5) Benedict, vol. 2., pp. 94-95; Arnold of Lubeck, op. cit., p. 171

ومن الملاحظ أن الإنجليز لم ينتظروا تحرك ملكهم بجيشه، فإذا باسطول من خمسين سفينة وحوالي عشرة آلاف مقاتل يغادر نهر التايمز في أغسطس ١١٨٩م/ شعبان ٥٨٥هـ، ليصل إلى سواحل البرتغال في الشهر التالي، وبفضل هؤلاء استطاع سانشو الأول Sanco I ملك البرتغال أن ينتزع من المسلمين حصن شلب Silves في أوائل سبتمبر ١١٨٩م/ شوال ٥٨٥هـ[١]، وفي أخر الشهر نفسه اجتاز الأسطول الإنجليزي مضيق جبل طارقا متوجها إلى الشرق[٢]، ولتظهر حقيقة وهي أن البرتغاليين لم يحققوا انتصارات على المسلمين في تلك الفترة إلا عن طريق المساعدات الأوروبية التي كانت تمر ببلادهم عند توجهها للإمارات الصليبية، ووصل الأسطول إلى الشام في نوفمبر ١١٨٩م/ ذي الحجة ٥٨٥هـ في مواجهة عكا، وكان النجاح الذي حققه مقاتلوه في البرتغال حافزا قويا لهم، فكانوا إضافة جديدة مهمة لصفوف الصليبيين [٣]، ثم تبع ذلك وصول الفرسان من أنحاء أوروبا قاطبة، من فرنسا وإيطاليا والمجر والدنمارك وغيرها، وبفضل هؤلاء استطاع الصليبيون حصار عكا برًا وبحرًا.

وقد أثارت كثرة إمدادات الغرب الأوربي فزع المسلمين، يقول ابن شداد: "إن الفرنج جاءهم الإمدادات من البحر واستظهروا على الجماعة الإسلامية

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث، انظر:
Benedict, vol. 2., pp. 116, 120; Eracles, L'Esroire, pp. 127-128; Roger of Hoveden, op. Cit., vol. 2., p. 151.
وراجع أيضا: أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٩م، يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، ط٢، جزأن، القاهرة ١٩٩٦م، ج٢، ص ٧٩.

(٢) Arnold of Lubeck, op. cit., p. 177.

(٣) ذكر مؤلف الحرب الصليبية الثالثة أن الأسطول الإنجليزي وصل إلى بلاد الشام في شهر سبتمر، وهذا خطأ لأنه وصل إليها طبقا لتواريخ بندكت ورالف دي ديكيتو وغيرهم – في نوفمبر–، والحقيقة أن الرحلة التي قام بها هذا الأسطول من إنجلترا إلى الشام تحدثت عنها مصادر عدة غنية بالمادة التاريخية، ومنها على سبيل المثال:
Benedict, vol. 2., pp. 116, 122;Radulph le Dicero, op. Cit., col. 2., pp. 65-66 ;Roger of Hoveden, op. Cit., vol. 2., pp. 151-152.
كذلك أيضا الحملة الصليبية الثالثة: ترجمة حسن حبشي، ج٢، ص ١٨٢.

بعكا"[1]، ويول أبو شامة: "ومن خبر الفرنج أنهم الآن في عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من، أمواجه، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكة فإذا قتل المسلمون واحدًا في البر ألفى بعوضة من البحر فالزرع أكثر من الحصاد"[2]، بينما يقول ابن واصل: "إن ملوك ما وراء البحر وأصحاب الجزائر كالبندقية والبيازنة والجنوية وغيرهم قد تأهبوا بالعمائر البحرية، والأساطيل القوية"[3]، وإزاء ذلك حاول صلاح الدين أن يحصل على دعم حربي -لاسيما الدعم البحري- من جانب الموحدين ببلاد المغرب، فأرسل إلى السلطان الموحدي أبي يوسف يعقوب المنصور (١١٨٤-١١٩٩م/ ٥٨٠-٥٩٦هـ)[4] ، في يناير ١١٩١م/ رمضان ٥٨٦هـ، "أنه من الواجب أن يمد غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين، وأن يقطع عنهم مادتهم من البحر"[5]، واختلف المؤرخون حول ما أسفرت عنه السفارة من نتائج[6]، وكيفما كان الأمر، فإن الباحث يرى أن استنجاد صلاح الدين بسلطان في بلاد المغرب يعد تطورًا خطيرًا فيما يخص

---

[1] ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ١٣١.
[2] أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٥٧.
[3] ابن واصل : مفرج الكروب، ج١ ، ص ٤٩٥.
[4] ولمزيد من التفاصيل عن علاقة صلاح الدين بالسلطان الموحدي، انظر:
سعد زغلول : العلاقة بين صلاح الدين وأبو يوسف يعقوب المنصور -مجلة كلية الأداب- جامعة الإسكندرية، م ٦-٤، عام ١٩٥٢-١٩٥٣م، ص ٨٤-١٠٠.
[5] أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص ١٧١ .
[6] قال أبو شامة أن محاولات استنجاد صلاح الدين بالموحدين فشلت، لأن السلطان المغربي عز عليه أن لم يخاطبه صلاح الدين بأمير المؤمنين، بينما يرى السلاوي أن السلطان الموحدي جهز بعد رحيل السفارة عن بلاده أسطولا بحريا من مائة وثمانين سفينة لنصرة صلاح الدين لكن هذا الرأي الأخير يفتقر إلى الأدلة التاريخية، نظرًا للمبالغة الواضحة في عدد السفن، علاوة على عدم وجود ما يثبت وصو هذا الأسطول إلى صلاح الدين، ومن ناحية ثالثة كان الموحدون مشغولين في تلك الفترة بالحروب في جزر البليار، والتي استمرت وقتا طويلا ، انظر :
أبو شامة : الوضتين، ج٢، ص ١٧٤؛ السلاوي: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثاني، تحقيق/ جعفر الناصري ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ص ١٨٣.

مصير الإمارات الصليبية في بلاد الشام، لاسيما وأن صلاح الدين لم يطلب من الإمدادات وحسب، بل قطع الطريق على سفن الغرب الأوروبي المتجهة لمساعدة صليبي الشام أيضا، وكان لكثرة إمدادات الغرب الأوروبي أثرها في دفع صلاح الدين -الذي كان يعتمد على إمكانياته الذاتية فقط- إلى التفكير في طلب دعم خارجي لمواجهة التحالف الغربي الأوروبي مع الإمارات الصليبية.

وفي خضم تلك الأحداث، علينا ألا نغفل الدور الكبير التي لعبته أساطيل المدن الإيطالية في مساندة الإمارات الصليبية، بل إنهم سبقوا غيرهم إلى هذا الأمر بعد أن وصلت إليهم من صليب المشرق سفارة دينية قادها موناخوس Mounacs رئيس أساقفة قيسارية طلبا للنجدة[١]، وتصادف وصوله إلى إيطاليا مع نجاح مساعي البابوية في إتمام الصلح بين بيزا وجنوة، فأصبح أهلها جميعا مهيئين لمساعدة صليبي الشام[٢]، وبالفعل أعدت بيزا حملة كبيرة مكونة من اثنتين وخمسين سفينة قادها أوبالدو لانفرانكو Ubaldo Lanfranko[٣] يرافقه موناخوس، وذلك في سبتمبر ١١٨٨م/ ٥٨٤هـ، وقضت الحملة الشتاء في ميناء مسينا بصقلية، ثم واصلت السفن البيزية طريقها إلى الشرق في أول إبرين ١١٨٩م/ صفر ٥٨٥[٤].

ووصل الأسطول إلى صور ثم ما لبث أن تبعه أسطول من البندقية يقوده أوريو ماستروبيتر Aurio Msteropietro ولحق بهم الجنوية بأسطول قاده القنصل سبينولا، وقد لعبت جيوش المدن التجارية الإيطالية الثلاث دورًا مهما في حصار عكا؛ الذي بدأ في يوليو ١١٨٩م/ شعبان ٥٨٥هـ[٥]، ثم إن جنوا

---

(١) Rohricht, Regesta, no. 665., p. 177.

(٢) Ernoul, p. 257.

(٣) أوبالدو لانفرانكو هو رئيس أساقفة بيزا (١١٧٤-١٢٠٩م)، وكان من أشد المتحمسين لقيام حملة صليبية كبرى لنجدة الإمارات الصليبية في بلاد الشام، انظر :
Eracles, L'Estoire, p. 153

(٤) هايد : تاريخ التجارة، ج١، ص ٣١٩.

(٥) Roger of Wendover, op, cit., vol, 2, pp. 65-66; CF, also: Grousset, op. citt., t. 3. p. 23.

أعدت ثمانين سفينة شحنتها بالمقاتلة تحت قيادة سيموني فنيتو Simon Venito وموينو دي ريدوانو Marino di Radono وأبحرت السفن الجنوية في أغسطس ١١٩٠م/ رجب ٥٨٦هـ، مبتدئة بصفة رسمية الحملة الصليبية الثالثة[١]، وفي مارس ١١٩١م/ صفر ٥٨٧ه، وصلت عدة سفن إيطالية إلى سواحل الشام محملة بالقمح وغيره من المؤن، واستقبلت بحفاوة بالغة، لا لأنها جلبت المواد الغذائية وحسب، بل لأنها حملت أيضا أنباء بأن ملكي فرنسا وإنجلترا أضحيا أخر الأمر في المياه الشرقية، ووصل الشق الثاني من الحملة الصليبية الثالثة[٢]، وكان رجال الحملة يرددون باستمرار شعر مؤرخ الحملة الذي يقول: "ألا انظري يا مدينة القدس: لقد جاء محاربون أحرار لمحو الإهانات ورد الذى نزل بالصليب!!.. لقد جاء رجال حركهم إيمانه الصادق، وليس فيهم إلا كل أشوس مغوار!!.. لقد جاءوا يا قدس لإنقاذك، وها هو ذا العالم كله يقاتل دفاعًا عنك"[٣].

ونصل الآن إلى مسألة مهمة وهي تقييم الحملة الصليبية الثالثة أنجحت أم فشلت في تحقيق الهدف الذي خرجت من أجله؟ هل قدمت العون المطلوب للإمارات الصليبية في بلاد الشام، والمعروف أن هدف الحملة كان استرداد كل ما استولى عليه صلاح الدين الأيوبي بعد حطين، والقضاء على قوته العسكرية، وإعادة إحياء المملكة الصليبية في بيت المقدس، فهل تحققت تلك الأهداف؟

على الرغم من أن الحملة الصليبية الثالثة كانت أكبر الحملات الصليبية وأكثرها تنظيمًا، فإن كل ما حققته أنها حافظت على الكيان الصليبي، وأنقذته من خطر صلاح الدين وهو في أوج انتصاره[٤]، وبفضلها ظل في أيدي في فرنج الشام شريط ساحلي ضيق يمتد من صور إلى يافا[٥]، وكل ما غنمه الصليبيون

---

(١) . Grousset,R., op. citt., t. 3. p. 24

(٢) الحروب الصليبية الثالثة : ترجمة حسن حبشي، ج١، ص ٩.

(٣) الحروب الصليبية الثالثة : ترجمة حسن حبشي، ج١، ص ٨٦

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية، ج٢ ص ٧٠٧.

(٥) Eracles, L'Estoire, p. 198.

في الشام من أمان هوما وفرته لهم الهدنة التي عقدها ريتشارد قلب الأسد مع صلاح الدين وعرفت بصلح الرملة في سبتمبر ١١٩٢م/ شعبان ٥٨٨هـ[١]، والنجاح الحقيقي الوحيد للحملة، كان سيطرة ريتشارد قلب الأسد على قبرص، التي شكلت بعدا استراتيجيا جديدًا للإمارات الصليبية، كما أنها أمدت الفرنج بقاعدة بحرية ممتازة، ثم صارت قاعدة صليبية متقدمة في مواجهة المسلمين في بلاد الشام[٢]، وأضاف ذلك "قوة للفرنج"[٣].

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثالثة، واندحرت تلك الموجة العاتية التي لم يعرف الشرق وما به من الإمارات الصليبية مثيلا لها بعد ذلك، ومع أن الغرب الأوروبي بأسره اتحد في ذلك الجهد الكبير، فإن ما حصل عليه من نتائج كان ضئيلاً[٤]، فلم يسترد الصليبيون بمساعدة أكبر الحملات الصليبية وأكثرها تنظيمًا إلا قليلاً مما فقدوه بعد حطين وما تلاها من تهاوي معاقلهم كما أن الهدف الأساسي الذي من أجله جاء ملوك أوروبا وهو استرداد بيت المقدس لم يتحقق[٥]، كما كان من سلبيات الحملة ازدياد عوامل الشقاق بين الصليبيين في الشام، وظهر هذا بوضوح بين الفرنسيين والإنجليز في أثناء الحملة، وظلت قائمة بعد رحيل الملك الإنجليزي من الشرق، الأمر الذي أدى إلى إضعاف مركز الصليبيين في تلك الفترة الحرجة[٦]، وهو ما دفع أحد المؤرخين المحدثين إلى القول "بأن الحملة أخفقت لأن جيشا فرقته الأهواء -يقصد الجيش الصليبي- لا يستطيع أن يحقق نصرًا على جيش متحد تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي"[٧].

وتدفعنا المقولة السابقة إلى التحدث بإيجاز عن أسباب إخفاق الحملة الصليبية الثالثة في تحقيق معظم أهدافها وأهمها ذلك الصراع الخفي غالبًا

---

(١) كانت فترة الهدنة ثلاث سنوات وثمانية أشهر، انظر :
ابن شداد: المصدر السابق، ص ١٠٢، أبو شامة: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٠٣، المقريزي: المصدر السابق ج١، ق١، ص١٠٠.

(٢) حسين عطية : إمارة إنطاكية، ص ٢٣٣.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج٢، ص ١٣.

(٤) نورمان كانتور : التاريخ الوسيط، ج٢، ص ٤١٨.

(٥) هانز ماير : الحروب الصليبية، ص ٢١٣.

(٦) Grousset, R., op. cit, t. 3. p. 52.

(٧) Barker ,E., The Crusades, (London, 1949), p. 66.

والعلني أحيانا بين الملكين الكبيرين ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس ولم تفلح الانتصارات الصليبية في عكا واستيلاء الصليبيين عليها مرة أخرى في إيقاف هذا الصراع المرير، وفي ذلك يقول أحد المؤرخين المعاصرين: "وغالبا ماكان ملك فرنسا يهاجم المدينة من جانب واحد، في حين يقف ملك إنجلترا بقواته في الخلف، ولا يدفعها للهجوم من الناحية الأخرى"[١]، كذلك سادت الفرقة والانقسامات بين صفوف الصليبيين المحليين بسبب الصراع على عرش المملكة الصليبية، حتى بعد مقتل كونراد دي مونتفرات[٢]، وبالرغم من نجاح ريتشارد في تحقيق انتصار كبير على المسلمين في موقعة أرلاسوف[٣]، بادر بالعودة إلى بلاده، عندما أيقن أن السلام مع المسلمين أنسب الحلول، وبعد ما طالت غيبته عن بلاده، وليتصدى للمؤامرة التي تحاك لسلبه عرش إنجلترا[٤]، وليس يخفي أيضا أن من أهم أسباب فشل الحملة الصليبية في تحقيق أهدافها تشبع جنود

---

[١] جال دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص ١٦٦.

ولمزيد من التفاصيل عن المنازعات بين الملكين الفرنسي والإنجليزي، انظر:

Benedict, vol. 2, pp. 183-192; Ambroise, op. cit., pp. 160-165; Eracles, L'Estoire, pp. 179-181. Ernoul, pp. 277-278..

[٢] ولمزيد من التفاصيل عن مقتل كونراد والآراء حول مصرعه، انظر:

إبراهيم خميس إبراهيم: الصراع على عرش مملكة بيت المقدس، ومقتل كونراد دي مونتفرات (١١٨٨-١١٩٢م/ ٥٨٤-٥٨٨هـ)، بحث منشور في كتاب دراسات في الحروب الصليبية، الإسكندرية، ٢٠٠٤م، ص ١٦٧-١٨٩.

[٣] جرت موقعة أرسوف في ٧ سبتمبر ١١٩١م، ولمزيد من التفاصيل عنها، انظر:

محمد مؤنس عوض: معركة أرسوف ١١٩١م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٧.

[٤] أدرك ريتشارد سوء الأوضاع في بلاده حين وصل أحد رجال الدين الإنجليز إلى عسقلان ويدعى روبرت رئيس دير هرفورد وأخبره باضطراب الأحوال في إنجلترا، بعد أن قام أخوة حنا بعزل كل من أوكل إليهم ريتشارد حكم إنجلترا في غيابه، وأن حنا يحاول الاستئثارة بالسلطة مستغلا غياب ريتشارد في الشرق، وحذره روبرت قائلا: "إذا لم تسرع جلالتك بالعودة الآن، فسوف، لا تقدر على استعادة مملكتك دون المجازفة بالقتال"، ولمزيد من التفاصيل، انظر :

Ambroise, op. cit., pp. 355-356; Geoffery de Vinsauf, op. cit., pp. 272-289; CF also: Sidney, P, op. ciot., pp. 79-81.

صلاح الدين بفكرة الجهاد وشجعاتهم واستبسالهم في القتال تحت قيادة صلاح الدين حتى أثبتوا أن ما تجرى وراءه الحملة الثالثة سراب ولا طائل تحته.

وخلاصة أن الدعم الأوروبي للإمارات الصليبية فيما سبق أن عرضناه فنجد أن أوروبا بعد أن قدمت كل الدعم للركائز الصليبية في الحملة الصليبية الأولى غفلت عنها حتى الحملة الثاني، التي تسبب فشلها في ميل ميزان القوى في بلاد الشام لصالح المسلمين، وعندما حاول صليبيو الشام لفت انتباه الغرب لخطورة الوضع، لم يجدوا منه أذنا صاغية حتى كانت حطين، وما تلاها من انتصارات حققها صلاح الدين في إيقاع مبهر سريع، وعندما توالت استغاثات الصليبيين بالغرب في صورة رسائل وسفارات تشرح للناس فيه حقيقة الأحوال السيئة التي يمرون بها، وخطورة وضع المقدسات المسيحية بعد سيطرة صلاح الدين على زمام الأمور، بات الجميع ينتظر رد فعل الغرب الأوروبي سواء رد فعل الحكام أم البابوية التي كانت رأس العالم المسيحي آنذاك أم عامة الشعب في الغرب الأوروبي.

وتباينت ردود أفعال الغرب الأوروبي بين ردود إيجابية وأخرى سلبية، وإقدام وإحجام، فبينما أسرع الملك الصقلي وليم الثاني بتلبية نداء المشرق اللاتيني وأرسل أسطوله لمساعدته تمهل ملكي إنجلترا وفرنسا أكثر من ثلاث سنوات في القيام بعمل مجد لصليبي الشام أمضياها في صراعاتهم المريرة، اللهم إلا محالات قاما بها عن طريق الدعم المادي، كذلك رأينا كيف تحطمت محاولات الإمبراطور فريدريك بارباروسا سواء الدبلوماسية أم العسكرية، بنهايته المأساوية في نهر ساليف، وجهود البابوية في دعم الصليبيين، التي قصرت على إثارة حكام الغرب الأوروبي وشعوبه وتحريضهم على قتال المسلمين.

وكان أكبر نجاح حققه الغرب الأوروبي آنذاك أن استطاع الحفاظ على بقايا الإمارات الصليبية ومنعها من الانهيار عقب حطين، وهو يرجع في معظمه إلى الإمدادات العسكرية المتفرقة التي أرسلت إلى الشرق من أنحاء أوروبا كافة، وليس من الدول الكبرى فها فقط، بالإضافة إلى جهود المدن الإيطالية الثلاث ودعمها البحري والعسكري المستمر، ثم الجهود العسكرية للحملة الصليبية الثالثة

على قلة إنجازاتها التي كان أهمها بالطبع سيطرة الصليبيين على شريط ساحلي بات المنفذ لعلاقاتهم مع الغرب الأوروبي، كذلك نجاح ريتشارد في جعل جزيرة قبرص بمثابة إمدادات لصليبيي الشام، وعبر عنه في عبـارات رددهـا عنـد مغادرته الساحل الشامي عائدًا إلى أوروبا حين قال: "أيتها الأرض الطـاهرة.. أستودعك الرب وأسأله أن يمد في عمري حتى أستطيع مساعدتك كما يريد هو.. وآمل في بعض الوقت حتى أجلب إليك المساعدة التي اعتزمها"([١]).

** ** **

---

(١) الحرب الصليبية الثالثة: ترجمة حسين حبشي، ج٢، ص ٢٨١.

الفصل الثاني

الدعم الأوروبي للإمارات الصليبية
بين الحملتين الثالثة والخامسة
(١١٩٢-١٢٢١م- ٥٨٧-٦١٨هـ)

اتضح في الفصل السابق كيف تكون حلف استراتيجي في الغرب الأوروبي من أجل إنقاذ الكيان الصليبي، الذي كان قد أوشك على الإنهيار التام تحت طرقات قبضة الجهاد الإسلامي القوية عقب حطين، وكيف تمخضت الأحداث عن قدوم ما عرف بالحملة الثالثة، وكان ذلك هو كل ما استطاع الغرب الأوروبي تقديمه من دعم للإمارات الصليبية في بلاد الشام، وهنا برز سؤال مهم هو: هل وقفت العلاقات بين الإمارات الصليبية في بلاد الشام عند ذلك الحد؟ وهل توقف الدعم الأوروبي لصليبي المشرق بين الحملتين الصليبيين الثالثة والخامسة (١١٩٢-١٢٢١م/ ٥٨٧- ٦١٨هـ)؟ هذا ما ستكشف عن الصفحات الآتية.

ساعدت الحملة الصليبية الثالثة الفرنج في واقع الأمر في استرداد إقليم الساحل من صور إلى يافا، وأعادت للمملكة الصليبية قوتها السياسية والعسكرية، وحفظت بقايا الكيان الصليبي من خطر صلاح الدين الأيوبي وهو أو انتصاره [١]، إلا أن ما حققته لا يمكن أن يوصف بالإنجاز الكبير، فلم يسترد الصليبيون بمساعدة هذه الحملة التي هي كبرى الحملات الصليبية –إلا قليلاً مما فقدوه بعد حطي، ولم يحزوا بيت المقدس- هدف الحملة الرئيسي –بل صرفت أنظار الحملات الصليبية عن هذه المدينة فيما بعد، صوب مصر، إلى أن صارت هدف أوروبا المباشر[٢]، وغدت مملكة القدس شريطًا ساحليًا ضيقًا يمتد من يافا إلى صور نحو تسعين ميلاً فقط، لا يتجاوز عرضه عشرة أميال، وفقدت المملكة هيبتها الأولى وتقلصت حدودها [٣]، حتى ليمكن تسميتها مملكة عكا الصليبية، إلا أن الصليبيين أصروا على إطلاق التسمية القديمة عليها[٤]، وأصر أمراؤها على تسمية أنفسهم بالملوك كما كانت الحال من قبل في عهد المملكة القديمة [٥]،

---

(١) Sidney ,P., The Third Crusade, p. 85

(٢) حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٢٣٣.

(٣) Eracles, L'Estoire, p. 199

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧١١.

(٥) Grousset, , R., op. cit., t. 3, p. 124.

وصارت المملكة الصليبية الجديدة أكثر ارتباطًا بالغرب الأوروبي بعد أن اصطبغت بصبغة بحرية بحتة، وفقدت المناطق الداخلية واقتصر نفوذها على ذلك الشريط الساحلي الضيق[1]، فأصبحت أكثر اعتمادًا على أساطيل الجاليات التجارية الإيطالية، التي نجحت بدورها في جعل تلك المدن الساحلية موانئ تجارية كبيرة، وكان لها الفضل في ربط موانئ المملكة بالغرب الأوروبي[2]، حتى أن أحد مؤرخي هذا العصر يرى أن صليبي الشام فقدوا استقلالهم وحريتهم في تسيير أمورهم بعد أن صاروا أكثر اعتمادًا على الغرب الأوروبي[3].

أي أن الحملة الصليبية الثالثة لم تحل في حقيقة المر أيًّا من المشكلات الرئيسية التي كانت تعاني منها الإمارات الصليبية في بلاد الشام، ولم يكن من بد أمام الكيان الصليبي إذا ما أرادوا أن يستمر أن يعتمد على قوات أكبر من أية قوة كان في مقدور أوروبا أن تبعث بها إلى بلاد الشام، وكان صليبيو الشام في حاجة إلى حروب وعمليات عسكرية تض١من أمن هذا الكيان وسلامته، وهذا يعني توفير مزيد من الرجال للقيام بأعباء القتال والدفاع عن المراكز الأمامية للإمارات الصليبية، والنهوض بأعباء الحكم فيها لأن هذه الاحتياجات لم توفر، فإن الإمارات الصليبية بقيت غير مستقرة[4]، ويبدو أن العامل الأمني لم يكن المشكلة الوحيدة التي تؤرق صليبي الشام، فقد كان هناك عامل آخر لا يقل أهمية أو إثارة لقلقهم هو العامل الاقتصادي، فالمناطق التي استولى عليها الصليبيون منذ الحملة الصليبية الأولى ولم تخرج من أيديهم، لم تكن أراضي خصبة[5]، أيضا كونها شريطًا ساحليًا ضيقًا، يقوم اقتصاده على التجارة مع المسلمين هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان تجار تلك المناطق من الصليبيين وأبناء الجاليات التجارية الأوروبية يعارضون دومًا فكرة نشوب الحرب قد

---

(1) Elizabeth Siberry, Criticism of Crusading, 10965-1274, (Oxford, 1985), p. 84

(2) Bartlett,W.B., God Wills it! An IIIustrared History of The Crussades,(London,2000),p.187

(3) Eracles, L'Estoire, p. 200 .

(4) حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٢٤٨.

(5) Prawar ,J., The Latin Kingdom of Jerusalem, (Jeruslem, 1972), p. 415.

تقضي على مكاسبهم الاقتصادية التي يجنونها من الاتجار مع المسلمين على الرغم مما بينهما من خلاف ديني[1]، وكانت كلمة هؤلاء التجار هي العليا، إذ أطاعهم حكام الإمارات الصليبية حتى لا يفقدوا ما كانوا يجنونه من وراء النشاط التجاري في مدنهم وموانيهم، خاصة بعد أن حرم استرداد صلاح الدين لمعظم هذه الموانى والمدن الساحلية الفرنج من الأموال التي كانوا يحصلون عليها في شكل ضرائب تفرض في هذه الموانئ وإلى جانب ذلك، اضطر الصليبيون إلى تخفيض قيمة الضرائب لجذب التجار الإيطاليون إلى موانيهم[2]، كي ينتعش اقتصادهم، بعد أن استحوذت مصر على الجزء الأكبر من التجارة شرقي البحر المتوسط[3]، من المعروف أن هناك نوعان رئيسان من الضرائب التي تقر على السفن التي كانت ترسو في الموانئ الصليبية، يعرف الأولى بضريبة الثلث Tereiaria وهي تجبى على الحجاج والبحارة الذين تقلهم السفن، وتقدر بثلث قيمة رسوم النقل، والثاني ويعرف بضريبة الرسوم Anchoragia هذا إلى

---

(1) James Brundage, The Crusades: A Documentary Survey, (Wisonsin, 1976), pp. 189-190.

(2) كان البنادقة يدفعون ٥٠% من قيمة الأقمشة الحريرية والكتانية، و٧% من قيمة البضائع الأخرى كضريبة، فخفضت هذه الضريبة في عام ١١٥٣م/ إلى ٤% و٥% وفي عام ١١٥٤م دفع البيزاوية نصف قيمة الضرائب المقررة على البضائع في أنطاكية ثم تمتعوا بإعفاء كامل من هذه الضرائب عام ١١٨٧م، كما تمتع الجنوية في أنطاكية وطرابلس بإعفاء مشابه في عام ١١٩٠م، وفي عام ١٢٠٠م خفض بوهيمند الرابع أمير أنطاكية الضرائب على تجار بيزا وجنوة مرة أخرى، انظر :
حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٢٤٩.

(3) مقارنة بمصر كانت قدرات الإمارات الصليبية متواضعة من الناحية التجارية خاصة في النصف الثاني من القرن ١٢م/ ٦هـ، فقد كانت سلع عديدة فيها أرخص من مثيلتها في الإمارات الصليبية كما أن سلعًا أخرى لم تكن تتوفر إلا في مصر كالكتان، ويمكن التأكد من تفوق مصر في هذا الميدان بتتبع الأرقام التي وردت في سجلات موثق العقود الجنوي جوفاني سكريباGiovanni Scriba، والخاصة باتفاقيات جنوا التجارية مع بلدان الشرق الأدنى، فمن بين ١١٢ اتفاقية نجد ٥٨ اتفاقية منها تخص الإسكندرية، بينما يخص الإمارات الصليبية ٣٤ اتفاقية، وبذلك يكون عدد الرحلات التجارية إلى مصر ضعف عددها إلى الإمارات الصليبية، انظر :
Byrne, E.H., Genoese Trade With Syria, in A.H.R., vol. 25. p.202; Cahen,C., Notes Sur L'Histoire des Croisades, iii, in B.F.L.S., no. 8, 1951, p. 332; Lopez, R.S.L., The Trade in Medieval Europe, The South, in C.C.H, vol. 2., p. 310.

جانب الضرائب المقررة على السلع نفسها والضرائب على مرور السلع من بوابات المدن الصليبية إلى المناطق الداخلية من بلاد الشام[1]، تلك هي الأحوال الاقتصادية للإمارات الصليبية في بلاد الشام عقب رحيل الحملة الصليبية الثالثة، وهذا أثرها على علاقتها بالغرب الأوروبي في تلك الفترة.

وهناك عامل آخر جعل صليبي الشام يميلون إلى مهادنة المسلمين في تلك الفترة، هو ازدياد عوامل الشقاق والفرقة بين صليبيي الشام، ظهرت بوضوح بين الفرنسيين والإنجليز في أثناء الحملة الصليبية السابقة، واستمرت حتى رحيل ملك إنجلترا إلى الغرب الأوروبي، الأمر الذي أدى إلى إضعاف مركز الصليبيين في تلك الفترة[2]، هذا فضلاً عن نزاع صليبي أنطاكية مع الأرمن والذي استمر فترة طويلة، ولم يختلف الأمر كثيرًا بالنسبة للمسلمين، فقد مالوا أيضًا نحو المهادنة، ليتفرغوا لإنهاء ما نشب بينهم من خلافات[3]، اضطر الصليبيون في بلاد الشام إذن إلى تجنب قتال المسلمين، حتى الغرب الأوروبي لم يوفر القوات اللازمة للقيام بذلك، فجددوا الهدنة التي عقدها ريتشارد مع صلاح الدين في عام ١١٩٢م/ ٥٨٨هـ، عدة مرات[4].

وعلى الرغم من أن هنري دي شامبيني **Henri de Champagne** حاكم مملكة بيت القدس الأسمية (١١٩٢/١١٩٧م/ ٥٨٨-٥٩٤هـ)، كان رجلا قويًا، حاول تدعيم نفوذه وبعث القوة في أوصال مملكته، إلا أنه واجه عددًا من

---

(1) R?hrict, Regesta, no. 731., p. 195; Riley-Smith, J., Feudal Nobilith of The Kingdom of Jerusalem, 1174- 1277, (London, 1973), pp. 89- 95.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢ ص ٧١٢.

(3) ما إن توفى صلاح الدين الأيوبي في ٣ مارس ١١٩٣م/ ٢٧ صفر ٥٨٩هـ، حتى نشبت الصراعات والحروب بين أبنائه خاصة بين الأفضل والعزيز واستمرت وقتا طويلاً، مع بعض المؤامرات في الشمال استهدفت إعادة حكم الزنكيين بقيادة عز الدين أمير الموصل، وظلت تلك الأخطار تحدق بالدولة فترة طويلة، حتى تمكن الملك العادل – الأخ الأصغر لصلاح الدين– من السيطرة على زمام الأمور، انظر :

أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص ٢٢٩-٢٣٠؛ وابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٣٠-٣١، وأبو الفدا: المختصر، ج٢ ص٩٧.؟

سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧١٣.

(4) Cahen, La Syria de Nord, p. 579.

الصعبات والمشكلات، كان أبرزها أنه لم يتوج ملكًا، ولا يعرف السبب الحقيقي في ذلك، فربما أراد إرجاء هذه لخطوة حتى يسترد بيت المقدس ويتــوج فيهــا، وربما لم يجد قبولاً من البابوية والرأي العام الصليبي(١)، خاصة من جانب حاكم قبرص جي دو لوزينيان الذي راودته فكرة استعادة عرشه المفقــود فــي بــلاد الشام، واتصل بالمسلمين، وأرسل سفارة إلى صلاح الدين لم تــؤت ثمــاره(٢)، وعندما يأس من مساعدة صلاح الدين استمال البيازنة بأن وعــدهم بامتيــازات كبيرة وشجعهم على الإصغاء له عطف هنري دى شــامبيني علــى الجنــوبيين المنافسين الدائمين لهم(٣)، وعندما اكتشف هنري أن البيازنة في صــور دبــروا مؤامرة للاستيلاء على المدينة وتسليمها إلى جي، بادر بإلقاء القبض على مديري المؤامرة، وأمر بتقليل عدد البيازنة في صور، وذلك في مايو ١١٩٣م/ جمــادى الأولى ٥٨٩هـ(٤)، وانتقم البيازنة لأنفسهم بان أغاروا على القــرى الســاحلية الواقعة بين صور وعكا، وظل العداء قائمًا بين هنري من ناحية والبيازنة وجي دو لوزينيان من ناحية حتى وفاة الأخير في إبريل ١١٩٤م/ جمــادى الأولــى ٥٩٠هــ، وخلفه أخوه عموري دي لوزينيان في حكم قبرص(٥).

ولم تقف مشكلات الإمارات الصليبية عند هذا الحد، بل امتدت شمالاً إلى إمارة أنطاكية التي صارت بعدًا استراتيجيًا لصليبي الشام، وخشى عليها هنــري دي شامبيني من خطر الأرمن نظرًا لسياسة الخور والضعف التي اتبعها بوهيمند الثالث أمير إنطاكية مع من حوله(٦)، مما أغرى ليو الثاني ملك أرمينيا (١١٨٧-

---

(١) يرجع ذلك إلى زواج هنري من إيزابيلا وريثة مملكة بيت المقدس الصليبية الأسمية، ولم يمضي على وفاة زوجها كونراد دو مونتفرات إلا بضعة أيام، انظر :
ذيل وليم الصوري: ترجمة حسن حبشي، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) Eracles, L'Estoire, p. 215.

(٣) هايد : تاريخ التجارة، ج١، ص ٣٢٢.

(٤) Eracles, L'Estoire, pp. 195-196; Ernoul, pp. 290-291

(٥) Amadi, Chroniques d'Amadi et de Strambaldi, ed. Mas Latrie, R. Histoire Politique,2 vols., (Paris, 1891-1893), vol. 1, pp. 85-86.

(٦) حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٢٣٥.

١٢١م/ ٥٨٣-٦١٧هـ)، تحاشيًا لسقوطه في أيدي الصليبيين، وأثار هذا مخاوف بوهيمنَد، إذ كان حصن بغراس يحمي مداخل الإمارة من الجهة الشمالية[١]، وأخيرًا في أكتوبر ١١٩٣م/ رمضان ٥٨٩هـ اقترح ليو حل مشكلة بغراس، فدعا بوهيمند وحاشيته للمجئ إليه ثم ما لبث أن قبض عليهم، وقرر عدم الإفراج عنهم إلا إذا تنازل بوهيمند عن أنطاكية _[٢].

فوافق بوهيمند على الفور على طلب ليو، وعند تسليم الأرمن للمدينة حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ كان رد فعل صليبيي أنطاكية قويًا، فقد ثاروا بقيادة بطريرك المدينة إيمري دي ليموج **Aymeri de Limoge** ، ومنعوا القوات الأرمنية من دخول المدينة[٣]، واستنجد إيمري وأهل أنطاكية بهنري دي شامبيني، وسرعان ما لبى النداء ووصل إلى أنطاكية، وأدرك بعين ثاقبة أنه ليس من الحكمة إثارة الحرب مع الأرمن، لأن مثل هذه الحرب لن يستفيد منها سوى المسلمين [٤]، ونجح في عقد اتفاق اعترف فيه بوهيمند بملكية ليو لساحل خليج الإسكندرية كله وحصن بغراص وفي مقابل ذلك أطلق سراح بوهيمند وحاشيته[٥].

أما عن سياسة هنري دي شامبيني تجاه المسلمين في هذه المرحلة الحرجة من حياة الإمارات الصليبية، فقد اتسمت بالحكمة والميل إلى

---

(١) حصن بغراس حصن قوي له ثلاث أسوار تعلوها الأبراج، وكان يحمي مداخل بلاد ليو الأرميني، ويطل على إمارة أنطاكية مباشرة، انظر :

Wilbrand of Oldenberg, Iineraium, terra Sanctae ed. J. M. Laurent, in Peregrinators medii aeviquatuor, 2nd ed, (Leipziq, 1873), p. 136.

(٢) R. H. C., Doc. Arm, T.1, pp. 309-411, Trans. By Chabot (Paris,1905), p.411, Eracles, L'Estoire, pp. 207-208

(٣) Sempad le Connétable, Chronique, in R.H.C. Doc. Arm. Tom. 1, p. 632; Ernoul,pp.318-230

(٤) Eracles, pp. 209-210

(٥) Michel les Syrien, op. Cit., p. 411

المسالمة[1]، وساعده على ذلك احتدام النزاعات بين أبناء البيت الأيوبي عقب وفاة قائدهم صلاح الدين، واستغل هنري تلك الظروف، وأخذ يعمل على توحيد الصف الصليبي، ونجح في إعادة مملكة بيت المقدس إلى زعامة الإمارات الصليبية الأخرى، وجعلها ثانية على رأس القوى الصليبية في بلاد الشام بعد أن سوى المشكلات التي نشبت بينهما، انتظرًا لتحرك أوروبي يعوض فشل الحملة السابقة في تحقيق استعادة ما فقده الصليبيون على يدي صلاح الدين.

وإذا ألقينا نظرة سريعة على أحوال الغرب الأوروبي في تلك الفترة، لوجدنا البابوية تمر بحالة من الوهن مع الضعف السياسي الواضح للبابا كلستين الثالث (١١٩١-١١٩٧م/ ٥٨٨-٥٩٤هـ)، أمام قادة أوروبا[2]، كما استمر الصراع بين فرنسا وإنجلترا، فما أن عاد فيليب أغسطس على فرنسا عام ١١٩١م/ ٥٥٨هـ، حتى قرر الهجوم على نورمانديا- التي كانت من الأملاك الإنجليزية- لكنه لم يتمكن من ذلك بسبب رفض أمرائه الاشتراك في هذا الهجوم لأنه لا يجوز الاعتداء على أراضي صليبي يحارب في الأراضي المقدسة، إذ تعد هذه الأراضي طيلة غياب صاحبها تحت وصاية البابا وحمايته[3]، ولهذا لجأ الملك فيليب إلى بث الشقاق بين الملك ريتشارد وأخيه حنا، وأغرى الأخير بإشعال الثورة ضد ريتشارد[4]، وحينما علم ريتشارد بذلك آثر العودة سريعا إلى بلاده وسلك الطريق البري من الاراضي الإيطالية إلى

---

(1) يذكر ابن الأثير أن هنري دي شامبيني أرسل إلى صلاح الدين: "يستعطفه ويستميله ويطلب منه خلعه، وقال له: "أنت تعلم أن لبس القبا والشربوش عندنا عيب، وأنا ألبسها منك محبة"، وكان أن أرسل إليه صلاح الدين خلعه سنية منها القبا والشربوش، ففرح بهما الملك الصليبي وارتداهما في عكا، عن ذلك انظر :
ابن الأثير : الكامل، ج ١٢، ص ٧٩.

(2) Uilmann. W., The growth of papcy government in Middle Ages, (London,1955),p.20

(3) محمد محمد مرسي الشيخ: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص ٤٢٦.

(4) ذيل وليم الصوري: ترجمة حسن حبشي، ص ٢٣٧.
وانظر ما سبق في الفصل الأول.

إنجلترا فوقع أثناء ذلك أسيرًا في يد ليوبولد Leopold دوق النمسا –وهو الرجل الذي أهانه ريتشارد من قبل في عكا ورمى برايته إلى الأرض– فأتهمة ليوبولد باغتيال كونرادي دي مونتفرات، وزج به في السجن[1]، ثم قرر تسليمه بعد ثلاثة شهور إلى الإمبراطور الألماني هنري السادس الذي احتجزه لمدة سنة، ولم يطلق سراحه إلا بعد تعهد ريتشارد بدفع فدية كبيرة[2]، وفي ذلك الوقت كان فيليب قد استغل الفرصة وهاجم الأملاك الإنجليزية في نورمنديا[3].

وما أن عاد ريتشارد إلى بلاده في مارس ١١٩٤م/ صفر ٥٩٠، حتى نهض بما ينتظره من المشاغل الكثرة التي صرفته نهائيًا عن التفكير في القيام بحملة أخرى إلى الشرق[4]، وما لبث أن قام بهجوم كاسح على القوات الفرنسية في نورماندیا، وانزل بفيليب أغسطس هزيمة ساحقة في موقعة فريتفال Freteval ولم ينج فيليب إلا بشق الأنفس، الأمر الذي أرغمه على الانسحاب من المناطق الإنجليزية وعقد هدنة مع ريتشارد[5]، ومنذ عودة ريتشارد إلى إنجلترا فترات الحماسة الصليبية فيها، ولم يعد أي ملك إنجليزي يفكر في ترك البلاد لنجدة الإمارات الصليبية في بلاد الشام[6].

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن رحلة عودة اتلملك ريتشارد، وما تعرض له من مخاطر حتى قبض عليه، واتهامه بمقتل كونراد، والرسالة التي بعث بها زعيم الباطنية إلى دوق النمسا يعلن فيها براءة ريتشارد من مقتل كونراد، انظر :
الحرب الصليبية الثالثة: ترجمة حسن حبشي، ص ٢٨٠-٢٨٧.

(٢) تم تحديد قيمة الفدية بمائة وخمسون ألف مارك- يحصل الإمبراطور الألماني على مائة ألف والباقي لدوق النمسا، وعن ذلك، انظر :
ذيل وليم الصوري: ترجمة حسن حبشي، ص ٢٦٤

(٣) Ambrois, op. cit., p. 427

(٤) ما أن وصل ريتشارد إلى بلاده، حتى أخذ في إعادة ترتيب الأمور بها، واهتم بجميع الأموال اللازمة لدفع فديته، ويرى مؤرخ الحرب الصليبية الثالثة أن ملك فرنسا طلب مبلغا من المال نظير الإذن لمرور الفدية بأرضيه، وعن ذلك، انظر :
الحرب الصليبية الثالثة: ترجمة حسن حبشي، ص ٢٤٣.

(٥) قام المبعوث البابوي الكاردينال بيتر أوف كابيو Peter of Copue بإبرام الهدنة بين ملكي إنجلترا وفرنسا لمدة خمس سنوات، تبدأ من الثالث عشر من أبريل عام ١١٩٩م، وعن ذلك، انظر:
ذيل وليم الصوري، ترجمة حسن حبشي، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٦) Ambrois, op. cit., p. 429 .

أما عن ألمانيا -التي كانت تعرف آنذاك بالإمبراطورية الرومانية المقدسة- فما أن توفى الإمبراطور فريدريك بارباروسا حتى تولي ابنه هنري السادس Henry

VI عرش الإمبراطورية وعمره لا يتجاوز الثالثة والعشرين[١]، وثارت المدن اللمباردية من جديد ضد الإمبراطورية مما دفع الإمبراطور إلى أن يعبر جبال الألب إلى إيطاليا ليخضعها[٢]، وقد كان يخطط لمشاريع ضخمة، على رأسها أن يجعل من نفسه سيدًا على العالم المسيحي بأسره، سواء في أوروبا أو الدولة البيزنطية، وقد حرص على تلاقي أخطاء والده السابقة فيما يتعلق بعلاقته بالدولة البيزنطية، كما كان زواجه منن كونستانس ابنة وليم الثاني ملك صقلية، عاملاً مساعدًا على اتساع طموحاته بعد أن ورثت العرش الصقلي، وكان تتويجه في صقلية عام ١١٩٤م/ ٥٩١هـ، بمثابة اتحاد يعقد بين ألمانيا وصقلية[٣]، ويذكر أحد المعاصرين أن فكرة قيادة هنري لحملة صليبية تتوجه لبلاد الشام لمساندة الإمارات الصليبية، كانت جزءًا من خطته ومشاريعه التوسعية تلك [٤].

وفي حقيقة الأمر، كان الإمبراطور هنري السادس الأمل الوحيد المتبقي لصليبي الشام في الغرب الأوروبي، خاصة بعد أن سار على سياسة والده، ولأنه لم يعد له أعداء يخشاهم في أوروبا[٥]، وهناك جملة من الأسباب قوت

---

[١] نورمان كانتور: التاريخ الوسيط، ج٢ ص ٥٤٨؛ وعادل عبد الحافظ: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، ص٢١١.

[٢] نيل وليم الصوري: ترجمة حسن حبشي، ص ٢٦٧.

[٣] يرى المؤرخون أن استيلاء هنري السادس على صقلية، سبب إزعاجًا لبيزنطة، وعن ذلك انظر:

Johnson, The Crusades of Frederick Barbarossa and Henry Vl, pp. 117- 120, Ostrogorsky, op. cit., p. 366.

[٤] Poul Wiegler, The Infidel Emperor and his Struggles Against The Pope, A Chronical of the 13th Century Trans. By. Brian W. Downs, (London, 1930), p. 100.

[٥] Poul Wiegler, The Infidel Emperor and his Struggles Against The Pope, A Chronical of the 13th Century Trans. By. Brian W. Downs,

فكرة الاتجاه إلى الشرق عند هنري السادس، وفي مقدمة هذه الأسباب أن البابا كلستين الثالث عقد الآمال على أن يقوم هنري بقيادة حملة صليبية جديدة، لما كان بين إنجلترا وفرنسا من صراع آنذاك وأرسل إليه رسلاً، واقتنع هنري بأن مشاركته في إتمام ما قام به والده أمر ضروري، وأن استجابته لنداء البابوية هو الطريق الوحيد إلى مآربه[١]، ومما زاد من حماس هنري أن الصليبيين بالشرق كتبوا إليه يدعونه لتخليص رفات أبيه فريدريك بارباروسا من الأسر -إذ كان بصور- وأنه لا يمكن دفنه في بيت المقدس إلا بعد أخذها من المسلمين[٢]، ولم تكن أحوال الدولة الأيوبية قد استقرت، ولم يكن الملك العادل قد استطاع بعد السيطرة على زمام الأمور، وهو أمر لم يكن خافيًا على الغرب الأوروبي[٣].

ومما لاشك فيه، أن هذه الأسباب جميعها دفعت هنري لقبول الصليب من أسقف سوتري Sutri في عام ١١٩٥م/ ٥٩١هـ[٤]، وأرسل إلى البابا على الفور يطلب منه إرسال مندوب عنه إلى ألمانيا ليبشر بين أهلها ويدعوهم إلى حمل الصليب والمشاركة في الحملة الصليبية القادمة، وسوف يهيئ السفن اللازمة لنقلهم، بل إنه سوف يتكفل بجميع نفقاتهم في سبيل استرداد ببيت المقدس[٥]، وكانت السنوات التي قضاها هنري السادس في الحكم قد صقلته، وأضافت كثيرًا إلى خبراته السياسية، ومن ثم أخذ يستعد عسكريًا لتنفيذ مخططه[٦]، ووجه في الوقت ذاته رسائل عدة إلى رجال الدين في إمبراطوريته، طالبا منهم أن يعجلوا بدفع المحاربين إلى الخروج، واستطاع خلال عام واحد أن يجهز جيشًا كبيرًا بعد أن وعد بمنح كل من يشترك في الحملة ثلاثين أوقية من

---

(١) Arnold of Lubeck, op. cit., p. 204, Ernoul, p. 302.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص ٢٣٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٧١-٧٤.

(٤) Johnson, op. cit., p. 120.

(٥) أضاف هنري السادس في خطابه للبابا بأنه سوف يجهز من ناحيته كل راغب في المشاركة في الحملة، وأنه سوف يزودهم بجميع ما يحتجونه من زاد ومؤنة، وعن ذلك انظر:
نيل وليم الصوري: ترجمة حسن حبشي، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٦) مكسيوس مونروند: تاريخ الحروب الصليبية المقدسة في المشرق المدعوة بحرب الصليب، ترجمة مكسيوس مظلوم، ط أورشليم، دار الرهبان الفرنسيسكان، ١٨٦٥م، ص١٧٢.

الذهب، فاستجاب عدد كبير من الناس لهذا الإغراء، ووصلت طلائع الحملة الألمانية إلى عكا في أغسطس ١١٩٧م/ شوال ٥٩٣هـ[١]، فانقضى عهد الهدوء النسبي الذي كان سائدا بين المسلمين والصليبيين.

ولم يستقبل هنري دي شامبيني القوات الألمانية بارتياح، إذ تعلم من خبرته ودرايته بأمور المنطقة في تلك الفترة، ما تنطوي عليه إثارة حرب لا داعي لهان وخاصة بعد عقد الصلح مع المسلمين[٢]، وتبني دبلوماسية دقيقة تقوم على إزكاء نار الفرقة بين أبناء البيت الأيوبي[٣]، ولكن وصول الألمان أنهى الهدنة بين طرفي الصراع في بلاد الشام، لأن الألمان أتوا إلى الشرق عازمين على القتال دون عرض الأمر على هنري دي شامبيني[٤].

وما إن علم الملك العادل بوصول الحملة الألمانية حتى زحف بقوات تجاه مدينة يافا، وتمكن من الاستيلاء عليها بحد السيف في أغسطس ١١٩٧م/ شوال ٥٩٣هـ[٥]، وعندئذ قررت القوات الألمانية الصليبية ضرورة مهاجمة مدينة بيروت وانتزاعها من أيدي المسلمين، وبالفعل حاصرت تلك القوات بيروت، ونجحت في الاستيلاء عليها في أكتوبر ١١٩٧م/ ذي الحجة ٥٩٣هـ[٦]، وتوالى وصول أخبار الحملة إلى الغرب الأوروبي، وكانت أشهر ما جاء في الخطاب الذي أرسله هنري دوق اللورين Henry Duke Barabant الذي كان قائدا للحملة إلى رئيس أساقفة كولون يخبره بما حققته حملته، ويشير إلى أن قلاع الساحل كلها حتى إمارة إنطاكية أصبحت في أيدي الصليبيين، لكن الصواب

---

(١) ذيل وليم الصوري: ترجمة حسن حبشي، ص ٢٧٢-٢٧٣.
حيث أورد قائمة بأشهر الأمراء والنبلاء الألمان المشاركين في الحملة.

(٢) Ernoul, p. 316.

(٣) Runciman, op. cit., vol.3., 910.

(٤) Eracles, L'Estoire, p. 318.

(٥) ابن الاثير: الكامل، ج٢، ص ١٢٦؛ أبو الفداء: المختصر، ج٢، ص ٩٣.

(٥) Ernoul, pp. 312- 315, Eracies, L'Estoire, p. 227

ولمزيد من التفاصيل عن انتزاع الصليبيين لمدينة بيروت ،انظر :

محمد محمد عبد الحميد فرحات، بيروت ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة دكتوراه غير منشورة، الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص ٢٩٤-٣٠٢.

جانبه في ذلك، فقد كانت جبلة واللاذقية في قبضة المسلمين، غير أنه هدف من ذلك كان حث الأوربيين على القدوم إلى بلاد الشام والمشاركة في الحملة[1]، ولكن سرعان ما وصلت الأخبار إلى الألمان الموجودين في الشرق، بان ملكهم هنري السادس قد توفى وذلك في أواخر ١١٩٧م/ ٥٩٣هـ[2]، فضعفت روحهم المعنوية، وقرروا العودة إلى أوطانهم، وخشي البابا من عاقبة وفاة هنري السادس، وخاصة بين القادة الألمان بالشرق، لذا سارع بإرسال خطابات إليهم تدعوهم إلى البقاء حيث هم مع تجنب الدخول في صراع داخلي، طالبًا منهم : "ألا يهجروا مدينة المسيح ولا الصلوات والنداءات وألا يعودوا إلا ومعهم مفاتيح مدينة بيت المقدس[3]، وعقد اجتماع عام في عكا ضم القادة الألمان والصليبيين من جماعة الفرسان التيوتون[4]، لتشارك طائفتي الداوية والاستارية في دفاعهما عن الكيان الصليبي، في محاولة من الغرب الأوروبي للمحافظة على الكيان الصليبي في بلاد الشام[5]، وقررت الحملة الألمانية العودة إلى الغرب، بعد تردي الأوضاع في ألمانيا عقب الوفاة المفاجئة للإمبراطور الألماني هنري السادس[6]

على أن انتهاء الحملة الألمانية على ذلك الوجه، ألقى على كاهل الملك الصليبي عموري الثاني Amalric II (١١٩٧-١٢٠٥م/ ٥٩٣-٦٠٢هـ)[7] ، مهمة مواصلة حرب المسلمين التي أشعل نارها الألمان، ولم يكن عموري

---

(١) Letter of Henry Duke Barabant to Archishop of Lorraine, (Hanover 2001).

راجع أيضا: حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٢٤٢، ح ٢٧٣.

(٢) مات هنري السادس في ١٠ سبتمبر ١١٩٧، انظر:

Tout, The Empire, p. 312

(٣) Arnolud of Loubek, op. cit., p. 207.

(٤) لمزيد من التفاصيل عن نشأة جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، انظر:

حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص ١١٥-١٢٢.

(٥) R?hrict, Geschichte des Konigreichs, p. 678.

(٦) Eracles, L'Estoire, p. 222.

وانظر أيضا: هانز ماير: الحروب الصليبية، ص ٢٢٠.

(٧) Eracles, L' Estoire, p. 323.

مستعدًا لحرب طويلة المدى، وفي الجانب المقابل كان الملك العادل يرغب في أن يتفرغ لشئون الدوَلة الأيوبية، هكذا ساعدت الأوضاع على عقد صلح بين المسلمين والصليبيين من عام ١١٩٨م/ ٥٩٤هـ[١].

وهكذا نتج عن الحملة الألمانية حدثان مهمان بالنسبة لصليبي الشام، وهما: استعادة بيروت وإنشاء جماعة الفرسان التيوتون، ولم تنجح القوات التي جاءت مزودة بالعتاد في تحقيق الهدف الذي جاءت من أجله –وهو استعاد بيت المقدس– ولم تستطع الجيوش الألمانية التي أرسلها هنري السادس أن تقوم بعمل عسكري يشرف الإمبراطورية الرمانية المقدسة، في الوقت الذي كانت الإمارات الصليبية تشكو ضعفًا شديدًا من وضعها الجديد، ولا ترجوا أكثر من أن تعيش في سلام مع جيرانها المسلمين، انتظارًا لدعم قوى تأتيها من أوروبا.

وجعلت الظروف السياسية والاقتصادية للإمارات الصليبية في تلك الفترة، تلك الإمارات في حاجة دائمة لمساعدة الغرب الأوروبي، فبعد تولي عموري الثاني عرش المملكة الصليبية، عقب الوفاة المفاجئة لهنري دي شامبيني[٢]، وظن الناس جميعا أن هذا الاختيار كان موفقا، لأنه ربط بين مملكتي قبرص وبيت المقدس الأسمية تحت تاج واحد، لا أن عموري خيب آمال البابا والإمبراطور بأن أعلن بمجرد توليه عرش بيت المقدس أن كل مملكة من المملكتين ستدار بمعزل عن الأخرى، وأنه لن ينفق أموال قبرص للدفاع عن بيت المقدس، فالملكية في قبرص وراثية وانبه هيو هو ولي عهدها، في حين كان عموري يدين لزوجته إيزابيلا بعرش مملكة بيت المقدس، فإذا مات يكون لها الحق في الزواج مرة أخرى، وتكون وريثتها ابنتها ماريا ابنة كونراد دي مونتفرات، لذا حرص عموري على تدعيم مملكة قبرص بوجه خاص[٣]، وهو

---

(١) تم الصلح على أساس القواعد التي أتبعت في صلح الرملة، واتفق الطرفان على أن تكون مدة الهدنة ثلاث سنوات، انظر:
ابن الواصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٧٨.

(٢) مات هنري في ١٠ سبتمبر ١١٩٧م/ ٢٦ شوال ٥٩٣هـ وتولى عموري الثاني لوزينيان عرش المملكة الصليبية في يناير ١١٩٨م/ ربيع الأول ٥٩٤هـ، بعد أن تزوج من إيزابيلا أرملة هنري، انظر :
Ernoul, pp. 305-310, Eracles, L'Estoire, pp. 220-223.

(٣) Jhon La Monte, Feudal Monarchy, p. 114.

الأمر الذي دفع الإمارات الصليبية إلى عدم التعويل كثيرًا على موارد قبـرص، في حين باتت أكثر اعتمادًا من الناحية المادية على الغرب الأوروبـي، وبـات مصير فرنج الشام أكثر ارتباطًا بالغرب الأوروبي في انتظار من يمد لهـم يـد المساعدة من القوى المختلفة بأوروبا.

وعلى أية حال، لم يكن من الممكن أن يقوم بهـذا الجهـد سـوى البابـا إنوسنت الثالث Innocent III(١١٩٨-١٢١٦م/ ٥٩٥-٦١٣هـ)[١] ، الذي كان يرى أنه لا مجال لحملة صليبية يشرف عليها ملـوك أوروبـا، ويقتصـر دور الكنيسة اللاتينية فيها على دعوة مسيحي الغرب للمساهمة فيها -كما رأى أنه أية حملة صليبية يجب أن تخضع لهيئة البابوية، وكان إنوسنت مهتما بإعـادة بنـاء مملكة بيت المقدس الصليبية التي دمرها صلاح الدين، الأمر الذي لـم تسـتطع إنجازه الحملة الصليبية الثالثة[٢]، ولقد حرص على أن يجعل من الفكرة الصليبية سلاحه البتار في الداخل والخارج في مواجهة السلطة الزمنية، لتحقيق أعلى قدر من السيادة البابوية، وأفصح دون مواربة في رسالة بعث بها إلى نبلاء تسـكانيا Tuscanyعن مدى سلطانه، بقوله: "كما أن القمر يستمد نوره من الشمس، فإن السلطة الزمنية تستمد سلطانها وكرامتها من البابوية"[٣].

ومن هذا المنطلق، ولاقتناعه الكامـل بـأن "سـيد العـالم **Dominus Mundi**: بلا منازع، فلم يكن يسمح لأي شئ بأن يعوقه عن تحقيـق أهدافـه، ومن ثم انخرط في مسائل السياسة والدبلوماسية والإقطاعية والعائلية في أوروبا، وامتزج الفكر الصليبي عنده بفكر السمو البابوي[٤]، وكانـت الفرصـة مواتيـة للبابوية، فلم يصادف إنوسنت الثالث حين تولى كرسي البابوية ندا مـن الحكـام

---

[١] اعتلى الكرسي البابوي في ٨ يناير ١١٩٨م، في يوم وفاة البابا كلستين الثالث واسمه في الأصل لوثاريو كونتي Lotario de Count وهو من أسرة رومانية نبيلة، وقد درس اللاهوت في باريس، والقانون الكنسي في بولونيا وله مؤلفات دينية مهمة، لمزيد من التفاصيل عنه، انظر:

Ursula Schwerin. Op. cit,. pp. 92- 94; Hans, K., op. pp. 84- 86.

[٢] حسين عطية : المراسلات، ص ٢٦٩.

[٣] أرخت تلك الرسالة بأكتوبر ١١٩٨م/ ذي القعدة هـ، انظر:

Pope Innocent III, Letter of Innocent III to The Nobles of Tuscany (October 1198), in Ursula Schwerin, op. cit., p. 93

[٤] رأفت عبد الحميد: الفكر البابوي الصليبي، ص ٤٨.

العلمانيين، بعد أن مات الإمبراطور الألماني هنري السادس فجأة[١]، واشتعلت الحرب الأهلية في ألمانيا، وانغمس ملكا فرنسا وإنجلترا في المنازعات، واستعادت البابوية سلطاتها في جنوب إيطاليا[٢]، وأضحى في وسع إنوسنت أن يمضي قدمًا في الدعوة لحملة صليبية جديدة لنجدة الإمارات الصليبية في بلاد الشام[٣].

ثم يكن غريبا إذن أن يكون الشغل الشاغل لإنوسنت الثالث منذ اليوم الأول لاعتلائه كرسي البابوية الحملة الصليبية التي يجب أن تتجه إلى الشرق لاسترداد بيت المقدس، وعد ذلك أولى مهامه المقدسة بعد أن فشلت الحملة العلمانية التي قادها ملوك أوروبا الثلاثة العظام في تحقيق أي نجاح مؤثر على مسيرة الحركة الصليبية[٤]، خاصة بعد أن نجح الملك العادل في جمع شمل البيت الأوروبي واستقرت أركان عرش الدولة الأيوبية[٥]، يعد كثير من المؤرخين البابا إنوسنت الثالثة علامة فارقة في تاريخ الحروب الصليبية بعد البابا أوربان الثاني[٦]، ومن خلال الوثائق والخطابات البابوية في عهده أمكن للباحث دراسة هذه الفترة من مختلف جوانبها، غير أن ما يهمنا هنا هو ما يتعلق منها بجهوده في مساندة الصليبيين في الشام[٧].

---

(١) نورمان كانتور: التاريخ الوسيط، ج٢، ص ٥٦٢.

(٢) Innocent III, pope, Regesta, in p. L., vol. 214. Cols119- 123 .

(٣) هانز ماير: الحروب الصليبية، ص ٢٧٧.

(٤) ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة: بشير السباعي، ط١، عين للطباعة والنشر، ٢٠٠٣م، ص ٢٠٢.

(٥) Gromsset,R., op.cit., t. pp. 164- 166.

(٦) Siomn, L., The Crusading Movement. in The Oxford Illustraled History of The Crusades, p. 41; Kelly, op. cit., p. 191.

(٧) بخلاف خمسة آلاف رسالة تم جمعها عن فترته، هناك مئات الرسائل الأخرى لا تزال مخطوطة، ودراسة من أهم للدراسات عن خطابات إنوسنت الثالث، إذ تناولها من عدة نواحي سواء ما يتعلق بمؤلفيها أو من نقلها، انظر:

Chency, C.R., The Letters of Pope Innocent III,inMedieval Texts and Studies,(Oxford,1873) pp.16-28 .

بدأ إنوسنت الثالث عهده بالكتابة إلى البندقية طالبا منهم إلا يبيعوا أو يتبادلوا مع المسلمين الحديد والسفن، وغير ذلك من المواد ذات التأثير الفعال في الحرب، وإلا تعرضوا لغضب الكنيسة ولأشد العقاب منها(١).

ثم سارع بإعلان الدعوة لحملة صليبية جديدة من خلال خطابه الشهير الذي أرسله رجال الدين في فرنسا وإنجلترا وهنغاريا وألمانيا وصقلية في ١٥ أغسطس ١١٩٨م/ ٦ رمضان ٥٩٤هـ(٢)، داعيا إلى الإعداد لتلك الحملة، وعرف هذا الخطاب باسم ما بعد الحزن والشقاء(٣)، وأشار فيه إلى النقاط التالية: ضياع بيت المقدس ومقتل الصليبيين في الأراضي المقدسة، وتأكيده على سيطرة البابوية على الحركة الصليبية،، كما دعا المسيحيين إلى القتال من أجل الصليب، وأضاف وجوب الطاعة الأخلاقية لكل مسيحي يشارك في الحملة، كما ربط بين آسر الصليب وأسر المسيح (عليه السلام)، وصب جام غضبه وبأسلوب لم يحدث من قبل على حكام الغرب الأوروبي، لانخراطهم في الحروب وأعمال الفسوق والتهرب من المشاركة في الحروب الصليبية، التي عدها البابا "حرب المسيح وهدفها الثأر لجراحه"، ولم ينس البابا أن يتهم المسلمين بالتهكم على المسيح وأنهم يقولون أين إلهكم الذي لا يستطيع أن يحرر نفسه من أيدينا(٤)؟.

ومما سبق نستطيع أن نستشف عددًا من الأشياء المهمة، منها ابتداء الاختلاف بين هذه القرارات البابوية السابقة، الداعية للحملات الصليبية، فقد تضمنت هذه منح الغفران سواء للمشاركين بأنفسهم في الحملة أم من يقدم المال لمساعدة المشاركين فيها دون أني يشارك بنفسه في الحملة، كما تعهد البابا

---

(١) Pope Innocent III, Letter of Innocent III to The Venet- ions (June 1198), in: Thatcher, A Source book, pp. 535 537.

(٢) R?hrict, Regesta, no. 941., p. 197.

(٣) رايلي سميث: ما الحرب الصليبية؟ ترجمة محمد فتحي الشاعر، ص ٦٣، هانز ماير : الحروب الصليبية، ص ٣١١.

(١) ولعدم وجود سبب مباشر للدعوة للحملة مثل الحملات السابقة اتخذ البابا من سقوط يافا في أيدي المسلمين في العام السابقة لدعوته- أي عام ١١٩٧م/ ٥٩٣هـ، سببا للدعوة للحملة الصليبية الجديدة، انظر :

Roger of Hoveden, op. cit., vol. 2., p. 441.

بحماية ممتلكات المشاركين في حمل الصليب ومسئولية رؤساء الأساقفة عن ذلك[1].

وفور اعتلائه الكرسي البابوي، رسل عدة رسائل إلى كل من عموري الراهب بطريريك بيت المقدس (١١٩٠-١٢٠٥م/ ٥٨٦-٦٠١هـ)، وجلبرت دي دورال مقدم الداوية (١١٩٤-١٢٠٤م/ ٥٩٠-٦٠١هـ)، وجودي فري دي دونجون مقدم الإسبتارية (١١٩٢-١٢٠٤م/ ٥٨٨-٦٠١هـ)، طالبا منهم إرسال تقارير مفصلة عن الحالة في بلاد الشام مع تدعيم هذه التقارير بكافة البيانات التي تتعلق بالحكام المسلمين وطبيعة العلاقات بين بعضهم البعض، وذلك في ١٥ سبتمبر ١١٩٩هـ/ ١٦ رمضان ٥٩٥هـ[2]، وفي حقيقة الأمر لم تكن حماسة البابا الصليبية المجردة وحدها الدافع له على العمل بجد من أجل إرسال حملة صليبية، وإنما الصورة القاتمة التي رسمها له التقرير الذي وصله أخيرًا من الشرق والمؤرخ في نوفمبر

١١٩٩م/ المحرم ٥٩٦هـ[3]، ذلك التقرير الذي حفظه لنا المؤرخ فنسنت دي بيفيه فالإمارات الصليبية التي ظلت متواجدة طول القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري دون مساعدات كبيرة تقريبًا من غرب أوروبا استعدت لدخول القرن التالي ويدها ممدودة استجداء لأوروبا، لموانئ الصليبيين في الشام دون عمق استراتيجي، والطرق لم تعد مأمونة، والمجاعة محدقة بالفرنج، ولم يعد في مملكة بيت المقدس -في عكا- احتياطي كاف من الطعام، كما أضرت الحملة الألمانية بالزراعة وبالاتجار مع المسلمين في المدن الداخلية لبلاد الشام، كذلك أشار إلى بعض الموانئ المصرية وكيف أصبحت مسيطرة على طرق التجارة في تلك الفترة[4].

---

(١) Roger of Hoveden, op. cit., vol. 2., p. 442.

(٢) Innocent III, Pope, Regesta, in P.L.,. vol.214; cols.737-738; Rohricht, Regesta, no.760., pp. 202-203.

(٣) Rohricht,R., Regesta, no.762., p.203.

(٤) Vincent de Beauvais, Speculum Historiale,(Graz-Austria, 1965), Libxxix, ch. Lix.

والجدير بالذكر أن البابا إنوسنت الثالث أهتم اهتمامًا كبيـرًا بالجماعـات الرهبانية التي حملت على عاتقها الأراضي المقدسة، وأشـاد برجالهـا لأنهـم يطلعونه على أحوال بلاد الشام من خلال رسائلهم[1]، وأصـدر عـدة مراسـيم أواخر عام ١١٩٩م/ ٥٩٦هـ، موجهة إلى رجـال الـدين وأمـراء المملكـة الصليبية، يأمرهم فيها بمنح جماعة الداوية عددا من الامتيازات، وإعفائهم مـن عدد من الضرائب، كما أرسل إلى الداوية سفينة محملة بالأسـلحة والحبـوب، وناشدهم الاستعداد للمشاركة في الحملة الصليبية المزمع القيام بها[2].

وكان البابا إنوسنت الثالث أول من فرض ضريبة على دخول رجال الدين صالح الإمارات الصليبية في بلاد الشام[3]، فقد فـرض علـى نفسـه وعلـى الكاردينالات ورجال الدين، ففي روما ضريبة قدرها ١٠% من دخولهم، وأمـر رجال الدين كافة في الغرب الأوروبي بدفع واحد على أربعين من دخولهم لهـذا الغرض[4]، وأمر بوضع صندوق في كل كنيسة لتلقي الهبات المالية مـن أجـل تمويل الحملة الصليبية القادمة[5]، ومن المشكوك فيه أن مثل هذا الأمـر لقـى تجاوبًا يذكر[6]، وظهرت أيضا مشاركة الداوية والاسبتارية في الدعوة للحملـة وذلك للمرة الأولى، ومنحهم الغفران لمشاركتهم في تلك الأمر مكافأة لهم، هكذا اختلطت النواحي المادية بالجوانب الروحية في التبشير بالحملة، وابتـدع البابـا إنوسنت الثالث نظامًا جديدًا للدعوة للحملة الصليبية المرتقبة، فبعد أن كان الأمر

---

(١) مصطفى محمد الحناوي: جماعة الفرسان الأسبتارية ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، غير منشورة، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ١٩٦-١٩٧.

(٢) Rohricht,R., Regesta, nos.763-764., pp. 203-204.

وانظر أيضا: ميخائيل زابروف: الصليبيون في الشرق، ص ١٦٦.

(٣) Louise and Riley-smith, I dea and Reality, pp. 144-145.

(٤) وعن قرارات البابا في هذا الشأن، انظر :

Pope Innocent III, Regesta, in p.L. Vol 214, cols. 829- 831 .

(٥) ميشيل بيالار: الحملات الصليبية والمشرق اللاتيني، ص ٢١٧.

(٦) رفض الضريبة رجال جماعة السترشيان، وعلى الرغم من أشد وسائل الضغط لم يتمكن البابا من أن يحصل منهم طوعية إلا على دفعة واحدة من المال، عن ذلك، انظر: هانز ماير: الحروب الصليبية، ص ٢٧٩.

ستند على مندوبين بابويين ينتشرون في البلاد، نجد البابا يعهد بذلك إلى رجـال الدين المحليين لمعرفتهم بلغات مناطقهمَ ويعد في مقدورهم للوصول إلى مناطق أبعد، بالإضافة إلى خبراتهم بمناطقهم[١]، ويعـد فولـك دي نـويللي Fulk de Neuilly أشهر مندوب البابا في فرنسا[٢]، وبناء على طلب من البابا أخذ فولك يحث أهل الريف الفرنسي على أن يتبعوا سادتهم إلى الحرب المقدسة، واستطاع جمع أموال ضخمة لإرسالها إلى الأراضي المقدسة[٣]، كذلك عهد البابـا إلـى مارتين Marten أحد أشهر رجال الدين الألمان بالوعظ والتبشير في ألمانيا، إلا أن انغماس النبلاء في الحرب الأهلية جعلهم لا يولونه اهتمام كبير، وعلى الرغم من ذلك نجح هؤلاء الدعاة نجاحًا كبيرًا أسـفر عـن قيـام الحملـة الصـليبية الرابعة[٤].

أما عن الحملة الصليبية الرابعة نفسها فلا شك فـي أنهـا كانـت أكثـر الحملات نجاحا بعد الحملة الأولى، لكنها نجحت ضد بيزنطـة لا ضـد العـالم الإسلامي، وساندت بعض المصالح الشخصية بدلا من مساندة الإماراتَ الصليبية في بلاد الشام، ولم يكن البابا إنوسنت الثالث –الذي دعا إلى هذه الحملة– يقصد أن تنتهي إلى هذا المصير، بل عارض تحول الحملة عن هدفها، وأصدر قـرار حرمان ضد الصليبيين والبنادقة المشاركين فيها بعد استيلائهم على مدينة زارا

---

(١) Penny, C., op. cit., pp. 83- 84.

(٢) قام فولك دي نويللي بالدور نفسه الذي قام به من قبل برنارد أسقف دير كليرفو في الحملة الصليبية الثانية، وكان قسيسا وواعظا في أسقفية تابعة لأسقفية باريس، وفي عام ١١٩٨م أسند إليه البابا مهمة الدعوة في فرنسا ونسب إليه العامة عددًا من المعجزات كانت من نسج خيالهم وقد مات في عام ١٢٠٢من انظر :

Gutsch,M.R., Atwelfh Century Preacher, Fulk of Neuill, in Crusades and Historical Essays presented to Dana Monro, ed. L.J. Paetw, (New York, 1925), pp. 183- 186.

وانظر أيضا: محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٢٧٨.

(٣) روبرت كلاري: فتح القسطنطينية على أيدي الصليبيين، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٣٣.

(٤) فليهاردوين: مذكرات فيلهاردوين وفتح القسطنطينية، ترجمة حسن حبشي، ط جدة، ١٩٨٣م، ص٤٣.

Zara المسيحية على ساحل دالماشيا عام ١٢٠٢م/ ٥٩٩هـ[١]، غير إنه عـاد وأصدر قرارًا بالعفو على الصليبيين على أثرة سفارة أرسـلوها لـه، وقصـر الحرمان على البنادقة وحدهم، ودعا إلى هذا اتهام البابا بان المسئول عن تحول الحملة نحو القسطنطينية، إذ أن قراره بالعفو عن الصليبيين كان يعني تشجيعهم على المضي قدمًا في الهجوم على بلد مسيحي آخر ولـو كـان القسـطنطينية ذاتها[٢]، والحق يقال أن البابا إنوسنت الثالث ألحق بهذا الغفران شروطًا قاسـية، وأمرًا صريحًا لقوات الحملة بألا يتدخلوا في الشئون الداخلية للبيزنطيين، وأيضاً يحذرهم من مهاجمة الدولة البيزنطية[٣]، لكن النتائج كانت بعيدة تمامًا عما أملت

---

[١] كانت الحملة الصليبية الرابعة مثالاً قويًا على تدخل المصالح الشخصية في أمور الحركة الصليبية، فبعد الاتفاق على أن تكون وجهة الحملة مصر باعتبارها معقل القوى الإسلامية وغزوها يجعل استرداد الأراضي المقدسة أمرًا سهلاً، ثم عقد اتفاقية مع البندقية في مارس ١٢٠١م، تعهد البنادقة فيه بإعداد السفن اللازمة لنقل الحملة المكونة من أربع آلاف وخمسمائة فارسًا وتسعة آلاف مقاتلاً وعشرين ألفًا من الجنود المشاة مع تموينهم لمدة تسعة أشهر فقط، وذلك مقابل خمسة وثمانين ألف مارك، وبشرط أن تكون نصف الغنائم للبنادقة، وعندما عجز بونيفاس دو مونتفرات قائد الحملة عن دفع كل المبلغ المتفق عليه للبنادقة لحظة رحيل الحملة، وجدها هنري دونادولو دوق البنادقة فرصته فعرض عليه قادة الحملة إعفاءهم من باقي المبلغ إذا ساعدوه في إخضاع مدينة زارا التي تمردت عليه وأعلنت خضوعها للملك هنغاريا، ويرى بعض المؤرخين أن دونادولو قصد تحويل الحملة وجهة أخرى غير مصر حتى لا تفسد علاقة البنادقة التجارية مع مصر، بدليل أنه في اللحظة التي كان يتم التفاوض فيها بين دونادولو والصليبيين كان سفراء البنادقة يوقعون معاهدة تجارية مع مصر، لمزيد من التفاصيل، انظر :
روبرت كلاري: فتح القسطنطينية، ص ٤٩-٦٦؛ فليهاردوين: مذكرات فيلهاردوين، ص ٧٧-٨٩، وكذلك:
Nicetas Coniates, op. cit., pp. 736- 824; Ernoul, pp. 374-376, Innocent III, pope Regesta, in p.L., vol 214, col. 1178; Cf. also; Luchir Innocent: la question d'Or- ient, (paris, 1907), p. 97; Ostrogorsky, op. cit., pp. 361-366.

[٢] Innocent III, pope Regesta, in p.L., vol 214, col. 1188; cf. Bartlett, W.B., God Wills it!, p.208 also:

[٣] Innocent III, pope Regesta, in p.L., vol 215, col. 447-454.

فيه للبابوية والإمارات الصليبية، إذ اتجهت الحملة إلى الدولة البيزنطية واحتلت القسطنطينية في عام ١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ[١].

وإذا كان البابا إنوسنت الثالث قد تلقى نبأ فتح القسطنطينية بتحفظ في البداية وظل مرتابا في أمر الهجوم على الدولة البيزنطية، فإن الإمبراطور بلدوين كونت الفلاندر Baudouin Count Flander -أول الأباطرة اللاتين هناك- قدم للبابا من الحجج ما يكفي للحصول على موافقته وتشجيعه، بل وتأييده لفتح القسطنطينية، إذ أرسل إلى العالم المسيحي أجمع خطابًا عامًا، قال فيه: "أن الفتح تم بفضل العناية الإلهية التي ساعدت اللاتيين في إحراز النصر، وأن التحول نحو القسطنطينية لا يمكن أن يكون إلا من أجل إنقاذ الأرض المقدسة واستخلاصها، وأنهم من الآن فصاعدًا سوف يكرسون أنفسهم لمحاربة أعداء الصليب، ومساندة الإمارات الصليبية في بلاد الشام[٢]، ومما أغرى البابا ما تبع خطاب بلدوين من خطابات أرسلها قادة الحملة، أكدوا فيها على أن الفتح ما هو إلا بداية لإنقاذ الأراضي المقدسة[٣].

وظن البابا بعد أن قرأ خطاب الإمبراطور بلدوين وخطابات القادة الصليبيين أنه سيبلغ الهدف المزدوج الذي كان يسعى من أجله منذ اعتلائه عرش البابوية، فتكون السيادة لكنيسة روما ويسترد الأراضي المقدسة[٤]، على أن حماس البابا وتعاطفه مع رجال الحملة تحول إلى غضب واستياء -بعد خيبة أمله في الحملة- ووضح ذلك في رسالته إلى قادة الحملة التي يقول فيها: "لقد

---

(١) ليلى عبد الجواد: البابوية والإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (١٢٠٤-١٢٦١م/ ٦٠٢-٦٥٩هـ)، بحث منشور في دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٢.

(٢) Setton, K., The papcy and The Levant. "1204- 1571", 2. vols., (Londosn, 1959), vol. 1, p13.

(٣) Setton,K.,The papcy, vol. 1, p. 14.

انظر أيضا: ميشيل بيالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص ٢١٨.

(٤) Pears ,S., The Fall of Constantinople, The Story Fourth(Crusade, (New York, 1972), p. 288; Wolf ,Lee. R., , of Yhe Baldwin ot Flanders And Hainaut, First Emperor of Constantinople, in Speculum, vo,. 27, p. 282.

حدثتم عن طهارة نذركم عندما زحفتم على المسيحيين بدلاً من المسلمين، واستوليتم على القسطنطينية بدلاً من بيت المقدس"[1].

ويبدو مما سبق أن البابا كان قد علق آمالاً كبيرة على الفتح بالنسبة لمستقبل الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وظن أن القسطنطينية ستصبح -بعد فتحها- مركزًا لتنظيم الحملات الصليبية، وقاعدة لتقديم المساعدات الضرورية للصليبيين في الشرق.

أما فيما يتعلق بأثر انحراف الحملة الصليبية الرابعة عن مسارها على صليبي الشام، ففي البادية تشجع الصليبيون في الشرق بما بلغهم من أنباء سقوط القسطنطينية، وترددت الشائعات بينهم بأن المسلمين استبد بهم الخوف، بل وهنأ البابا نفسه في البداية لما شاع من أن الملك العادل أظهر جزعه وخوفه[2]، وظهر ذلك واضحًا في قدوم بعض الفرسان ورجال الدين بالمملكة الصليبية إلى القسطنطينية لحضور حفل تتويج بلدوين كونت فلاندر إمبراطورًا في القسطنطينية[3]، وعندما أدرك عموري ملك بيت المقدس أنه لا أمل في قدوم أية حملة إلى الشام بعد أن انقض الصيف ومازال الصليبيون مقيمين في القسطنطينية بادر إلى عقد هدنة مع الملك العادل لمدة ستة سنوات من سبتمبر ١٢٠٤م/ ٦٠١هـ إلى ديسمبر ١٢١٠م/ ربيع الأول ٦٠٧هـ[4].

---

(١) انظر ترجمة هذه الرسالة إلى العربية في :
إسمت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص ١١٢-١١٣.

(٢) Innocent III, pope Regesta, in p.L., vol 215, col. 698

انظر ايضا :ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ١٩٠.

(٣) Donald Queller, Medival Diplomacy and The Fourth Crusade, (London, 1980), p154.

(٤) لم تشر المصادر العربية إشارة واحدة إلى مدة هذا الصلح، فأبن الأثير اكتفى بعبارة: "فاصطلح هو والفرنج"، وابن واصل قال: "قررت بينهم وبينه هدنة لمدة اتفق عليها"، والمقريزي قال: "تقررت هدنة، انظر:
ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، وابن واصل : مفرج الكروب، ج٣، ص ١٦١، والمقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ١٦٣، وراجع أيضا:
Estoire, pp. 261- 263; Ernoul, p. 360.

والحملة الصليبية الرابعة تعد -في الواقع- نقطة تحول خطيرة في الحروب الصليبية، إذ فترت بعدها الحماسة الصليبية، وأتضح أن المصالح الاقتصادية والتجارية احتلت المكانة الأولى في تلك الفترة(١)، وكان لقيام إمبراطورية لاتينية صليبية في القسطنطينية والبلقان أثره في حياة الصليبيين في الشام لأن الإمبراطورية الجديدة بدأت تجتنب كثيرًا من المغامرين الأوروبيين الذين فكروا في النزوح إلى الشرق، ثم أدركوا أن الحياة في القسطنطينية -على حطام الإمبراطورية البيزنطية- أهدأ وأرغد بكثير من تلك الحياة المهددة المليئة بالمتاعب، التي كان الصليبيون يحيونها في بلاد الشام(٢)، بل أن الحملة تعد أيضًا من الحماقة السياسية، فلم تقدم للصليبيين شيئًا، بل أنها بدلاً من ذلك سلبتهم أنصارهم الأقوياء، وقلبت إجراءات الدفاع عنهم رأسًا على عقب بعد أن أضحى الطريق البري من أوروبا إلى بلاد الشام محفوفًا بالمخاطر، بسبب نوبة الشك والارتياب التي انتابت سكان هذا الطريق تجاه من يمر ببلادهم(٣)، وبالرغم من عقد الهدنة مع الملك العادل، رحب كثيرون من صليبيي الشام لدعوة بلدوين إمبراطور القسطنطينية اللاتيني لهم للهجرة إلى القسطنطينية وترك الإمارات الصليبية ما يقرب من مائة فارس، وعشرة آلاف من الصليبيين راحلين إلى القسطنطينية، وكان ذلك في بدايات عام ١٢٠٥م/ أوساط عام ٦٠١ هـ(٤). حسبما أورد المؤرخ المعاصر أرنول حين كانت المملكة الصليبية في أشد الحاجة إلى من يدافع عنها، ولهذا قال البابا إنوسنت: "أنه بسبب قلة المحاربين، قد لا تستطيع المعاقل الصليبية في بلاد الشام الصمود طويلاً للهجمات الإسلامية"(٥).

---

(١) Bartlett W., God Wills it!, p. 199.

(٢) روبرت كلاري: فتح القسطنطينية، ص ١١، وانظر أيضا:
Grousset,R., op. cit., t. 3., p. 175

(٣) Brehier, L'Eglise et L'Orient ou Moyen age: Les Croisades, (Paris,1928),PP.177-178

(٤) Ernoul, p. 378.

(٥) Grousset, op. cit., t. 3., p. 176-177 .

وخلاصة القول أنه من الرغم من جهود البابا إنوسنت الثالث الصليبية، أفلت زمام الحملة الصليبية الرابعة من يديه، وانحرفت عن مسارها الصحيح، ولم يكن أمام البابا إلا أن ينتظر إلى أخطاء قادة الحملة، وما نتج عنها من خسائر للعالم المسيحي بصفة عامة على أنها" أمر واقع **Fait Accompli** "[1]، أما عن صليبي الشام، فقد رأى البابا أن هذه الحملة حققت لهم ثلاث فوائد، أولها خوف الملك العادل من أن يسفر استيلاء الحملة الرابعة على القسطنطينية بسهولة إلى تقوية الكيان الصليبي في الشام، ودفع هذا الخوف العادل إلى عقد الهدنة السابق ذكرها مع صليبي الشام[2]، أما الفائدة الثانية للحملة الرابعة في نظر البابا، فهو توحيد كنيستي القسطنطينية وروما تحت قيادته [3]، وثالث الفوائد في خشية الملك العادل من أن يشكل قيام إمارة لاتينية في القسطنطينية سندًا للإمارات الصليبية في الشام، ولم يكن البابا محقًا إلا فيما يخص الفائدة الأولى[4]، أما عن أحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام، فقد كانت الانقسامات الداخلية تعصف بها، خاصة تلك التي قامت حول وراثة عرش أنطاكية، وتدخلت فيها القوى الصليبية المختلفة مثل الداوية والاسبتارية بوهيمند الرابع، وليو الثاني ملك أرمينيا، بل وقوى إسلامية مثل الظاهر غازي صاحب حلب، وسلطان سلاجقة الروم[5]، وبدأت تلك المشكلة عندما ضم بوهيمند الرابع حاكم طرابلس إمارة إنطاكية إلى حكمه بعد وفاة والده بوهيمند الرابع حاكم طرابلس عام ١٢٠١م/ ٥٩٧هـ[6]، متعديًا بذلك على حقوق ابن أخيه ريمون روبين Roymond Rupen في وراثة إمارة إنطاكية، وقد وقف إلى جانب ريمون خاله الملك ليو الثاني، وبذلك تصدعت الجبهة الصليبية، وزاد من هذا الشقاق رفض ليو إعادة قلعة بغراس إلى الداوية، فانحازوا إلى بوهيمند في

---

(١) Gill, J. Frank, Venetians and pope Innocent III, in (S.V., 1970), pp 87-88.

وانظر أيضا: حسين عطية : المراسلات، ص

(٢) Chronica Regia Coloniensis, p. 212.

(٣) هانز ماير: الحروب الصليبية، ص ٢٨٢.

(٤) حسين عطية : المراسلات، ص ٢٧٠.

(٥) حسين عطية : إمارة أنطاكية، ص ٢٥٦.

(٦) Eracles, L'Estoire, p. 313.

الوقت الذي انضم فيه الأسبتارية إلى ليو الأرميني[١]، وأختلط الرغبات السياسية والدينية في هذه الصراعات، ولم يفوت البابا إنوسنت الثالث هذه الفرصة للتدخل، فتعددت رسائله إلى مختلف القوى المشاركة في هذا الصراع[٢] وارسل مندوبًا عنه للقيام لفض النزاع يدعى سوفريد دي براكسيدس Sofred de Praxedis، ثم أوفد مندوبًا ثانيًا إلى أرمينيا وإنطاكية هو بطرس دي مارتل Peter de st. Martel، ويسعى كل منهما على حدة، ثم كلاهما مجتمعين للتوصل إلى حل لمشكلة الوراثة في إنطاكية وكذلك مشكلة بغراس[٣]، وقد أظهر ليو تجاوبًا مع المندوبين، لكنه رفض إعادة بغراس إلى الداوية[٤]، كما أن بوهيمند أنكر حق البابوية في التدخل في مشكلة إقطاعية بحتة، بل أعلن -في تحد سافر للبابوية- تبعية إنطاكية لإمبراطور اللاتين في القسطنطينية[٥]، وقد زادت سياسة بوهيمند هذه من غضب البابوية التي كانت ساخطة على حكام القسطنطينية اللاتين الذين انحرفوا بالحملة الصليبية الرابعة.

ما لبثت الحروب أن اشتعلت بين ليو وبوهيمند، بعد أن خرب ليو في عام ١٢٠٨م/ ٦٠٥هـ، ضواحي إنطاكية، كما أغار الأسبتارية على طرابلس[٦]، ولجأ بوهيمند إلى السلاجقة لمساندته ضد ليو، فأزعج ذلك البابا، واستنجد بالظاهر ملك حلب لإنقاذ إمارة إنطاكية من تدخل السلاجقة، وكتب له في ٧

---

(١) Grousset, op. cit., t. 3, p. 194; Runciman,S., op. cit., vol.3., 136 .

(٢) R?hrict,R., Regesta, nos. 755, 756; 765, 781.

وانظر أيضا: حسين عطية : إمارة أنطاكية، ص ٢٦٠.

(٣) Cahen, La Syria du Nord, p. 613.

(٤) وقد أرسل ليو إلى البابا إنوسنت الثالثة رسالة يعلن فيها الطاعة له، بل ويطلب منه الإسراع بإرسال حملة صليبية لقتال المسلمين.

CF. Innocent III, pope, Regesta, in p. L., vol. 215. Cols1007 .

(٥) Runciman,S., op. cit., vol.3., 137.

(٦) ابن واصل : المصدر السابق، ج٣، ص ١٨٧، وابن العديم: المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٩-١٦٠، وانظر :
حسين عطية : إمارة أنطاكية، ص ٢٨٢.

مايو ١٢١١م/ ٢٣ ذي الحجة ٦٠٧هـ خطابًا بذلك[١]، ومما تجدر الإشارة إليه أن أمر استنجاد البابا بالملك الظاهر لم يرد في المصادر العربية على الإطلاق، كما أن لجوء البابا للظاهر –وهو الحاكم المسلم– أثار دهشة المؤرخين الغربيين[٢]، ويبدو أن البابا فضل أن يستنجد بالظاهر لحماية إنطاكية على تدخل السلاجقة في شئونها، حتى تبقى الإمارات الصليبية على حالها أملاً في الوصول إلى حل بين ليو وبوهيمند، تمهيدا لحملة صليبية أخرى، وهو ما أكدته الأحداث فيما بعد، وهكذا اتخذ البابا هذا الإجراء الغريب الذي نرى فيه نموذجًا جديدًا لدبلوماسية الحروب الصليبية يتناقض بعد أن شغلت تلك المشكلة الصليبيين في بلاد الشام والبابوية على السواء.

وفي خطاب لإنوسنت الثالث أرسله إلى فيليب أغسطس ملك فرنسا يدعوه فيه لمساعدة الأراضي المقدسة، بعد انحراف الحملة الصليبية الرابعة عن مسارها، أشار إلى الخلافات التي تهدد إمارة إنطاكية والخوف من خطر الملك العادل، ويدعو الملك الفرنسي إلى سرعة إنقاذ الأراضي المقدسة بأسرع ما يمكن حتى لا يضيع ما تبقى منها[٣]، ولعل هذا يدفعنا إلى محاولة التعرف على أوضاع الغرب الأوروبي في تلك الفترة، ومدى استعداده لمد يد العون والمساعدة للإمارات الصليبية.

وفي حقيقة الأمر، كانت أوروبا في ذلك الحين نهبًا للانقسامات والاضطرابات والمشكلات التي منعتها من الاشتراك في حملة صليبية بصورة فعالة[٤]، ففي ألمانيا –وعقب وفاة الإمبراطور هنري السادس– كان من المفروض أن يخلفه في الحكم ابنه الطفل الصغير فريدريك الثاني، وآثرت زوجته كونستاس Constance الوصية عليه أن تحتفظ بعرش صقلية وأن تدفع جزية سنوية للبابا، وأن تبتعد أن ألمانيا ومشكلاتها وأعلنت تبعيتها للبابا[٥]، وظل

---

(١) Innocent III, pope, Regesta, in p. L., vol. 216, col. 434.

(٢) Cahen,C, op. cit., p. 617.

(٣) Pope Innocent III, Letter of Innocent III to Philip Augusts, 1205 in Rohricht,R., Regesta, no. 808.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ص ٣٩١.

(٥) Toot,T., The Empire, p. 317.

فريدريك تحت وصاية والدته، لكن الوصاية انتقلت إلى البابا إنوسنت الثالث بعد وفاتها عام ١١٩٤م/ ٥٩٤هـ، وبناء على رغبتها[١]، وقد أتاح ابتعاد كونستانس عن ألمانيا الفرصة لفيليب Philippe دوق سوابيا -وعم فريدريك الثاني- فتوجه مسرعًا إلى ألمانيا عساه يتمكن من اعتلاء عرش ألمانيا[٢]، وفي الوقت نفسه انتخب بعض الأمراء الألمان أوتو الرابع إمبراطورًا Otto IV[٣].

وعندما أعلن أوتو خضوعه للبابوية مع وعده بقيادة حملة صليبية لمساعدة الصليبيين في بلاد الشام، أعلن البابا تأييده لأتو إمبراطورًا على ألمانيا[٤]، بيد أن العلاقات تأزمت بين البابا أووتو عندما قام الأخير بغزو صقلية في عام ١٢١١م/ ٦٠٨هـ[٥]، وهو ما لم ترضى عنه البابوية، لما يترتب عليه من توحيد ألمانيا وصقلية، فأصدر البابا قرار الحرمان ضد أوتو، ويبدو أن الأمراء الألمان لم يرضيهم حكم أوتو، فاستغلوا قرار الحرمان وعدوه قرارًا بعزله، واختاروا فريدريك الثاني ملك صقلية إمبراطورًا عليهم[٦]، وكان لا يزال تحت وصاية البابا إنوسنت، فعاد أوتو مسرعا من إيطاليا إلى ألمانيا وسانده حنا ملك إنجلترا، وأمير فلاندر، كما ساند فريدريك الملك فيليب أغسطس وأيدته البابوية، وبدت أوروبا وقد انقسمت إلى معسكرين[٧]، وانتهى الأمر بوقوع الحرب بين القوتين وهزم أوتو وحلفاؤه في موقعة بوفان Bouvines في يوليو

---

[١] نورمان كانتور: التاريخ الوسيط، ج٢، ص ٥٦٥.

[٢] موريس كين: حضارة أوروبا، ص ١٤٨.

[٣] Stubbs,W.,, Germany in the Early Middle Ages, 476- 1250, ed. By. A. Hassoll (London, 1908), p. 219.

[٤] هدأت حدة الصراع قليلاً عندما قتل فيليب السوابي عام ١٢٠٨م/ ٦٠٥هـ، عن ذلك انظر:

Setton,K., The Papcy, p. 27.

[٥] موريس كين : حضار أوروبا، ص ١٤٩.

[٦] رأفت عبد الحميد: المسألة الإيطالية، ص ٢٨٥.

[٧] لم يكن من مصلحة البابا إنوسنت الثالث أن يختار الألمان فريديك الثاني حكما عليهم، حتى لا تعود البابوية من جديد بين فكي الكماشة فيحيط بها النفوذ الإمبراطوري من الشمال والجنوب، ولكن الموقف الذي كان فيه البابا عندئذ من تهديدات أوتو للأملاك البابوية، جعله لا يفكر في شئ سوى التخلص من أوتو، فوافق على اختيار فريديك لعرش ألمان، انظر:

سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ص ٣٩٣-٣٩٤.

١٢١٤م/ صفر ٦١١هـ[١]، التي تعد نقطة تحول كبيرة في تاريخ أوروبا الوسيط، وكانت البابوية أبرز من حقق مكاسب من هذا الصراع[٢].

أما عن فرنسا فقد تدخل البابا في شئونها السياسية أيضا، وأنزل قرار الحرمان عام ١٢٠٠م/ ٥٩٧هـ، على الملك فيليب أغسطس بسبب تنكره لزوجته الأولى إنجبرج Ingeberg أخت ملك الدنمرك وزواجه من أخرى[٣]، وقاوم فيليب في أول الأمر، لكنه استسلم في العام التالي وأعاد زوجته الأولى[٤]، وكان ذلك انتصارًا للبابوية وسياستها الرامية إلى إخضاع حكام أوروبا كافة لنفوذها[٥]، وما لبيت الأحداث أن هيأت للبابا فرصة أخرى لمد نفوذه في الجنوب الفرنسي، على أثر انتشار بعض المذاهب الخارجة المناهضة للكنيسة[٦]، ولم يطق البابا صبرًا على هذا التمرد الذي من شأنه القضاء على النفوذ البابوي في الممالك الأوروبية، فدعا إلى حملة صليبية ضد هؤلاء الهراطقة، وهي الحملة المعروفة بالحملة الألبيجنسيةAlbigenisan[٧]، وفي مرسومه الداعي لتلك الحملة في عام ١٢٠٩م/ ٦٠٦هـ، نجده يبشر المشاركين فيها بمحو الذنوب، شانهم في ذلك شأن الذاهبين لمساندة الإمارات الصليبية، في سابقة تكاد تكون الأولى من نوعها[٨]، وعلى الرغم من أن فيليب أغسطس رفض الاشتراك في هذه الحرب، وأبدى استياءه من التدخل البابوي السافر في شئون دولته، إلا أن

---

(١) عادل عبد الحافظ : المرجع السابق، ص ٢٤٦.

(٢) نورمان كانتور: التاريخ الوسيط، ج٢ ص ٥٦٦.

ولمزيد من التفاصيل عن موقعة بوفان، انظر :

Roger of Wendover, op. cit., vol. 2., pp. 298-304

(٣) رأفت عبد الحميد: الفكر البابوي الصليبي، ص ٤٩.

(٤) موريس كين: حضارة أوروبا، ص ١٥١.

(٥) Matthew of Westminster, The Flowers of Hostory, trans, By C.D. Yonge, 2 vols, (London, 1853), vol. 2., p. 131; CF. also: Tout, The Empire, p. 399.

(٦) محمد محمد مرسي الشيخ: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٤١٧.

(٧) حروب لا صلة لها بالحروب الصليبية بمفهومها الدقيق لعدم توفر صفات الحملات الصليبية فيها، وأطلق عليها الألبيجنسية نسب إلى مدينة ألبي Albi في كونتية تولوز جنوب فرنسا، وهي مركز المذاهب الخارج عن سلطة البابا، وعن ذلك، انظر :

ميشيل بيالار: الحملات الصليبية، ص ٣٥٤-٣٥٧.

(٨) موريس كين : المرجع السابق، ص ١٥٤.

البابا مضى قدمًا في خطته[١]، ولم يستطع فيليب أن يقف مكتوف اليدين صامًا أذنيه عما يحدث، حتى لا تضيع هيبته أمام البابوية وأوروبا، فاضطر في النهاية المشاركة في هذه الحملة، حتى لا يخرج الأمر من بيده داخل بلاده[٢]، ويرى الباحث أنه بالرغم من أن حصاد الحملة الألبيجنسية كان انتصارًا لإنوسنت الثالث، إلا أنه كان انتصارًا معيبا منقوصًا، إذ اضرت الحرب التي شنها تحت الرايات الصليبية بسمعة الحركة الصليبية ذاتها بشكل خطير، كان أنه أكد الظن بأن القوات الضخمة التي واجهتها البابوية يمكن إطلاقها لتحقيق أغراض غير الدفاع عن الإمارات الصليبية في بلاد الشام، بعد أن استغل البابا المثال الصليبي في بعض الأغراض البابوية.

أما فيما يتعلق بالوضع في إنجلترا، على عهد ملكها حنا (١١٩٩-١٢١٦م/ ٥٩٦-٦١٤هـ)، فقد أدت المنازعات التي دارت حول اختيار أسقف كانتروبوري في عام ١٢٠٥م/ ٦٠٢هـ، وإقدام الرهبان على اختيار زعيمهم رينالد Reginald، ثم إسقاطه واختيار أسقف أخر بدلاً منه باء على ضغط من الملك حنا[٣]، أدى هذا إلى عدم اعتراف البابا إنوسنت الثالث بالاختيارين معا، واستقدم الرهبان إلى روما ثم أوصى باختيار أحد زملائه في جامعة باريس – وهو الأسقف لانجتون Langton– عام ١٢٠٧م/ ٦٠٤هـ أسقفًا، فلما رفض حنا هذا التدخل الواضح في شئون مملكته لقنه البابا درسًا قاسيًان إذ أصدر ضده قرار الحرمان الكنسي ووضع شعبة تحت اللعنة عام ١٢٠٨م/ ٦٠٥هـ[٤]، مما دفع كثيرًا من الرهبان إلى اللجوء إلى روما ضارعين إلى البابا أن يرفع عن إنجلترا هذه اللعنة، ولكن البابا تمادى في غطرسته، وراح يغري فيليب أغسطس ملك فرنسا بغزو إنجلترا وأعدا إياه بالاعتراف بسيادته عليها[٥]، وكان هذا كفيلاً إلى جانب تمرد الشعب والرهبان –بأن يدفع حنا إلى الاستسلام في ذل وخضوع

---

(١) Austin,P., The Albigensian Crusade, in Setton, A History of thCrusades, vol. 2. p. 281.

(٢) Tout, The Empire, p. 400 .

(٣) Matthew of Westminster, op. cit., vol. 2., pp. 102-103.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ج١ ص ٤٧٦؛ رأفت عبد الحميد: الفكر البابوي الصليبي، ص ٥٠.

(٥) Roger ofWendover, op. cit., vol 2,p83.

للبابوية في عام ١٢١٣م/ ٦١٠هـ[١]، وقبل بأن يكون تابعًا إقطاعيًا للبابوية، والاعتراف بلانجتون أسقفا لكانتر بوري، مع دفع جزية سنوية ضخمة للبابا[٢]، ومن الحوادث السابقة يتضح أنه لم يصمد ملك أوروبي واحد طويلاً أمام البابوية، وهكذا كان الغرب الأوروبي في العقد الأول من القرن الثالث عشر الميلادي مسرحًا للقلاقل والاضرابات والمشكلات الداخلية، والحروب المستمرة التي حالت بينه وبين القيام بحملة صليبية فعالة ضد المسلمين، وساعدت تلك الظروف في أن تكون للبابوية اليد العليا في أوروبا كلها حتى عد إنوسنت الثالث نفسه خليفة الله على الأرض والحكام والملوك أتباعه، وليس أدل على ذلك من مواقفه من ملوك الغرب وحكامه، وقد بلغت البابوية أوج عظمتها وقوتها في عهده بعد أن أصبحت أوروبا كلها تحت رحمته، وبعد أن دانت له دول الغرب كافة بالولاء، فيما عدا الملك الفرنسي فيليب أغسطس الذي آثر عدم الدخول في مواجهة مباشرة مع البابوية، ولم تكن شخصية فريدريك الثاني ملك ألمانيا، قد ظهرت بقوة بعد على المسرح السياسي آنذاك، وهكذا خلت الساحة تمامًا لإنوسنت ليندفع بكل قوته دافعًا أوروبا من جديد إلى حملة صليبية تحقق له بقية حلمه الكبير في السيادة العالمية، وتسترد بيت المقدس الذي فشلت الحملة الصليبية الثالثة استعادته، وبعد خيبة أمله في الحملة الصليبية الرابعة.

وثمة أسئلة تطرح نفسها عند تتبع أحداث تلك الفترة، أهمها: ماذا عن أحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام؟ هل كانت في حاجة إلى مساعدات الغرب الأوروبي؟

في حقيقة الأمر، أن ما حدث من فشل الحملة الصليبية الرابعة في إرسال مساعدة فعلية إلى الإمارات الصليبية في بلاد الشام، عوضه أن ظلت مملكة بيت المقدس الأسمية تنعم به ما يزيد على عشر سنوات من الهدوء والسلام[٣]،

---

[١] موريس كين: المرجع السابق، ص ١٥٥.

[٢] أظهر الملك الإنجليزي إذعانه للبابا في صورة مرسوم ملكي أصدره في ١٥ مايو ١٢١٣م، نص على: "أن جميع مملكة إنجلترا وأيرلندا بجميع حقوقها وملحقاتها، ومن أجل غفران خطايانا، سوف نحكم هاتين المملكتين كفصل إقطاعي للبابا والكنسية، وسوف نقدم لكنسية روما سنويا ما قيمته ألف مارك إسترليني"، انظر :
Matthew Paris, English History, vol. 1, p. 160; CF also: Thatcher, A Source Book, p. 219.

[٣] Runciman,S., op. cit., vol. 3., p. 131.

فالهدنة التي عقدها الملك عموري مع الملك العادل كانت لا تزال قائمة، ولم يكن بوسع الفرنج أن يخاطروا بنقضها إلا إذا جاءتهم مساعدة قوية من الغرب الأوروبي، في حين انصرف العادل بشدة المحافظة على أملاكه، بينما إذ أقدم على مهاجمتها، فسيثير حربًا صليبية[1]، وحدث أن توفى الملك عموري في ١٠ أبريل ١٢٠٥م/ ٥ شعبان ٦٠١هـ، ولحقت به زوجته إيزابيلا في العام نفسه[2]، ولأن المحكمة العليا احتفظت كعهدها دائما بالحق في تدبير أمر الوصاية على عرش مملكة بيت المقدس الأسمية[3]، عقدت اجتماعًا حضره نبلاء المملكة وقرروا جميعًا أن يؤول أمر المملكة ليوحنا دي إيبلين **John de Iblin** وصيا على العرش، وبالتالي على صاحبة الحق الشرعي آنذاك وهي الأميرة ماريا **Maria**[4]، وقد حرص يوحنا على أن تمر فترة وصايته على المملكة الصليبية في سلام وأمن حتى يأتي التحرك المنتظر من قبل الغرب الأوروبي[5]، وتعلق أنظار صليبيي الشام بالغرب حينما بلغت ماريا السابعة عشر من عمرها عام ١٢٠٨م/ ٦٠٥هـ، وكان لابد من البحث لها عن زوج يتولى حكم المملكة حسب النظام المتبع آنذاك، فأرسل الصليبيون سفارة إلى أوروبا لهذا الغرض[6]،

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ط بيروت، ب.ت، ص ٤٦٢، محمود الحويري: العادل الأيوبي صفحة من الدولة الأيوبية، ط القاهرة، ١٩٨٠، ص٧٧.

(٢) Eracles, L'Estoire, p. 305; CF. also: Grousset,R., op cit., t. 3., p. 186

(٣) John La Monet, Feudal Monarchy, p. 49.

(٤) يوحنا دي إيبلين هو سيد بيروت (١٢٠٠-١٢٣٦م)، ويرجع اختياره ليكون الوصي على العرش إلى اعتبارات عدة منهاانه الأخ الأكبر غير الشقيق للملكة السابقة إيزابيلا، ولأنه صاحب إقطاعية بيروت ذات المكانة البارزة آنذاك، بالإضافة إلى موافقة بارونات المملكة على ذلك، لما لآل إيبلين من مكانة بينهم، ولمزيد من التفاصيل، انظر:
ياسر عبد الوهاب: آل إيبلين، ص ١٥٧-١٥٨.

(٥) John La Monte "John d'Ibelin" The Old Lord of Beirut, 1177- 1236, in B., XII, 1937, p. 420

(٦) تكونت السفارة من إيمار دي لايرون Aymar de Layron سيد قيسارية (١١٩٣-١٢١٣م) ووالتر دي فلورنس Walter de Florence أسقف عكا (١٢٠٨-١٢١٣م) ولمزيد من التفاصيل، انظر :
Eracles, L'Estoire, p. 306; Du Cange, les Familles d'Outre-mer, ed. E.G. Rey, (Paris, 1869), pp. 280- 281

وقابل السفراء فيليب أغسطس ملك فرنسا ليرشح من يراه مناسبًا كي يكون زوجًا لماريا وملكًا على المملكة الصليبية، وكان المأمول أن يغري تاج المملكة أحد الأمراء الأقوياء الأغنياء، على القدوم لنجدة الكيان الصليبي، غير أنه لم يكن من اليسير العثور على ذلك الزوج المنتظر[1]، وأخيرًا وقع اختيار الملك الفرنسي –بعد مشاورة البابا إنوسنت الثالث– على جان دي بريين **Jean de Brienne** ليكون زوجًا لماريا وملكًا على مملكة بيت المقدس الأسمية[2].

ولم يلق اختيار جان دي بريين قبولاً من البارونات الصليبية، أي أنهم اضطروا إلى الموافقة والخضوع لإرادة البابا والملك الفرنسي[3]، فقد كان مفلسا في الستين من عمره، لكنه على الرغم من هذا كان ذكيًا وصليبيا متحمسًا مع أنه قضى حياته في خمول نسبي كواحد من قواد فرنسا القدامى، واشتهر بإطلاعه الواسع على السياسة الدولية[4]، وتعهد للبابا والملك الفرنسي بأن يعيد الأراضي المقدسة إلى حدودها السابقة[5]، ولتقوية مركزه قام البابا والملك الفرنسي بمنحة هبة قدرها أربعون ألف ليرة من الفضة، بالإضافة إلى ثلاثمائة فارس[6]، في محاولة من الغرب الأوروبي للحفاظ على ما تبقى من الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

ولم يلبث الملك الجديد أن كسب حب البارونات الصليبيين، وأظهر الكياسة في معاملة أتباعه والطوائف الدينية العسكرية، والتزم الحذر في علاقاته

---

(١) Eracles, L'Estoire, p. 307.

(٢) جان دي بريين فارس من إقليم شامبانيا الفرنسي، تزوج أخوة الأكبر والتر من كبرى بنات تانكرد ملك صقلية، وجال بخاطره المطالبة بعرش صقلية، لكنه لم يظفر بشئ، أما جان فإنه أمضى حياته مغمورًا، فلم يكن سوى أحد قادة ملك فرنسا، وترددت الشائعات بأنه لم يقع الاختيار عليه حينئذ إلا بسبب علاقة حب آثمة له مع بلانش كونتيسة شامبانيا، فتقرر التخلص منه بإيعاز من فرنسا، انظر :

Ernoul, P. 408; CF. also: Grousset,R., op. cit., t. 3., pp. 192-193.

(٣) Setton,K., The Papcy, vol. 1., p. 26 .

(٤) Grousset,R., op. cit., t. 3., p. 194 .

(٥) King, op. cit., p. 182.

(٦) وصل جان دي بريين إلى عكا في ١٣ سبتمبر في عام ١٢١٠م، وفي اليوم التالي، أتم ألبرت بطريرك بيت المقدس مراسيم زواجه من الملكة ماريا، وفي ٣ أكتوبر تم تتويجها في صور، انظر :

Eracles, L' Estoire, p. 308.

مع المسلمين[1]، وكانت سياسة الملك العـادل تقـوم علـى تفضـيل الحلـول الدبلوماسية أو التلويح باستخدام القوة دون استخدامها فعليًا، ويبدو أن العادل كان يخشى أن يؤدي تعامله العسكري مع الصليبيين إلى قدوم حملة صليبية بنفس ثقل العسكري والسياسي للحملة الصليبية الثالثة[2]، ولذلك فإنه عندما قام العادل ببناء حصن الطور بالقرب من عطا جاعلاً الطرق الواصلة بين مدن الساحل الصليبية تحت رحمة المسلمين، عدت الإمارات الصليبية هذا العمل اعتداء عليها وتهديدًا للوجود الصليبي في بلاد الشام[3]، وشعر جان دي بريين بأن العادل بدأ يتحـول من سياسة الدفاع إلى سياسة الهجوم، فانزعج، واضطر إلى عقد هدنة مع العادل لمدة خمس سنوات تبدأ من أول ١٢١٢م/ ٢٩ محرم ٦٠٩هـ[4]، وفـي خضـم تلك الأحداث، تطلعت الإمارات الصليبية إلى العون مـن الغـرب الأوروبـي، وبالفعل أرسل الملك جان دي بريين إلى البابا إنوسنت الثالث يطلب منه العمـل على إعداد حملة صليبية، تكون مستعدة للقدوم إلى الشرق عند انقضـاء أجـل الهدنة أي في عام ١٢١٧م/ ٦١٤هـ[5]، ويقول ابن نظيف الحموي: أن الفـرنج سارعوا إلى الاستغاثة بالأوروبيين يعرفونهم بأن الطور يعمرونه، وهو قوى به يملكون الساحل"[6]، وتظهر في الوثائق البابوية لأول مرة إشارات إلى تحريـر كنائس الإسكندرية لا كنسية بيت المقدس وحدها، ويظهر ذلك من رسالة بعـث

---

(١) Ernoul, p. 409.

(٢) محمد مؤنس عوض: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٢٧.

(٣) طلب الملك العادل من ابنه المعظم إقامة قلعة على جبل الطور المطل على الناصرة، لتكون بمثابة خط دفاع أمامي ضد الصليبيين فشرع في بنائها وساهم الجنود في نقل الحجارة، بالإضافة إلى خمسمائة من البنائين، وانفق عليها أموالاً كثيرة، واستمر العمل في بنائها حتى عام ١٢١٨م/ ٦١٥هـ، حتى صارت قلعة منيعة مزودة بالرجال والسلاح، انظر :

محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دي بريين على مصر (١٢١٨-١٢٢١م/ ٦١٥-٦١٨هـ)، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص ١٠٢.

(٤) Eracles, L'Estoire, p. 317; cf. ALSO:Runciman, op. cit., vol.3., 133

(٣) Oliver of Poderborn, The Capture of Damietta, trans. John. J. cavigan, (Philadelphia, 1984), p. 196. CF. also: Grousset, R., op. cit., t. 3, p. 196.

(٦) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري، ص ٣٧.

بها نيقولا الأول بطريرك الإسكندرية إلى البابا شارحًا له الأحوال السيئة التـــي يمر بها أسرى الفرنج في مصر، وبحثه على الإسراع بإرسال حملة صليبية إلى الشرق في ١٨ يونيو ١٢١٢م/ محرم ٦٠٩هـــ، وفي الوقت نفسه توجهت سفارة من الداوية إلى الغرب، وقابلت الملك الفرنسي حاثة إياه على نجــدة الصـــليبيين وإنقاذهم من الخطر الإسلامي الذي بات يهدد الكيان الصليبي في بلاد الشام[١].

وجاءت الاستجابة الوحيدة لاستغاثات الصليبيين في الشرق من طبقة بالغة الاختلاف عما تعودت عليه الحروب الصليبية، وخير مثال علـــى ذلـــك حملـــة الأطفال عام ١٢١٢م/ ٦٠٩هــ التي آل مصير من قام بهـــا إلـــى الهـــلاك أو الرق[٢]، والتي إن دلت على شئ فإنها تدل على مدى الهوس الديني الذي شمل الغرب الأوروبي حينذاك، ومدى تأثر الرأي العام هناك بما كان يصل إليه مـــن نداءات واستغاثات من الإمارات الصليبية[٣].

وغدا واضحا أن انحراف الحملة الرابعة عن هدفها الأصلي وفشل البابـــا في السيطرة عليها، قد أضاع قدرًا كبيرًا من هيبة البابوية، وقضت حملة الأطفال وما آلت إليه من نتائج على ما تبقى من هيبة البابوية، وكان ما حدث لها عـــارًا على أوروبا بأسرها، أي أن البابوية فشلت فشلاً ذريعا في القيـــام بـــأي عمـــل

---

(١) Roger of Wendover, op. cit., vol. 2., p. 263. CF. also: Penny Cole, The preaching, p. 79.

(٢) تعد حملة الأطفال من أغرب الحملات الصليبية التي شهدها القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، فقد ضمت تلك الحملة آلاف الأطفال من شمالي فرنسا وغرب ألمانيا/ ودعا إليها صبي من رعاة الغنم الفرنسي ويدعى ستيفن، وفي ألمانيا دعا إليها صبي أخر يدعى نيقولا، مطالبين بالذهاب إلى الأراضي المقدسة لمحاربة المسلمين، وانتهى مصير الفرنسيين منهم إلى أن أخذهم تاجران من مرسيليا أحدهما يدعى هيو والأخر وليم في سفنهم على أن ينقلوهم إلى بلاد الشام وظل مصيرهم مجهولا لفترة طويلة، إلى أن ظهرت بعض الروايات منها التي أشارت إلى أن هؤلاء الأطفال بيعوا عبيدًا في الإسكندرية وبعضهم عاد إلى مرسيليا، أما الألمان فقد بقى معظمهم في جنوة واتجه الباقون بزعامة نيقولا إلى روما، حيث قابلوا البابا إنوسنت الثالث الذي طالبهم في حزم مقرون بالعطف بالعودة إلى أوطانهم بعد أن هلك الكثير منهم في الطريق، ولمزيد من التفاصيل، انظر :
Chronica Regia Coloniensis, M.G. H.SS., vol, 27, pp. 1718; CF. also: Dana Monro,Children Crusade, in A.H.R., vol. 19. pp. 516-524

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧٥٤.

عسكري تجاه الشرق، وكان على البابا إنوسنت الثالث أن يقوم بعمل صليبي ضخم عسا يجني من ورائه نصرًا يعوض به فشل الحملة الصليبية الرابعة ويمحو الآثار التي ترتبت على حملتي الأطفال، وأخيرًا ليستكمل انتصاراته على ملوك أوروبا وأباطرتها.

واستهل البابا إنوسنت الثالث جهوده بالتركيز على موضوع الأسرى، وكان أكثر البابوات تركيزًا على هذا الأمر، للبعد الإنساني له -من ناحية ولاستغلاله من ناحية أخرى في الدعاية ضد المسلمين وإثارة حماس الغربيين للمشاركة في الحملة الصليبية[1]، وهناك ثلاث رسائل من البابا إنوسنت الثالث في الفترة من ١٣-٢٠ يناير ١٢١٣م، مرسلة إلى بطريرك بيت المقدس ألبرت أوف فرسل Albert of Vercell (١٢٠٥-١٢١٤م/ ٦٠٢-٦١١هـ)، ونيقولا بطريرك الإسكندرية، وإلى الأسرى الفرنج في مصر- وتضمنت عددًا من النقاط المهمة منها: رغبة البابا في تحرير بيت المقدس، واهتمامه بأحوال الأسرى الصليبيين في مصر، ووصفه للأسير بأنه مثل الذهب الذي يلقى في النار لاختباره، وأنه يسمع أنين هؤلاء الأسرى، ويعمل جاهدًا على إطلاق سراحهم في أقرب وقت[2]) وأصدر أوامره إلى بطريرك بيت المقدس والأمراء الصليبيين في الشرق بأن يجمعوا الأموال اللازمة لافتدائهم، وأن يقدموا هذا على أي أمر أخر[3].

وواصل البابا سياسته القديمة التي تعتمد على استقبال تقارير مفصلة عن الحالة في بلاد الشام مدعمة بالبيانات الدقيقة عن الحكام المسلمين، وطبيعة العلاقات بينهم.

ويبدوا أن هذه التقارير كانت ترسل من آن لآخر، فقد أرسل إليه ألبرت بطريرك بيت المقدس وجارين دي مانتياجو Garien de Mountiugo مقدم الإسبتارية (١٢٠٧-١٢٢٧م/ ٦٠٤-٦٢٤هـ)، ووليم دي بوسيه William de Poisse مقدم الداوية (١٢١٠-١٢١٩م/ ٦٠٧-٦١٦هـ)، وذلك في عام

---

(١) Penny Cole, The preaching, p. 81.

(٢) Branda, B., Perhaps you do not know? Innocent III, approach to release of captives (Vatican, 2000), pp. 458-463.

(٣) Innocent III, pope, Regesta, in p. L., vol. 214, col. 444.

١٢١٣م/ ٦٠٩هـ تقريرًا مفصلاً عن أحوال الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام[١]، فقد أورد معلومات هامة عن الأحوال السياسية والاقتصادية للدولة الأيوبية، إلا أنه أشار إلى بعض المعلومات الخاطئة فيما يخص علاقة الملك العادل بأبنائه في تلك الفترة[٢]، فقد زعم التقرير أن أبناء العادل: "يرغبون في عودة الأراضي المقدسة إلى فخامة البابا، وهي الأراضي التي يسيطرون عليها رغما عن الصليبيين، ويريدون أن يكون في مأمن في أي أرض بعيدًا عن الصليبيين"[٣].

وما أن وصل هذا التقرير إلى البابا إنوسنت الثالث حتى زادت حماسة في الدعوة للعادل مع الصليبيين المرتقبة، منساقًا وراء أماني كاذبة، فبالرغم من تسامح الملك العادل مع الصليبيين، فلم يكن هناك ما يدعوه إلى أن يفرط في المكاسب التي حققها أخوه صلاح الدين، كما أنه لم يتوان في أي وقت عن التصدي لأي نشاط عدائي يقوم به فرنج الشام ضد المسلمين، كما أنه علاقاته كانت قوية بأولاده، وساعدت شخصيته القوية على استمرار وحدة الدولة الأيوبية طوال عهده[٤]، إلا أن التقرير بما فيه من معلومات خادعة، دفعا البابا متحمسا إلى الإعداد للحملة الصليبية المرتقبة والتي توقع لها النجاح في تحقيق أهم

(١) لحسن الحظ فقد حفظ لنا ريتشارد دي سان جرمانو نص هذا التقرير، انظر :
Ryccardus de San Germano, Chronican, in Muratori, R.I.S., vol. VIII, vols. 986-988.

(٢) اعتمد الملك العادل على أبنائه وأقاربه في تصريف أمور الدولة الأيوبية، فقد عين نوابا منهم في كافة أقاليم دولته، فأناب الكامل محمد في حكم مصر، وأعطى المعظم عيسى دمشق، وجعل الأشرف موسى على حران والأوحد ميافرقين، في حين جعل حكم حلب للظاهر غازي ابن صلاح الدين الأيوبي، لمزيد من التفاصيل، انظر :
المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ١٨٩-١٩٠.

(٣) اتهم روهرشت مقدم الداوية بأنه هو الذي ضلل البابا بتلك المعلومات الخاطئة، في حين أن ريتشارد دي سان جرمانو الذي حفظ لنا النسخة الوحيدة لهذا التقرير، والتي اعتمد عليها روهرشت، ينسب هذا التقرير إلى البطريرك ومقدمي الإسبتارية والداوية، انظر :
Ryccardus de San Germano, Chronican, col. 986; R?hrict, Regesta, no. 864., p. 222.

(٤) بالفعل كان الملك العادل مسيطرًا على الأمور في دولته، وناجحا في إخضاع الجميع له، ويؤكد ذلك ما أشار إليه المقريزي فقد "رأى العادل في أولاده ما يحب... وكان كثيرًا ما يتردد العادل في ممالك أولاده"، وكان للعادل الإشراف التام على أنحاء الدولة الأيوبية، انظر:

أهدافها وهو استرداد الأراضي المقدسة من المسلين، بناء على المعلومات التـــي وصلته من خلال التقرير، وربما لجأ البطريرك ومقدما الداوية والإسبتارية إلى إيهام البابا بضعف الجبهة الإسلامية وانشقاقها لدفعه إلى الإسراع بحملة صليبية إلى الشرق.

وعلى أية حال، كان على البابا إنوسنت الثالث قبل الشروع في الإعـــلان عن الحملة الصليبية المرتقبة، أن يدلي بدلوه في استمرار أحد نماذج دبلوماســية الحروب الصليبية، وكان عليه الاتصال بالأيوبيين عله يتمكن بالدبلوماسية مــن تحقيق ما فشلت فيه القوات العسكرة من قبل[1]، ففي ٦ مايو ١٢١٣م/ ذي الحجة ٦٠٩هـــ، بعث البابا برسالة إلى الملك العادل في مصر، يشرح لـــه كيــف أن سقوط مدينة بيت المقدس في أيدي صلاح الدين لم يكن بسبب فضائل الأخيــر، بل بسبب غضب الله على المسيحيين، ثم يستدر عطف العادل علــى الأســرى الصليبيين، مبيناً له كيف أن بقاء المدينة المقدسة في أيدي المسلمين لــن يعــود عليه بفائدة، بقدر ما سوف يكلفه من تضحيات، ثم يطلب منه الموافقة على إتمام عمليات فداء الأسرى مع الصليبيين، ويختتم البابا رسالته بحــث العــادل علــى حسن استقبال مبعوثيه إليه، وقد يكون طلب البابا بإعادة مدينة بيت المقدس إلــى الصليبيين أمرًا غير مألوف في رسائل البابوات إلى بني أيــوب التــي كانــت تقتصر على طلبهم موافقة المسلمين على إتمام عمليات تبــادل الأســرى مــع الصليبيين[2].

لم يكتف البابا إنوسنت الثالث بالدبلوماسية بل حرص علــى أن يراقــب المسلمين عن بعد ويحرص دائما على الوقوف على أحوالهم، وهذا ما أكدته لنــا تقارير بطريرك بيت المقدس وقادة الداوية والإسبتارية إليه، إلى جانــب ذلــك استعان البابا بالجواسيس الفرنج في مصر لإمداده بالمعلومات التــي تقــدم لـــه

المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٢٢٩، راجع أيضا: حسين عطية: المراسلات، ص٢٧٥.

(١) حسين عطية: المراسلات، ص ٢٧١.

(٢) حسين عطية: المراسلات،ملحق رقم (٣)، ص ٣٠٥-٣٠٦.

صورة واقعية عن أحوال المسلمين[1]، ومهما يكن من أمر، فلـم نجـد أي رد للعادل على رسالة البابا إلى مصدر تاريخي، وإذا كان قد تم ذلك، فمن المؤكـد أن هذا الرد يتضمن عدم الموافقة على طلب البابا برد مدينة بيت المقدس إلـى الفرنج، أما بخصوص تبادل الأسرى المسلمين وفرنج الشام، وعقد معاهدة سلام بين الطرفين، فربما كرر العادل في رده على إنوسنت الثالث، شـروطه التـي أقرن بها رده على سلفه لوكيوس الثالث عام ١١٨٣م/ ٥٧٨هـ، بأنـه موافـق على هذا المطلب طالما التزم الليبيون بما تم بين البابـا والسـلطان فـي هـذا الشأن[2]، هكذا سعى إنوسنت الثالث إلى إتباع أسلوب الدبلوماسية مع بني أيوب، مع إرسال الجواسيس واستلام للتقارير الواردة من الشرق فـي الوقـت نفسـه، وأراد من ذلك كله إعداد حملة صليبية، يعوض بها الإمارات الصليبية ما فقدتـه عقب حطين عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ.

أعلن البابا إنوسنت الثالث أخيرًا قيام ما يعرف بالحملة الصليبية الخامس، التي حرص فيها على تلافي الأخطاء السابقة في الإعـداد لحمـلات صـليبية، وتتوفر وثائق بابوية عدة خاصة بهذه الحملة، ومن بينها رسالة البابـا إنوسـنت الخاصة بالدعوة للحملة المؤرخة ما بين ١٩-٢٩ أبريل ١٢١٣م ووجهها إلـى المؤمنين جميعًا في أنحاء أوروبا[3]، ودون الخوض في تفاصيل هـذه الرسـالة البابوية تقول أنه أشار فيها إلى ضرورة مساعدة الإمارات الصـليبية لحاجتهـا الماسة لذلك أكثر من ذي قبل، وأشار إلى أحـوال الأسـرى الصـليبيين فـي

---

[1] أبرز مثال على ذلك هو كليام التاجر الجنوي، والذي أورد المؤرخ ابن نظيف الحموي نصًا فريدًا عنه، وكيف تقرب هذا التاجر من الملك العادل وصار ملازما له في كل جولاته، حتى أنه رافق الملك في تجواله في بلاد الشام والجزيرة لمدة ثلاث سنوات، اطلع فيها على أحوال المسلمين في الفترة من عام ١٢١١م/ ٦٠٨هـ حتى عام ١٢١٤م، وكيف أن هذا التاجر كاتب الفرنج بذلك، ولما كان من الصعوبة أن يتصل بفرنج الشام نظرًا لملازمته للملك العادل، إذ فقد لا يستبعد أن أن يكون أحد الوسائل التي استخدمها البابا إنوسنت الثالث مثل الدبلوماسية وتلقي التقارير من صليبي الشام في تلك الفترة، انظر:

ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري، ص ٦٥-٧٠.

[2] حسين عطية: المراسلات، ص ٢٧٦.

Innocent III, Proclaims the fifth Crusade, in Reily-Smith,
[1] Idea and Realith, pp. 118-123.

الأراضي المقدسة وما يعانونه في سجون المسلمين، ويدعوهم إلى تخليصهم من الأسر[1]، ولم يقتصر البابا على ذلك بل -وكعادة من سبقوه- وجه سهامه الباطلة إلى الإسلام واستغل بناء العادل لحصن الطور قائلاً أنه يمثل تهديدًا لعكا، ويتيح للمسلمين أن ينقضوا على ما تبقى من مملكة بيت المقدس الأسمية[2]، وبالإضافة إلى ما سبق احتوى الخطاب على جوانب اقتصادية تتعلق بفرض الحصار على مصر، وحث الجماهير للمشاركة في الحملة ووسائل الدعاية الخاصة بها، والتطور الذي أدخله البابا على الغفران الممنوح للمشاركين، وأرفقت هذه الرسالة دعوة إلى عقد مجمع كنسي في أقرب وقت[3]، ويذكر رايلي سميث أن هذه الوثيقة البابوية تعد وثيقة الدعوة للحملة، فقد اتخذها الدعاة نموذجًا ومثالاً يحتذى، بل أن بعضهم كان يحملها معه في أثناء دعوته الصليبية في كافة أنحاء الغرب الأوروبي[4]

وبعد أن قام البابا بالدعاية المبدئية للحملة والدعوى لمؤتمر اللاتيران الكنسي -الذي كان مختلفا كل الاختلاف عن أي مجلس ديني عقد في أوروبا من قبل، إذا لم ينظر في الخلافات المذهبية وإنما نظر بشكل خاص إلى أمور الإعداد للحملة الصليبية الخامس، وهو الهدف -الرئيسي- الذي عقد من أجله المؤتمر[5]، وحضره كبار رجال الدين من الشرق والغرب، وأعلن البابا أنه بوسع الحكام العلمانيين الحضور، وأن الذين لا تسمح لهم مشاغلهم بالحضور يمكنهم إرسال مندوبين عنهم، وبالفعل حضر وفد من صليبيي المشرق برئاسة يوحنا التوري John of Tours مندوبا عن الملك الصليبي جان دي بريين[6]،

---

(1) هانز ماير : الحروب الصليبية، ص ٣٠٨.

(2) على محمود عودة الغامدي: الرؤية الأوروبية للعرب والإسلام خلال العصور الوسطى- ندوة اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ١٩٩٩، ص ٧٤.

(3) Penny, C., The preaching, p. 89.

(4) Reily-Smith, Idea and Realith, p. 112.

(5) Regine Pernard, the crusades, Trans, E. Grant, (London, 1963), p. 166.

(6) ضم الوفد الصليبي أيضا رالدلف أوف ميرنكورت Rodulph of Meren Court بطريرك بيت المقدس (١٢١٥-١٢٢٤م)، وبلدوين Baldwin أسقف أنطروطوس

بالإضافة إلى مندوب عن كل من إنجلترا وفرنسا وألمانيا وهنغاريا وأسبانيا، فضلا عن مندوب الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية، وعدد من المهتمين بالشئون الدينية والسياسة في الغرب الأوروبي[1].

وافتتح إنوسنت الثالث أعمال المؤتمر في الحادي عشر من نوفمبر عام ١٢١٥م[2]، ألقى على المجتمعين خطابًا ذكر فيه ما تقاسيه مدينة بيت المقدس والإمارات الصليبية، وطلب الحاضرين بمساندة الحملة، وعد نفسه نائبًا عن المسيح -عليه السلام- على الأرض، ثم يقول للحضور: "لا تترددوا في أن تقدموا أنفسكم وأموالكم فداء لإخوانكم الصليبيين في الشرق[3]"، ونهض يوحنا التوري رئيس الوفد الصليبي يتحدث عن الحالة السيئة التي وصلت إليها الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وأنه يجب الإسراع بالحملة الصليبية، خاصة وأن الهدنة مع المسلمين سوف تنتهي في عام ١٢١٧م/ ٧١٤هـ[4]، وانتهى الأمر بأن قرر الحاضرون أن تكون مصر هي هدف الحملة الصليبية القادمة، مع تفويض البابا بوضع الخطة اللازمة لتحقيق ذلك[5].

وفي ٣٠ نوفمبر عام ١٢١٥م أصدر البابا قرارات المؤتمر وبنوده التي بلغت السبعة عشر[6]، وكان أهم قرارات المؤتمر تحديد موعد تجمع الحملة في

الذي حضر نائبا عن جرفاس بطريرك أنطاكية الذي اعتذر عن حضور هذا المؤتمر لمرضه، وعدد من رجال الدين بالإمارات الصليبية، انظر:

Roger of Wendover, op. cit., vol. 2., p. 344

(١) اختلف المؤرخون في تحديد عدد الذين حضروا المؤتمر وتراوحت التقديرات ما بين ألف ومائتين وخمسون، وألف وثلاثمائة من رجال الدين والحكام العلمانيين، انظر:

Roger of Wendover, op. cit., vol. 2., p. 344; Matthew of Westminster, op. cit., vol. 2.,p. 121

(٢) Eracles, L'Estoire, p. 318.

(٣) Roger of Wendover, op. cit., vol. 2., p.344.

وانظر أيضا: ميشيل بالار: الحملات الصليبية، ص٢٢٠.

(٤) Eracles, L'Estoire, p. 319; Elizabeth, op. cit., 126.

(٥) رأفت عبد الحميد: الفكر البابوي الصليبي، ص ٥٦.

(٦) عن البنود الواردة في قرارات مؤتمر اللاتيران الكنسي، انظر :

أول يونيو من عام ١٢١٧م في أحد مواني صقلية، وأن على الـذين سـيذهبون بحرًا أن يكونوا مستعدين في ذلك الوقت[١]،.وطلب من رجال الدين التخلي عن خلافاتهم، وأن يكونوا قدوة للصليبيين، وكذلك وقف الحروب في أنحاء أوروبـا كافة لمدة ثلاث سنوات[٢]، مع بعض الامتيازات الروحية لمن يشـاركون فـي الحملة بطريق مباشر أو غير مباشر، فقد وعد من يقدمون سفنهم لحمل الجنـود أو الذين يعملون في بناء هذه السفن أو يساهمون في نفقـات الحملـة بغفـران خطاياهم، وإعفائهم من الضرائب ، وذلك بمجرد حملهم الصليب، مـع وضـع كافة أملاكهم

تحت حماية الكنيسة لحين عودتهم إلى أوطانهم[٣]، أما عـن مصـادر تمويـل الحملة، فأن البابا بدأ بنفسه وقدم ثلاثين ألف جنيه، علاوة على ثلاثة آلاف مارك فضي، كما فرض على نفسه وعلى الكرادلة كافة عشر دخلهم[٤]، وكـان أهـم قراراته ما عرف بالحصار الاقتصادي للمسلمين ومنع الاتجار مع المسلمين، مع تهديد من يخالف ذلك بمصادرة تجارته، وفي حالة القـبض علـى أي صـليبي يخالف ذلك يعامل معاملة الأسرى[٥]، وجاء على لسان البابا: "نحن نحرم ونعلن أولئك أفاقين وعديمي التقى من المسيحيين الـذين ينقلـون الأسـلحة والحديـد والخشب الخاص ببناء السفن إلى بلاد الملمين، ونحرم أيضا أولئك الذين يبيعون

Roger of Wendover, op. cit., vol. 2., pp. 344-346; CF. also: Thatcher, Asource Book. Pp. 538-544.

(١) Roger of Wendover, op. cit., vol. 2., p. 345.

(٢) Thatcher, Asource Book. pp. 538-540.

(٣) اتضح ذلك في رسالة البابا إنوسنت الثالث إلى ملك الدانمارك التي قال فيها: "فإنك إن حملت الصليب فنحن نمنحك عطفنا البابوي، والوضع تحت حماية الكنسية وحمايتنا الخاصة، شخصك ومملكتك مع كل أملاكك، بعيدة أن أي خطر"، انظر :

Innocent III, pope, Letter to king of Denmark, in Regesta, in p. L., vol. 215. Col 258; CF: Thatcher, op. cit., 248 .

(2) Roger of Wendover, op. cit., vol. 2., p. 344.

(٥) Elizabeth, op. cit., 130.

لهم السفن، وأولئك الذين يقدمون لهم المساعدات الفنية والآلات، وأي شئ آخـر مما يضر بالأراضي المقدسة، ونأمر ونمنع المسيحيينَ جميعًا مـن أن يرسـلوا سفنهم أو يتجهوا إلى بلاد المسلمين الذين يعشون في الشرق لمدة أربع سنوات، وبذلك يحرم المسلمين من المساعدة التي يحصلون عليها"، ومن الواضح أن هذا القرار كان يخص البيزاوية الذين كانوا يمدون المسلمين بـأدوات بنـاء السـفن والمعدات الحربية، وتجار المدن التجارية الإيطالية الأخرى التي تسـتغني عـن سلع مصر أو سلع الشرق الأقصى التي تصل إلى مصر، والذين لم يراعوا أبدًا تعليمات البابا إنوسنت الثالث في هذا الشأن[١].

وعلى الفور، ولكي يضمن البابا تنفيذ القرارات السابقة وقيام الحملة فـي الموعد المحدد، أرسل دعاة لها إلى أنحاء الغرب الأوروبي كلها حتـى يعملـوا على تهيئة أذهان الأوروبيين للانخراط في الحملة، فانتشر الواعظ في أوروبـا يخطبون ويعقدون الاجتماعات لحشد الصليبيين[٢] في فرنسا بدأ قبل هذا انعقـد مؤتمر اللاتيران، عندما أرسل البابا روبر أف كورسون إليهـا، ولكـن نظـرًا لاستياء رجال الدين من تصرفاتها استدعاء البابا وأرسل بدلاً منه -بعد انتهـاء المؤتمر- جاك دي فيتري أشهر المبشرين للحملـة[٣]، وقـد صـادف بعـض الصعوبات في أثناء قيامه بواجبه، ذلك أن الفرنسيين لم يكونوا راغبين في العمل إلى جانب الألمان في الحملة المرتقبة، إلا أنه استطاع حث عامة الشعب علـى حمل السلاح والتوجه إلى الشرق، وحقق نجاحًا كبيرًا في المهمـة التـي كلـف لها[٤]، وأعلن أساتذة جامعة باريس أن كل من وعد بالإشتراك في الحملـة، ثـم

---

(١) James Brundage, The Crusades, p. 217; Hefele,C.J., Historie des Conciles, ed. H.Leclereq.t.5 (Paris, 1913), pp. 1722.ff.

(٢) Van Cleve, The fifth Crusad, in setton, The Crusades, col., 2., p. 360.

(٣) Eracles, L'Estoire, p. 319.

(٤) عبد اللطيف عبد الهادي: دراسة نقدية لمنهج الكتابة التاريخية عند جاك دي فيتري، بحث منشور في: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٧٣.

حاول أن يحنث مقترف لجريمة عقوبتها الإعدام[١]، وقد كتب جيرفاس أحد أشهر المبشرين هناك إلى البابا يخطره بأن نبلاء فرنسا رشوا رجـال الـدين مقابـل إعفائهم من المشاركة في الحملة، مما أدى إلى فتور الروح الصليبية لديهم[٢].

والجدير بالذكر أنه عقب انتهاء المؤتمر، توجه يوحنا توري ومعه الوفـد الصليبي إلى فرنسا، ليبلغ الملك فيليب أغسطس والبارونات الفرنسيين بقرارات المؤتمرات، وليحثهم على التشاور فيما بينهم من أجل اسـتعادة بيـت المقـدس ونجدة الإمارات الصليبية، فاكتفى الملك الفرنسي وباروناته بتقديم المسـاعدات المالية مانحين ١/٤٠ من دخولهم دعما لنفقات الحملـة[٣]، وبـات واضـحا أن الدعوة للحملة الصليبية تواجه بعض المشكلات في فرنسا، منها: جشـع رجـال الدين في ابتزاز أموال النبلاء للترخيص لهم بتأجيل الوفاء بوعدهم، وعدم رغبة الفرنسيين في العمل إلى جانب الألمان، وفتور الروح الصـليبية عنـد النـبلاء بعكس العامة.

أما في إنجلترا فقد قام لا نجتون –رئيس أسقفة كانتروري– بدعوة أهلها للمشاركة في الحملة، وان النبلاء الإنجليز أوفى عهدًا من ملكهم، فبروا بوعدهم بالمشاركة في الحملة أما ملكهم حنا فتظاهر برغبته في المشاركة وحسب، كمـا انتشر الوعاظ والمبشرون في أيرلندا واسكتلندا للدعاية للحملة المرتقبة[٤].

وفي ألمانيا تحقق أكبر النجاح في التبشير بالدعوة على يدي أوليفر أوف بادربورن Oliver of Paderborn الذي نجح في حشد ما يقرب من خمسـين ألفا من الصليبيين، ولهذا عينه البابا كاتبًا للمندوب البـابوي للحملـة الصـليبية المنتظرة[٥].

---

(١) Runciman,S., op. cit., vol.3., 145.

(٢) Innocent III, pope, Regesta, in p. L., vol. 216. Cols 817- 820.

(٣) Eracles, L'Estoire, p. 330; Conder, p. cit., p. 307.

(٤) Matthew of Westminster, op. cit., vol. 2., p. 134.

(٥) Van Cleve, The fifth Crusad, p. 381; Runciman,S., op. cit., vol.3., PP. 283-384.

واصل البابا إنوسنت الثالث جهوده، لاسيما فيما يخص تمويـل الحملـة، وطبقا لقرارات مؤتمر اللاتيران تم جمع مبلغ كبير من المال لدى أمـين مـال الفرسان الدواية في باريس، ثم أرسلت إلى أمين مـال الداويـة وإلـى مقـدم الأسبتارية في المملكة الصليبية وإلى القادة الصليبيين لتوزع بمعرفتهم[١]، وكان البابا على اتصال دائم برجاله في أنحاء أوروبا، للوقوف على مـدى اسـتجابة الأوروبيين للحملة، فضلاً عما أعلنه من أنه سيقود الحملة الصليبية بنفسه، فكان ذلك عاملاً آخر مشجعًا على جذب الفرسان للمشاركة في الحملة[٢].

وفي مايو من عام ١٢١٦م/ المحرم ٦١٣ هـ، توجه البابا إنوسنت الثالث إلى مدينة بيروجيا شمال إيطاليا، محاولاً تسوية الخلافات التي كانت قائمة بـين المدن الإيطالية، خاصة العداء طويل الأمد بين جنوة وبيزا، كي يسهما معًا فـي نقل قوات الحملة، على أنه مات هناك بعد مرض قصير فـي ١٦ يوليـو عـام ١٢١٦م/ ٢٤ ربيع الأول عام ٦١٣هـ، عن ستة وخمسين عاما بعد أن تـولى كرسي البابوية لمدة ثمانية عشر عامًا[٣].

وإذا حاولنا تقييم جهود البابا إنوسنت الثالث في مساندة الإمارات الصليبية في بلاد الشام، فنجد أنه طوال ثمانية عشر عامًا قضاها على الكرسي البـابوي، كان المسئول الأوروبي الأول عن مساندة صليبيي الشام في مزج الفكر الصليبي بفكرة السمو البابوي، ورأى أن آية حملة أو دعم أوروبي يقدم للصليبيين يجـب أن يخضع لهيمنة البابوية، وتعمد نشر الدعاة والوعاظ في أنحاء أوروبا للـدعوة للحملات الصليبية، ونجحت سياسته تلك، بالرغم من فقدانه السيطرة على زمـام أمور الحملة الصليبية الرابعة، وتعرضه لكثير من النقد من جرأ ذلـك، إلا أنـه نجح في السيطرة على الغرب الأوروبي مرة أخرى، وساعد الكيان الصليبي في

---

(١) لم تسلم هذه الأموال من الاختلاسات، فقد اتهم روبرت أف كورسون مثلا باختلاس بعضها ولعل هذا هو السبب في إبعاده عن مهمة الدعوة للحملة في فرنسا، كما أن البابا استاء من هذا التصرف وأمر بالتحقيق معه في هذه الواقعة، مما يدل على ضعف الروح الصليبية حتى لدى كبار رجال الدين، انظر:

Van Cleve, The fifth Crusad, p. 386.

(٢) Roger of Wendover, op. cit., vol. 2., p. 343; Runciman,S., op. cit., vol.3., P145.

(٣) Mtthew of Westminster, op. cit., vol. 2., p. 132; CF. also: Barttelett,W., op. cit., pp. 212-213

الشرق بوسائل عدة دبلوماسية وعسكرية وبمراسلة القادة ورجال الدين الصليبيين، واعتمد بشكل أساسي على التقارير الواردة منهم في معرفة أحوال المنطقة، تمهيدًا لإحياء مملكة بيت لمقدس الصليبية وإعادة هيبتها ثم نجح في أخر الأمر في تجهيز الحملة الصليبية الخامسة، التي لم يمهله القدر حتى يجني ثمارها، بعد أن بذلك في إعدادها والدعوة لها في أنحاء العالم المسيحي كلها ما بذل، في نشاط بابوي لم تشهد الحركة الصليبية له مثيلاً منذ عقد البابا أوربان الثاني.

لم يمض على موت إنوسنت يومان حتى تولى كرسي البابوية هونوريوس الثالث[١] الذي التزم بالمبادئ والقرارات التي اتخذها مؤتمر اللاتيران فيما يتعلق بالحملة، وربما يرجع ذلك إلى أن البابا الجديد كان هادئ الطبع لم يرغب في الدخول في صراعات مع الحكام العلمانيين، ولذلك فضل توجيه جهده وجهد الغرب الأوروبي نحو مساندة الإمارات الصليبية، خاصة بعد أن هيأ له سلفه الظروف المناسبة لقيامها، ووضع الخطوط الرئيسية لها، ووجه هونوريوس طاقته كلها لقيام الحملة في موعدها المحدد[٢].

وكان على هونوريوس الثالث أن يطلع الإمارات الصليبية على موقفه من الحملة، فأرسل إلى الملك الصليبي جان دي بريين يشجعه، ويؤكد له عزمه على إرسال الحملة في الميعاد المحدد، وأنه سيواصل جهود إنوسنت الثالث بالقدر نفسه من الحماس والإخلاص[٣]، وأرسل جاك دي فيتري إلى الأراضي المقدسة ليتولى منصب رئيس أساقفة عكا بالإضافة إلى الدعوى للحملة المقبلة في الإمارات الصليبية في بلاد الشام[٤]، كما أرسل إلى الأساقفة ورجال الدين في

---

(١) هو الكاردينال سنسيوس الذي اعتلى كرسي البابوية تحت اسم هونوريوس الثالث، وقد شغل مناصب دينية عدة قبل ذلك، واشتهر منذ البداية بنجاحه في حل المشكلات التي تواجه الكنيسة في أوروبا، انظر :
Hans, K, Encyclopedia of th popacy, pp. 86-87.

(٢) James Powell. Honorius III and the leadership of the reprinted from C.H.R., vol. LXIII, no. 4, October 1977, Crusade, U.S.A., p. 522.

(٣) Honnoriuse III, pope. Regesta, Honorii papae III, ed. P. pressutti, 2 tome, (Rome, 1888-95), t.I., ni. 1178.

(٤) Elizabeth, op. cit., 32.

أوروبا يحثهم على الاستمرار في الدعوة للحملة والتبشير بها، والعمل على زيادة حماس البارونات والفرسان استعدادا للذهاب إلى الأراضي المقدسة[١]، وإذا كان موقف هونوريوس الثالث من الحملة مشابها لموقف سلفه، فما موقف الملوك والأباطرة في الغرب الأوروبي من الحملة؟

أما الملك الفرنسي فيليب أغسطس، فكان أمل البابوية فيه كبيرًا، لارتباط فرنسا الوثيق بالإمارات الصليبية في الشام، وعدا فيليب مستشارًا للصليبيين[٢]، علاوة على ضخامة حملة التبشير بالدعوة في فرنسا، وعلى الرغم من ذلك اعتذر الملك الفرنسي عن قيادة الحملة الصليبية بحجة انشغال معظم قواته في محاربة الهراطقة في جنوب البلاد[٣]، أما الملك الإنجليزي حنا فقد ظل مترددًا إلى أن توفى في عام ١٢١٦م/ ٦١٣هـ، وخلفه الملك هنري الثالث (١٢١٦-١٢٧٢م/ ٦١٢-٦٧٠هـ)، الذي وعد فقط بالمشاركة في الحملة دون تنفيذ ذلك بشكل فعلي[٤]، وحتى الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني –الذي يعد صنيعه البابوية صاحبة الفضل الأول في توليه العرش الألماني[٥]، خذل البابا هونوريوس الثالث بعد أن أعلن موافقته ثم تراجع معتذرًا[٦].

وهكذا أضاع الأمل في أن يقود الحملة أي من الحكام الأوروبيين، ولا شك في أن ذلك أثر أسوأ في نفس البابا هونوريوس الثالث وعلى نتائج الحملة كلها فيما بعد.

---

(١) Penny, C., op. cit., pp. 140-141.

(٢) عد صليبيو المشرق الملك الفرنسي مستشارًا لهم بالفعل، بدليل أنه هو الذي رشح لهم جان دي بريين للعرش الصليبي، وعن ذلك انظر ما سبق.

(٣) Eracles, L'Estoire, p. 399.

(٤) Roger of Wendover, op. cit., vol. 2., p. 379.

(٥) Poul Wiegler, op. cit., p. 89.

(٥) Frederick II, Promis to the pope, in. Thatcer, op. cit., pp. 230-232.

كان الإمبراطور فريدريك الثاني قد أعلن –عقب انتهاء مؤتمر اللاتيران –أنه سيقود الحملة الصليبية المقبلة، بل وطالب شعبه بالمشاركة فيها ثم فاجأ الجميع باعتذاره متعللا بوجود قلاقل وثورات داخلية تهدد عرشه، واكتفى البابا بمعاتبته على ذلك، انظر:

Poul Wiegler, op. cit., pp. 89-90.

ولكن البابا لم ييأس ونجح في إثارة حماسة آندرو الثاني ملـــك هنغاريـــا، وليوبولد السادس دوق النمسا، اللذين وصلا إلى عكـــا فـــي أكتـــوبر ١٢١٧م/ جمادى الثانية ٦١٤هـــ، على رأس الحملة المعروفة في التاريخ باســم الحملـــة الهنغارية، والتي تعد -من جهة التخطيط العام- طليعة للحملة الصليبية الخامسة أو مقدمة لها[١]، وقرر المشاركون جميعا القيام بعض الأعمال العسكرية في بلاد الشام، انتظارًا لقدوم القوات الرئيسية في الحملة المنتظر، ليتحدوا معًا ويهاجموا مصر[٢]، وفشلت الحملة الهنغارية في الاستيلاء على حصن الطور -الذي كـــان احد الأسباب المباشرة لقيام الحملة وعاد رجالها يجرون أذيال الفشل الذريع[٣].

وأيا ما كان الأمر، فقد انتهت الحملة الهنغارية دون أن تحقق نتـــائج ذات أهمية للإمارات الصليبية في بلاد الشام، كما أن الملك أندرو تشبب في إلحـــاق الضرر بالصليبيين عندما رحل إلى وطنه ومعه عدد كبير من قواته[٤]، وكـــان الموقف يحتم عليهم البقاء بالشام للانضمام إلى القوات الصليبية القادمة لمهاجمة مصر أو الدفاع عن الإمارات الصليبية في الشام في أثناء هجوم إخوانهم علـــى مصر، ويرى أحد المؤرخين المحدثين أن رحيل أندرو بقواته تسبب فـــي فشـــل الحملة الصليبية الخامسة بأكملها فيما بعد[٥].

وبينما كان القادة الصليبيون مجتمعين في عكا تحت قيادة ملكهم جـــن دي بريين، يخططون لغزو مصر يحدوهم أهمل استرداد بيت المقدس، بدأت القوات تتوافد من الغرب الأوروبي إلى عكا، ففي أبريل ١٢١٨م/ المحـــرم ٦١٥هــــ،

---

(١) Eracles, L'Estoire, p. 322; CF. also. Runciman,S., op. cit., vol.3., pp. 147-148

(٢) James Brundage, the Crusades, p. 214.

(٣) Eracles, L'Estoire, p. 322; Oliver of Paderborn, p. 15.

(٤) اضطر البطريك رادولف أن ينزل الحرمان ضد الملك أندرو ورجاله إلا أن أندرو لم يبدي أي اهتمام بذلك، وغادر البلاد عائدًا إلى وطنه، في يناير ١٢١٨م/ شوال ٦١٤هـــ، انظر: Oliver of paderborn, p. 17.

(٥) Van Cleve, The fifth Crusad, p. 394.

وصل أسطول الفريزيين، ومعه الأنباء بأن بقية الحملة في الطريق وستبحر إلى المشرق فور تدبير السفن اللازمة لنقلها من الموانئ الإيطالية[1]، ثم وصلت في مايو/ ربيع الأول من العام نفسه، قوات تألفت من الإسكندنافيين والنمساويين الذين قدر عددهم بثلاثين ألفا من المحاربين[2]، ثم جاءت قوات ألمانية تحت قيادة هنري كونت هولندا[3]، وتجمعت القوات الصليبية تحت قيادة الملك الصليبي جان دي بريين، واتجهت إلى مصر فوصلت أمام مدينة دمياط في مايو ١٢١٨م/ صفر ٦١٥هـ مبتدئة بصفة رسمية الحملة الصليبية الخامسة[4].

ومن الجدير بالذكر أننا لن نتناول تفاصيل هذه الحملة فيما يلي من صفحات، وإنما نركز الضوء على تقييم الحملة بين النجاح والفشل، في تقديم العون المطلوب لصليبيي الشام، وفي الحقيقة باءت الحملة الصليبية الخامسة بالخسران المبين، فلم تستول على مصر، بل أضاعت الفرصة الذهبية التي أتيحت للإمارات الصليبية في بلاد الشام، ذلك أن الملك الكامل الأيوبي عرض على قادة الحملة الجلاء عن دمياط مقابل أن يعيد للصليبيين كل ما فتحه صلاح الدين الأيوبي ومدينة بيت المقدس –الهدف الأول للحملات الصليبية كلها التي أرسلتها أوروبا بداية من الحملة الصليبية الثالثة– وكان لرفض الصليبيين لهذا العرض أثره في القضاء على الحملة فيما بعد، وضياع دمياط من أيديها، والخسائر الصليبية في الأرواح والفشل التام[5]، كما أصبح صليبيو الشام محصورين في ممتلكاتهم الساحلية دون مؤخرة، وأصبحوا أكثر ضعفاً وانكشافاً أمام قوة الأيوبيين الموحدة، التي كانت من أسباب فشل الحملة[6].

---

(١) Ernoul, pp. 414-415.

(٢) Oliver of Poderborn, pp. 20-21; CF. also: Donovan,J.P., Pelagius and The Fifth Crusade, (Philadelphia, 1950).P.36 .

(٣) كانت هذه القوات الألمانية قد سلكت الطريق البحري إلى أسبانيا حيث ساعدت الأسبان في القتال ضد مسلمي أسبانيا، وقد غادرت لشبونة في مارس ١٢١٨م، ولمزيد من التفاصيل انظر:

Roger of Wendover, op. cit., vol. 2., p. 404.

(٤) محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص ١٩٠.

(٥) وعن عرض الملك الكامل، انظر :

Oliver of Poderborn, p. 45; Eracles, L'Estoire, p. 342; Ernoul, p. 435

(٦) ميشيل بيالار: المرجع السابق، ص٢٢٦.

وكان لعناد بيلاجيوس المندوب الباباوي للحملة وغـروره[١]، وخلافاتـه المستمرة مع الملك الصليبي -وهو ما عرف بازدواجية القيادة- أثره الكبير في ذلك، إضافة إلى عدد من الأسباب الأخرى يتعلق معظمها بإعداد قوات الحملـة، وجهل قادتها بجغرافية مصر، وزحفهم جنوبًا وقت فيضان النيل، وغير ذلك من الأسباب التي اجتمعت لتصنع الإخفاق الصليبي المبين[٢]، ولا ننكر أن للجانـب الأوروبي دور كبير في هذا الإخفاق فقد أسندت قيادة الحملة إلى البابوية حتى لا تنتهي إلى ما انتهت إليه الحملة الصـليبية الرابعـة[٣]، وكـان اختيـار البابـا لبيلاجيوس مندوبا عنه في الحملة، ثم إعطائه من السلطات ما جعله يتعالى على الملك الصليبي حتى أظهر ما يعرف بالصراع بين السلطتين الزمنيـة والدينيـة داخل صفوف الحملة، كذلك لم تكن شخصية البابا هونوريوس الثالث من القـوة بحيث يخشاها بيلاجيوس، وإلا ما رفض العرض المغري الذي وصله من الملك الكامل، وفشل البابا أيضا في إرغام أي منن حكام أوروبا الكبار في قيادة الحملة الصليبية[٤]، وأوضح هذا الأمر الشعراء الصليبيون المرافقـون للحملـة، فقـد صاغوا شعرا يوضحون فيه أن المصالح الشخصية حالت بين الملوك والأباطرة والمشاركة في الحملة[٥]، وكانت معظم الآمال معقودة على مشاركة الإمبراطور الألماني فريدرك الثاني أو لحاقة بالحملة في مصر على أسوأ تقـدير، والـدليل على ذلك أن صليبي الحملة في أثناء وجودهم في مصـر كتبـوا مـرارًا إلـى فريدريك يذكرونه بوعده، وأنهم في حاجة إلى المال والرجال، بالإضـافة إلـى

---

(١) بيلاجيوس أحد رجال الدين الأسبان، وعينه البابا إنوسنت الثالث كاردينالا في عام ١٢٠٦م، تولى مهمة تسوية مشكلة الكنائس اليونانية في الإمبراطورية اللاتينية في بيزنطة، ثم عينه البابا هونوريوس الثالث مندوبا بابويا وقائدًا للحملة الخامسة، وكان متصلب الرأي عديم الكياسة، الأمر الذي جعله يتصادم معه الملك الصليبي جان دي برين بخصوص قيادة الحملة، وعن ذلك انظر :

Ernoul, p. 417; CF. also: Donvan, op. cit., pp. 1,4.ff.

(٢) تناول الدكتور محمود سعيد عمران في فصل مستقل أسباب إخفاق الحملة الصليبية الخامسة في دراسة شاملة، انظر :

محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص ٣٤٨-٣٥٨.

(٣) Van Cleve, The fifth Crusad, p. 428.

(٤) James Powell; Anatomy of A Crusades, p. 1213- 1221; (Philadelphia, 1986), p. 190.

(٥) قاسم عبده قاسم: الشعر والتاريخ، دراسة تطبيقية على شعر الحركة الصليبية، مقال بالمجلة التاريخية، مجلد ٢٨، ٢٩ عام ١٩٨١-١٩٨٢، ص ١٠٧.

قيادته الحكيمة، وأن أي تأخير معناه الهزيمة وبالتالي عدم استرداد بيت المقدس[١]، ونظرًا لما أبداه الإمبراطور من إهمال للحملة، وعدم وفائه بوعده ومراوغته ضاع كثير منن الوقت على الحملة، حتى عده بعض المؤرخين المحدثين المسئول الأوروبي الأول عن فشل الحملة، وأثارها الضار على صليبي الشام[٢]، ولم يتحقق الهدف الاستراتيجي للحملة الصليبية الخامسة -وهو الاستيلاء على مصر، وفتح الطريق أمامهم إلى بيت المقدس- للأسباب سالفة الذكر، ومعنى هذا الفشل الكامل للحملة، فشل الغرب الأوروبي بجيوشها الجراراة ودعمها المادي -عقب حركة الاسترداد التي قام بها صلاح الدين الأيوبي عقب حطين- أن تعيد للصليبيين في الشام ما فقدوه في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري.

---

(١) حسنين محمد ربيع: رسالة الصليبيين إلي الإمبراطور فريدريك الثاني، أثناء حصار دمياط ١٥ يونيو ١٢١٨م، ندوة مصر وعالم البحر المتوسط ١٣-١٥ إبريل ١٩٨٥م، بآداب القاهرة.

(٢) Duggan, A., The srory of the Crusades, 1097- 1219, (London, 1963), p. 120; Stevenson, op. cit., p. 307;Rohricht,R., Geschichte, p. 211.

الفصل الثالث

الإمارات الصليبية
بين البابوية والإمبراطورية
(١٢٢١-١٢٤٠م- ٦١٨-٦٣٧هـ)

من المعروف أن الحملات الصليبية على الشام تـأثرت -بشـكل عـام- بثلاث نقاط رئيسية، لعل أولها وأهمها موقف الغرب الأوروبـي مـن بـابوات وحكام علمانيين من هذه الحملات التي كانوا المحرك الأول لها، وتتعلق النقطـة الثانية بالحالة السياسة في بلاد الشام عامة وأثرها على الإمارات الصليبية بوجه خاص، أما النقطة الثالثة فهي المرتبطة بأفراد هذه الحملات قـوادًا وجنـودًا، إذ انعكس تأثير الأوضاع العامة المحيطة بهم على سلوكهم ودوافعهم، وأدى تفاعل هذه النقاط بعضها مع بعض إلى صياغة نتائج تلك الحملات بالسلب والإيجـاب وبالرغم من الفشل الذريع التي منيت به الحملة الصليبية الخامسة، فإن ذلك لـم يجهض الحلف الدفاعى الاستراتيجي الأوروبي من أجل إنقاذ الكيان الصـليبي، والدليل على ذلك قدوم ثلاث حملات صليبية أخرى من الغرب الأوروبي لـدعم ما تبقى من الإمارات الصليبية في بلاد الشام في فترة لا تتعـدى عقـدين مـن الزمان (١٢٢١-١٢٤٠م/ ٦١٨-٦٣٧هـ)، بالإضافة إلى العلاقات بين الطرفين في تلك الفترة، لاستكمال الدعم الأوروبي للكيان الصليبي المتداعي، وهـذا مـا سنعرض له في الصفحات التالية.

على الرغم من أن الحملة الصليبية الخامسة باءت بالفشل، ولم تحقق شيئًا يذكر، ولم يسترد الصليبيون شيئًا مما فقدوه بعد حطين، ولم تعد إليهم مدينة بيت المقدس -هدف الحملة الرئيسي- ولم تحتفظ الحملة بما حققته من مكاسب فـي أثناء وجودها بمصر بعد أن تنازلت عن دمياط[1]، إلا أن الإنجاز الوحيد الـذي يحسب لها هو تلك الهدنة التي وقعت بين الصليبيين والمسلمين، والتي بمقتضاها يتم إحلال السلام بينهم لمدة ثماني سنوات تنتهي في عام ١٢٢٩م/ ٦٢٦هـ، فقد حرص الملك الصليبي جان دي بريين على أن يفيد منها في أن تخلد مملكته إلى الراحة من الإرهاق الذي تعرضت له، وقد سعى إلى تنمية الحركـة التجاريـة للإمارات الصليبية في بلاد الشام، خاصة التجارة مع البلاد الإسلامية الداخليـة، التي تعد المصدر الرئيسي لموارد المملكة الصليبية[2]، كما عمل علـى تنشـيط الدور الاقتصادي الذي تقوم به الجاليات الإيطالية التجارية، بعد أن تأثر سـلبيًا

---

(١) David, N., Essential Historiers, The Crusades, (London, 2001), p. 39

(٢) Elan Forey, The Military Orders, 1120-1212 in Jonathan Riley- Smith, History of the Crusade, p. 191.

بنتائج الحملة الصليبية الخامسة، إذا لم يستطع الإيطاليون أن يستردوا وضعهم السابق بالإسكندرية، لأن مواطنيهم شجعوا الحملة، ومع أنهم عادوا إلى متاجرهم، إلا أنهم لم يعودوا موضع ثقة المسلمين[(١)]، وسعى الملك الصليبي أيضًا إلى إنعاش التجارة في المعاقل الصليبية الباقية التابعة لمملكة بيت المقدس ويلوح ذلك واضحًا في تشجيعه لأمير بيروت يوحنا دي إيبلين، وعقد عدد من الاتفاقات التجارية مع معظم الجاليات الموجودة: جنوة والبندقية ومرسليا في الفترة من نوفمبر ١٢٢١م إلى سبتمبر ١٢٢٣م/ شوال ٦١٨هـ إلى رمضان ٦٢٠هـ[(٢)]، استطاع عن طريقها إنعاش المنطقة من الناحية الاقتصادي[(٣)] ومن ثم يرى الباحث أن صليبي الشام حاولوا الاعتماد على مواردهم الخاصة ونشاطهم التجاري في تلك الفترة الحساسة انتظارًا لما يأتيهم من مساعدات من الغرب الأوروبي.

ما لبثت الجهود السابق ذكرها أن ذهبت هباء منثورًا في ظل الانقسامات والمنازعات الشديدة التي نشبت بين الصليبيين، ففي عام ١٢٢٢م / ٦١٩هـ تفجرت من جديد العداوة الكامنة بين جاليتي بيزا وجنوة في مدينة عكا، بعنف أشد من ذي قبل، وتطور الأمر إلى حرب سافرة في شوارع المدينة، وأخطأ جان دي بريين فساند بيزا على حساب جنوة، مما أحدث انشقاقًا خطيرًا وانقسامًا

---

(١) لذلك قام جان دي بريين بعقد اتفاقية تجارية مع الجنوية منحهم فيها العديد من الامتيازات في عدة أماكن ومعاقل صليبية، وذلك في أبريل ١٢٢٢م/ جمادى أول ٦١٩هـ، انظر:
Rohricht,R., Regesta, no.953., p. 252; CF: also: Throop, Criticism, p, 33.
راجع أيضا: فايد حماد عاشور: العلاقة بين البنادقة والشرق الأدنى الإسلامي، ص ١٤٥.

(٢) Rohricht, Regesta, no.957; 963, 965., pp. 253-254; CF: also: John La Monte, Feudal Monarchy, pp. 262-265.

(٣) محمد عبد الحميد فرحات: بيروت ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، ص ٣٢٣.
حصلت الجاليات التجارية في تلك الاتفاقيات على امتيازات عدة، أدت بالتالي إلى انتعاش اقتصادي في المنطقة، ومن تلك الامتيازات السماح لهم باستغلال غابات بيروت، وإعفاؤهم من الرسوم الجمركية على صادراتهم من القمح والنبيذ والزيت، كما كانت لهم حرية تعيين قناصلهم واستخدام الحمام العام يومًا في الإسبوع، ولمزيد من التفاصيل، انظر:
Mas-Latrie, op. cit., vol. 2. pp. 43-44.

واضحًا داخل الصفوف الصليبية[1]، وعادة الاضطرابات مرة أخرى في شمال المملكة، وأصبحت الشغل الشاغل لجميع الأطراف في بلاد الشام، وكأنهم وجدوا فيها وسيلة لتفريغ الطاقات حتى وصول حملة صليبية جديدة من الغرب الأوروبي، ففي إمارة أنطاكية فقد بوهيمند الرابع –على الرغم من سيطرته على الإمارة– تأييد البابوية والجماعات الرهبانية العسكرية، وأثار نار الفتنة مرة أخرى بين الداوية والإسبتارية، وانتزاع حراسة قلعة أنطاكية من الإسبتارية[2]، وأصدر بيلاجيوس –المندوب البابوي– قرار الحرمان على بوهيمند، مما زاد من عناد الأخيرة وتعنته في تصرفاته مع جماعة الإسبتارية[3]، وعندما أدرك البابا هونوريوس الثالث خطورة الأوضاع في الإمارات الصليبية، كتب إلى بيلاجيوس في ٩ يوليو ١٢٢١م/ ٢٦ جمادى الأولى ٦١٨هـ، ينصحه بأن يتعامل مع بوهيمند بحذر، لأن ضياع إمارة أنطاكية –كما قال البابا– "سيكون خسارة للعالم المسيحي تفوق ضياع دمياط[4]، لكن الأمر تفاقم عندما نشب

-

(١) في تلك الحرب التي اندلعت في عكا، هزم البيزاوية أول الأمر أمام قوات جنوة واضطروا إلى التقهقر، لكنهم أشعلوا حريًا التهم قسمًا كبيرًا من المدينة، وعددًا من المباني الأثرية من بينها برج مرتفع يملكه الجنويون الذين انصرفوا عن القتال، وهرعوا لإنقاذ أملاكهم، واستغل البيزيون هذا الخطأ، يساندهم الملك جان دي بريين، وعادوا الهجوم، وسحقوا خصومهم، وفي أعقاب هذه الأحداث امتنع الجنوية لعدة سنوات عن التوجه إلى ميناء عكا، فكان لذلك تأثير سلبي على اقتصاد المملكة الصليبية، انظر :

Eecles, L'Estoire, pp. 354-355.

راجع أيضا:

هايد: تاريخ التجارة، ج١، ص ٣٤٨، وسامي سلطان سعد: أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية، ص ٨٩.

(٢) حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٣١٨.

(٣) تعرضت جماعة الأسبتارية لاضطهاد شديد من جانب بوهيمند الرابع، الذي استولى على أملاك الجماعة كلها في أنطاكية وطرابلس وأعدم اثنين من الأسبتارية، وحرق أحدهما حيًا، انظر:

Riely-Smith, The Kinghts of St, Johm, p. 161.

راجع أيضا: حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٣١٨.

(٤) Pepe Honorius III of Pope Honorius III to Pelagius(9 July. 1221, inRegesta Honorii Pape III, vol. 1, no. 3495, p. 568.

راجع أيضا: حسين عطية: إمارة أنطاكية، الملحق رقم(٢)، ص ٥١٥-٥١٦، حيث ورد نص رسالة البابا وترجمة كاملة له.

صراع مرير بين الداوية والإسبتارية حول مدينة جبلة بسبب الوعد الذي قطعه بوهيمند الرابع للأسبتارية من قبل بمنحهم المدينة، إذا هم ساعدوه في الاستيلاء عليها ثم تتصل من هذا الوعد الذي قطعه بوهيمند الرابع للإسبتارية ومنحه للداوية، وكان هذا إيذاناً باحتدام الصراع بين الجماعتين(1)، ثم وصل بيلاجيوس إلى شمال المملكة الصليبية -بناء على أوامر من البابا- ونجح في إيقاف الصراع وحسم الخلاف، وأصدر على الفور قرار بأن تكون مدينة جبلة مناصفة بين الجماعتين، وذلك في ١٥ أكتوبر ١٢٢١م/ ٢٦ شعبان ٦١٨هـ(2).وفي خضم تلك الأحداث، تطلعت الإمارات الصليبية إلى العون والمساعدات من الغرب الأوروبي ونستشف ذلك من الرسالة التي أرسلها أحد المقربين من الملك الإنجليزي، هنري الثالث، وهو الفارس فيليب دي ألباني Philip de Albeney من بلاد الشام، عقب عودة الحملة الصليبية الخامسة إلى صديقه رالف إيرل شيستر Ralph Eael Chester في إنجلترا يخبره فيها بمآسي الحملة في أثناء وجودها في الشرق(3)، وهو ما تحدث عنه أيضا بطرس دي مانتوجو peter de Mountiaga مقدم الداوية (١٢٢٠-١٢٢٩م/ ٦١٧-٦٢٦هـ) في رسالته إلى إنجلترا، مضيفاً أنه على كل فرد هناك أن يمد يد المساعدة لصليبي الشام في أقرب وقت ممكن(4)، كذلك أرسل نيقولا الأول بطريرك الإسكندرية رسالة استغاثة إلى البابا هونوريوس الثالث في مايو ١٢٢٣م/ جمادي الثانية ٦٢٠هـ، يستنجد به فيها من عسف الحكام الأيوبيين واضطهادهم لمسيحي الشرق، عقب

---

(1) Carl Rodenberg, Epislolalac Saculi XIII Regestis Pontificum Romanorum, 2. vols, (Berlm, 1883-1887), vol. 1, no. 291, p. 231; CF. also: King, The Knights Hospitallers, p.193.

(2) Rohricht, Regesta, no.949., pp. 251-252.
راجع أيضا : إبراهيم خميس: جماعة فرسان الداوية، ص ٢٥٣، حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٣١٩.

(4) Letter of Philip dc Albeney to Ralph Earl Chester, in Roger of Wendover, op. ; cit., vol. 2., pp. 435-436.

الحملة الصليبية الخامسة وزيادة الضرائب المفروضة عليهم[١]، وهكذا ساء موقف الإمارات الصليبية محصورين في ممتلكاتهم الساحلية دون عمق داخلي، وبدوا أكثر ضعفًا وانكشافًا أمام المسلمين، مما جعل الأنظار ترنو من جديد نحو البابوية وحكام الغرب الأوروبي لإرسال حملة صليبية جديدة تمكنهم من الصمود -ولو إلى حين- في وجه الانحلال الداخلي والتهديد الخارجي الذي تعرضوا له في تلك الفترة.

وعم الحزن والأسى أنحاء أوروبا بعدما سمع أهلها بفشل الحملة الصليبية الخامسة، وظهر ذلك واضحًا في إشعار شعراء التروبادور، الذين انتقدوا سياسة البابوية بشكل واضح، ها هو الشاعر هيج دي سانت كوينتين Hugh de Saint Quentin في قصيدة أسماها "شكوى القدس من بلاط روما La Complainte de Jerusalem Contre La Cour de Rome شخص فيها المدينة المقدسة وجعلها تشكو من انصراف البابوية عنها[٢] بينما شن الشاعر النورماني وليم لي كليرك Guillaum Le Clerc هجومًا شديدًا على البابوية والمندوب بيلاجيوس الذي صاحب الحملة السابقة، وقال ساخرًا "أضعنا هذه المدينة بسبب المندوب الذي قاد النصارى.. لأنه يخالف القانون الكنسي بالتأكيد عندما يقود رجال الدين الفرسان، وعلى رجال الدين التفرغ للصلاة والدعاء، وترك ميادين المعارك للفرسان[٣]، وهاجم شاعر آخر يدعى وليم فيجيرا Guillem Figueria روما بعد خسارة الحملة الخامسة، وألقى باللوم على السياسة التي تتبعها تجاه صليبي الشام[٤]، بينما انتقد متى الباريزي Matthew Paris كثرة المبالغ التي تجمعها

---

(١) Letter of Nlicelaus I Patriarch of Alexandria to Pope Honorius III, (May 1223), in Ptthast, nos. 4363; Rohricht, Regesta, no. 964., p. 254; CF. also: Runciman,S., op. cit., vol. 3., p. 219.

(٢) وأضاف هيج أن المندوبين البابويين مشغولون بجمع الأموال، واتهمهم بأنهم أعداء المسيحية، انظر :
Bédicr, Les Chansons de la Croisade, (Paris, 1909), pp. 143-152.

(٣) Bartsch, La Langue et la Littératurc Francaise, (Paris, 1337), p. 87

(٤) اتهم وليم فيجيرا البابوية صراحة بانها تهتم بمحاربة اللاتين والروم والبيزنطين أكثر من محاربة المسلمين ومؤازارة صليبي الشام، انظر :
Throop, Criricism, pp. 31-33

الكنيسة على أنها ضريبة مخصصة للحرب المقدسة دون أن تستعمل هذا المال فيما خصص له[١]، كما نجد عند ريتشارد دي سان جرمانو عددًا من العبارات التي تحمل البابوية مسئولي فشل الحملة الصليبية الخامسة، وعدم تقديم عون كاف لصليبي الشام[٢]، أما الشاعر الألماني روبان Ruban فقد خاطب شعوب الغرب الأوروبي مشيرًا إلى أن الأراضي المقدسة التي عاش فيها السيد المسيح، وقبره الذي دفن فيه، يتعرضان للخطر، وذكر هذه الشعوب بأن السيد المسيح افتداها لينقذها من الجحيم، وذلك لإثارة حماسها الديني، ثم احتكم إليها "الإدانة ذلك الذي لا تتجه عينها وقلبه نحو هدف إزالة هذا الخطر"[٣]، قاصدًا بذلك البابا الذي قدم آنذاك مصالحة الأوروبية على مصالح الإمارات الصليبية في الشرق.

وإذا كان هذا هو رد فعل الرأي العام في الغرب الأوروبي، فهل كانت البابوية وحكام أوروبا على استعداد لتقديم المساعدات المطلوبة للإمارات الصليبية في بلاد الشام، بالقدر نفسه من الحماسة والقوة التي قدموا بها المعونة لها من قبل؟ إن الإجابة على هذا التساؤل تتطلب إلقاء نظرة عامة سريعة على أحوال الغرب الأوروبي آنذاك .

لعبت الأوضاع السياسية في أوروبا دورًا كبيرًا في موقف الأوروبيين من القضية الصليبية، ومساندة الإمارات الصليبية في بلاد الشام، فمن المعروف أن الغرب الأوروبي في العصور الوسطى شهد نزاعًا حادًا بين البابوية والإمبراطورية استمر من عام ١٠٥٧م/ ٤٥٦هـ حتى عام ١٢٥٠م/ ٦٤٨هـ

---

(١) Matthew Paris, Chrcnica Majora, vol. 3, pp. 287-288.

(٢) أشار ريتشارد إلى اتهام الصليبيين بزعامة بيلاجيوس بالانهماك في أعمال السلب والنهب، والبقاء داخل دمياط لفترة طويلة دون الإسراع إلى القاهرة في الوقت المناسب قبل فيضان النيل الذي كان سببًا مباشرًا في فشل الحملة، وكان لما فعلوه أثر سلبي علي صليبي الشام، انظر :

Ryccardus San Gcrmano, Chronica Regni Siciliae in M.G.H.SS, vol. 19, p. 339.

(٣) Collevill, Les Chansone Allemancles dc Croisadcs, (Paris, 1936), p98

تقريبًا، ومر بمراحل وأدوار عدة تخرج عن نطاق حثنًا[١]، ومهما تعدد الأسباب الظاهرية التي أدت إلى إثارة الحرب بين الفريقين في كل دور، فإن السبب الحقيقي الكامن وراء هذا النزاع في أدواره جميعًا هو مبدأ السمو والتنافس بين السلطتين الكنسية والعلمانية على سيادة العالم، وأيهما أسمى البابا أم الإمبراطور؟ وأيهما يجب أن تكون له الكلمة الأولى في العالم الغربي ، السلطة الكنسية أم السلطة الزمنية؟ وبعبارة أخرى كان الصراع بين الطرفين حول السلطة والنفوذ[٢]، وكان بطل الدور الثالث من أدوار هذا النزاع هو الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني، الذي ساعدته البابوية -الممثلة في البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م/ ٥٩٥-٦١٣هـ)- في الحصول على حقه في عرش الإمبراطور، والقضاء على خصمه أوتو الرابع عام ١٢١٤م/ ٦١١هـ[٣]، دون أن تدري البابوية أن هذا الإمبراطور سيكون أخطر خصومها في القريب العاجل، ذلك أن فريديريك لم يكد يسيطر على ألمانيا، حتى تطلع إلى إيطاليا وصقلية، مما آثار مخاوف البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٧م/ ٦١٣-٦٢٤هـ)، وهو الحريص مثل سلفه على أن يجعل من إيطاليا أملاكًا بابوية خالصة[٤]، وازدادت مخاوفه عندما أتضح له أن الإمبراطور غير قانع بصقلية وجنوب إيطاليا، بل عمل على توطيد سلطاته في الشمال الإيطالي أي ما يعرف بالمدن اللمباردية، وهو ما كانت البابوية تخشاه، لأنه يضع أملاكها بين شقي الرحى، وجعل هونوريوس الثالث ينظر إلى محاولات فريدريك وسياسته بعين ملؤها الشك والخوف مما قد يتمخض عنه المستقبل[٥]، ويرجع الباحث أن هذه

---

[١] عن حوادث هذا النزاع وأدواره، انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ص ٣٥١-٤٠٥.

[٢] رأفت عبد الحميد: السمو البابوي بين النظرية والتطبيق، ص ٢٠٣-٢٠٦.

[٣] انظر ما سبق.

[٤] رأفت عبد الحميد : المسألة الإيطالية، ص ٣٠٧.

[٥] ومن الملاحظ أن البابا أبدى تلك المخاوف في ١٠ نوفمبر ١٢٢٠م في خطابه إلى أسقف توسكولم Bishop of Tusculum حين قال: "إننا نظر لنوايا وتحركات فريدريك نظرة شك وقلق"، انظر :

المشكلة الحقيقية التي ألقت بغرب أوروبا في صراع مرير في الوقت الذي كانت فيه الإمارات الصليبية في بلاد الشام في حاجة ماسة لمساعدة الغرب لها.

ومن المعروف أن فريدريك الثاني وعد البابا إنوسنت الثالث عام ١٢١٥م/ ٦١٢هـ بالقيام بحملة صليبية[١]، وعندما أرسل إليه البابا هونوريوس الثالث خطابا يطالبه بالإسراع بالمشاركة في الحملة الصليبية الخامسة في سبتمبر ١٢١٨م/ جمادى الثانية ٦١٥هـ[٢]، وكان رد الإمبراطور أنه سيكون في بلاد الشام في صيف ١٢١٩م/ ٦١٦هـ[٣]، وفي نوفمبر ١٢٢٠م/ ٢٢ رمضان ٦١٧هـ تم تتويج فريدريك إمبراطورًا في كنيسة القديس بطرس بر وما بعد أن جدد العهد للبابوية بالقيام بالحملة الصليبية المزعومة[٤]، ولكن بفشل الحملة الصليبية الخامسة بدأ عدم الثقة يطل برأسه بين الإمبراطور والبابا، وتغيرت العلاقة بينهما[٥]، وبدا هذا الأمر في أحد خطابات البابا للإمبراطور، إذ وبخه فيه لتغافله للنداءات السابقة، وعدم إنقاذه للحملة، بل حمله مسئولية فشل الحملة، وقال : "وبسبب التفاؤل بمساعدتك رفض اتفاق كان يمكن أن يسترد المسيحيون بموجبه مدينة بيت المقدس"[٦].

Pope Honoriu-s LII, Letter of Pope Honorius III to Bishop of Tusculum (10 Nova. 1220), in Huillard-Bréholles, op. cit., vol. 1, pp. 80-881; CF. also: Donovan,J., op. cit., p. 78.

راجع أيضا: سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ص٣٩٤.

(١) يري جيمس باول أن البابوية لم تبذل أي جهد آنذاك للضغط على فريديك للاشتراك في الحملة الصليبية الخامسة، انظر :

James Powell, Honorius, III, p. 525.

(٢) Pope Honorius III, Lefler of Honorius III to Frederick II, (Sept.

(٣) Letter of Frederick II to Pope Horaorius III, (22 Nove. 1220), Huillard-Bréholles, iv) op. cit., vol. 1, pp. 584-586.

(٤) Tout,T., The Empire, pp.363.

(٥) James, Powell, I-Ionorius III, p. 525.

(٦) تاريخ هذا الخطاب ١٩ نوفمبر ١٢٢١م/ ٣ شوال ٦١٨هـ، انظر :

ومن هذا المنطلق، حاول البابا هونوريوس الثالث تقديم كل ما يمكنه من عون للفرنج في بلاد الشام، وعلى سبيل المثال: نجح هرمان فون سالزا Herman von Salza مقدم جماعة فرسان التيوتون (١٢١٠-١٢٣٩م/ ٦٠٦-٦٣٦هـ) في الحصول على امتيازات ضخمة ورد ذكرها في مجموع من الوثائق والقرارات البابوية بلغ مجموعها مائة وثلاث عشر وثيقة، شملت عدداً من الجوانب القانونية والتنظيمية والتوفيقية لأملاك التيوتون في الأراضي المقدسة[١]، وفي الوقت نفسه حرص البابا على مخاطبة الداوية والإسبتارية بشأن الإعداد للحملة الجديدة، وأنها في طريقها إلى الأراضي المقدسة[٢]، كما أرسلت خطابات إلى رجال الدين في أوروبا كلها يحثهم على دعوة الناس إلى المشاركة في الحملة المرتقبة، وذلك في ١٩ ديسمبر ١٢١٢م/ ٣ ذي القعدة ٦١٨هـ[٣]، واقترح البابا أن يتم الانتظار حتى ينتهي الإعداد للحملة وتخرج بأكملها، حتى لا يحدث ما يحدث في الحملة السابقة، وكان أحد عوامل فشلها[٤].

Pope Honorlus III, Letter of Honorius III to Frederick III, (19 Nove. 1221) in Rodenberg, op. cit., vol. 1, pp. 128-130; CF. also: James Powell, Honorius III, p. 529.

بينما يرى أحد المؤرخين المحدثين أن فريدريك الثاني وعد بالخروج على رأس الحملة منذ عام ١٢١٥م/ ٦١٢هـ، وحتى تتويجه إمبراطور في عام ١٢٢٠م/ ٦١٧هـ، وأعلن استعداده للخروج ثلاث عشر مرة، وبعد تتويجه وحتى عام ١٢٢٥م/ ٦٢٢هـ، أعلن عن عزمه للخروج على رأس الحملة إحدى عشرة مرة، وإن دل لك على شئ فإنما يدل على مماطلته وعدم وفائه بوعده، انظر:

Tumler, M.J., Der Dcutschc Ordcn in Warden Wachen and Wirken bis 1400 mit eincm Abriss der Geschichte des Orden Von 1400 bis Zur neusten Zeit, (Montreal, 1955), p. 3119. no. 9.

(١) وعسكرية مثل الإعفاء من بعض الضرائب، وحق بناء السفن، وكان لذلك أثره في ازدياد قدرات التيوتون الاقتصادية، انظر :

Strehlke, nos. 365-415; Bohrncr, Regesta. Irnperii, 1198-1272, (Innsbruck, 1881-1882), nos. 1315, 1422, 1574.

راجع أيضا: حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ١٧٩-١٨٠.

(٢) Regesta, Honorii papae III, vol. 1, no. 4112.

(٣) Regesta, Honorii papae III, vol. 1, no. 3637 .

(٤) Regesta, Honorii papae III, vol. 1, no. 3638; CF. also: James Powell, Honoruus III, p. 528.

وأخيرًا التقى البابا هونوريوس الثالث بالإمبراطور فريدريك الثاني في فريولي Veroli بإيطاليا في ١٨ إبريل ١٢٢٢م/ ٤ ربيع الأول ٦١٩هـ، واتفقا في هذا الاجتماع أيضا على أن يطلبا حضور ممثلين للإمارات الصليبية في بلاد الشام للاشتراك في مؤتمر أخر لمناقشة الخطط، والتجهيزات الخاصة بالحملة المزمع قيامها، على أن يعقد المؤتمر في نوفمبر من العام نفسه[١]، وعلى هذا قام الإمبراطور بإرسال أربع سفن لإحضار الوفد الصليبي من بلاد الشام، الذي تكون من جان دي برين ملك مملكة بيت المقدس الصليبية الأسمي[٢] وبيلاجيوس –الذي كان قد فرغ من مهمته بالشرق كمندوب بابوي –ورادولف أوف ميرنكور Rodulph of Meren Court بطريك بيت المقدس (١٢١٥-١٢٢٤م/ ٦١٢-٦٢٢هـ)، وجارين دي مونتياجو Garien de Mountiugo مقدم الإسبتارية، أما هرومان فون سالزا مقدم التيوتون فكان وقتذاك في روما[٣]، وهبط الوفد الصليبي في ميناء برنديزي الإيطالي في أواخر أكتوبر ١٢٢٢م/ رمضان ٦١٩هـ[٤]، وعندما حان الموعد المحدد تم تأجيل المؤتمر،

---

(١) James Powell, Honprius III, p534;Donovan, op. cit., p. 102,n47

(٢) عندما علم جان دي برين بمجئ السفن التي سوف تنقل الوفد الصليبي للغرب الأوروبي، عقد مجلسا في عكا، قرر على أثره تعيين أودو أوف مونتبليار نائبًا عنه في حكم المملكة في أثناء غيابه، ولمزيد من التفاصيل، انظر :

Eracles, L'Estoire, p. 355; Delaville le Roulx, Carl. II, no. ١٧٥٤.

(٣) جانب الصواب بعض المؤرخين في سرد أسماء أعضاء الوفد الصليبي، فقد أشار روهرشت خطأ إلى أن جريولد كان بطريرك بيت المقدس، ولم يكن قد تولى هذا المنصب بعد، أما برسيوتي فجعل هرمان مقدما للإسبتارية، ولوران ديليه أشار خطأ إلى بطرس دي مونتياجو على أنه مقدم الداوية، الذي لم يذهب إلى الغرب وأرسل بدلا منه فارس الداوية وليم دويل، ويرى المؤرخ المعاصر أوليفر أوف بادربورن أن بطرس دي مونتياجو لم يذهب للغرب مع الوفد الصليبي بناء علي نصيحة البارونات بالبقاء للدفاع عن الأراضي المقدسة، بينما يرى روجر أوف وندوفر أن ذلك يرجع لمرض ألم به في تلك الفترة، انظر :

Regesta Honorii Papae III, vol. 1, no 4112; Oliver of Paderborn, p. 280; Roger of Wendover, op. cit., vol. 2, pp. 440-441; Rohricht,R., Regesla, no. 953, p. 252, CF. also: Dailliez, L., Less Chevaliers teutoniques, (Paris, 1973), pp, 51 -52.

(٤) Ernoul, pp. 448-449

بسبب مرض البابا، وحددت له شهر مارس ١٢٢٣م/ صفر ٦٢٠هـ، قبل عقد المؤتمر اجتمع فريدريك مع جان دي بريين والوفد الصليبي المشارك في المؤتمر، ثم اتجه المشاركون جميعًا إلى مدينة فرنتينو الإيطالية حيث عقد المؤتمر في موعده الجديد، وفي الوقت نفسه وجه البابا خطابًا إلى الملك الفرنسي فيليب أغسطس، وآخر للملك الإنجليزي هنري الثالث يدعوهما للمشاركة في الحملة المرتقبة(١).

وفي هذا المؤتمر، تحدث جان دي بريين شارحًا للبابا وللإمبراطور وللحضور ما تعانيه الإمارات الصليبية في بلاد الشام عقب فشل الحملة الصليبية الخامسة، طالبا منهم تحديد مساعدتهم الفعلية لصليبيي الشام في الفترة المقبلة، وطالب أيضًا بأن تضم البلاد التي تستولي عليها كل حملة صليبية في المستقبل، إلى مملكة بيت المقدس، ولعل بيلاجيوس اعترض على هذا الطلب، غير أن البابا والإمبراطور وافقا على مطلب الملك جان(٢)، واتفق المشاركون جميعًا على تأجيل الحملة الصليبية لمدة عامين حتى ٢٤ يونيو ١٢٢٥م/ ٥ جمادى الآخرة ٦٢١هـ، كما عرضت فكرة زواج يولندا -وريثة تاج مملكة بيت المقدس- من الإمبراطور فريدريك الثاني في هذا المؤتمر بناء على اقتراح تقدم به هرمان فون سالزا مقدم التيوتون، خاصة وأن زوجة الإمبراطور فريدريك كانت قد توفيت منذ أربعة شهور(٣)، وكان لكل طرف هدفه من هذا الزواج، فالإمبراطور طامح في زيادة أملاكه، وجعل المملكة الصليبية تحت وصايته، وأرضت الفكرة كبرياء جان دي بريين، غير أنه تردد حتى حصل على وعد من هرمان بأنه سوف يحتفظ بالعرش الصليبي أو الوصاية على ابنته حتى وفاته،

---

(١) Richard of San Germano, Chronica, vol. 19, p. 343; CF. alsoDailliez, Les Chevalicars, p. 52.

بينما يرى المؤرخ جيمس باول أن المؤتمر عقد في فبراير لا في مارس.

CF. James Powell, Honorius III, pp. 534-535.

(٢) Ernoul, pp. 449-450.

(٣) Potthast, nos, 6969, 6994, 7007; CF. also: Runcirnan,S., op. cit, vol. 3, p. 174.

وتحمس البابا هونوريوس الثالث أيضًا للفكرة، إذ كان يرى في هذا الزواج فرصة لإلزام فريدريك بالخروج بالحملة [1]، ولا شك في أن لتلك الزيجة أهمية كبرى للإمبراطور فريدريك تتمثل في إمكان توحيد عرش المملكة الصليبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة وصقلية، وبالتالي لا يصبح مشروعه الحملة الصليبية مشروعًا بابويا، وإنما مشروعًا إمبراطوريًا؛ لأنه يدخل المملكة الصليبية في طاق الإمبراطورية.

وما إن انتهى مؤتمر فرنتينو حتى توجه جان دي بريين ملك بيت المقدس إلى باريس، كي يزور صديقه القديم الملك الفرنسي فيليب أغسطس، الذي لم يكن راضيا عن مسألة الزواج التي عرضت في المؤتمر، ولام الملك جان؛ لأن ملك فرنسا هو الذي كان المسئول -ولو شكليًا- عن مسألة إيجاد زوج لوريثة العرش في المملكة الصليبية في بلاد الشام، بل إن فيليب هو الذي رشح جان نفسه من قبل لمثل هذا الظرف[2]، لكن فيليب استقبل جان استقبالاً طيبًا، وكان جان حاضرًا حينما توفى فيليب أغسطس في مدينة نانت في ١٤ يوليو ١٢٢٣م، موصيًا بأربعمائة ألف مارك فضي لصالح المملكة الصليبية، كما أوصى بمبلغ مماثل لكل من الإسبتارية والداوية[3]، ويرى الباحث أن فيليب حاول في أيامه الأخيرة أن يثبت أن للإمارات الصليبية في بلاد الشام مكانة خاصة لدى ملوك فرنسا، من حيث فرض ما يشبه الوصاية عليها، وعلى من يشغل عرشها، بالإضافة لاستمرار الإمدادات لها حتى ولو كانت مالية، وثمة ملاحظة يمكن إدراكها من وصية الملك الفرنسي هي أنه استثنى جماعة فرسان التيوتون من

---

(١) Huillard-Bréholles, op. cit, vol. 2,p.922; CF. also: Donovan, op. cit, p. 107, no. 52; Riely-Smith, Feudal Nobility, p. 159; Van Cleve, The Emperor Fmderic II of Hcnstaufen, (Oxford, 1972), P. 160

(٢) Richard of San Gcrmano, Chronica, vol. 19, pp.342-343.

(٣) شهد جان تشييع جنازة الملك الفرنسي وتتويج ابنه لويس الثامن Louis VIII، ثم مضى إلى أسبانيا، حيث مكث في قشتالة بضعة شهور، وتزوج برنجاريا أخت الملك فردينالد الثالث، ثم رجع إلى إيطاليا في عام ١٢٢٤م، انظر :
Eraclcs, L'Estoire, pp. 355-357.

منحة مالية، لكونهم من الألمان، وينالون امتيازات ومنحا عدة وباستمرار من الإمبراطور فريدريك الثاني، كما أنهم كانوا مكروهين في الشرق والغرب بسبب سياسة الإمبراطور وصراعه مع البابوية.

وفي ذلك الوقت، أرسل البابا هونوريوس الثالث المبشرين والدعاة في أنحاء أوروبا يدعون للحملة المرتقبة[١]، حتى وصلت أخبار تلك الحملة إلى أقاليم بعيدة مثل جورجيا التي اهتم أهلها بأمر هذه الحملة، ويتضح ذلك من مراسلات بين الملكة روستانا والبابا هونوريوس الثالث، فقد أرسلت إليه تخبره بأنها ستساعد جيش الإمبراطور الألماني في حالة مجيئه إلى الشرق[٢]، ومن ناحية أخرى عمل الإمبراطور فريدريك على الاستفادة من صداقة هرمان مقدم التيوتون، وقدرته على الإقناع، فوجهه إلى بعض الأمراء الألمان المناوئين لسياسته، ونجح هرمان فعلاً في إقناعهم بالخضوع للإمبراطور، كما نجح في توطيد نفوذ الإمبراطور في صقلية مما عاد بالفائدة على فريدريك، والحملة المرتقبة التي كان ينوي القيام بها.

وكيفما كان الأمر، فإن الإعداد للحملة لم يتضمن إصدار البابوية مرسومًا دوريًا شأن الحملات السابقة، وربما يرجع ذلك إلى وجود نص اتفاق اجتماع

---

(١) أورد المؤرخ بني كول Oenny Cole نص وثيقتين بابويتين لم تنشرا بعد، تعودان إلى عام ١٢٢٤م/ ٦٢١هـ، وتتضمن الأولى تكليف البابا لاثنين من الدعاة، والثانية لإحدى الوعاظ التي استخدمها رجال الدين في الدعاية للحملة المرتقبة، واستخدم مدينة بيت المقدس بالذات في تلك الدعاية، انظر :

Penny ,C., , The Preaching, p. 50.

(٢) Letter of Russtana Queen of Gcorgiato Pope Honorius III, (12 May 1224), in Rohricht,R., Regesta, no. 957, p. 255
.

وتقع جورجيا بين البحر الأسود وبحر قزوين وعاصمتها تفليس وقد دخلت الديانة المسيحية إلى جورجيا في القرن الرابع الميلادي، وكانت كنيستهم تتبع كنيسة أنطاكية، وتخضع لبطريرك أنطاكية، انظر :

Brosset, .M.F., Histoire dc la Géorgic, (St. Petembtrrg, 1849), pp. 313–316 Allen, ; W.E.D, A History of the Georgian People, (London, 1922), pp.266-269..

راجع أيضا: حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٣٧٢، ج ١١٧.

سان جرمانو الذي عقد في ٢٥ يوليو ١٢٢٥م/ ١٧ رجب ٦٢٢هـ[١]، وحضره بالإضافة إلى الإمبراطور عدد كبير من رجال الدين منهم جريولد بطريرك بيت المقدس (١٢٢٥-١٢٢٩م/ ٦٢٢-٦٣٦هـ)، بالإضافة إلى الملك الصليبي جان دي بريين وعدد من القادة ورجال الدين الصليبيين، ومندوبين عن البابا هونوريوس الثالث[٢]، ونص الاتفاق على عدد من القرارات منها نجاح فريدريك الثاني في إقناع الحاضرين بتأجيل الحملة لمدة عامين أي إلى أغسطس ١٢٢٧م/ رمضان ٦٢٤هـ، بعد أن أقسم بالالتزام بذلك أمام مندوبي البابا، وتعهد بعدة التزامات أمام الحاضرين[٣]، أما مشروع زواجه من يولندا فقد سارع بإتمامه، فأرسل في أغسطس ١٢٢٥م/ شعبان ٦٢٢هـ، أسطوله الملكي المكون من أربع عشرة سفينة بقيادة هنري كونت مالطة، لإحضار الملكة إلى برنديزي في إيطاليا، حيث تمت مراسم الزواج في كاتدرائية المدينة في ٩ نوفمبر ١٢٢٥م/ ٦ ذي القعدة ٦٢٢هـ[٤]، وأضاف بعض المؤرخين أن فريدريك جدد قسمه الصليبي بالتوجه إلى بلاد الشام[٥].

---

(١) Regesta Honorii Papae III, vol. I, no. 5566, p. 352.

(٢) Runciman,S., op. cit., vol. 3, p. 176.

(٣) تعهد فريدريك بان يخرج، ومعه ألف فارس يقوم برعايتهم لمدة عامين في الأراضي المقدسة، مع إعداد السفن اللازمة لنقل مائة ألف رجل، بخلاف ألفي فارس وخيولهم بمعدل ثلاثة خيول لكل منهم، وللوفاء بالتزاماته تعهد الإمبراطور بوضع مائة ألف أوقية من الذهب على خمسة أقساط لدى البابوية، تصادرها الكنيسة إذا ما أخل بوعده، ويتم الصرف منها على الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وأضاف الحاضرين أن الإمبراطور قبل أن يفرض عليه قرار الحرمان في حالة عدم وفائه بالالتزامات السابقة، انظر :
Huillard-Bréholles, op. 011., vol. 2, p. 500; CF. also: Donovan, op. cit., p. 108, n. 57; Van Cleve, The Emperor, p. 165.

(٤) كانت يولندا في الرابعة عشرة من عمرها، عند وصول رسل الإمبراطور، وأتم جيمس رئيس أساقفة كابوا مراسيم زواجها من الإمبراطور نيابة عنه في كنيسة الصليب المقدس بعكا، ثم نقلت إلى صور، حيث توجها -لبلوغها سن الرشد- بطريرك بيت المقدس، بحضور نبلاء الشرق الفرنجي جميعا واستمرت الأفراح نحو أسبوعين، ثم أبحرت الملكة من صور، ومعها سيمون موجاستيل رئيس أساقفة صور وابن عمها باليان سيد صيدا، ثم أمضت بضعة أيام في قبرص لزيارة خالتها الملكة أليس، ثم اتجهت إلى إيطاليا، انظر :
Eraclcs, L'Estoire, pp. 357-358; Les Ciestes des Chiprois, pp. 22-23

(٥) مكسيموس مونورند: المرجع السابق، م٢، ص ٢٧٠.

وما لبث فريدريك أن عد نفسه إمبراطورًا على مملكة بيت المقـدس[١]، وأعلن في برود أنه لم يعد مطلقا بأن يكون جان دي برين وصيًا علــى عــرش مملكة بيت المقدس، وأنه ليس بينهما اتفاق مكتوب في هذا الشأن، لذا ليس لجان أية حقوق شرعية في العرش الصليبي، خاصة بعد زواج ابنته[٢]، وفــي أثنـــاء وجود جان دي بريين في أملاك فريدريك أصدر الأخير أوامره بانتزاع ما معه من مال، سبق للملك الفرنسي فيليب أغسطس أن أوصى إليه بغرض الإنفاق منه على الإمارات الصليبية في بلاد الشام[٣]، وعندئذ وبعد إدراكه أنه فقـد مكانتــه ذهب جان دي بريين إلى روما ليشكو للبابا هونوريوس الثالث الذي لــم يكــن بوسعه أن يفعل شيئًا، إذ لم يكن راغبًا في مناوأة الإمبراطور الذي يأمل فــي أن يخرج على رأس حملة إلى الشرق لنجدة الإمارات الصليبية[٤].

على أن فريديريك الثاني لم يخط خطوة واحدة في سبيل تنفيذ وعده هذا، ولجأ إلى فرض قيود مشددة على رجال الكنيسة، كان الهدف منهــا الحــد مــن نفوذهم وانتقاص حقوقهم، بل أنه عقد مؤتمر في كريمونا فــي عــام ١٢٢٦م/ ٦٢٣هـــ، أعلن فيه تمسكه بحقوقه الإمبراطورية كاملة، خاصــة فــي المــدن اللمباردية، ردًا على ادعاءات البابوية في مدن شمالي إيطاليا الحريصــة علــى استقلالها وسيادتها والتي عقدت حلفا ضد فريدريك[٥]، وكان على فريــدريك أن

---

(١) King, op. cit, p. 202.

(٢) أشار تاريخ هرقل إلى أن جان دي بريين كان يطمع في أن يظل وصيا على عرش بيت المقدس حتى تبلغ ابنته يولندا السادسة عشر من عمرها في عام ١٢٢٧م، انظر :
Eracles, L'Estoire, p. 356

(٣) Ernoul, pp. 451-452.

(٤) توجه جان بعد ذلك إلى الإمبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية، التي كانت في عام ١٢٢٨م في حاجة إلى وصي على الأمير الطفل بلدوين الثاني، وقبل جان هذه المهمة، بالرغم من أنه تعدى الثمانين من عمره، وظل في القسطنطينية حتى وفاته عام ١٢٣٧م، انظر:
Longnon, L'Empire Latin de Constantinople, (Pan's, 1949), pp. 169-172.

(٥) في الوقت نفسه كان مبعوث البابا يحث سكان ألمانيا على نجدة الصليبيين في بلاد الشام، بل أصدر البابا عفوًا عن المجرمين الذين أسرعوا بإعلان مشاركتهم في الحملة المرتقبة، تكفيرًا عنه ذنوبهم، انظر :
سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ص ٣٩٦.

يسرع بالتوجه إلى الشرق لا استجابة لنداءات البابوية المتكررة فقط؛ ولكن أيضا لأنه أصبح وجا لوريثة بيت المقدس[1] كما واصل الإمبراطور تصرفه كحاكم لمملكة بيت المقدس فمنح جماعة الفرسان التيوتون امتيازات عدة في الأراضي المقدسة، فأعفاهم من عدد من الضرائب، وعزز من مكانتهم في الشرق بأن أمر بأنه لا يجوز أن يدعى أحد عليهم أي حق دون اللجوء إلى القضاء، وألا يكلفهم الغرب بشي، وذلك في يناير ١٢٢٦م/ محرم ٦٢٣هـ[2]، وأرسل في العام نفسه توماس الأكويني ليقوم بمهمة الوصاية على المملكة الصليبية بدلاً من أودو أوف مونت بيليارد، فأظهر توماس من التصرفات ما جعل الأمراء والبارونات الصليبيين لا ينظرون إليه بارتياح[3].

ثم تغيرت الظروف وانقلبت لتكون ضد الإمبراطور فريدريك الثاني، فقد مات البابا هونوريوس الثالث في ١٨ مارس ١٢٢٧م، وخلفه البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م/ ٦٢٤-٦٣٨هـ)، وكان على النقيض تمامًا من هونوريوس الثالث في شخصيته وطريقة تعامله[4]، ووضع جريجوري نصب

وراجع أيضا: موريس كين: حضارة أوروبا، ص ١٨١.

[1] أضاف المؤرخ بول ويجلر أن الإمبراطور لقب نفسه فعلا بلقب ملك بيت المقدس في ديسمبر ١٢٢٥م، عندما بعث ريتشارد أسقف أمالفي إلى عكا، حيث عين أودو أوف مونت بيليار نائبا على المملكة الصليبية، انظر :

Poul Wicglcr, op. cit, p. 136.

[2] طلب الإمبراطور كذلك من الجاليات التجارية الجنوية أن تنفذ أوامره الخاصة بمعاودة التردد على عكا، بعد أن كانوا قد امتنعوا عن ذلك فترة منذ النزاع الذي نشب بيهم وبين أهل بيزا في عام ١٢٢٢م/ ٦١٩هـ، انظر:

Rohricht,R., Regesta, nos. 974, 975, 078, pp. 256-257.

راجع أيضا: حسين عبد الوهاب : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ١٨٥-١٨٩.

[3] عامل توماس الأكويني الأمراء والبارونات الصليبيين بشئ من الغطرسة، واستبد بالرأي في جلسات المحكمة العليا في عكا، مما أثار بغض معظم صليبيي الشام له، انظر :

Eracles, L'Estoire, p. 364; CF. also: John La Monte, Feudal Monarchy, pp. 58- 59.

[4] جريجوري التاسع هو أجولينو أوف أوستيا وفللتر Ugolino of Ostia and Velletetra وكان ابن عم البابا الشهير إنوسنت الثالث، وشبيها به فيما امتاز به من عقل وقيادة وعقيدة قوية لا تزعزع، ولعب دورًا مهمًا في تاريخ العالم المسيحي في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، انظر:

عينيه تحقيق التفوق على الإمبراطورية في السيادة على العالم المسيحي، أما مسألة الحملة الصليبية فقد كانت في المقام الثاني من اهتماماته، وأدرك فريدريك الثاني الذي كان عليه أن يغير سياسته في ظل هذه الظروف الجديدة التي طرأت على مجرى الأحداث، ولم يكن بد لفريدريك من أن يتوجه إلى الشرق، بعد أن أصر البابا على ذلك(١)، فقرر تجهيز الحملة المرتقبة، ووصل لويس حاك ثورنجيا في أغسطس ١٢٢٧م/ جمادى الثانية ٦٢٤هـ على رأس جيش كبير من الألمان إلى صقلية للانضمام إلى الإمبراطور، وسافر الجميع بالقوات إلى ميناء برنديزي وتدفقت القوات على هذا الميناء، تحت إغراء الكنيسة(٢)، وعندما داهم المرض الإمبراطور قرر تأجيل الخروج بحملته(٣)، وأسل قاضيين من البلاط الإمبراطوري إلى البابا جريجوري التاسع ليقدما إليه الاعتذار عن تراجع الإمبراطور عن قيادة الحملة بسبب ما حل به(٤).

ولم يقتنع جريجوري التاسع، بما شرحه له رسل الإمبراطور، وعد الإمبراطور متمارضا، فأصدر قرار الحرمان ضده في ٢٩ سبتمبر ١٢٢٧م، على أساسا أنه لم يلتزم باتفاقية سان جرمانو وموعد الرحيل المحدد، ثم أكد البابا على الحرمان في ١٨ نوفمبر ١٢٢٨م في كنيسة القديس بطرس في روما(٥)، وفي حقيقة الأمر لم تكن العلاقة بين البابوية والإمبراطورية على ما يرام في

Roger of Wendover, op. cit., vol. 2, p. 486; CF. also: Kelly, Oxford dictionary of Popes, pp. 189-191.

(١) Van Cleve, The Emperor, p. 363.

(٢) Van Cleve, The Emperor, p. 186.

(٣) حدث أن انتشر مرض الملاريا بين جنود حملة فريدريك، فلقى عدد كبير من نبلاء إيطاليا حتفهم وتوفى حاكم ثورنجيا، بل مرض الإمبراطور نفسه ونصحه الأطباء بتأجيل خروجه على رأس الحملة، فتوجه على مدينة اوترانتو Otranto ومنها ذهب إلى مدينة بوتش Boths للاستشفاء، انظر :

Grousset,R., op. cit., t. 3., 289.

(٤) Hayward, F., A History oflhe Popes, Trans. by Monks, A, (London, 1939) , p.199.

(٢) Huillard-Bréholles, op. cit., vol. 3, pp. 23-28; CF. also: Kantonowicz, op cit p. 171.

تلك الفترة بعدما شعرت البابوية بالخوف من سياسة فريدريك في إيطاليا وصقلية، لاسيما وهو نصف ألماني، بالنظر إلى أبيه، ونصف إيطالي بالنظر إلى أمه، إلا أنه كان صقلي النشأة وظل في صقلية حتى السادسة عشر من عمره[١]، ولعل هذا هو ما دفع المؤرخين إلى الحديث كثيرًا حول هذا الأمر، فلم يكن اهتمامه بألمانيا إلا للحصول على اللقب الإمبراطوري، وبالتالي تدعيم نفوذه وسلطانه في إيطاليا وصقلية، فأصبحت البابوية لهذا واقعة بين قدمي الإمبراطور، الأولى في ألمانيا، والثانية في صقلية[٢]، وعقب ذلك أخذ البابا ينشر قرار الحرمان الموقع على الإمبراطور في كافة الأوساط الدينية في الغرب الأوروبي، وبات واضحًا أن البابا جريجوري التاسع يتطلع إلى السيادة على العالم المسيحي، من خلال نظرية الشمس والقمر، البابوية والإمبراطورية، وعلى أساس أنه "نائب المسيح على الأرض"[٣].

ومما سبق، وحسبما يرجح الباحث قد يعتقد البعض أن تأجيل فريدريك الثاني في تنفيذ وعده الصليبي كان السبب في قرار الحرمان البابوي، لكن

---

[١] من المعروف أنه في الوقت الذي كان معظم حكام الغرب الأوروبي فيه يفتقدون إلى الثقافة، كان فريدريك الثاني حاد الذهن، ويجيد التحدث بست لغات بطلاقة شديدة، وهي الألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية والعربية والفرنسية، وكان غزير المعلومات في علوم عدة من الفلسفة إلى الطب، فقد ذكر ابن واصل أنه كان "محبا للحكمة والمنطق والطب، مائلاً إلى المسلمين؛ لأنه مقامه في الأصل ومرباه في بلاد صقلية"، كما يذكر المقريزي: أنه كان "عالما متبحرًا في علم الهندسة والحساب والرياضيات، انظر :
ابن واصل : مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٣٤؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ٢٣٢، انظر أيضا:

- Antony Bridge, The Cmades, p. 234.

[٢] أورد المؤرخون العديد من الآراء حول ارتباط فريدريك الشديد بصقلية وإيطاليا، فقد تساءل هنري برين ماذا كانت تعني ألمانيا لفريدريك؟ ويجيب أنها كانت مجرد طريق عليه السير فيه ليعتلي عرش القياصرة، أما قوته الحقيقية فكانت في صقلية وحسب رأي ويلي كان فريدريك يكره ألمانيا، ويعدها الأرض ذات المدن الموحلة، وطبقا لرأي كانتروويش كانت إيطاليا وصقلية بالنسبة للإمبراطور هي البيت الأمين، والجنة وسط غابة من الأشواك التي يعيش فيها في ألمانيا حيث ثورات النبلاء ضده، بينما أشار تاوت أن ألمانيا كانت ما هي إلا طريق لكي يحصل منه فريدريك على اللقب الإمبراطوري فقط، انظر :
Henry Pirenne, A History of Europe, (London, 1961), p.314; Walcy, Later Medieval Europe from St. Louis to Luther, (London, 1976), p. 220; Kanuowicz, op. cit., p. 220; Tout, The Empire, p. 367.

[٣] Greighton, A History of the Papacy, p. 26; CF. also: R1mcima.n., op. cit., vol. 3, p.176

المسألة لم تكن على هذا النحو من البساطة، إذ أنها تدخل في إطار العلاقة بين البابوية والإمبراطورية، تلك العلاقة التي اتسمت بالعداء في أغلب الأوقات، وازداد الصراع بينهما بشكل خطير على عهد أباطرة أسرة الهوهنشتاوفن، والبابوات اسكندر الثالث وإنوسنت الثالث، واشتعل بشكل واضح في عهد جريجوري التاسع الذي حاول تأكيد السمو البابوي، ورأينا كيف تطور الصراع الإمبراطوري البابوي في عهده ليلقي بظلاله على مستقبل الإمارات الصليبية ومصيرها في بلاد الشام.

ما إن علم فريدريك بقرار الحرمان الكنسي حتى تصدى لاتهامات البابا، فبعث على الفور إلى الملك والأمراء ورجال الدين في الغرب الأوروبي يخبرهم بمخططات البابوية وفسادها، إذ كتب يقول: "ترجو أن يقرأ خطابنا هذا على الملأ وأن تستمعوا إليه بكل تكريم واحترام، لأن من محتويات هذا الخطاب سوف تظهر براءتنا أمام الجميع، ويتضح الدمار والعار الذي خطط لنا ولإمبراطوريتنا من قبل البابا جريجوري التاسع"[١]، وقد لاقى خطاب الإمبراطور، صدى طيبًا حتى في روما مدينة البابوية، ولكي يسلب الإمبراطور البابا من أسلحته تعهد أمام الجميع بأنه سوف يقود حملته في العام التالي[٢]، وزاد من خطورة الموقف أن أصدر البابا قرار الحرمان الثاني ضد الإمبراطور فريدريك في ٢٣ مارس ١٢٢٨م، مهددًا بطرده من صقلية نهائيًا[٣]، في الوقت الذي قرر فريدريك القيام بحملته الصليبية، وشرع في الاستعداد للتوجه إلى الشرق[٤]، وحسبما أورد أحد المؤرخين المعاصرين حاول الإمبراطور الحصول

---

(١) Kantrowicz, op. cit., p. 175.

(٢) قرأ أحد أعضاء مجلس الشيوخ في رومان ويدعي روفريدو أوف بنيفنيتو Rofferdo of Benavrnto خطاب الإمبراطور على الملأ، وفيه وصف الإمبراطور البابا بالشيطان قائلا: "إن عنف هذا الشيطان المتوقع يجعلنا نعزف عنه في هذه المهمة المقدسة"، انظر:
Pul Wiegler, op. cit., p. 131

(٣) اتخذ البابا هذا القرار عندما نجح فريدريك في إثارة عامة الشعب في روما، حتى لقد تجمع هؤلاء العامة ضد البابا في عيد الفصح، مما اضطره إلى الهروب إلى مدينة اللاتيران ومنها إلى مدينة ريتي Rieti بعد أن صادر الإمبراطور معظم ممتلكات الكنيسة في إيطاليا، انظر :
Pul Wiegler, op. cit., p. 132; CF. also: Grousser,R., op, cit., .t. 3., p. 289.

(٤) بات واضحا أن فريدريك عزم على القيام بحملته، عندما عقد مجلسا تشريعيا في صقلية، جعل على رأسه رينالد أوف سبولتيو Reynald of Spoleto، وهنري أوف

على رضا البابا في محاولة أخيرة يائسة، فأرسل رئيس أساقفة مجدبرج، ومعه بعض القضاة الصقليين، لكي يطلبوا من البابا رفع قرار الحرمان طالما قرر الإمبراطور القيام بالحملة، إلا أن البابا رفض وأصر على موقفه[1]، وبينما واصل فريدريك استعدادته للخروج بالحملة توفيت زوجته يولندا بعد أن وضعت طفلاص هو كونردا، واختلف الوضع القانوني لفريدريك، فلم يعد سوى وصي على الطفل صاحب العرش أي ازداد موقفه صعوبة[2]، ومن ثم يرى الباحث أنه كان للأحوال السابقة ذكرها في الغرب الأوروبي، والإمارات الصليبية في بلاد الشام، كان لها أثرها في دفع فريدريك للتعجيل بحملته الصليبية التي عرفت بالحملة الصليبية السادسة إلا أن هناك دافعًا مهما آخر جعل فريديريك يعجل بالرحيل إلى الشرق، وهو الأحوال السياسية التي كانت تمر بها الدولة الأيوبية في بلاد الشام في تلك الفترة، والتي لعبت دورًا هاما في قيام تلك الحملة، وكذلك في أحداثها، وتأثيرها على الإمارات الصليبية في بلاد الشام بشكل خاص.

ما إن توفى الملك العادل، حتى نشب النزاع بين أبنائه الثلاثة: الكامل، والأشرف، والمعظم، الذين كان اتحادهم العمل الرئيسي وراء فشل الحملة الصليبية الخامسة[3]، وعندما علم الأشراف بهجوم الخوارزمية على أملاكه في إقليم الجزيرة، سارع بالتوجه إلى دمشق لحث أخيه المعظم على توحيد البيت

موراHenery of Morral، وأديا اليمين بالوفاء للإمبراطور، وتخوفا من وفاته بالشرق مثل جد فريدريك بارباروسا، فأوصى بان يكون ابنه إمبراطور من بعده، انظر :

Van Cleve, The Crusade of Frederick II in Setton, The Crusaadws, vol. 2, p. 451.

(1) Pul Wiegler, op. cit., p. 133.

(2) ولد كونراد في ٢٣ أبريل ١٢٢٨م/ ١٦ جمادى الأولى ٦٢٥هـ، وماتت والدته يولندا بعد مولده بستة أيام، وعلى ذلك انحصرت حقوق فريدريك في بيت المقدس في كونه وصيا على كونراد الصغير، ابنه من يولندا، وهو الطفل الذي غدا صاحب الحق الشرعي في مملكة بيت المقدس الصليبية، انظر :

Eracles, L'Estoire, p. 366.

راجع أيضا: سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧٩٢.

(3) كانت بداية الخلاف بين المعظم من ناحية وأخوه الكامل والأشرف من ناحية أخرى، ان توجه الأشرف إلى الكامل في مصر بعد رحيل الصليبيين عن دمياد دون أن يرافقه المعظم، الذي وصلته معلومات عن اتفاق الأشرف والكامل عليه، انطر:

المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ٢١٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٥٥.

الأيوبي لمواجهة خطر الخوارزمية على الأملاك الأيوبية[1]، إلا أن المعظم اعتقل أخاه حتى يساعده في الاستيلاء على حماة وحمص، ثم مهاجمة أخيهما الكامل في مصر، ويقال أن المعظم أراد بذلك أن يحمي نفسه ضد أي حلف ربما ينشأ بين الأشرف والكامل للتخلص منه، بل ولجأ المعظم إلى التحالف مع الخوارزمية ضد أخويه[2]، وزاد من خطورة الموقف إرسال الملك الكامل مبعوثه الخاص الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ إلى الإمبراطور في صقلية، ولا شك في أن فخر الدين كان يحمل في جعبته شرحًا مفصلاً لجوانب قضية الملك الكامل مع أخيه المعظم وأنه طرحها على فريدريك طالبا منه أن يقف موقفًا مؤيدًا للملك الكامل ضد أعدائه، عارضًا عليه أن يعطيه الكامل مدينة بيت المقدس في المقابل[3]، ولما كان الموقف لا يحتمل التروي أو التمهل، سارع الإمبراطور بإرسال سفارة من طرفه مع البعثة الأيوبية في طريق عودتها إلى الملك الكامل ورحب الكامل بهذه السفارة، واجتمع بأفرادها في القاهرة، وأكد

---

[1] استطاع جنكيز خان ملك المغول أن يهزم جيش الأتراك الخوارزمية عام ١٢٢٠-١٢٢١م/ ٦١٧-٦١٨هـ، وفر جلال الدين منكبرتي سلطان الخوارزمية إلى الهند، وعندما علم بعودة جنكيز خان بقواته إلى جوف آسيا في عام ١٢٢٣م/ ٦٢٠هـ، أقام الدولة الخوارزمية في فارس من جديد متخذا من أصفهان عاصمة له، وفي عام ١٢٢٥م/ ٦٢٢هـ، ولتأمين حدوده، ضغط منكبرتي على أملاك الخليفة العباسي في بغداد، وعلى إقليم جورجيا، واقترب بذلك من أملاك الأشرف في إقليم الجزيرة، انظر :

-النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشره حافظ حمدي، القاهرة، ١٩٥٣م، ص١١.

راجع أيضا: سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيين والمماليك، ص ١-٣.

وأيضا:

Allen, A History of the Georgian People, p. 110.

[2] أظهر الأشرف أنه يوافق على كل ما يطلبه من المعظم، وعندما أطلق المعظم سراحه أعلن الأشرف عدم التزامه بوعده له، وعندئذ لجأ إلى التحالف مع الخوارزمية ضد أخويه، انظر:

- سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص ٦٢٥؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ج٧، ص ٢٦٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص ١٨٧؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ١٥٨، راجع أيضا:

Humphrey, R.S., From Saladin to the Mongols, (London, 1980), pp, 183-184.

[3] المقريزي: السلوج، ج١، ق١، ص ٢٢١-٢٢٢؛ ابو الفدا: المختصر، ص ١٣٨؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٠٦.

على وعوده للإمبراطور في حالة مجيئه للشرق، إذا ما ساعده ضد أخويه، واستمرت المراسلات بين الطرفين حول هذا الأمر[١]، وبات متوقعًا قيام حرب أهلية داخل الأسرة الأيوبية.

وفي ظل هذه الظروف أبحر الامبراطور فريدريك إلى بلاد الشرق في أواخر يونية ١٢٢٨م/ أوائل شعبان ٦٢٥هـ، وفي طريقه توقف في جزيرة قبرص، حيث طالب يوحنا دي إيبلين بالتنازل عن الوصاية على الملك الصغير هنري الأول، وعن مدينة بيروت، وبعد أخذ ورد بين الجانبيين، وقبل أن يتطور الأمر إلى الحرب بين الأمراء والبارونات هناك، تم حل المشكلة مؤقتا وغادر الإمبراطور قبرص مشيعًا بغضب بارونات قبرص واستيائهم[٢]، وأخيرًا وصل الإمبراطور إلى عكا في ٧ سبتمبر ١٢٢٨م/ ٥ شوال ٦٢٥هـ بحملته المكونة من أربعين سفينة تحت قيادة هنري كونت مالطة وبرنارد رئيس أساقفة بالرمو، بصحبة حوالي خمسمائة فارس فقط[٣] وفوجئ بوفاة المعظم، وبالتالي زوال سبب استعانة الكامل به[٤]، ولن نتناول تفاصيل هذه الحملة، وإنما سنركز

---

(١) رأس سفارة فريدريك إل الكامل برنارد رئيس أساقفة بالرموPalermo، ومعه هدايا نفيسة، وخرج الكامل بنفسه ليستقبلهم على أبواب القاهرة، انظر :
المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٢٦٠؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: ج٨، ق٢، ص٦٤٣.

(٢) كان فريدريك يهدف إلى تحقيق أهداف عدة من وراء تدخله في قبرص؛ فقد أراد أن يتخذ من تلك الجزيرة ركيزة وسند في حالة فشله في مفاوضاته مع الكامل، كما أراد فرض وصياته على الملك الطفل هنري الأول باعتباره تابعًا له بحكم تبعية الجزيرة للإمبراطورية المقدسة، منذ منح الإمبراطور هنري السادس التاج لملوكها، وقد أرسل فريدريك قبل وصوله عدة خطابات إلى فيليب ويوحنا دي إيبلين الوصيين على الملك الصغير، موضحا لهما أنه ليس من حقهما تتويج الطفل، وكانا قد أراد بذلك تفويت الفرصة على فريدريك، وتدخل البابا هونوريوس الثالث إلى جانب الملك الطفل ضد فريديك، كما كان فريديريك يرغب في تمويل الحملة من إيرادات قبرص، وهو ما كان ملوك الجزيرة يرفضونه دائما، حتى لا تضيع موارد جزيرتهم في هذه الحرب، انظر :
Rilley-Simth, Feudal Nobalny, p. 163; John La Monte, “John Iblin", pp. 426-432.

(٣) Amadi. op. cit.,vol, 1., pp. 132-133; CF. also: Grousset,R., op. cit. t. 3. p. 302.

(٤) توفى المعظم في يوم الجمعة أول ذي الحجة ٦٢٤هـ/ ١٢ نوفمبر ١٢٢٧م، انظر: سبط بن الجوزي/ مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص ٦٤٨.

على مدى تأثيرها على صليبي الشام في ظـل الصـراع القـائم بـين البابـا والإمبراطور.

زاد من صعوبة موقف الإمبراطور، تلك الحرب التي شنها عليـه البابـا جريجيوري التاسع، إذ كان البابا يرى أنه لا يمكن لإمبراطـور محـروم مـن الكنيسة أن يقود حملة صليبية، بل وأرسل رسائل إلى صليبي الشام، يحثهم على ألا يساعدوا هذا الإمبراطور، وتضمنت الرسائل نشر قرار الحرمان، وأمرًا من البابا موجه للجماعات الرهبانية العسكرية بعدم تقديم المساعدة إلى الامبراطـور فريدريك الذي اتهمه البابا جريجوري التاسع بأنه يسـعى لعقـد تحـالف مـع المسلمين [١]، وقد كلف البابا كاتبه باجيليوس جيدونوس بأن يكتب إلـى الملـك الكامل، بألا يمنح بيت المقدس إلى الإمبراطور وأن يحاربه[٢]، وحسـبما يقـول أحد المؤرخين المحدثين مفسرًا موقف البابا بأنه إذا نجح الإمبراطور في حملته تلك فإن معنى ذلك أن الله قد حكم ضد البابويـة فـي النـزاع بينهمـا وبـين الإمبراطور، ويصبح سهلاً أن يصدق الناس خيانة البابا[٣]، وهكذا نجد البابويـة -التي ملأت الدنيا صياحًا وعويلاً على ضياع بيت المقدس من أيدي الصـليبيين عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ- نجدها تعمل على ألا ينجح الإمبراطور فريدريك فـي استرداد تلك المدينة حتى لا يكسبه ذلك نصرًا في صراعه ضدها[٤].

ومما لا شك فيه، أن هذه الحرب التي شنها البابا جريجوري التاسع ضـد الإمبراطور فريدريك الثاني قد أثرت بشكل مباشر علـى موقـف الصـليبيين بالشرق تجاه الإمبراطور وحملته، كما أثرت على ما يعود من فوائد منها علـى

---

(١) وصف البابا حملة فريدريك بأنها حملة قراصنة ولصوص، وعد فريدريك رجلاً شريرًا يجب التخلص منه، ولقد تشكك بريهول في صحة تلك الخطابات، ويرى أنها زورت في الشرق، انظر:

Matthew Paris, Chrenica Majora, vol. 3, pp. 576-591; Huillard-Breholles, vol. 3, pp. 490-492; CF. also: Kantonowicz, op cit p. 177.

(٢) Pul Wiegler, op. cit., p. 137

(٣) Kantonowicz, op cit p. 184.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧٩٧.

الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وبالفعل انقسم الصليبيين إلى فريقين، وقف أحدهما إلى جانب الإمبراطور، والآخر ضده.

أما عن الصليبيين الذين رحبوا بالإمبراطور وحملته، فهم الفريق الذي ضم جماعة الفرسان الرهبان التيوتون بقيادة هرمان أوف سالزا[١]، فضلاً عن الجنوية والبيازنة[٢]، وبعض الفرسان ذو الأصول الألمانية[٣]، أما الفريق الذي وقف ضد الإمبراطور مستجيبا لرسائل البابوية، التي أرسلت خصيصا لخلق جبهة معارضة للإمبراطور المحروم، حتى لا يستطيع تحقيق ما خرج من أجله فعلى رأسه البطريرك جيرولد ورجال الدين، الداوية، والإسبتارية لم يساندوا الإمبراطور امتثالاً لأوامر البابا[٤]، ومعهم معظم نبلاء المملكة الصليبية، لارتيابهم من نوايا فريدريك، علاوة على جالية البنادقة[٥]، أما بخصوص إمارتي أنطاكية وطرابلس، فقد كان الأمير بوهيمند الرابع أقل الأمراء قلقًا واضطرابا، لأنه لم يعترف بسيادة الإمبراطور فريدريك عليه، وعد نفسه دائما خاضعًا للإمبراطور اللاتيني بالقسطنطينية[٦]، وقد عمل فريدريك على تفادي قرار الحرمان الصادر ضده، فأسند قيادة الجيش لعدد من أصدقائه المخلصين، وكان على رأس هؤلاء أودو أوف مونت بيليارد وهرمان فون سالزا[٧]، واجه فريدريك بعد ذلك إلى يافا لتحصينها، في حركة دعائية موحية بأن هدف الحملة هو الاتجاه بعد ذلك إلى بيت المقدس[٨].

---

(١) حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ١٩١.

(٢) سامي سلطان سعد: العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية، ص٤٩.

(٣) Conder,C.R.,op. cit., p. 312.

(٣) Paul Wiegler, op. cit., p. 135.

(٥) فايد حماد عاشور: العلاقة بين البنادقة والشرق، ص ١٤٦.

(٦) حسين عطية : إمارة إنطاكية، ص ٣٢٩.

(٧) حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ١٩٩.

(٨) تجدر الإشارة إلى أن القرارات التي كانت تصدر إلى قوات الحملة كانت تصدر "باسم الرب والمسيحية" لا باسم الإمبراطور، انظر :

وبينما كان الصليبيون يقومون بأعمال التحصين في يافا، كانت المفاوضات تجري بين الإمبراطور والملك الكامل لتنفيذ ما سبق أن عرضه الملك الأيوبي على الإمبراطور، أن يعطيه بيت المقدس وبعض ما فتحه صلاح الدين الأيوبي، ولكن مع تغير الظروف بوفاة المعظم، حاول الكامل التملص من ذلك[1] فطالت المفاوضات، وأخذ موقف فريدريك يسوء يومًا بعد يوم، بعد أن وصلت الأنباء من المغرب تحكي قصة الهجوم الذي تعرضت له أملاكه الإيطالية من جانب قوات البابا[2]، بل أن البابوية أشاعت في الغرب وفاة الإمبراطور، وادعى البابا لنفسه حق الوصاية على الإمبراطورية وأملاكها[3]، وبالإضافة إلى ذلك كان الملك الكامل قد توصل إلى اتفاق مع أخيه الأشرف بشأن أملاك الدولة الأيوبية[4]، وفي ظل هذه الظروف لم يعد أمام الامبراطور فريدريك الثاني سوى التذلل

Paul Wiegler, op. cit., p. 135.

(1) ابن الأثير : الكامل، ج١٢، ص ١٦٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص ٣٢٩-٢٤٠؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ٢٦٥.

(2) قاد القوات البابوية بيلاجيوس –المندوب البابوي السابق– وجان دي بريين، الذي كان فريدريك قد أجبره على التخلي عن لقب ملك بيت المقدس عقب زواجه من يولندا، وتجدر الإشارة على ان فارس تيوتونيا يدعى ليونارد حمل لفريدريك أنباء هجوم القوات البابوية على أملاكه في أوروبا، انظر :

موريس كين: حضارة أوروبا، ص ١٨٣، حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص٢٠١.

(3) اتضح ذلك في رسالة الإمبراطور بعد عودته إلى الغرب الأوروبي لصديقه الأمير فخر الدين مندوب الكامل في المفاوضات، إذ قال فيها: "إن البابا بالغدر والخديعة، أخذ إحدى قلاعنا المنيعة، واضطر إلى أن زعم أننا متنا، وأن رجوعنا مستحيل، وراود العامة بمثل هذه الأباطيل"، وعن نص الرسالة، انظر :

ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري، ص ١٩٠-١٩٣.

(4) كان الناصر داود –ابن المعظم– أضعم من أن يقوم بمحاول جدية لحماية ملكه الذي ورثه عن أبيه، ولذا اجتمع الكامل والأشرف في تل العجور جنوب غزة، وهناك اتفق الأخوان على اقتسام ملك المعظم، فحاصروا الناصر داود وفي دمشق ثلاثة شهور حتى افتحماها، وترك الكامل لأخيه الأشف دمشق، وعوض الناصر داود ببعض المناطق، بينما أخذا الكامل لنفسه حران والرها وأماكن أخرى، ومادام الوضع قد استقر بين أبناء البيت الأيوبي بالشام على النحو السابق، فإن الكامل لم يعد محتاجا إلى مساعدة الإمبراطور فريدريك الثاني، انظر:

المقريزي: السلوج، ج١، ق١، ص ٢٢٧؛ ابن الأثير : الكامل، ج١٢، ص ١٦٥.
راجع أيضا: سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧٩٦.

للملك الكامل واستعطافه للوصول إلى هدفه[١]، وأخيرًا تم التوصل إلى اتفاقية يافا بين الكامل وفريدريك التي قضت بأن يكون للصليبيين مدينة القدس إلى جانب الشريط الساحلي من عكا إلى يافا، وإقليم الناصرة، وغربي الجليل، بما فيه حصون مثل تبنين وما يحيط بصيدا، وأن يكن للمسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة، إلى جانب حرية التردد عليها لأداء الصلاة، وأن يتم تبادل الأسرى بين الطرفين، وتستمر الهدنة لمدة عشر سنوات وأربعة أشهر، ابتداء من ١٨ فبراير ١٢٢٩م/ ٢٣ ربيع أول ٦٢٦هـ[٢]، وأتضح من البنود السابقة أن فريدريك الثاني استطاع أن يحصل على ما لم يتيسر لسابقيه من أمراء الغرب الأوروبي وملوكه وأباطرته، بلجوئه لما يعرف بالأسلوب الدبلوماسي، ولن نقف طويلاً عند اتفاقية يافا التي لم تحظ برضاء المسلمين[٣]، وأثارت جدلا بسبب تفريط الملك الكامل فيما استرده صلاح الدين الأيوبي بعد كفاح مرير، فقد أفاضت فيها الأبحاث الحديثة وتناولتها كثيراً بالنقد والتحليل[٤]، وسوف نتناول ما

---

(١) Poul Wiegler, op. cit., p. 136.

يبدو ذلك في إحدى رسائل الإمبراطور إلى الملك الكامل، اذ يقول فيها: "أنا عتيقك، وتعلم أنني أكبر ملوك الفرنج وأنت كاتبتني بالمجئ، وقد علم البابا والملوك باهتمامي، فإن رجعت خائبًا انكسرت حرمتي"، انظر :

الجنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، ب ت، ج٥، ص ١١٨.

(٢) عن اتفاقية يافا، انظر :

- ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤١-٢٤٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣، ص٢٠٥، ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصور، ص ١٧٦؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ٢٣٠-٢٣٢، وكذلك :

Eracles, L'Estoire, p. 374; Ernoul, p. 465.

(٣) أثار ذلك الاتفاق الغضب في العالم الإسلامي: إذ يقول المؤرخ سبط بن الجوزي: "وصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنج، فقامت القيامة في جميع بلاد المسلمين واشتدت العظائم بحيث أنه أقيمت المآتم"، ويقول المقريزي: "اشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل، وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشائعات عليه في سائر الأقطار"، لمزيد من التفاصيل، انظر :

سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢، ق٢، ص ٦٥٤؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٢٣٠.

(١) Richards, D.S., The Crusade of Fredrick II and the Hamah Succession, Extacts from the Chronicle of Lbi Al-Damn, in Bullet in d;Etudes Orientales, t. xiv, 1993, pp. 183-200.

وانظر أيضا:

تركته من أثر على الإمارات الصليبية في بلاد الشام وعلى علاقتها بالغرب الأوروبي في تلك الفترة.

أما بالنسبة للصليبيين فلم يوافقوا أيضا على الاتفاق، والوسيلة السلمية التي استردوا بها بيت المقدس من أيدي المسلمين، الذين مازالت لهم أملاك في المدينة، كما أن المنطقة التي عرضها الملك الكامل على فريدريك سبق أن رفض قبولها منه قادة الحملة الصليبية الخامسة لصعوبة الدفاع عن بيت المقدس دون أن ينضم إليها إقليم ما وراء نهر الأردن[١]، كما ظلت المدينة مفتوحة، وكان من المستحيل حراسة الطريق المؤدي إليها من الساحل، ودأب قطاع الطرق المسلمون -في زعمهم- على السطو على الحجاج الصليبيين المتوجهين إلى المدينة[٢]، كما حقد الإسبتارية على فريدريك المحروم من الكنيسة -وقرار عدم العمل تحت لوائه وقد غضب الداوية عليه أيضا بسبب أنه سمح للمسلمين بالاحتفاظ بالمسجد الأقصى الذي كان مركزًا لهم قبل حطين[٣]- وبصفة عامة نظرت الهيئات الدينية العسكرية، باستثناء التيوتون بالطبع، إلى اتفاقية يافا على أنها بلا قيمة مادام الإمبراطور مطرود من رحمة الكنيسة[٤]، وأخيرًا فإن الأمراء الصليبيين المحليين لم يستطيعوا أن يخفوا حقدهم على الإمبراطور الذي أعلن نفسه ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية الأسمية، ولم يقبل من أحدهم رأيا خلاف رأيه فانضموا إلى زمرة الساخطين[٥]، فما كان من جيرولد -

---

رأفت عبد الحميد: الملك الكامل بين الإفراط والتفريط في مواجهة الصليبيين، بحث في قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٢٣-٢٠١؛ حسن عبد الوهاب: هدنة القدس في ضوء فتوى المؤرخ القاضي ابن أبي الدم الحموي ١٢٢٩م/ ٦٢٦هـ، دراسة تحليلية مقارنة، بحث منشور في مؤتمر مصادر تاريخ القدس، القاهرة، مارس ١٩٩٨.

(١) Poul Wiegler, op. cit., p. 141 ; CF. also: Runciman,S., op. cit., vol.3. p.188.

(٢) Reger of Wendover, op. cit., vol. 2, p. 507; CF. also: Riley-Smith, Feudal Nobilith, p. 170.

Eracles, L'Estoire, p. 375.

(٤)

راجع أيضا :

باركر: الحروب الصليبية، ص ١٤٦؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٨٠١؛ إبراهيم خميس : جماعة الفرسان الداوية، ص ٢٦٠.

(٤) Kantonowicz, op cit p. 182.

(٥) King, op. cit., p. 208.

بطريرك بيت المقدس- إلا أن يقرر توقيع الحرمان على أهل المدينة المقدسة نفسها من المسيحيين إذا هم استقبلوا الإمبراطور وذلك في مارس ١٢٢٩م/ ربيع آخر ٦٢٦هـ[١].

وعلى أية حال، واصل صليبيو الشام معارضتهم لما أسفرت عنه الحملة الصليبية السادسة، وقادهم جيرولد بطريرك بيت المقدس، الذي ارتبطت معارضته بموقف البابوية وصراعها مع الإمبراطور، خاصة وأن صليبية فريدرك شكلت جانبًا من هذا الصراع[٢]، وبعد يومين فقط من توقيع اتفاقية يافا وبالتحديد في ٢٠ فبراير ١٢٢٩م ٢٥ ربيع أول ٦٢٦هـ، أرسل البطريرك خطابا إلى المسيحيين المؤمنين في الغرب قاطبة عن سلوك الإمبراطور في الأراضي المقدسة، وكيف أساء معاملة صليبي الشام،وخاصة الأمراء ، وايضاً الطوائف الدينية و لاسيما فرسان الداوية،

بل وإهانة رجال الدين في الأراضي المقدسة[٣]، وفي ٧ مارس ١٢٢٩م/ ٩ ربيع الآخر ٦٢٦هـ أرسل خطابا إلى البابا جريجوري التاسع يحتوي على تفاصيل ما فعله فريدريك في بلاد الشام، ووصف الاتفاقية بأنها خيانة ارتكبها الإمبراطور مع سلطان مصر، وذكر له نقاط الضعف في هذه المعاهدة، كما وصف الإمبراطور بأنه أحمق ومتهور، بعد أن سمح لنفسه بأن يخدعه المسلمون وكيف أن الإمارات الصليبية لم تستفيد مما حققته الحملة القادمة من

---

(١) Paul Wiegler, op. cit., p. 140; R?hrict, Regesta, no. 998, p. 262.
بالإضافة إلى ما سبق فإن الاتفاقية -حسبما يرى المؤرخ ميشيل بالار- قطعت الإمدادات التي كانت تأتي من الغرب الأوروبي إلى الإمارات الصليبية لفترة ليست بالقصيرة، انظر: ميشيل بالار: الحملات الصليبية، ص٢٣٠.

(٢) Paul Wiegler, op. cit., p. 141

(٣) وفي هذا يقول البطريك: "كان معروفا تماما مدى الغرابة بل والإسفاف في سلوك الإمبراطور في الأراضي الشرقية من البداية إلى النهاية، إلى حد المساس برجال الدين والعقيدة المسيحية من أخمص قدمه حتى أم رأسه"، انظر :
Letter of Gerold Pal.rlarch of Jerusalem to all the Faithful(20 Febr.), in http: II History, Hanover, Edu/Texts/decline 2, Html, December 2001.

الغرب الأوروبي[١]، وكان لهذه المراسلات أثر كبير في الغرب الأوروبي، فقد استغله البابا وبدأ يسئ إلى فريدريك، ووصف الأعمال التي قام بها بأنها مخجلة، وأطلق عليه "تابع المسلمين"، بعد أن كانت البابوية فيما مضى تطلق عليه "ابن الكنيسة المحبوب"[٢].

وحاول فريدريك أن يحبط ما يقوم به البطريرك جيرولد، وخاصة لدى البابا، وكلف هرمان مقدم التيوتون بذلك، فأرسل الأخير خطابًا في ١٥ مارس ١٢٢٩م/ ١٧ ربيع الآخر ٦٢٦هـ إلى البابا يخبره بأعمال الإمبراطور، وبخاصة عقده معاهدة مع الملك الكامل، بموجبها إعادة بيت المقدس إلى الصليبيين وكيف أن هذه المعاهدة ناجحة ومفيدة بالنسبة للإمارات الصليبية في بلاد الشام[٣]، ولكن كما يقول المؤرخ براور لم يلتفت البابا لهذا الخطاب، واعترف فقط بما ورد في خطاب البطريك إليه[٤]، وأرسل الإمبراطور إلى الملك الإنجليزي هنري الثالث في ١٧ مارس ١٢٢٩م/ ربيع الآخر ٦٢٦هـ رسالة يوضح له فيها ما حققه من إنجازات للكيان الصليبي في الشرق، وكيف

---

(١) يختتم جيرولد خطابه إلى البابا جريجوري التاسع بقوله: "بعد أن أدرك الإمبراطور أن خبثه لم يحقق له النجاح، لم يعد راغبا في البقاء أكثر من ذلك في الشرق، بعد أن سبب كثيرًا من الضرر للأراضي المقدسة"، انظر :

Letter of Gerald Patriareh of Jerusalem to Pope Gregory IX, Acre (7 Mar. 1229), in Huillard-Bréhollcs, op. cit., vol. 3, pp. 86-90

(٢) وصف البابا اتفاقية يافا بقوله: "أنها وفق عقيدة المسلمين لا عقيدتنا وتبع عاداتهم في كثير من الأمور"، انظر :

Roger of Wendoverd, op. cit.. vol. 2. p. 528; CF. also: Grousset,R., op. cit., t. 3, p. 322.

(٣) حاول هرمان مقدم التيوتون أن يستدر عطف البابا على الإمبراطور بقوله: "فإذا حظي الإمبراطور بعطف ورضا واتفاق الكنيسة، فإن مفاوضاته وأعماله في الأراضي المقدسة ستكون أكثر فاعلية وفائدة"، انظر :

Letter of Hemuan Von Salza to Pope Gregory IX (15 Mar. 1229), in Huillard- Bréhclles, op. cit., vol. 3, pp. 90-92.

وقد أورد الدكتور حسن عبد الوهاب نص الخطاب وترجمته، انظر: حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ٣٦٨-٣٧٢.

(٤) Prawer, Histoire du Royoume Latin de Jerusalem, Traduit de L'hebreu Par. G, Nahan.Second editiom (paris, 1975), p. 210.

أعاد المدينة المقدسة مرة أخرى للمسيحيين، وشرح له أهم مميزات الهدنة التي وقعها مع المسلمين، على خلاف ما تروجه البابوية من شائعات في الغرب الأوروبي[١].

وزاد من سوء الأوضاع في الاراضي المقدسة انضمام كثير من الصليبيين المحليين ورجال الدين للجبهة المعارضة للإمبراطور، بعد أن ثبت في أذهانهم أن الإمارات الصليبية لم تستفيد شيئا مما حققه الإمبراطور[٢]، وظهر هذا واضحا في الحزن الذي خيم على الجميع، عندما تسلم لإمبراطور مدينة بيت المقدس في يوم السبت ١٧ مارس ١٢٢٩م/ ١٩ ربيع الآخر ٦٢٦هـ، ووضع التاج فوق رأسه في

أغرب احتفال لم يحضره أي من رجال الدين[٣]، وفي يوم الاثنين ١٩ مارس ١٢٢٩م/ ٢١ ربيع الآخر ٦٢٦هـ، وصل إلى بيت المقدس بطرس أسقف قيسارية (١١٩٩-١٢٣١م/ ٥٩٦-٦٣٣هـ)، ليوقع قرار الحرمان على المدينة وفقا لقرار البطريرك، فاستاء الإمبراطور من ذلك، وترك المدنية غاضبًا إلى عكا[٤]، فوجدها في حالة ثورة عارمة، ذلك أن النبلاء المحليين رأوا أن فريدريك لم يحترم قوانين مملكتهم، وأباح لنفسه عقد اتفاق مع الملك الكامل دون أخذ رأيهم، فضلا على أنه -في نظرهم- كان مغتصبًا للعرش[٥]، وحاول فريدريك قمع معارضيه من الصليبيين المحليين بل دبر للقبض على بطرس دي

---

(١) Latter of Frederick II to Henry III of England (17 Mar.1229); in Roger of Wendover, op. cit., vol. 2, pp. 522-523.

(٢) Runciman, ,S., op. cit., vol.3., 184.

(٣) من المرجح أن القساوسة جميعًا رفضوا تتويج إمبراطور محروم من الكنيسة، مما دفعه على تتويج نفسه، بل يرى بعض المؤرخين أنه لم يكن تتويجا بالمعنى المفهوم، بل مجرد احتفال صغير بلبس التاج، لم يمثل الطوائف الدينية العسكرية فيه إلا الفرسان التيوتون، ولم يحضره من رجال الدين سوى أساقفة صقلية، وأصدقاء الإمبراطور الإنجليزي بطرس أسقف ونشتستر، ووليم أسقف أكستر، انظر :

Eracles, L'Estoire, p. 376; Paul Wiegler, op. cit., p. 138.

(٤) Emoul, p465; Eracles L'Estoirc, p. 374; CF. also: Runciman,S., op. cit., vol.3, p. .190

(٥) Eracles. L'Estoirc, p. 374.

مونتاجو مقدم الداوي، ويوحنا دي إيبلين سيد بيروت، وإرسالهم إلى أبوليا في إيطاليا[1]، عندما علم بأن الداوية يخططون لقتله بعد أن سلبهم أموالهم[2]، ومع بزوغ فجر مايو ١٢٢٩م/ ٤ جمادى الآخر ٦٢٦هـ، وبينما كان الإمبراطور يستعد للرحيل من عكا متوجها إلى الغرب، قامت مظاهرات عارمة ضده في أحد شوارع عكا، واتهمه المتظاهرون بأنه حليف المسلمين، ويريد تسليم الإمارات الصليبية إلى الملك الكامل[3]، وغادر الشرق تاركا المشكلة بينه وبين صليبي الشام دون اتخاذ قرار حاسم فيها يعيد الوئام بينهم وبين الغرب الأوروبي بصفة عامة[4].

وإذا حاولنا تقييم حملة الإمبراطور فريدريك الثاني وما استفاده صليبيو الشام منها، فنجد أنه بالرغم من نجاح الحملة في استرداد بيت المقدس -هدف الحملات الصليبية القادمة من الغرب بداية من الحملة الثالثة- ونجاحها في توسيع أراضي عكا وصور وصيدا، والصلح العام لمدة عشر سنوات، إلا أن مدينة بيت المقدس نفسها وما جاورها، أصبحت غير ذات أهمية، بعد أن أصبحت مدينة مفتوحة غير محصنة، يخشى المسلمون والصليبيون على السواء،

---

(١) Amadi, op. cit.; vol. 1, pp. 134-135; Philip of Novara, op. cit., p. 90
ومن لملاحظ أن امادي أفاض في ذكر تفاصيل تلك المحاولة، وما أثاره من رد فعل عنيف لدي صليبي الشام .

(٥) Matthew Paris, Chronica Majora, vol.3, pp. 177-179; CF. also: Riley-Smith, The Knights, p. 168.
وقد أشار سبط ابن الجوزي إلى هذه المؤامرة قائلا: "إن فريدريك أمضى ليلتين في القدس ثم عاد إلى يافا خوفا من الداوية"، انظر : سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص ٦٥٥-٦٥٦.

(٣) Paul Wiegler, op. cit., pp. 141-142.

(٤) الجدير بالذكر أن الإمبراطور فريدريك عين قبل رحيله باليان سيد صيدا، وجارنييه -احد المقربين من الملك السابق جان دي بريين بالرغم من كونه ألماني الأصل- نائبين عنه في حكم المملكة، وبقى أودو أوف مونت بيليارد كند سطبلا للملكة ومتوليا أمر الجيش الصليبي، انظر :
Letter of Gerold Patriarch of Jerusalem to Pope Gregory IX, p. 87; Eracles, L'Estoirc, p. 375; Amadi, op. cit., vol. 1, p. 135; Ernoul, p. 466.

التوجه إليها والمتاجرة والاستقرار فيها، ولم يبق للمدينة سوى أهميتها الدينية[١]، ورحل الإمبراطور من عكا مكروها تلاحقه اللعنات، وألفاظ السباب لأنه حاول فرض سيطرته وسيادته على بارونات الإمارات الصليبية كحاكم فعلي de facto على مملكتهم بينما كان الحاكم الشرعي de Jure ابنه كونراد قاصرًا[٢]، ولم يقدر صليبو الشام إنجازات الإمبراطور حق قدرها وعدوا حملته زيارة قام بها ملك إيطاليا إلى صديقه سلطان مصر[٣]، بل راحوا يناوئون نوابه، وبدا أن الهدف الصليبي القديم لم يعد يغريهم بعد تكتلهم جميعا ضد فريدريك، وساعدهم على ذلك هدنة السنوات العشر التي وقعت مع المسلمين[٤]، وبات واضحا أن اتفاقية يافا كانت نصرًا شخصيا سياسيا للإمبراطور لأنه حصل على بيت المقدس سلما، إلا أنها شكلت عامل ضعف عسكري للإمارات الصليبية في بلاد الشام، حيث فرقت بينها، ومنعت عنها النجدات من الغرب دون أن تعطيها أية تنازلات ذات قيمة عسكرية، إذ كان لبعض التصرفات التي صدرت من الإمبراطور آثارها السيئة عليه فيما بعد، بالإضافة لمعادته للبابوية، فصار بذلك في عداء مباشر مع أمراء المملكة الصليبية وباروناتها، مما جعل مهمة نوابه في حكم المملكة أكثر صعوبة، بالإضافة إلى زيادة الانقسامات داخل الكيان الصليبي في الشام، ولم لا؟ وقد ترك فريدريك خلفه نواة لصراع داخلي وحرب أهلية، وما لبث أن اندلعت، وشملت أجزاء المملكة الصليبية كلها وأثرت أثرًا كبيرًا

---

(١) ابلغ دليل على ذلك هو قيام بعض العناصر الإسلامية في نهاية عام ١٢٢٩م عد عقد اتفاقية يافا باجتياح بيت المقدس، وسلبوا ونهبوا واحتمى الصليبيون في برج داود، ثم انصرفوا فور انتهاء غارتهم بعد أن أصبحت المدينة هدفا سهلاً لأي عمل عسكري بعد أن صارت بدون تحصن، ولعل هذا السبب هو الدافع الرئيسي لتضخيم هذا الهجوم في المصادر الصليبية المعادية لفريدريك، خاصة وأن المصادر العربية لم تذكره، انظر:
Eracles, L'Estoire, pp. 384-385; Ernoul, p. 468.

وكان معروفا أن المؤرخ أرنول أحد أقرب المقربين من آل إيبلين زعماء البارونات المعارضين لسياسة الإمبراطور في الشرق، انظر : ياسر عبد الوهاب: آل إيبلين، ص١٦.

(٢) Riely-Smith, The Feudal Nobility, p.167.

راجع أيضا : حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٣٤٣.

(٣) Grousset,R., op. cit., t. 3, p. 322.

(٤) Grousset,R., op. cit., t. 3, p. 324.

على الوضع في المنطقة، خاصة على علاقة الإمارات الصليبية بالغرب الأوروبي.

وتفصيل ذلك أنه في أثناء الهدوء المسيطر على المنطقة من جراء المعاهدة المبرمة بين الصليبيين والمسلمين، بدأت تلك الحرب الأهلية من قبرص، بعد أن ضمها فريدريك الثاني إلى أملاكه عند توجهه إلى الشرق، وحدثت ثورة هناك استنجد على أثرها بارونات قبرص بإخوانهم في بلاد الشام، ونجح هؤلاء البارونات في طرد أتباع الإمبراطور من قبرص وسيطروا على إدارتها[١]، وفي الوقت نفسه نجح الإمبراطور في عقد صلح سان جرمانو مع البابوية في عام ١٢٣٠م/ ٦٢٧هـ، وفيه اعترف البابا بما حققه فريدريك من نصر دبلوماسي، بل وأرسل إلى جيرولد بطريرك بيت المقدس يأمره برفع الحرمان عن مدينة بيت المقدس[٢]، عندئذ جهز الإمبراطور على الفور حملة

---

[١] كان فريدريك قد عهد إلى خمسة من أتباعه -عرفوا لدي مؤرخي تلك الأحداث بالمتآمرين الخمسة بالوصاية على الملك القرصي الصغير هنري الأول وإدارة شئون قبرص نظير مبلغ يدفع سنويا إلى مندوبي الإمبراطور في الشام، وقد زعم المؤرخ فيليب أوف نوفار أن الوصاية كانت لثلاث سنات نظير مبلغ قدره عشرة آلاف مارك فضي، بينما أكد تاريخ هرقل أن هذا المبلغ لم يكن ثمنا للوصاية على قبرص، وإنما دفع مساعدة لبيت المقدس، وعندما تعسف هؤلاء الأوصياء الخمسة في جمع الضرائب، لجأ البارونات الصليبيين في قبرص إلى الاستنجاد بإخوانهم في بلاد الشام، خاصة وأن هؤلاء كانوا غاضبين من سياسة فريدريك تجاههم، وعلى الفور تجمع بارونات الشرق تحت قيادة يوحنا دي إيبلين سيد بيروت، وأكبر المعادين لسياسة فريدريك في الشرق، وزحفوا تجاه قبرص، واستطاعوا هزيمة أتباع الإمبراطور في معركة كبرى جرت بين الطرفين، وتم طرد هؤلاء الأوصياء وسيطر البارونات على قبرص تحت زعامة يوحنا دي إيبيلين، الذي تعهد بالمحافظة على الأمن والسلام، وقد جانب الصواب عددًا من المؤرخين في تحديد تاريخ المعركة السابق ذكرها، فبينما حدد تاريخ هرقل وأمادي المعركة في ٢٤ يونيو، وأخطأ ماس لاتري حين جعل تاريخ المعركة يوم ٢٣ يونيو، والمرجح أن التاريخ الصحيح هو ما ذكره فيليب أوف نوفار وهو ١٤ يوليو ١٢٢٩م، لكونه أحد المشاركين في تلك المعركة في صفوف قوات البارونات، انظر :

Philip of Novare, op. cit., pp. 92-102; Eracles, L'Estoire, pp. 375, 377; Amadi, op. cil., vol. 1, pp. 118, 143; Ann T.S, p. 438; CF. also: Mas-Latrie, oip. cit., vol. 1, pp. 235. 252; Hill, op. oit., vol. 2, pp. 100-104.

[٢] Gregory IX, Les Registres, ed. L. Auvray (Bibliothéque des Ecoles Franeaises d'Athénes et cle Rome, Sér. 2,3 vols (Paris,

عسكرية تحت قيادة ريتشارد فيلانجيري بعد أن عينه نائبًا له في قبرص وبيت المقدس، مطالبا إياه بإعادة سيطرة الإمبراطورية على الكيان الصليبي في المشرق[١]، وهكذا أرسل الغرب الأوروبي حملة جديدة لا لمحاربة المسلمين حسبما يقضي الفكر الصليبي آنذاك، بل لمحاربة بارونات المملكة الصليبية من أجل مصالح شخصية بعيدة كل البعد عن خدمة القضية الصليبية ومساندة الإمارات الصليبية الموجودة في بلاد الشام.

وعندما وصل ريتشارد بقواته إلى الساحل الشامي وأدرك أن يوحنا دي إيبلين والبارونات قد تحصنوا بقبرص توجه إلى بيروت وحاصرها، ثم استولى على صيدا وصور ثم استولى على عكا بالقوة[٢]، وكان هذا انتهاكا لقوانين المملكة، وصدمة للمعتدلين من أمثال باليان سيد صيدا (١٢٢٩-١٢٤٩م/ ٦٢٦-٦٣٧هـ)، أحد مؤيدي فريدريك، وأودو أوف مونت بيلارد قائد جيش المملكة، الذين كانا حتى ذلك الوقت مستعدين لمساندة الإمبراطور، فتحول البارونات جميعًا إلى الحزب المعادي له[٣]، وقد وصف أحد المؤرخين المحدثين ذلك بأنه

1896-1955), vol. 1, nos. 414-415; CF. also: Thatcher, A Sousoe Book, no. 141, p. 242.

(١) تألفت تلك الحملة من ستمائة فارس وآلاف الجنود اللمبارديين وثلاثين سفينة أقلعت من ميناء نابولي الإيطالي، انظر :
Philip of Ncovare, op. cit., p. 118; Eracles, L'Estoir:e, pp. 388

(٢) عندما وصل ريتشارد بحملته إلى عكا دعا المحكمة العليا للانعقاد وقدم أوراق اعتماده من الإمبراطور، والتي يكلفه فيها بالقيام بمهام الحكم في ممتلكاته الشرقية نيابة عنه، وبعد أن أقر النبلاء بشرعية تعينه، أظهروا اعتراظهم على الأعمال المشينة التي قام بها، ومنها احتلال المدن الساحلية بالقوة، ومصادرة إقطاعات النبلاء الصليبين، على أساس أن تلك الأعمال لا يحق لها القيام بها دون موافقة المحكمة العليان بل وطالبوه بغعادة كل ما سلب، وعندئذ أجابهم في غطرسة، أنه نائب الإمبراطور، ويحق له فعل أي شئ مما جعل الجميع ساخط على تلك التصرفات، ومن الملاحظ أن تلك الأحداث أغفلت من جانب فيليب نوفار –المتواجد في قبرص آنذاك– في حين أسهب تاريخ هرقل وأمادي في سردها، انظر :
Eraclcs, L'Estoire, pp. 388-389; Amadi, op. cit, vol. 1, pp. 148.

(٣) Eraclcs, L'Estoire, pp. 390-391; John La Monte, Feudal Monarchy, p. 65.

صدام بين حرية الإمارات الصليبية وتعنت فريدريك الثاني وتكبره[1]، وبالتالي تركت تلك التصرفات الإمبراطورية أثرها على الإمارات الصليبية وباتت تهدد الكيان الصليبي نفسه.

وكان لزاما على نبلاء الإمارات الصليبية تشكيل قومون يحافظ على حقوقهم فشكلوا ما يعرف بقومون عكا، وانتخبوا يوحنا دي إيبلين -سيد بيروت- ليكون أول رئيس له[2]، وهكذا يمكن القول أن الإمارات الصليبية في الشرق، بدت في النهاية ممنقسمة إلى قسمين رئيسيين، أحدهما حزب ريتشارد فيلانجيري نائب الإمبراطور، وتألف من قواته اللمباردية والبيازنة، وفرسان التيوتون[3]، بينما تكون الحزب الأخر من بارونات المملكة الصليبية والقبرصية والجنوية[4]، في حين حاول البطريريك جيرولد والإسبتارية والداوية التزام

ومن أبرز نتائج تلك الأحداث أنه تألفت في عكا طائفة اشتهرت باسم طائفة القديس أدريان، لم تلبث -على الرغم من أصلها الديني- أن أضحت تمثل المعارضة السياسية لفريدريك الثاني، والدليل على ذلك قبولها عضوية يوحنا دي إيبلين وبقية النبلاء الثائرين ضد الإمبراطور، انظر :

أرنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٦٠م، ص١٤٩.

(١) Grousset,R., op. cit., L 3, p. 335.

(٢) قومون Coummune : هو مجلس شعبي يدير الشئون العسكرية والخارجية للمدينة بالإضافة إلى الشئون الداخلية، وقد عرفت الإمارات الصليبية في بلاد الشام ثلاث مجالس من هذا النوع، أولها في أنطاكية عام ١١٩٤م عد هجوم ليو الثاني على المدينة واحتجازه بوهيمند الرابع، واستمر هذا المجلس بعد زوال الدوافع التي أسس من أجلها، وثانيها في عكا عام ١٢٣١م للوقوف في وجه الاستبداد الإمبراطوري، وهو المجلس المذكور أعلاه، وثالثها في طرابلس عام ١٢٨٨م وهي تصارع من أجل البقاء، وعن ذلك انظر:

John La Monte, The Communal Movement in Syriain The 13"' Century, in Taylor (ed), Haskins Anniversarry essays in Medieval History, (Boston, 1929), pp. 117-132.

(٣) هايد: تاريخ التجارة، ج١، ص ٣٤٥؛ سامي سلطان سعد: أسس العلاقات الاقتصادية، ص١٥٠، لمزيد من التفاصيل عن الدور الذي قام به فرسان التيوتون في هذا الصراع وتأييدهم للإمبراطور فريدريك، انظر :

حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة فرسان التيوتون، ص٢١١-٢١٦.

(٤) كان هذا الحزب يضم ثلاثة وأربعين بارونا صليبيا تحت قيادة يوحنا دي إيبلين تساندهم قوات القبارصة بقيادة الملك هنري الأول وساندهم الجنوية بأسطولهم البحري، بل أن فيليب أوف نوفار ذكر أن يوحنا سيد قيسارية (١٢٢٩-١٢٤١م/ ٦٢٦-٦٣٨هـ)، باع عددا من أملاكه، وجمع قواته، وأسرع بالانضمام لجيش الصليبيين، انظر :

الحياد على الرغم من بغضهم لأفعال الإمبراطور، لكن اتفاق الأخير مع البابا جعلهم في حيرة من أمرهم[1]، واستطاعت قوات البارونات دخول عكا في أبريل ١٢٣٢م/ جمادى الآخرة ٦٢٩هـ، بعد أن دمروا السفن الأمبراطورية الراسية قبالة المدينة، واستقبلهم أهل عكا استقبال الفاتحين[2]، وانتقل الصراع مجددا إلى قبرص حيث لقى الإمبراطوريين الهزيمة مرة أخرى في معركة إجريدي[3]، واضحى الإمبراطور فريدريك في موقف لا يحسد عليه، بعد الخروج المهين من قبرص، والخروج المرتقب من الشام، وأصبح يوحنا دي إيبلين هو الحاكم الفعلي على صليبي الشام، بصفته عميدًا لقومون عكا، وذلك باستثناء مدينة صور التي ظلت تابعة للإمبراطور فريدريك الذي حاول إعادة المن والهدوء للإمارات الصليبية وفشل في ذلك[4].

Eracles, L'Estoire, pp. 392-395; Philip of Novara, op. cit., pp. 124-130; CF.also: John La Monte "John d'Ibelib", p. 438.

راجع أيضا: ياسر عبد الوهاب: آل إيبلين، ص ٢٠٣-٢٠٥.

(١) Eracles, L'Estoire, pp. 393-394; CF. also: John La Monte, Feudal Monarchy, p. 66

(٢) أشار تاريخ هرقل أنه بلغ عدد السفن الإمبراطورية التي دمرها البارونات الصليبيين أمام عكا سبع عشر سفينة، بينما تمكنت سفينة واحدة من الفرار من هذه الكارثة البحرية، وعقب ذلك نجح البارونات في استرداد بيروت، انظر :

Eracles, L'Estoirc, pp. 395-398

(٣) تقع قرية أجريدي Agridi بين مدينتي نيقوسيا وكيرينيا في شمالي قبرصن وقد نجحت قوات البارونات الصليبيين بقيادة يوحنا دي إيبلين سيد بيروت وهنري الأول ملك قبرص في إنزال الهزيمة الثقيلة بالقوات الإمبراطورية عند تلك القرية، ثم تبع ذلك طردهم من كل أنحاء قبرص، وذلك في ٧ يونيو ١٢٣٢م/ ٢٦ شعبان ٦٢٩هـ، انظر :

Philip of Novara, op. cit., pp. 150-154; Eraclcs, op. cit., pp. 399-400; Amacli, op. cit., vol. 1, pp. 164-170; Ann. T. S., p. 221.

(٤) أرسل الإمبراطور هرمان مقدم التيوتون للتفاوض مع النبلاء الصليبيين ويبدو ذلك واضحا م الرسالة التي بعث بها البابا إلى يوحنا دي إيبلين والنبلاء الصليبيين في ٢٨ مارس ١٢٣٤م يناشدهم فيها باغتنام وساطة مقدم التيوتون، دون جدوى، غذ لم يكتب لهذه الوساطة التوفيق، انظر :

Pope Gregory IX, Letter of Gregory IX to John d'Ibelin, Latran, (28 Mars 1234), in M.G.H., ES. XII, vol. 1, p. 471; CF. also: Mas-Latrie, op. cit., vol. 1, pp. 308-309

والسؤال المهم هنا، ما موقف البابوية من الصراع الدائر في الشرق؟ وما مدى تأثيره على الوضع في الإمارات الصليبية في ظل الصمت الواضح من القوى الأخرى الموجودة في الغرب؟ في حقيقة الأمر تأرجح هذا الموقف تبعا لعلاقة البابا جريجوري التاسع بالإمبراطور فرديريك، فعقب إبرام الصلح بين الطرفين، كانت العلاقات بينها في أحسن حال، وسعي الي تثبيت سيطرة فريديريك[1]، بل عزم البارونات على مهاجمة مدينة صور المعقل الأخير الإمبراطوري في الشرق، والعمل على القضاء على هذا النفوذ الإمبراطوري نهائيا، مما دعا البابا إلى إرسال تحذير إليهم من عواقب هذا الفعل[2]، وبفضل جهود البابا جريجوري التاسع توصل طرفا الصراع إلى اتفاق، ينص على بقاء مدينة صور في أيدي أتباع الإمبراطور، وحل قومون صور، وأصدر عفو عام عن الذين شاركوا في الحرب الأهلية[3]، وهكذا استطاعت البابوية إعادة الهدوء النسبي إلى الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

---

(1) أرسل البابا في ٢٢ مارس ١٢٣٤م/ ١٩ جمادى الآخرة ٦٣١هـ الأسقف ثيودور دي رافنا إلى عكا مبعوثا ونائبا عنه في الشرق، ليطالب النبلاء الصليبيين ورجال الدين بالاعتراف بسلطة الإمبراطور لكنه اصطدم بهم، ورفض النبلاء أوامر ثيودور، بالرغم من أنه يحمل صفة مندوب البابا، فقرر حل قومون عكا، وعندما اشتعلت المظاهرات ضده قام ثيودور بإنزال قرار القطع على سكان عكا وبالحرمان من رحمة الكنيسة على زعمائها، وألغى البابا بعد ذلك قرار ثيودور وبرر إلغاءه -في رسالة بعث بها إلى فريدريك الثاني- بخشيته من أن يتخلى الصليبيون عن المذهب الكاثوليكي، ويعتنقوا أحد المذاهب المسيحية الأخرى للتهرب من هذه العقوبة القاسية، انظر :

Pope Gregory IX, Lener of Gregory IX no Frederic II, Spoletc, (22 Sept. 1235), in Huillard-Bréholles, op. cit., vol. 4, pp. 773-775; CF. also: Groussct, op. cit., t 3, p. 330

(2) Eracles, L'Estoirc, pp. 406.

(3) كان البارونات قد أدركوا خطورة معادة السلطة الدينية العليا في العالم المسيحي، خاصة وأن البابوية كانت القوة الأوروبية الوحيدة الباقية على مساندتها للإمارات الصليبية آنذاك؛ فأرسلوا جيفري لي تور ليعرض قضيتهم أمام البابا، فوصل إلى روما وقابل البابا في أوائل عام ١٢٣٦م، ولحن حظ بارونات الشرق كانت العلاقات الإمبراطورية البابوية تمر بمرحلة من الفتور، وعندما نجح البابا في التوصل لاتفاق بين الأطراف المتصارعة، نبه الإمبراطور فريدريك إلى ضرورة الاحتكام إلى القوانين لمحلية لصليبي الشام في حل نزاعه معهم، انظر:

Eraclcs, L'Estoire, pp. 406-407; Amadi, op. cit., vol. 1, p. 143.

ولمزيد من التفاصيل عن تغير مواقف البابوية تجاه الإمبراطور، انظر:

ولم تتخل البابوية في حقيقة الأمر -خلال الصراع السابق الذكر- عن مساندة الإمارات الصليبية حسبما كانت الظروف تسمح، حتى أنه في خلال بابوية جريجوري التاسع ظهر اتجاه جديد يتمثل في إرسال البابا للوعاظ إلى الشرق لإمداده بالمعلومات التاريخية عن هذه البلاد[1]، وكان لهذا البابا دورًا كبيرًا في إعادة الاتصال بين البابوية والأيوبيين في مصر والشام، ويبدو هذا من أحد خطاباته إلى الملك الكامل في مصر، ويبدو أن عدم رضاء البابوية وصليبي الشام عن ما حققته الحملة الصليبية السادسة التي قادها الإمبراطور فريدريك الثاني، وعلاقات الإمبراطور المحروم من الكنيسة الجيدة مع الملك الكامل، يبدو أن ذلك ترك أثرًا واضحًا على البابا، فنجد في مراسلاته مع بني أيوب بها أسلوب مختلف عما اتبعه أسلافه من البابوات، فقد كتب جريجوري التاسع إلى الملك الكامل مبديا قلقه واستياءه الشديدين من موقف الكامل من بعض التجار الإيطاليين، فعلى غير عهده بالكامل قام الأخير باعتقال تجار مدينة أنكونا الإيطالية[2]، وفي رسالته المؤرخة في ١١ أغسطس ١٢٣١م/ ١٠ شوال ٦٢٨هـ حث البابا الملك الكامل على اتخاذ كل الإجراءات الممكنة من أجل إطلاق سراح التجار المذكرين، وأنه لكي ينال الكامل رضا الرب وثقة البابا عليه رد ما صادرته السلطات الإسلامية من بضائع وأموال إلى هؤلاء التجار[3]، وبالإطلاع على نص رسالة البابا إلى الكامل نلاحظ أنها لم تتضمن

Tout,T., The Empire, pp. 364-366 .

(١) هانز ماير: الحروب الصليبية، ص ٢٩٤.

(٢) استحوذ تجار مدينة انكونا الإيطالية على نصيب غير قليل من تجارة الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية، وتمتعوا بامتيازات كثيرة في موانئ الإمارات الصليبية في الشام، مثل زملائهم تجار جنوة وبيزا والبندقية، فقد منحهم البابا إنوسنت الرابع حرية التجارة في عكا وفي كل أنحاء مملكة بيت المقدس، مع إعفائهم من الرسوم المقررة على البضائع، وذلك في عام ١٢٤٥م/ ٦٤٣هـ، وفي ١٢٥٧م/ ٦٥٥هـ منح بارونات المملكة تجار أنكونا حيًّا خاصًا بهم في عكا، بالإضافة إلى كنيسة وفندق بالقرب من الميناء نظير المساهمة بخمسين فارسا للدفع عن المملكة، وكانت جالية أنكونا في عكا قد انحازت إلى الجنوية في صراعهم مع البنادقة في موانئ الشام في أواسط القرن ١٣م/ ٧هـ، انظر : حسين عطية: المراسلات، ص ٢٧٩، ح٢.

(٣) Rodenberg, op. cit, vol. 1, no. 449, p. 362; Rohricht, Regesta, no. 1025, p. 268; Gregory IX, Pope, Regesra, vol. 1, no. 644; Porlhas, op. cit., vol. 1, no. 8784.

أي مطالب يخص صليبي الشام، وهكذا ولأول مرة يتفاوض أحد بابوات روما مع حاكم مسلم دون أن يتطرق إلى عمليات تبادل الأسرى بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، أو يحثه على عقد هدنة معهم، وقد يكون لأحوال صليبي الشام غير المستقرة أثر في ذلك، لأن الحرب الأهلية الدائرة بين بارونات الشرق والإمبراطورية في الإمارات الصليبية، كانت طاغية على الأحداث العسكرية والسياسية في المنطقة في تلك الفترة[١].

وعندما نشب نزاع بين جماعتي الإسبتارية والداوية حول استغلال روافد أحد الأنهار في عكا، وأخذ أفراد الجماعتين يتقاتلون في شوارع المدينة، بصورة هددت الوضع الصليبي هناك، أرسلوا للبابا يطلبون منه التدخل[٢]، فتدخل جريجوري التاسع واشد أفراد الجماعتين بحسم الخلاف عن طريق التفاوض، وإلا أوقع عليهم عقوبة الحرمان، ونجح في يوم الأربعاء ٢٥ يوليو ١٢٣٥م/ ٨ ذي القعدة ٦٣٢هـ، في عقد اتفاق بينها على كيفية استخدام المياه في هذا الرافد[٣]، وعندما حدث اتفاق بين فرسان الإسبتارية وطائفة الحشيشية وما يشبه التحالف بين الطرفين، ندد البابا بهذا التحالف[٤].

وفي خضم تلك الأحداث، لم ينس البابا جريجوري التاسع واجب البابوية الأساسي تجاه الإمارات الصليبية، وهو تعبئة قوى الغرب الأوروبي لمساندتها، وبالفعل في عام ١٢٣٤م/ ٦٣١هـ، أصدر البابا مرسوما بابويا الهدف منه

---

(١) لم تسجل المصادر أي رد من السلطان الكامل على رسالة البابا أو ما يفيد أنه استجاب لمطالب البابا، انظر : حسين عطية : المراسلات، ص ٢٨٠.

(٢) إبراهيم خميس: جماعة فرسان الداوية، ص ٢٦٢.

(٤) Matthew Paris, English History, vol. I, p. 212;
Eracles, L'Estoire, p.413.

(٤) كان الاتفاق يقضي بمساندة الأسبتارية لطائفة الحشيشية مقابل جزية سنوية تؤديها الطائفة للأسبتارية وعندما شعر البابا بأنه تحالف موجه ضد صليبي الشام، أرسل عددًا من الخطابات إلى رئيس أساقفة صور، وأسقفي صيدا وبيروت، يطلب منهم أن يثنوا الأسبتارية عن مساندة الحشيشية، كما بعث بخطاب مماثل إلى أرمان دي بريجور Arman de Pergord مقدم الداوية (١٢٣٢-١٢٤٤م/ ٦٢٩-٦٤٢هـ)، وذلك في ٢٠ أغسطس ١٢٣٦م، انظر :

King, op. cit., pp. 234-235.

مساعدة الإمارات الصليبية في الشام، وإعداد حملة صليبية تتجه إليها في عـــام ١٢٣٩م/ ٦٣٦هـــ، وهو تاريخ انتهاء الهدنة المعقودة بـــين فريـــدريك الثـــاني والملك الكامل[١]، وتبع ذلك بخطاب في ٢ سبتمبر ١٢٣٤م موجها الدعوة إلـــى هنري الثالث والشعب الإنجليزي إلى هدنة عامة بين الملوك والأفراد في أنحـــاء أوروبا كافة، لمدة أربع سنوات للتحضير لهذه الحملـــة، موضـــحا أن اســـتعادة الصليبيين لمدينة بيت المقدس -طبقا لاتفاقية يافا- لا فائدة منها، لأنها محاطـــة بالأعداء من كل جانب، ولأن المدينة ظلت مفتوحة للمسلمين الـــذين احتفظـــوا بالأماكن المقدسة داخلها، لذلك على الصليبيين أن يكونوا على أهبـــة الاســـتعداد للتوجه إلى بلاد الشام فور انتهاء الهدنة[٢]، كما أرسل البابا رسالة أخـــرى إلـــى لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦-١٢٧٠م/ ٦٢٣-٦٦٩هـــ)، دعا فيها لتحضير مساعدات لهذه الحملة، والتنسيق مع فريدريك الثاني في هذا الأمـــر[٣]، وعهـــد البابا إلى عدد كبير من الرهبان والوعاظ بالدعوة للحملة المنتظرة، ونجح ذلـــك نجاحا كبيرًا في فرنسا، إذ زاد عدد المتطوعين منها لدرجة دفعت جريجـــوري التاسع إلى توجيه رسالة إلى رجال الدين هناك يطالبهم بعدم السماح بتوجيه أية قوات إلى الإمارات الصليبية دون إذن من البابا شخصـــيا[٤]، وأصـــدر البابـــا

---

(١) Roger of Wendover, op. cit, vol. 2, pp 442-443.

(٢) أضاف البابا حافزًا آخر للناس على مرافقة الحملة هو أن يتمتع الذاهبون فيها جميعا بالغفران الكنسي لخطاياهم كلها ومن لا يستطيعون الذهاب عليهم التبرع بالأموال اللازمة مقابل التمتع بالامتيازات الكنسية، انظر :

Pope Gregory IX, Letter of Gregory IX to Henry III King of England, Spoléte, (2 Sept. 1234), in Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 3, pp. 280-287.

(٣) وجه البابا رسالته إلى لويس التاسع في ٦ نوفمبر ١٢٣٤م اعتمادًا على أن العلاقة بين الإمبراطور والبابوية كانت تمر بفترة صفاء آنذاك، وكان البابا حريصا على ألا يغضب الإمبراطور فريدريك الثاني، انظر :

Pope Gregory IX, Letter of Gregory IX to Louis IX, Pérouse, (6 Novembre,1234), in MatLhew Paris, Chronica Majora, vol. 3, p. 294.

(٤) دل هذا الأمر على مدى استجابة الفرنسيين السريعة للاشتراك في الحملة الصليبية المزمع قيامها، انظر :

Pope Gregory IX, Letter of Gregory IX to Archbishops in France, (28 - Sept. 1235), in M.G.H., SS. XIII, vol. 1, p. 561.

مرسوما بفرض ضرائب على الإيرشيات، بحيث تدفع كل منها ما بين خمس الربع وخمس الثلثين من عائدتها السنوية لجيش صليبي ينوي البابا إبقاءه في الأراضي المقدسة لمدة عشر سنوات[1]، ولم يقف سعي البابا لجمع المال للحملة عند ذلك، فعندما أعترف الملك الفرنسي لويس التاسع للبابا بأن الأموال التي يدفعها رعاياه من اليهود تؤرقه، لشكوكه حول مصدرها، وترجيحه أن تكون حصيلة للربا الفاحش، أفتى البابا بكل ثقة بأن يعوض الملك ذلك بالتبرع بجزء كبير من هذه الأموال للحملة الصليبية المرتقب، فيصبح ما تبقى منها حلالا لا شبهة فيه[2]، وعندما اشتكى البعض من أن دعاة البابا والمبشرين للحملة يعفون الصليبيين من نذرهم مقابل مبلغ من المال، يساوي ما كان هؤلاء يصرفونه خلال الحملة، لم يتخذ البابا أي إجراء لردعهم، طالما أن هذه الأموال تدخل في النهاية في خزينة البابوية[3].

ومع مرور وقت طويل في الإعداد للحملة الصليبية، وقبل انحراف الهدف الصليبي عن وجهته الأصلية، لم يكن بد من حدث يثير الحماسة الصليبية في الغرب، وتحقق هذا عندما نفض فرسان الداوية الهدنة الموقعة في بلاد الشام بدافع الطمع في الاستيلاء على حصن دربساك[4]، وأغاروا عليه وحاولوا اقتحامه لكن ما وصول مدد إسلامي من حلب تغير الموقف العسكري، وتمكن

---

[1] أصدر البابا جريجوري التاسع المرسوم الداعي لمساعدة الأراضي المقدسة ماديا في ٢٨ يناير ١٢٣٥م، انظر :

Grégoire IX, Encyclique Concernant La Croisade en Terra-Sainte, Pérouse, (28 Juin1235),in M.G.I-I., SS. XIII, vol. 1, pp. 535-536.

[2] Matthew of Westminster, op. cit., vol. 2, p. 218.

[3] ويبدو أن البابوية كانت بحاجة ماسة للمال في تلك الفترة، بعد أن أنفقت كثير منه في حروبها ضد فريدريك الثاني، وضد الهراطقة في جنوبي فرنسا، لذلك لجأ البابا إلى زيادة الفئات التي تستفيد من الامتيازات الصليبية -بما فيها صكوك الغفران، بحيث ضم إليها كل من ساهم ماديا في الإعداد للحملة المنتظر، وجاء ذلك في خطاب وجهه إلى رجال الدين الإنجليز في ٢ سبتمبر ١٢٣٥م، وعن ذلك انظر :

Pope Gregory IX, Letter of Gregory IX to Archbishops in England, (2 Sept. 1235), in Roger of Wendover, op. cit., vol. 2, p.447.

[4] وصف أبو شامة حصن دربساك بأنه هو وحصن بغراس كانا جناحين لأنطاكية فقد كان يقع على المنحدرات الشرقية لجبال الأمانوس بين ممرات الأمانوس والبوابات الشامية ويشرف على إقليم العمق، والطريق منه إلى مرعش، وبالإضافة لوجود العديد من الآبار

المسلمون من الانقضاض على الداوية وانتهى مصير معظم فرسان الداوية إلى القتل أو الأسر بعد هزيمة شديدة في ٢٤ يونيو ١٢٣٧م/ ذي الحجة ٦٣٤هـ تعود إلى الغطرسة الواضحة التي أبداها وليم دي مونتيفرات مقدم الداوية في أنطاكية[١]، وأمدنا المؤرخ الإنجليزي متى الباريزي كثير من المعلومات عن تلك الهزيمة للداوي، ورد فعل الغرب الأوروبي تجاهها، فيذكر أنه قتل من الصليبيين مائة فارس من الداوية، وثلاثمائة من رماة السهام، إلى جانب عدد كبير من المشاة، وكان من القتلى وليم دي مونتفرات نفسه، وحامل لواء الجماعة الفارس الإنجليزي رينالد دي أرجنتيمو[٢]، وقد لعب متى الباريزي دورًا كبيرًا في حث المسئولين في إنجلترا على إرسال المساعدات والنجدات إلى الإمارات الصليبية، وبالفعل كان للهزيمة وقع كبير في الغرب الأوروبي، فاستعد أعضاء جماعتي الداوية والإسبتارية المقيمون في إنجلترا للانتقام لإخوانهم، وبعثت الإسبتارية بمقدمها الألماني الأصل ثيودريك دي نوسا بصحبة فرقة من الداوية ومبالغ من المال إلى الشرق، وتبعه عدد كبير من فرسان الداوية من أنحاء الغرب الأوروبي كافة[٣]، ويرجح الباحث انه كان لإطلاع متى الباريزي

المائية والبساتين وكثرة العشب في المنطقة المحيطة بالحصن، فقد كان للحصن أهمية أخرى تتمثل في منافسته لحصن بغراس، خاصة وأن المسافة بينهما لا تتعدى عشرة أميال، انظر: أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص ١٣٢.

راجع أيضا:

Boas, T.S.R., Gazetteer, in the Ciclian Kingdom of Armenia, (London, 1978), p. 162

(١) وعن معركة دربساك، انظر:

ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٣٠-٢٣٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ١٣١-١٣٣، وانظر أيضا:

Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 3, p. 405-406

(١) Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 3, p. 405; Ann. T.S., p. 439.Albéric des Trois Fontaines, Chronicon, in M.G.H.SS., vol. 23, p.942.

وعن تأثير معركة دربساك على الصليبيين في شمالي بلاد الشام، انظر: حسين عطية، إمارة أنطاكية، ص ٣٥٦.

(٣) Matthew Paris, Chmnica Majora, vol. 3, p. 406; CF. also: Addison, The Knights Templars, p. 166; King, The Knights Hospitallers, p. 220; RiIey—Smith, The Knights ofSt. John, p. 173.

المستمر على التقارير التي ترد إلى بلاده عن أحوال الإمارات الصليبية في الشام، أثره الكبير في أن يورد لنا هذا النص المهم عن حجم الهزيمة التي حلت بالداوية في دربساك، خاصة إذا ما وضعنا في الحسبان أن الموارد البشرية - لاسيما من الفرسان كانت محور اهتمام صليبي الشام آنذاك، وعلى الرغم من ذلك بلغ متى الباريزي في عدد قتلى الفرنج من أجل إثارة حماسة جماعتي الداوية والإسبتارية بإنجلترا، ليسارع أعضاء الجماعتين بتقديم العون لإخوانهم في بلاد الشام، أما عن رد الفعل البابوي، فقد تمثل في رسائل عدة أرسلها البابا جريجوري التاسع في ٢٣ ديسمبر ١٢٣٧م/ ٣ جمادى الأولى ٦٣٥هـ، إلى هنري الأول ملك قبرص، وبوهيمند الخامس أمير أنطاكية، وجيرولد بطريرك بيت المقدس، وألبرت بطريرك أنطاكية، يطلب منهم السعي لإطلاق سراح أسرى الداوية ومبادلتهم بأسرى من المسلمين، على أن يدفع هو فدية بعضهم، ثم وجه رسالة لأسرى الداوية قال فيها: "إنكم سقطوا أسرى في مواجهة أعداء القانون السماوي، فتحملوا آلام الأسر، وتذكروا المجد الذي ينتظركم، وإذا لزم الأمر سوف نحرركم بالقوة"[1]، وما أن توفى الملك الكامل في يوم الأربعاء ١٠ مارس ١٢٣٨م/ ٢٢ رجب ٦٣٥هـ، حتى انفجر النزاع والخلاف بين أفراد البيت الأيوبي، وهدد بتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها[2]، فأدرك الداوية أن الفرصة سانحة للانتقام لما حل بهم في دربساك، فأرسلوا خطابا إلى البابا

---

(١) Gregory IX, Pope, Regesta; vol. 2, nos. 3991, 3992, 3996, 4000, p. 833; Albcric des Trois Fontaines, Chrcmicon, in M.G.H.S., vol. XXIII, p. 942; Philip Mousket, Historia rcrum Francorurn, in R.H.G.F., vol. XXII, p. 62; Annalcs Culonienscs Maximi, in M.G.H.S., vol. XVII, p. 846.

راجع أيضا: حسين عطية : إمارة أنطاكية، ص ٣٥٧.

(٢) بعد وفاة الكامل تولى الحكم في مصر ابنه الأصغر العادل الثاني، بينما تحالف ابنه الصالح نجم الدين مع الناصر داود صاحب الأردن والكرك، وأخذ مصر من أخيه العادل في ١٩ يونية ١٢٣٩م /٢٤ ذي القعدة ٦٣٧هـ، واحتدم الصراع بين الصالح أيوب في مصر، وعمه الصالح إسماعيل في دمشق، ولمزيد من التفاصيل عن هذا النزاع بين أبناء بني أيوب، انظر:

سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٧٢٨-٧٢٩؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٠٣-٢١٥؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤٧.

جريجوري التاسع يعلمونه بذلك، يطالبونه بسرعة استغلال هذا الموقف، والتعجيل بإرسال الحملة الصليبية إلى الشرق[١]، وعندئذ بادر البابا بإرسال مندوبيه إلى ملكي إنجلترا وفرنسا لدعوتهما إلى التعجيل بالحملة التي تم الإعداد لها، وبالفعل بادر عدد كبير من النبلاء الفرنسيين بالموافقة[٢].

وفي أثناء ذلك أوفد صليبيي المشرق نداء مهما إلى النبلاء الفرنسيين الذين وافقوا على قيادة حملة تتجه للشرق، وهم ثيوبولد الرابع أمير شامبني وملك نوفار وقائد الحملة المنتظرة، وهيو الرابع أمير برجنديا، وغيرهم من أمراء فرنسا، وقد تضمن هذا التقرير التوقيت الأفضل للقيام بالحملة، وخط سيرها، وتضمن أيضا ضرورة الإسراع بالحملة دون الانتظار حتى تنتهي مدة الهدنة، كما دعوهم للإبحار من مينائي جنوة ومرسيليا الذين يقعان خارج سيطرة الإمبراطور فريدريك الثاني، على أن تكون قبرص محطتهم الأولى للتزود بالمؤن، وتقرير وجهة الحملة النهائية إلى الساحل الشامي أم إلى السواحل المصري، وقد صاغ هذا التقرير كبار نبلاء ورجال الدين في الإمارات الصليبية، وصدر من عكا في ٦ أكتوبر ١٢٣٨م/ ١٣ ربيع الأول ٦٣٦هـ[٣].

ويلاحظ الباحث من ثنايا هذا التقرير أن من أصدره حزب النبلاء المعارض للوجود الإمبراطوري في الإمارات الصليبية، وهو أحد طرفي الصراع في الحرب الأهلية، التي انتهت بشكل مؤقت ومن هنا نلاحظ عدم اهتمام النبلاء باحترام الهدنة التي وقعها الإمبراطور مع المسلمين، والتي كانت لا تزال سارية حتى وقت كتابة التقرير، ولعل طلب بارونات الشرق من الغرب الأوروبي الإسراع بالمجئ في حملة صليبية جديدة كان لدعم موقفهم أمام أتباع الإمبراطور، الذين كانوا لا يزالون يسيطرون على مدينة صور، كذلك من

---

(١) Matthew Paris; English History, vol. 1, p. 216.

(٢) Matthew Paris, English History, vol. 1, p. 499.

(٣) الملاحظ أن تقرير الصليبيين تضمن تحديد مينائي مرسيليا وجنوة ليكونا مركزي خروج الحملة وأرسل هذا التقرير كل من يوحنا سيد قيسارية، وأودو أو مونت بيليارد، وباليان سيد صيدا، وأسقف الناصرة، انظر :

Letter from the East to Thibaut dc Champagne, Roi de Nova:-rs, Robert dc Courtenay, Acre, (6 October. 1238), In Rohricht, Regesfla, no. 1083, pp. 282- 283.

الملاحظ في التقرير أن تحديد موانئ خروج الحملة، -وخاصة مرسيليا وجنــوة الواقعين خارج دائرة سيطرة الإمبراطور- هدفه تجنب أية معارضة أو عرقلــة من جانبه، فقد لا يسمح بخروج أية حملة من مناطق نفوذه قبــل انتهــاء مــدة الهدنة، وهو ما سنراه فيما يلي من أحداث، ثم أن اختيــارهم لقبــرص مركــزًا لاستراحة القوات، هو اختيار صائب، لسيطرة هؤلاء النبلاء على الوقــع فــي قبرص بعد سيطرة آل إيبلين -أشهر زعماء المعارضة للوجود الإمبراطوري- على الوضع فيها عقب موقعة أجريدي.

وحدث ما توقعه نبلاء الشرق، فقد أرسل الإمبراطــور فــي ٧ نــوفمبر ١٢٣٨م/ ١١ بيع الآخر ٦٣٦هـ رسالة إلى قادة الحملة يبلغهم فيها بضــرورة تأجيل انطلاقهم حتى ينتهي أجل الهدنة المعقودة بينه وبين المسلمين، ومما جــاء فيه: "ولا يمكننا إلا أن نذكر بــأن الأراضــي المقدســة وواجــب تخليصــها، والمحافظة عليها تقع مسئوليته علينا أكثر مــن أي حــاكم آخــر فــي العــالم المسيحي"[1]، لذلك طلب من قادة الحملة -بعد استشارة البابا- الانتظــار حتــى العام التالي[2]، وكانت أخر التقارير المرسلة من الشرق إلى الغرب الأوروبــي تلك التي أرسلها مقدم الداوية أرمان دي بريجور إلى أحد نبلاء كونتية شامباني التابعة لقائد الحملة المنتظر-، في بداية عام ١٢٣٩م/ ٦٣٦هـ، يصــف فيهــا أحوال الأيوبيين السيئة عقب وفاة الملك الكامــل، وكيــف أن بعــض الحكــام الأيوبيين على استعداد للتعاون مع الصليبيين ضد إخوانهم من بنــي أيــوب[3]، وأخيرًا في أول سبتمبر ١٢٣٩م/ آخر المحرم ٦٣٦هـ، وصلت الحملــة إلــى

---

(١) Letter of Frederick II to Crusaders in Francs, Vercelli, (7 Nova. , pp. 140-142.٥1238), in Huillard-Bréholls, op. cit., vol.

(٢) أشار متى الباريزي إلى أن البابا جريجوري التاسع أيد طلب الإمبراطور بالتأجيل، على الرغم من تصاعد الخلافات بينهما آنذاك، انظر :
Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 3, p. 518.

(٣) Letter of Armand dc Périgorcl to Gualterode Avesnis, Acrc, (Mar. 1239), in Chronicon Albéric dc Trois Fontaincs, p. 945; Rohricht, Regesta, no. 1083, p. 284.

ميناء عكا، يقودها ثيوبولد الرابع وبطرس موكلرك أمير برتياني، وغيرهما من النبلاء الفرنسيين، لذا أطلق علِيها الحملة الفرنسية[١].

ودون الخوض في تفاصيل الحملة الفرنسية على بلاد الشام من أجل مساندة الإمارات الصليبية، يجب أن ندرك أنها حققت بعض المكاسب مثل استرداد بيت المقدس -بعد استيلاء الناصر داود على المدينة عقب علمه بوصول الحملة- كذلك استرداد صليبيو الشام حصون هونيين وصفد وعسقلان[٢]، إلا أن تلك المكاسب كانت قليلة بالقياس إلى طول فترة الإعداد للحملة في الغرب، علاوة على أنها لم تحقق الأمان لصليبيي الشام، بل على العكس، فإن منح قادة الحملة عددًا من الحصون للداوية أثار حسد الإسبتارية، وبالتالي أدت الحملة إلى زيادة الفرقة داخل المعسكر الصليبي في الشام[٣]، وظهر التخبط في اتخاذ القرارات منذ البداية، وعدم التزام قادتها بالأوامر، وانتهت بعقد صلح مع كل من أعدائها، وكانت الجماعات الرهبانية العسكرية مبعث هذا التخبط الذي كان دافعا لتوجيه النقد إليها الذي أخذ يزداد يومًا بعد يوم[٤]، وأظهرت الحملة كيف تخلى الإمبراطور فريدريك الثاني كلية عن مساعدة الإمارات الصليبية في الفترة التالية، وحين استغاث به صليبيو الحملة في أثناء وجودهم في الشرق اعتذر بعدم استطاعته ذلك في الوقت الحالي[٥].

وما أن غادرت الحملة الفرنسية الأراضي المقدسة، حتى جاءت الحملة الإنجليزية تحت قيادة ريتشارد أوف كورنوول، وذلك في ١١ أكتوبر ١٢٤٠م/

---

(١) روتلان: المصدر السابق، ص ٦٨.

(٢) حدث ذلك عقب تحالف صليبيو الحملة مع الصالح إسماعيل، الذي عرض عليهم أن يسلم لهم بيت المقدس، وكل ما قدمه الكامل إلى فريدريك من قبل، بل وأشرف بنفسه على تسليم بعض الأماكن لهم، بالرغم من ثورة الرأي العام الإسلامي في بلاد الشام ضده، لمناصرة الصليبيون ضد الصالح أيوب، ولمزيد من التفاصيل، انظر : روتلان: المصدر السابق، ص١٠٣-١٠٧، كذلك أيضا: المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٣٠٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٣.

(٣) Eraclcs, L'Estoirc, p. 415.

(٤) حسن عبد الوهاب : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ٢٣٦.

(٥) Huillard-Bréholles, op. cit, vol. 5, pp. 646-647; Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, p. 65; Eracles, L'Estoire, p. 415.

٢٢ ربيع الأول ٦٣٨هـ[١]، وكان قد أحيط علما بما بين الجماعات الرهبانية العسكرية من نزاعات، وكان أمر من أن يميل إلى جانب دون أخر، واستطاع بحسن سياسته أن يستفيد من الظروف المحيطة، فلم يأخذ بآراء الصليبيين المحليين، واتجه نحو عسقلان لتحصينها أولاً، ثم التفكير في الوجهة المناسبة لحملته[٢]، وارتاع ريتشارد لما شاهده من فوضى تجتاح الإمارات الصليبية في الشام، فشرع على الفور في العمل على التقريب بين بارونات الشرق وأنصار الإمبراطور، وذلك بأن اقترح تعيين سيمون دي منتفورت حاكما عاما ومندوبا عن كونراد ابن فريدريك –الملك الشرعي للملكة– ولأن سيمون كان على صلة قرابة بالإمبراطور وفي الوقت نفسه كان يميل لبارونات الشرق، اقتنع ريتشارد بأن اختياره سيلقي القبول المناسب[٣]، وعندها أرسل نبلاء الشرق رسالة إلى الإمبراطور فريدريك، أعلنوا فيها موافقتهم على سيمون، وحل الخلافات بين الطرفين، لكن فريدريك لم يبد أي اهتمام بالرسالة، إذ كان مشغولاً وقتئذ بمشكلاته التي تجددت مع البابوية[٤]، وهكذا لم يسع الإمبراطور إلى حل المشكلات، التي تسبب في احتدامها بتصرفاته في أثناء الحملة السادسة وبعدها، وحلها قائد الحملة الإنجليزية بشكل مؤقت.

على أن أبرز ما جنته الإمارات الصليبية من الحملة الإنجليزية، نجاح قائدها ريتشارد أوف كورنوول في عقد صلح مع الحكام الأيوبيين وعلى الأخص الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر[٥]، وعلى الرغم من عدم حصولنا على

---

(١) ريتشارد أوف كورنوول: هو شقيق الملك الإنجليزي هنري الثالث، ولمزيد من التفاصيل عن حملته الصليبية على الشرق، انظر: زينب عبد المجيد: الإنجليز والحروب الصليبية، ص١٥٥-١٦٣.

(٢) Eracles, L'Estoire, p. 421.

(٣) سيمون دي مونتفورت: ابن عم فيليب دي مونتفورت سيد تورون، وكان في الوقت نفسه زوجا للإمبراطورة إيزابيلا شقيقة فريدريك، وبالتالي كان تعيينه موفقا في تلك الفترة، انظر:

Ann, T.S., p. 441.

(٤) Letter from the East to Frederick II, Acre, (7 May. 1241),in A.O.L., vol. 1, pp. 0) 402-403.

(٥) Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 139-145; Eracles, p.421.

النص الأصلي لتلك المعاهدة إلا أن معظم بنودها وردت في الخطاب الذي أرسله ريتشارد إلى الإمبراطور فريدريك عقب نجاحه في مهمته بالشرق[1]، وقد تعلم ريتشارد الدرس من المعاهدة السابقة التي عقدها فريدريك مع الكامل، فإضافة على حصوله على بيت المقدس وبيت لحم ومجدل يابا وعسقلان للفرنج، نجح في الحصول على عدد من الحصون والقلاع في إقليم الجليل مثل صفد والصور وتبنيين وهونيين وطبرية،كذلك نجح في استعادة ظهير بيروت –أو ما يعرف بالأراضي الجبلية[2]– وهكذا حقق الغرب الأوروبي بعض الاستقرار لصليبيي الشام، سمح لهم بالمضي في خلافاتهم الداخلية، وهو ما حدث بالفعل عقب رحيل الحملة الإنجليزية.

وعند تقييم للدعم الأوروبي لصليبيي الشام في هذه الفترة التي سبق سرد أحداثها منذ نهاية الحملة الصليبية الخامسة حتى نهاية الحملة الإنجليزية نجد أن أهم ما يلفت النظر فيها أن الصليبيين بالشام تأثروا إلى حد كبير بالأحوال السياسية التي سادت الغرب الأوروبي آنذاك، خاصة ما عرف بالصراع البابوي الإمبراطوري، ومحاولة كل طرف منهما استخدام الإمارات الصليبية كورقة سياسية في هذا الصراع المرير، وهو ما فعله البابا جريجوري التاسع بمهارة بالغة، كذلك نلحظ أنه بالرغم من النجاح الذي أبداه الإمبراطور فريدريك الثاني في حملته، ونجاحه في استعادة بيت المقدس بالطرق الدبلوماسية، فإن صليبيي الشام عدوا ذلك نجاحا ظاهريا لم يشعروا بفائدته سياسية وعسكرية أو اقتصادية منه، علاوة على أن الحملة تركت بذور حرب أهلية داخلية استمرت فترة

وكذلك روتلان: المصدر السابق، ص ١١٠-١١١.

(٣) Letter of Richard of Comnouailles to Frederick II, in Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 138-141.

(٤) Letter of Richard of Cornnouailles, p. 141; CF. also: Riely-Smith, The Knights of St. John, p. 178.

ومن المعروف أن عز الدين أسامة ظل يحكم المناطق الداخلية في بيروت بعدما تمكن الصليبيون من انتزاع بيروت منه في عام ١١٩٧م/ ٥٩٣هـ، ثم أعطى تلك المناطق إلى بعض أتباعه، انظر:

ابن النظيف الحموي: تلخيص الكشف والبيان، ص ١٣٠-١٣١، أبو شامة : الروضتين، ج٢، ص٢٣٦، ابن واصل : مفرج الكروب، ج٣، ص٢٠٩.

طويلة، لولا انشغال بني أيوب بخلافاتهم الداخلية، واحترامهم الهدنة الموقعة مع الإمبراطور لانهار الكيان الصليبي كله في تلك الفترة.

الفصل الرابع

وضعية الإمارات الصليبية
في السياسة الأوروبية
(١٢٤١-١٢٥٤م/ ٦٣٨-٦٥٢هـ)

رأينا في الفصل السابق كيف نجح الغرب الأوروبي عن طريق ثلاثة من قادته الكبار، هم الإمبراطور فريدريك الثاني، والأمير ثيبالد أمير شامباني والأمير ريتشارد أوف كورنوول -شقيق ملك إنجلترا- في أن يحقق مكاسب عدة وإنجازات للإمارات الصليبية في الشام، في فترة لم تتجاوز اثنتي عشرة سنة، عن طريق الدبلوماسية الناجحة مع بني أيوب وحكامهم، ولم لا وقد أعادوا إليهم مدينة بيت المقدس -الهدف الأساسي- والرئيسي للحملات الصليبية على الشرق كافة بداية من الحملة الصليبية الثالثة.

لكن سؤالاً يطرح نفسه عن الفترة التي أعقبت رحيل الحملة الإنجليزية عام ١٢٤١م/ ٦٣٨هـ، وهو: أسيحافظ صليبيو الشام على المكاسب التي تحققت لهم بمساعدة الغرب الأوروبي وقادته أم كعادتهم دائمًا سيفرطون فيما تحقق لهم من فوائد وإنجازات؟ هذا ما سنتبينه في الصفحات التالية.

"لقد بذلت لإخواننا في الأراضي المقدسة كل ما في وسعي، وحققت لهم إنجازات ما كانوا يستطيعون تحقيقها بدوني، والآن يخيم على الموقف عدم الوفاق بدلاً من السلام، والفرقة لا الاتحاد، والكراهية لا الحب، وغابت العدالة وكل من بذروا هذه البذور يجنون ثمارها الآن، فهل يستطيعون اقتلاعها من جذورها؟"، هكذا قال ريتشارد أوف كورنوول وهو يصف أحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وما حققته حملته الإنجليزية من فوائد، في خطابه الذي وجهه لأح أصدقائه في إنجلترا فور انتهاء حملته في الشرق(1)، ولم لا؟ وقد نجح ريتشارد في إطلاق سراح عدد كبير من الأسرى الصليبيين لدى المسلمين، واستعادت مملكة بيت المقدس كل ما لها من أراضي غرب نهر الأردن، وامتدت جنوبًا حتى حدود غزة، وإن ظلت مدينة بيت المقدس مجرد من الاستحكامات كما استحوذ الصليبيون على حصون إقليم الجليل وقلاعه كلها والمناطق الداخلية المتاخمة لبيروت، والتي لم يستطيع الصليبيون إخضاعها من

---

(1) أرسل ريتشارد أوف كورنوول هذا الخطاب في ٢٣ أبريل ١٢٤٢م/ ١٩ رمضان ٦٣٩هـ إلى بلدوين دي ريفيرز Baudouin de Riviers كونت ديفون Devon أحد أهم أصدقائه في إنجلترا، انظر:

Letter of Richard of Comnouailles to Baudouin de Riciers Count Devon (23 April 1242), in Matthew Paris. Chronica Majora, col. 4 pp. 141-142.

قبل بالرغم من استيلائهم على المدينة منذ عام ١١٩٧م/ ٥٣٩هـ[١]، والحقيقة أن الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر تنازل للصليبيين في معاهدته مع قائد الحملة الإنجليزية عما يفوق ما أثار الرأي العام الإسلامي من تنازلات، قدمها من قبل الملك الكامل للإمبراطور فريدريك الثاني[٢]، ويرى الباحث أنه بالرغم من أهمية رسائل ريتشارد تلك، لكونها صادرة عن قائد الحملة الإنجليزية الذي يروي ما واجهه ي الأراضي المقدسة ويحدد النتائج التي وصل إليها، فإنه كان يروي تجربته بنفسه، بغرض تقديم إنجازاته لشعبه وهذا يجعلنا نفترض أن بها بعض المبالغة في تصوير المكاسب، فقلما تعترف الشخصيات العامة بأخطائها، وكم ضخم انتصاراتها، بل أن ريتشارد أشار في حديثه السابق إلى ما آل إليه حال الصليبيون بعد رحيله فمن الواضح أن الصالح أيوب أراد من الاتفاق شيئا مهما هو توجيه ضربة موجهة للتحالف القائم بين الداوية وعدوه اللدود الصالح إسماعيل ملك دمشق، ومن جهة أخرى إشعال الخلاف بين الداوية والإسبتارية، وبالتالي إضعاف الإمارات الصليبية في الشام، وهو ما أكدته الأحداث فيما بعد.

فلم يكد ريتشارد أوف كورنوول يغادر عكا في مايو ١٢٤١م/ ذي القعدة ٦٣٨هـ حتى تفجرت الخلافات مرة أخرى بين الصليبيين، وكان مبعثها تضارب مصالح جماعتي الداوية والإسبتارية بعد أن أدرك الداوية أن الإسبتارية هم الأكثر استفادة من الاتفاقية، بعد سيطرتهم على معظم القلاع والحصون التي وردت في بنودها ، وتفجرت الاشتباكات بين الجانبين في شوارع عكا، وبدأ

---

(١) Eracles, L'Estoire, pp. 421-422.

وأظهر خطاب أرسله ريتشارد أوف كورنوول إلى صديقه كونت بواتو Poietou في مايو ١٢٤٢م/ شوال ٦٣٩هـ، بعض تفاصيل حملته ونتائجها على الإمارات الصليبية، أنظر :

Letter of Richard of Comnouailles to Count Poietou, (May. 1242). in Matthew Paris. Chronica Majora, col. 4 pp. 144-146

(٢) حسين عطية إمارة أنطاكية، ص ٣٦١.

وعن معاهدة يافا بين الكامل وفريدريك الثاني، والمعاهدة التي تمت بين الصالح وريتشارد كورنوول، أنظر ما سبق.

لريتشارد فيلانجيري –الموجود في صور– أن يستفيد من ذلك الخلاف، ليقوى السلطة الإمبراطورية في الإماراتَ الصليبية، فساند الإسبتارية الذين كانوا على اتصال وثيق بهم في عكا، وسعى إلى إحداث ما يشبه الانقلاب العسكري في المدينة[1]، عن طريق استمالة الإسبتارية وبعض الأهالي لتأييد السلطة الإمبراطورية، بل وصل الأمر إلى أن تسلل ريتشارد سرًا إلى مركز الإسبتارية في عكا، وعقد اجتماعًا سريًا معهم هناك وبعض النبلاء الموالين له[2]، وزاد الأمر اشتعالاً أن قام النبلاء الصليبيون –يساندهم فرسان الداوية– بتشديد الحصار على مركز الإسبتارية لما يقرب من ستة أشهر، ولم يتم رفع الحصار إلا ي أوائل عام ١٢٤٣م/ ٦٤٠ هـ، بعد اعتذار رسمي من بطرس دي يلي برايد Oeter e Ville Bride مقدم الإسبتارية (١٢٣٩-١٢٤٣م/ ٦٣٧-٦٤٠هـ)[3] ، وأشار المؤرخ متى الباريزي إلى أن كثيرًا من قادة الغرب الأوروبي وحكامه استاءوا جدًا عند سماعهم أنباء التطاحن بين الجماعتين، وتناقل الناس في أوروبا كيف أن الجماعتين تستخدما الدهاء والخداع للحصول

---

(١) حرص الداوية –الذين كانوا يعارضون الاتفاق المبرم مع الصالح أيوب سلطان مصر– على نقض الصلح، وأغاروا على حبرون ثم نابلس، وقاموا بعدد من أعمال السلب والنهب، أنظر:
المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ٣١١، راجع أيضا:
Ann. T. S., p. 440; Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, p. 197.
راجع أيضا: إبراهيم خميس: جماعة الفرسان الداوية، ص٢٨٤.

(٢) من هؤلاء النبلاء: يوحنا دي فالين John de Vallin ووليم دي كونش William de Conches أنظر:
Eracles, L'Estoire, p. 422; Philip of Novara, op. cit., p. 171; CF: also : King, op. cit., p. 225.

(٣) في الوقت نفسه ألقى فيليب دي مونتفورت Philip de Montefort –أحد النبلاء الصليبيين المعارضين للسيطرة الإمبراطورية على الكيان الصليبي– ألقى القبض على المتآمرين الذين اجتمعوا مع ريتشارد فيلانجيري في عكا، وزج بهم في السجن، بينما فر ريتشارد عائدًا إلى صور، أنظر:
Philip of Novara, op. cit., pp. 172-173; Amadi, op. cit., vol. 1, pp. 188-189; Ann. T.S., p441; CF: also: Grousset,R., op. cit., vol. 1, p. 400.

على الأموال والممتلكات من الغرب الأوروبي، ثم لا تستفيد من ذلك الإمـــارات الصليبية في بلاد الشام[1].

وعندما واتت الفرصة الغرب الأوروبي لتهدئة الأمـــور داخـــل الكيـــان الصليبي، وذلك عندما بلغ كونراد بين فريـــديريك الثـــاني -وصـــاحب الحـــق الشرعي في حكم مملكة بيت المقدس- الخامسة عشر وهي السن التـــي تؤهلـــه لاعتلاء عرش المملكة في أبريل ١٢٤٣م/ ذي القعدة ٦٤٠هـــ، وحسب قـــوانين المملكة كان عليه الحضور إلى الشرق كي يتولى الحكم، لكن لم يبد منه ما يدل على قدومه، ومن ثم كان البارونات الصليبيين الاجتماع في عكا، وترشيح آخر يتولى أمر المملكة، ووقع الاختيار على أليس Alice ملكة قبرص حتـــى يـــأتي كونراد بشخصه إلى الشرق[2]، واستكمالاً لحالة الفوضى التي كانت تعم الكيـــان الصليبي؛ تجدد الحرب الأهلية التي ساهمت -إلى حد كبير- في إضعاف وحدة الصف الصليبي، وقرر النبلاء الصليبيون إنهاء الوجـــود الإمبراطـــوري فـــي الإمارات الصليبية، وقد نجحوا في ذلك بالفعل، بعدما انـــدلعت الحـــرب بـــين ريتشارد فيلانجيري -نائب الإمبراطور في الشرق- واستمرت لمـــدة شـــهرين، حتى نجحوا في طرد ريتشارد فيلانجيري من صور، وتدمير القـــوات التابعـــة للإمبراطور في العاشر من يوليو ١٢٤٣م/ التاسع عشر من المحرم ٦٤١هـــ[3]،

---

(١) أضاف متى الباريزي أن الشك بدأ يتسلل إلى قلوب الأوروبيين وعقولهم حول طبيعة المساعدات التي يرسلونها إلى إخوانهم في الشام، ومدى جدوى ذلك بالنسبة لهم، انظر:
Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 279-281

(٢) وبالإضافة إلى وجود ممثلي الجماعات الرهبانية العسكرية، وأساقفة المملكة الصليبية ونبلائها في هذا الاجتماع، ذكر فيليب نوفار أنه ضم أيضا البنادقة والجنوية والبازنة، بينما نفى أمادي وجود البيازنة، وهو الرأي الأقرب إلى الصواب، لأن البيازنة كانوا من أشد أنصار الإمبراطور فريدريك الثاني، لذا من المنطقي ألا يحضروا بينما أخطأت حولية الأراضي المقدسة في تحديد تاريخ الاجتماع وذكرته ضمن أحداث عام ١٢٤٤مـــ أنظر:
Philip of Novara, op. cit., p. 177; Amadi, op. cit., vol. 1, p. 190; Ann. T.S., p441.

(٣) توجه ريتشارد فيلانجيري إلى صقلية، حيث قبض عليه الإمبراطور فريدريك الثاني، لتسببه في ضياع صور والنفوذ الإمبراطوري في الشرق، أنظر :
Jackson, P., The End of Hohenstaufen Rule in Syria, B.I.H.R, vol. LIX, 1980, pp. 20-36.

وهكذا زال أخر ظل للنفوذ الإمبراطوري في بلاد الشام، ليصبح الصليبيون دون قيادة تجمع كلمتهم، وإذا كان التخلص من سلطة الإمبراطور قد تتوافق مع مصلحة البارونات الصليبيين وجماعتي الداوية والإسبتارية، فإن الأحداث أثبتت أن ذلك كان كارثة على الصليبيين جميعًا في بلاد الشام[1].

ولم يلبث أن نشب الخلاف مرة أخرى بين الصالح أيوب سلطان مصر وعمه الصالح إسماعيل ملك دمشق، وتحالف الأخير مع الناصر داود صاحب الكرك والحلبيين والمنصور إبراهيم صاحب حمص، كما فاوض هؤلاء الحلفاء صليبيي الشام بشأن تحالفهم جميعًا ضد الصالح أيوب[2]، وبفضل مهارة أرمان دي بريجور مقدم الداوية تم الاتفاق في أواسط عام ١٢٤٣م/ أوائل ٦٤١هـ، حيث نص الاتفاق على أن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة مطلقة، بمعنى أن يستولى الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه من المسجد الأقصى وقبة الصخرة[3]، وعن ذلك الاتفاق كتب أرمان دي بريجور رسالة مثيرة إلى الراهب الإنجليزي روبرت أوف ساندوفورد في نهاية عام ١٢٤٣م/ منتصف ٦٤٢هـ، يقص ما جرى التواصل إليه من نتيجة سعيدة، وكيف أن جماعة الإسبتارية بدأت في تحصين المدينة المقدسة، ويعلن بفخر : "أننا سوف نكون من الآن في أمان وسعادة ورخاء لفترة طويلة"[4]، وهكذا لاح لصليبي

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٨٢٣.

(2) أبو الفدا: المختصر، ج٣، ص ١٧٢؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٤١.

(3) الجدير بالذكر أن الصالح إسماعيل وحلفاؤه قد وعدا الصليبيين بمنحهم جزءًا من أرض مصر بعد الانتصار على الصالح أيوب، أنظر :

ابن واصل : مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٢؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ٣١٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٢، راجع أيضا:

Amadi, op, cit., vol. 1, p. 185; CF. also: Humphry, R.S., From Saladin to The Mongols, (London, 1980), p. 274; Runcima.n, S., The Crusades States, (1243- 1291); in Setton, vol. 2, p. 561.

(4) أضاف أرمان في خطابه على أن الملك الصالح أيوب: "كان قد طلب التحالف أيضا مع صليبي الشام في نفس الوقت، إلا أن الصليبيين رفضوا ذلك، وفضلوا عليه الصالح إسماعيل ملك دمشق لن التحالف معه يعني التحالف أيضا مع الناصر داود صاحب

الشام أن التحالف مع الصالح إسماعيل والموالين له تحالف مثمر، إذ يعد -من وجهة نظرهم- في مصلحة ما تبقى من الإمارات الصليبية في بلاد الشام(١).

وأمام هذا التحالف المشترك لم يكن بوسع الصالح أيوب سوى البحث عن حليف، ووجد ضالته في الخوارزمية، الذين سرعان ما استجابوا لدعوته بالقدوم لمساعدته، وسارعت جموع الخوارزمية بالاندفاع إلى بلاد الشام مدمرة كل ما صادفها(٢)، وعندما وصلت إلى مدينة بيت المقدس فكانت أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين، فانتزعوها من الصليبيين عنوة وذلك في ٢٣ أغسطس ١٢٤٤م/ ١٥ ربيع الأول ٦٤٢هـ(٣)، وعندئذ تجمعت قوات التحالف الأيوبي الصليبي في مواجهة قوات الصالح أيوب والخوارزمية وقد التقى الجيشان المتحاربان عن المنطقة الرملية الفاصلة بين غزة وعسقلان، بالقرب من قرية الحربية -التي عرفت في المصادر الصليبية باسم La Forbi الواقعة على بعد أميال قليلة شمال شرق غزة، وانتهت بانتصار قوات الصالح أيوب والخوارزمية وفرار قوات المسلمين الشامية، وتدمير الجيش الصليبي، وذلك في صباح يوم

الكرك، والمنصور إبراهيم صاحب حمص، وبالتالي ولاء أمراء الشام كلهم في حلب ودمشق والأردن، انظر :

Letter of Armand de Périgord to Robert of Sand Ford. In For, (Nove. 1243), in Matthew Paris, English History, vol. I. P. 483.

(١) أشار المؤرخ ريلي سميث إلى أنه كان أخر انتصار دبلوماسي لصليبي الشام، وأخر الاتفاقيات التي عومل فيها الصليبيون كند، وبلغت المملكة الصليبية به أقصى اتساع لها في بلاد الشام منذ انهيارها بعد موقعة حطين، انظر :

U. & M. Lyons and Riley- Smith, Ayubids, Momlukes and Crusaders, Selections, from Tarikh AL- Duwal Waal Muluk of Ibn AL- Furat, vols,2(Combzidge, 1971), vol. 2, Introduction, p. VII.

(٢) لم تكد دعوة الصالح أيوب تصل إلى الخوارزمية في يونيو ١٢٤٤م/ محرم ٦٤٢هـ، حتى أندفع عشرة آلاف منهم بقيادة الأمير حسام الدين بركة خان نحو بلاد الشام يخربون البلاد ويشعلون الحرائق في القرى، ثم استولوا على طبرية، ثم على بانياس، ومنها قصدا بيت المقدس. انظر:

سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٨٢٥.

(٣)المزيد من التفاصيل عن حصار الخوارزمية لمدينة بيت المقدس، وكيفية اقتحامها، انظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٧، المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٣١٧.

الاثنين ١٧ أكتوبر ١٢٤٤م/ ١٤ جمادى الأول ٦٤٢ هـ[١]، وكانت هذه الهزيمة أسوأ كارثة حلت بالصليبيين منذ هزيمتهم في حطين، لكثرة ما تكبدوه فيها من خسائر في الأرواح والعتاد، لذا كانت جديرة باسم حطين الثانية[٢]، وتأثرت بها الإمارات الصليبية قاطبة، حتى تلك الموجودة في شمال الشام، بالرغم من المحاولات المستمرة لبوهيمند الخامس أمير أنطاكية وطرابلس (١٢٣٣-١٢٥١م/ ٦٣٠-٦٤٩هـ)، من أجل تجنيب تلك المناطق أية صدامات مباشرة مع من حولها[٣]، ويرى الباحث أن معركة غزة كانت نقطة تحول في تاريخ الإمارات الصليبية في بلاد الشام بعد خسائرهم الفادحة في الأرواح التي

---

[١] قتل في معركة غزة من الصليبيين ستة عشر ألفا حسب مصادرهم، بينما ذكرت المصادر العربية أن عدد القتلى جاوز الثلاثين ألفا، ولم يكن عدد القتلى الإجمالي هو العامل الوحيد المؤثر في وقع هذه الهزيمة على الوجود الصليبي في الشام، بل لعبت نوعية القتلى والأسرى الدور الأول في هذا المجال، فمن ضمن القتلى نجد عددًا هائلا من أعيان الصليبيين، مثل: بطرس دي ساريني رئيس أساقفة صور وراؤول أسقف اللد، وحنا ووليم سادة البترون، بالإضافة إلى مقدم الداوية وكذلك قائدها العسكري، بينما وقع في الأسر كل من وليم دي شاتينوف مقدم الإسبتارية، وجوتية دي بريين سيد يافا، وتوماس دي هام كندسطبل طرابلس، فضلا عن ثمانمائة آخرين نقلوا إلى مصر ولاذ بالفرار إلى عسقلان كل من روبرت بطريرك بيت المقدس، وفيليب دي مونتفورت سيد صور مع ثلاثة من فرسان التيوتون وستة وثلاثون من فرسان الداوية، وستة وعشرون من فرسان الإسبتارية، فكانت تلك المعركة بمثابة كارثة حلت على الكيان الصليبي ببلاد الشام، انظر :

Eracles, L'Estoire, pp.429-431; Matthew Paris, Chronica Majora, vol.4, pp.307-311; Chronica Salmbene, p.177; Les Gestes des Chiprois, p. 741.

وكذلك: روتلان: المصدر السابق، ص ١٣٣، راجع أيضا: سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٧٤٤-٧٤٦، المقريزي: السلوك، ج١، ق٣١٧، أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٧٤، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٣.

[٢] Grousset,R., op. cit., t. 3, p. 416.

[٣] لم يسهم بوهيمند الخامس في الحملتين الفرنسية والإنجليزية، لذا لم يشأن أن يبدو بمظهر المتخاذل تجاه المشروع الصليبي العام، فأرسل بأبناء عمه حنا ووليم سيدي البترون، كندسطبل طرابلس مع قوة صغيرة للمساهمة في معركة غزة، وكما كانت الخسارة فادحة لفرنج فلسطين، فإنها كانت كارثة لأنطاكية وطرابلس، إذ لم ينجح منها سوى كندسطبل طرابلس الذي وقع في الأسر، ولمزيد من التفاصيل، انظر: حسين عطية: إمارة إنطاكية، ص ٣٦٦-٣٦٧.

لم يستطيعوا أن يعوضوها بعد ذلك أبدًا، وتبدو فداحة هذه الخسارة في أنها كانت من الصليبيين المقيمين في الأراضي المقدسة، ممن يصعب تعويضهم، هذا بالإضافة إلى أن المملكة الصليبية وبقية الإمارات الصليبية في الشرق كانت تعتمد اعتمادًا كليًا على الجماعات الرهبانية العسكرية في الدفاع عنها في وقت بدأ فيه ميزان القوى في الصراع بين المسلمين والصليبيين يعتدل بشكل واضح لصالح المسلمين، بينما كان الكيان الصليبي في الشام آخذًا في التداعي.

سرعان ما انتقلت الأنباء السيئة إلى الغرب الأوروبي وكانت بالطبع في صورة استغاثات ونداءات مستمرة لإنقاذ ما تبقي من أشلاء الإمارات الصليبية في الشام، وأولى تلك الاستغاثات أرسلها روبير دي نانت Robert de Nentes بطريرك بيت المقدس (١٢٤٠-١٢٥٤م/ ٦٣٧-٦٥٢هـ) إلى البابا إنوسنت الرابع Innocent IV(١٢٤٣-١٢٥٤م/ ٦٤١-٦٥٢هـ) في ١١ سبتمبر ١٢٤٤م/ ٧ ربيع الآخر ٦٤٢هـ، وتضمنت وصفًا دقيقًا عن أحوال الصليبيين ودفاعهم عن المدينة والخسائر البشرية الكبيرة التي تكبدوها[1]، وأرسل البطريرك رسالة أخرى موجهة إلى جميع المؤمنين في الغرب الأوروبي في ٢٥ نوفمبر ١٢٤٤م/ ٢٢ جمادى الآخر ٦٤٢هـ، يصف فيها المعركة التي شارك فيه روبرت بنفسه، فتحدث عن مجريات المعركة وما لحق بالصليبيين من كوارث، ومدى تدهور معنويات الصليبيين بسبب تلك الخسائر، كما بدا مدى حاجة الإمارات الصليبية في بلاد الشام للمساعدات الغربية اللازمة لاستمرار وجودها لأن الخوارزمية –على حد تعبير روبرت نفسه– : "لم يقف أمامهم شئ

---

[1] في هذا الخطاب قارن روبير بطريرك بيت المقدس بين سياسة التسامح الديني التي أبداها صلاح الدين الأيوبي تجاه الصليبيين عندما دخل مدينة بيت المقدس في عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ، وبين الهمجية والوحشية التي أظهرها الخوارزمية عند دخولهم نفس المدينة عام ١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ، خاتمًا خطابه بأنهم في أشد الحاجة للمساعدة العاجلة من الغرب الأوروبي داعيًا البابا على الإسراع بالدعوة إلى ذلك في أقرب وقت أنظر:

Letter of Robert de Nentes Patriarche of Jerusalem to Pope Innocent IV, Acre, (11 Sept. 1244), in Chronica de Mailrose, pp. 92- 93; R?hricht, Regesta, no. 1123. P. 299

ولا يستطيع أحد مقاومتهم، ويستولى على البلاد ويتقاسمونا كما لو كانت ملكهم، ويعينون ضابطًا في المدن والقرى المسيحية ويجمعون المحاصيل، ويجبون الضرائب التي كان الفلاحون يدفعونها للصليبين، فضلاً على ذلك، أصبح الفلاحون أعداء للصليبيين، وعندما ثاروا انضموا إلى الخوارزمية حتى لم تبق للصليبيين أرض، عدا الحصون التي يحافظون عليها بصعوبة، ونحن نطلب العون قبل الانهيار"[1]، وتبع ذلك خطاب آخر وجهه البطريرك أيضا إلى ملكي فرنسا وإنجلترا وأمراء البلدين وأساقفتهما، يشرح فيه الأحوال السيئة للإمارات الصليبية، وحاجتها الماسة للمساعدة السريعة الفعالة[2]، كذلك أرسل وليم دي شاتينوف William de Chate Nauf مقدم الإسبتارية (١٢٤٣-١٢٥٨م/ ٦٤٦-٦٥٦هـ) رسالة إلى رئيس الجماعة في مدينة نيوكاسل New Castle بإنجلترا، من مكان أسره في مصر في أواخر شهر نوفمبر ١٢٤٤م/ جمادى الآخرة ٦٤٢هـ، قص عليه فيها ما شهده خلال المعركة، وسمى بعض الذين رافقوه في الأسر، وما لحق بجماعته من خسائر[3]، ثم استغاثة أخرى وصدرت من وليم أوف روكفور William of Rockefort نائب مقدم الداوية في خطاب إلى البابا إنوسنت الرابع سرد فيها جانبًا من الأحداث التي مر بها صليبو الشام،

---

(٢) Letter of Robert de Nentes Patriarche of Jerusalem to all the Faithfull, Acre, (25 Nove. 1244), in Annales de Burton, pp257-263.

ولا شك في أن هذا الخطاب يوضح مدى الخسائر الاقتصادية للصليبيين، إذ كانت هذه الأملاك تدر عليهم دخلاً مهما سواء عن طريق ما تغله من محاصيل وفواكه أم المروج التي كان يتم فيها رعى مختلف أنواع الحيوانات، وغيرها من الإيرادات.

(٢) Letter of Robert of Nantes Patriarche of Jerusalem to kings, Princes, Arch bishops in France and England, Acre, (12 Dece. 1244), in Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, p. 343.

(٣) Letter of William de Chateau- Neuf to Preceptor of the Hospitalers in New Castle, Cairo, (Nov. 1244), in Matthew paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 307- 311.

والخسائر التي لحقت بهم نتيجة الهزيمة المروعة في معركة غزة، مطالبا في نهاية خطابه بضرورة أن يمد الغرب لهم يد المساعدة في أقرب وقت ممكن(١).

ولم يقتصر الأمر على الاستغاثات عبر الرسائل بل قرر صليبيو الشام إرسال سفارة للاستنجاد بالغرب الأوروبي، لتقديم تقرير للعالم المسيحي الغربي عن أنباء هذه الصدمة التي ابتليت بها المملكة اللاتينية في بلاد الشام، وإنقاذ ما تبقى من الإمارات الصليبية هناك(٢)، وبالفعل أرسل بطريرك بيت المقدس سفارة كبرى إلى الغرب تحت رئاسة جاليران Galeran أسقف بيروت (١٢٤٤-١٢٥٤م/ ٦٤٢-٦٥٢هـ) مندوبًا عنه، وسافر معه ألبرت دي ريزاتو Albert de Rizato أسقف أنطاكية (١٢٢٧-١٢٤٦م/ ٦٢٤-٦٤٤هـ) في أواخر نوفمبر ١٢٤٤م/ جمادى الآخرة ٦٤٢هـ(٣)، ولعل حاجة الصليبيين الكبيرة هي التي دفعتهم لتعريض أنفسهم لمخاطر السفر بالبحر فصل الشتاء(٤)، وهكذا صار الوضع شبيها تماما بما حدث للصليبيين فيما مضى على يدي صلاح الدين الأيوبي، حتى في شكل الاستغاثات التي أرسلوها إلى الغرب الأوروبي.

وبات واضحا أن مستقبل الإمارات الصليبية ميئوس منهن فالقوات الخوارزمية التي استدعاها الملك الصالح، دمرت بيت المقدس، والجيش الصليبي المتحالف مع الأيوبيين أبيد في ساحة معركة غزة على أيدي جنود الائتلاف المصري الخوارزمي، وبدا البارونات الصليبين والجماعات الرهبانية العسكرية المعارضة لسياسة الإمبراطور فريدريك الثاني، وبدأوا يدفعون ثمن انقسام المملكة الصليبية في تلك الفترة، وأصبح السؤال المثار هو : هل الغرب

---

(١) Letter of William of Rochefort to Innocent IV, in Addison, The Knights ' Templars, (London, 1842), pp. 167-170

(٢) Alan Forey, The Military Orders, in Jonathan Riley- Smith, History of the Crusades, p. 195.

(٣) روتلان: المصدر السابق، ص ١٣٥ راجع أيضًا: سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٨٢٣.

(٤) Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 344- 345

الأوروبي مستعدًا للاستجابة للنداءات المتكررة القادمة من الإمارات الصليبية؟ هذا سندرسه فيما يأتي من صفحات.

ففي الغرب الأوروبي وصل الصراع البابوي الإمبراطوري إلى نقطة اللاعودة، وذلك بفضل تعنت البابا جريجوري التاسع وإصراره على إذلال فريدريك الثاني[1]، وبينما كان ثيبالد أوف شامبانيا ورفاقه يعدون العدة للتوجه لمساندة الإمارات الصليبية في الشرق، أصدر البابا قرار الحرمان مرة أخرى ضد الإمبراطور، وذلك في عام ١٢٣٩م/ ٦٣٦ هـ، رافضا جميع عروض الصلح والوساطة، خاصة تلك التي قام بها الملك الفرنسي لويس التاسع[2]، بل بلغ الأمر به أن أرسل في أكتوبر ١٢٣٩م/ صفر ٦٣٧هـ سفراء للملك الفرنسي لويس التاسع حاملين رسائل تتضمن اختيار البابا لروبرت Robert – شقيق الملك الفرنسي– إمبراطورًا، ليحل محل فريدريك الثاني بعد تجريده من الهيبة الإمبراطورية، فرفض الملك الفرنسي هذا رفضًا قاطعًا[3]، ورد الإمبراطور بغزو الأراضي البابوية في فبراير ١٢٤٠م/ رجب ٦٣٧هـ[4]، فلم

---

(١) موريس كين : حضارة أوروبا، ص ١٨٥.

(٢)حاول لويس التاسع التخفيف من حدة الصراع البابوي الإمبراطوري لنشر السلام في الغرب الأوروبي، وتوحيد العالم المسيحي، فبعث مندوبين عنه إلى الإمبراطور فوجدوا الأخير على استعداد للمصالحة، ولكن عندما توجهوا للبابا فوجئوا به يدعوا إلى مجمع ديني يحضره جميع رجال الدين لبحث كيفية توقيع عقوبات على فريدريك الثاني، فكان الفشل هو السمة الواضحة لمحاولات الملك الفرنسي، أنظر :

Matthew Paris, Chrcnica Majora, vol. 3, pp. 626-627.

(٣) رد الملك الفرنسي قائلاً: "إننا لا نريد أن نلقي بأنفسنا في مثل هذه الأخطار بالنزاع مع مثل هذا الإمبراطور القوي، مما سيجلب علينا مقاومة كثير من المماليك، لأن البابا إذا ما تمكن عن طريقنا من التغلب على الإمبراطور الألماني، فليس ببعيد أن يقضي على حكام العالم جميعًا بعدئذ وقد ملأه الغرور والتكبر لانتصاره على الإمبراطور فريدريك"، وقد انفرد متى الباريزي بذكر تلك الحادثة في معرض استيائه المعتاد من السياسة البابوية في تلك الفترة، أنظر:

Matthew Paris, English History, vol. 2, pp. 242-244; CF. also: Lloyd ,S., English Society and the Crusade, 1216-1307, (Oxford, 1988), P.210.

(٤) اتجهت قوات فريدريك مباشرة نحو مدينة روما، فأخضع معظم المدن والقرى المحيطة بها مثل سوتري Sutri وكورنتو Corneto وغيرها، واجتاحت روما نفسها ثورات عارمة تطالب بدخول الإمبراطور فريدريك المدينة وتهتف: "الإمبراطور القادم هو منقذنا"،

يجد البابا مفرًا من إعلان حملة صليبية ضد فريدريك، وأرسل مندوبيه إلى أنحاء أوروبا كافة للدعوة إلى ذلك، واستبدل قسم المشاركة في الحملة الصليبية للدفاع عن الإمارات الصليبية في بلاد الشام بالحملة الصليبية ضد فريدريك، وأكد على الطبيعة الدفاعية لهذه الحروب وقال: "إن المسيحية في خطر محدث، الأمر الذي جعل العمل العسكري أمرًا لا مفر منه"[1]، وهذا يشير إلى التطور الذي طرأ على مفهوم الحركة الصليبية آنذاك، فبعد الحروب ضد المسلمين والهراطقة، أصبحت الحملات توجه ضد إمبراطور أوروبي لخدمة سياسة البابا في وقت كانت الإمارات الصليبية فيه في أمس الحاجة لأية مساعدة خارجية.

وفي عام ١٢٤١م/ ٦٣٩هـ دعا البابا رجال الدين في الممالك المسيحية كلها إلى مجلس ديني عام في روما لإنزال اللعنة على الإمبراطور وفعلا لبى دعوة البابا فريق من أساقفة شمال إيطاليا وفرنسا وأسبانيا واجتمعوا في جنوة استعدادا للإبحار منها إلى روما، إلا أن الإمبراطور نجح في ضرب السفن الجنوبية -بمعاونة حلفائه من أهالي بيزا- وقبض على بعض رجال الدين، ولكنه أفرج عنهم أمام تهديد لويس التاسع ملك فرنسا بشن حرب ضده[2]، ولا شك أن

ولولا براعة جريجوري التاسع الخطابية، وكبر سنه، اللذان أكسباه عطف أهالي روما، لما فشلت محاولة الإمبراطور في دخول المدينة، أنظر :

Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 3, pp. 631-638; CF _ also: Tout, The Empire, p.284.

(1) Matthew Paris ,Chronica Majora, vol. 4,P.111

في نفس الوقت بعث فريدريك الثاني بخطاب إلى ابنه كونراد قال فيه: "إننا بقوة السلاح سوف نستطيع القضاء على غطرسة البابا، ونجعله في مكانه لا يستطيع من خلالها أن يرفع رأسه أمامنا أو أمام سلطة الإمبراطور"، وأرخت هذه الرسالة في يونيو ١٢٤٠، أنظر:

Letter of Fredrick II, to Conrad de Hohenstauffen, San Germano (June 1240), in Huillard- Bréholles, op. cit., vol. 5, pp. 1003-1004.

(2) كذلك دفعت وفاة البابا جريجوري التاسع في ٢١ أغسطس ١٢٤١م، الإمبراطور إلى سحب قواته المحاصرة لمدينة روما، أنظر :

Kzmterowicz, op. cit., pp. 544-546.

راجع أيضا : موريس كين: حضارة أوروبا، ص ١٨٦.

توقيت تلك الأحداث يتزامن مع الحملة الإنجليزية التي يقودها ريتشارد كورنوول وحصر اهتمام الغرب الأوروبي بالصراع البابوي الإمبراطوري كدليل على التأثير السلبي المباشر للنزاع بين الإمبراطورية والبابوية على الحركة الصليبية وأهدافها في بلاد الشام.

وعندما تولى إنوسنت الرابع الكرسي البابوي في ٢٥ يونيو ١٢٤٣م/ ٢ صفر ٦٤١هـ[١]، واصل النضال ضد الإمبراطور، بل وأرسل مبعوثيه – ويدعى ماستر مارتين Master Martin– لمطالبة رجال الدين في إنجلترا بالأموال اللازمة لمواجهة نفقات الصراع البابوي الإمبراطوري، ومعه أيضا تفويض بالحرمان الكنسي لعقاب المعارضين للسياسة البابوية، مما دفع رجال الدين الإنجليز للتهديد بأنه إذا لم يغادر إنجلترا في الحال فسوف يقتلونه مما أدى لفراره من هناك[٢]، وعندما اشتدت هجمات القوات الإمبراطورية على الأملاك البابوية فر البابا من روما إلى مدينة ليون الفرنسية[٣]، ولقد كانت للصراع

---

(١) عقب وفاة جريجوري التاسع، خلفه على الكرسي البابوي الكاردنيال جوفريد كاستيليوني Goffred Castiglione تحت اسم سلستين الرابع Celestin IV، ولم يدم حكمه أكثر من أسبوعين، فتوفى تاركا المنصب الباباوي فارغا طوال عام ١٢٤٢م، وحتى يوم الأربعاء ٢٥ يونيو ١٢٤٣م وهو اليوم الذي تم فيه انتخاب الكاردينال سينبالدو
دي فيسكي Sniibaldo de Fieschi ليتولى الكرسي البابوي تحت اسم إنوسنت الرابع، أنظر:

Hans,K., Encyclopedia ofthe popocy, pp. 89-90.

(٢) تحامل متى الباريزي –بصفته من رجال الدين الإنجليز– على البابا إنوسنت الرابع كثيرًا بسبب أفعاله تلك، أنظر :

Matthew Paris. Chronica Majora, vol. 4, pp. 313.

(٣) كان البابا إنوسنت الرابع قد أرسل فور توليه الكرسي البابوي حملة عسكرية تحت قيادة الكاردينال رينييه كابوتشي Rainier Capocci استعاد بها معظم ما فقدته البابوية في عهد جريجوري التاسع، وعندئذ رد فريدريك الثاني بحملة كبرى اجتاحت معظم الأراضي الإيطالية، بل وراسل أهالي روما للثورة على البابا، مؤكدا لهم أن روما التي تحمل الإمبراطورية اسمها يجب أن تعود العاصمة الفعلية لها، وبالفعل اضطر البابا إلى الفرار إلى مدينة ليون التي كانت تعتبر آنذاك مدينة إمبراطورية واقعة على الحدود الفرنسية، مما يمكن البابا من الحصول على حماية لويس التاسع دون أن يسبب له حرج

البابوي الإمبراطوري أثاره السيئة على صليبي الشام، إذا استنفذ موارد الكنيسة والإمبراطورية وشغل أوروبا كلها في الوقت الذي كان فيه مصير الإمارات الصليبية في الشام متوقفا على مقدار المساعدة التي يقدمها لها الغرب[1]، كما أنه أضعف قوى الغرب الأوروبي وشل حركتها، وخاصة في إيطاليا وألمانيا اللتين عمتهما الفوضى، ولحق بهما الدمار من جرأ الحروب التي اندلعت فيها[2]، وقد انعكس كل ذلك بصورة مباشرة على الصليبيين وإمارتهم في بلاد الشام، حيث شغل البابا، مفجر الحروب الصليبية وراعيها، وفريدريك الثاني الحاكم الشرعي لمملكة بيت المقدسة الأسمية، وعن الاهتمام بأمور الإمارات الصليبية في الشرق، وساهم في فقدان الحزب الإمبراطوري في هذه الإمارات لما تبقى له من هيبة، وبالتالي عجز عن إقامة سلطة مركزية يحترمها الجميع ويتجمعون وراءها للمحافظة على المكتسبات الإقليمية التي حصل عليها الصليبيون منذ حملة فريدريك الثاني واتفاقية يافا عام ١٢٢٩م/ ٦٢٦هـ وحتى نهاية حملة ريتشارد أوف كورنوول، بعد أن أصبحت الحرب البابوية الإمبراطورية حرب إبادة Guerre a Qutance وأصبحت الأموال تجمع من أجل تلك الحروب، لا لتوجيهها لمساعدة الإمارات الصليبية في الشام،

في ذلك، وقد مكث بها البابا حتى عام ١٢٥٠م هو العام الذي توفى فيه الإمبراطور فريدريك الثاني، لمزيد من التفاصيل، أنظر :

Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 266-267 ;Paul Wiegler, op. cit., pp. 213-214; Letter of Frederick 11 to Senote, People in Rome, Viterbe, (Dece 1243), in Huillard- Bréholles, op. cit., vol. 6, pp. 145-146.

راجع ايضا موريس كين: حضارة أوروبا، ص ١٨٧.

(١) Stevenson, The Crusaders, p. 290

(٢) Grousset,R., op. cit., t. 3, p. 426

وصف المؤرخ هارولد لامب أحوال الغرب الأوروبي في فترة الصراع تلك بأنها: "السنوات السوداء في أوروبا"، أنظر :

Lamb, H., The Crusades: The Flam of Islam, (London, 1931), p. 283.

وفي خضم تلك الأحداث، ومع استغاثات صليبي الشام ونداءاتهم، كان على البابا إنوسنت الرابع أن يشعر بالعبء المتزايد عليه، والممثل في الحفاظ على الإمارات الصليبية في الشام، ومع انشغاله الدائم بصراع لا هوادة فيه مع الإمبراطور فريدريك الثاني، فأراد تحقيق نجاح مزدوج في هذين الأمرين، ودعا إلى عقد مجمع كنسي في مدينة ليون الفرنسية -بعيدا عن التهديدات الإمبراطورية- في الفترة من ٢٨ يونيو إلى ١٧ يوليو ١٢٤٥م/ ١-١٩ صفر ٦٤٣هـ للتشاور فيما ينبغي عمله لكبح جماح فريدريك الثاني[١]، وبالفعل لبى الدعوة عدد كبير من رجال الدين من أنحاء أوروبا، ومن فرنسا وأسبانيا، وإيطاليا وإنجلترا، واستكتلندا وأيرلندا وقليل من ألمانيا، ووفود من قبل حكام تلك الدول، بل ووصل وفد أرسله الإمبراطور فريدريك الثاني تحت رئاسة أحد رجاله المقربين ويدعى ثاديوس دي سسا Thaddeus de Sessa حاول التوسط لدى البابا لحل مشكلاته مع الإمبراطور، لكن البابا قابل ذلك بغضب شديد، وما لبث أن جدد قرار الحرمان ضد فريدريك، وقرر عزله من منصبه على أن يختار من يحل محله في هذا المنصب[٢]، وحدث أن تغير مجرى الأحداث في المجمع تماما عندما وصلت السفارة الصليبية إلى مدينة ليون لتشارك في هذا الحدث المهم، وقص جاليران أسقف بيروت على الحضور إلى مدينة ليون لتشارك في هذا الحدث المهم، وقص جاليران أسقف بيروت على الحضور جميعا النكبات والكوارث التي ألمت بغخوانهم في الشرق، وكيف فقد الصليبيون مدينة بيت المقدس، وعددا من زهرة فرسانهم في معركة غزة، ثم نهض أحد رهبان الشرق ويدعى أرنولف Arnulph فقرأ على الحاضرين ما يحمله من خطابات صليبي الشام، والتي تتضمن وصفا دقيقا لما لحق بهم من فظائع على أيدي الخوارزمية، مستنجدين بقوى الغرب وأشار متى الباريزي إلى: "أنه ما انتهى أرنولف من قراءة الخطابات حتى انخرط الجميع في

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ص ٤٠٢.

(٢) Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 144.

البكاء[١]، وإزاء ذلك لم يجد البابا مفرًا من الدعوة إلى حملة صليبية جديدة لنجدة صليبي الشام[٢].

وعلى الفور أصدر البابا إنوسنت الرابع نص المرسوم البابوي للحملة الصليبية المرتقبة، والذي كان عنوانه "المتألمون من صميم القلب"[٣]، قدم البابا فيه كثيرًا من التسهيلات التي كان البابوات يمنحونها للمحاربين عادة مثل الحماية المكتسبة للمشاركة في الحملة لمدة ثلاث سنوات، كما طالب الأمراء والنبلاء ورجال الدين بالمساهمة المالية في نفقات تلك الحملة، وألقى بمسئولية التبشير على كاهل رجال الدين، ومنح الغفران، وألغى الضرائب، وأوقف تحصيل

التجارة اليهود للفوائد المستحقة لهم على الديون، والتي كانت تمثل عبئًا متزايدًا على المشاركين في الحملات الصليبية، وفرض قرار الحرمان على المخالفين لتلك الأوامر[٤].

والجدير بالذكر أنه –من خلال ما سرده المؤرخ متى الباريزي عن مجمع ليون الكنسي، عن محاولة ثاديوس –مندوب الإمبراطور فريدريك في المجمع للتوفيق بين الإمبراطور والبابا، بعد وعده للبابا بأن يساهم الإمبراطور في محاربة المسلمين، وأن يعيد الاستقرار إلى الإمارات الصليبية في الشام- كان الرفض هو رد البابا على ذلك العرض[٥]، وعندما توسط الملك الفرنسي لويس التاسع لدي البابا للعفو عن فريدريك، حتى تتحد قوى الغرب الأوروبي في الحملة الصليبية المزمع قيامها قوبلت وساطته بالرفض أيضا[٦]، وهنا تطرح

---

(١) Matthew Paris,Chronica,vol,4, pp.64-68

(٢) يرى المؤرخ متى الباريزي أن فكرة الدعوة لحملة صليبية لم تكن تدور في عقل البابا إنوسنت الرابع وأنه اضطر إلى ذلك، انظر: Chronica Majora, vol. 4, p. 494 .

(٣) Penny, C., op. cit. p. 164.

(٤) Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 86-88.

(٥) Matthew Paris, English History, vol. 2.P.145.

(٦) Matthew Paris, English History, vol.2.P.180.

تساؤلات مهمة نفسها عل بساط البحث، حول الدوافع وراء دعوة البابا إنوسنت الرابع لحملة صليبية جديدة في مثل تلك الظروف التي تمر بها البابوية.

فمن المعروف أن صراع البابا مع الإمبراطور شغله عن مسألة التفكير الجدي في مساعدة الإمارات الصليبية، وغير خفي أن الهدف الأول من المؤتمر الذي عقد في ليون كان إصدار قرار الحرمان ضد فريدريك الثاني، لا حث الغرب الأوروبي على النهوض بحملة صليبية جديدة كما يبدو في الظاهر[١]، حتى إن بعض المؤرخين رأي أن البابا كان مجردًا من النزاهة الشخصية والحماسة الدينية للحروب الصليبية[٢]، وأنه لم يترك وسيلة إلا واستخدمها لإحباط مشروع الحملة الصليبية، أو على الأقل لتعطيلها وتأخير قيامها، حتى يتسنى له استخدام القوات الصليبية ضد عدوه الإمبراطور الذي تفرغ لمحاولة التخلص منه، ولم يترك سلاحا -دينيا كان أم دنيويا- إلا واستخدمه ضده[٣]، ولعل خير تعبير عن هذا جرى به قلم مؤرخ معاصر، ما كتبه متى الباريزي حين قال: "إن الإمبراطور حاول أن يقيم السلام مع البابا، وقدم بعض التنازلات له، لكن البابا كان يرغب -قبل كل شئ- في تحطيم الإمبراطور والقضاء عليه، بعد وصفه بأنه "التنين الأعظم"ن حتى يتمكن بعد ذلك من القضاء على ملوك الغرب المسيحي كلهم، مثل ملكي إنجلترا وفرنسا، بعد أن يوقع في قلوبهم الرعب عن طريق ما يفعله ما الإمبراطور، وكان جشعه وحبه للمال السبب في هذه الكوارث كلها، لقد أعمى المال عينيه، وهو المسئول عن كثير من الفتن والفوضى في العالم المسيحي[٤]، وعلى الرغم من ذلك حرض البابا عقب ذلك على إظهار جديته في الدعوة للحملة الصليبية القادمة، ووضح ذلك من خلال إرساله عددًا من المندوبين على أنحاء أوروبا للدعوة لها[٥]، وهكذا حرص البابا

---

(١) King, The Knight Hospitallers, p. 241.

(٢) Davis, C., England under the Normans and Angevins1066-1272. Ed, London, 1928), p. 434.

(٣) Lamb, The Crusades, p. 285.

(٤) Matthew Paris, English History, vol. 1, p. 67.

(٥) ميشيل بالار: الحملات الصليبية، ص ٢٣٤.

على جعل الحرب الصليبية أداة طيعة لتحقيق كل ما كان يصبوا إليه من نفوذ في مواجهة سلطة الإمبراطور، وكان مجمع ليون مجرد مظاهرة لتأييد سياسة البابوية، وما لبث أن تحول إلى دعوة لحملة صليبية جديدة تتوجه لنجدة الكيان الصليبي في بلاد الشام.

وكانت الدبلوماسية مجالاً آخر حاول البابا إنوسنت الرابع عن طريقه أن يحقق بعض المكاسب لصليبي الشام، وذلك عن طريق المراسلات مع السلطان الأيوبي في مصر، خاصة في الفترة التي أعقبت رحيل الحملة الإنجليزية، وازدياد المنازعات داخل الصفوف الصليبية، وزاد من أمل البابا في إحراز نجاح في هذا الأمر ما وصل من أنباء عن تسابق كل من الصالح نجم الدين أيوب والصالح إسماعيل إلى عقد الصلح مع صليبي الشام، وانتهى السباق بأن أنضم صليبيو الشام إلى الصالح إسماعيل بعد الاتفاق السابق ذكره في أواسط عام ١٢٤٣م/ أوائل ٦٤١هـ[١]، وربما خشى البابا من أن يكون رد الفعل الصالح أيوب ضارًا بالمملكة الصليبية، وربما رأى أن الصالح أيوب سيسارع إلى الاستجابه له إذا ما تفاوض معه بشأن صليبي الشام، إذ سيتحول تحالف هؤلاء مع معارضيه إلى تحالف معه هو، وإذا ما قبل الصالح أيوم ما سيدعوه إليه البابا، فإن البابا سيكون قد كسب وقتا ثميناً، ونجح بالدبلوماسية في مهادنة الصالح أيوب، وضمن الأمان للإمارات الصليبية التي أنكتها صراعات الصليبيين فيها، حتى يحين الوقت الذي تتمكن فيه أوروبا من إرسال الحملة الصليبية المرتقبة وتحل فيها القوة العسكرية محل الدبلوماسية في حل مشكلات الصليبيين في الشرق، ومن هذا المنطلق بعث البابا إنوسنت الرابع برسالة إلى الملك الصالح أيوب في أوائل ١٢٤٤م/ أواسط ٦٤١هـ، يدعوه فيه إلى عقد هدنة مع الصليبيين في بلاد الشام، وأن يعمل على أن يحل السلام بين الطرفين محل الصراع[٢]، ولكن سرعان ما اندلعت الحرب في المنطقة وتورط صليبيو الشام فيها، وضاعت منهم مدينة بيت المقدس إلى الأبد، وضاع معها كل ما

---

[١] انظر ما سبق.

[٢] عن هذه الرسالة وتاريخها، وما جاء فيها والرد عليها، وترجمة النص، أنظر: حسين عطية: المراسلات، ص ٢٩٠-٢٩١.

حققته الدبلوماسية، ودمر الجيش الصليبي في معركة غزة ١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ، وبعد أن استتبت الأمور للملك الصالح أيوب، وأصبح سيد الموقف في مصر وبلاد الشام[١]، رد على رسالة البابا من منطلق القوة، في ٤ يونية ١٢٤٥م/ ٧ محرم ٦٤٣هـ، وفي رده على البابا، ووفقا للعرف الدبلوماسي، بدأ الملك خطابه بارتياحه لرغبة البابا في أحلال السلام بين المسلمين والصليبيين، الأمر الذي لا يعارضه الصالح أيوب، بل يرغب في تحقيقه أيضا، ولكن الصالح أعلن للبابا أنه بمقتضى اتفاقية يافا التي عقدها والده الكامل مع الإمبراطور، لا يستطيع التفاوض في أمر يخص الإمارات الصليبية، إلا عن طريق الإمبراطور ولا أحد غيره، ثم يعلم الصالح البابا بأنه بعث بخاطبه إلى السفير المصري في بلاد فريدريك، ليطلع الأخير على مطالب البابا، وأن التعليمات صدرت إلى هذا السفير بأن يتوجه إلى مقر البابا -في مدينة ليون- انتظارًا لعقد المجمع هناك- ويعرض عليه ما تم التوصل إليه مع الإمبراطور بشأن ذلك، ثم يعود السفير إلى مصر حاملاً رأي البابا إلى الملك الصالح[٢] وتزامن فشل المحاولة الدبلوماسية للبابا إنوسنت الرابع مع الملك الصالح أيوب، مع اشتداد صراع الأول مع الإمبراطور فريدريك، وفراره من إيطاليا والبقاء في مدينة ليون تحت حماية الملك الفرنسي لويس التاسع، ولشعور البابا بأن علاقة فريدريك مع بني أيوب هي سبب فشل محاولته الدبلوماسية معهم، تجمعت كل تلك الأسباب جعلت البابا أكثر تشددًا تجاه فريدريك الثاني فيما يخص من قرارات أصدرها في ختام مؤتمر ليون وتجديد قرار الحرمان ضده.

---

[١] عقب معركة غزة، قرر الصالح أيوب معاقبة أمراء الشام الأيوبيين الذين تحالفوا ضده مع الصليبيين، فاستولى على أملاكهم في الكرك، ثم استولى على دمشق في أكتوبر ١٢٤٥م/ جمادى الأول ٦٤٣هـ، ثم قضى على الخوارزمية وقتل زعيمهم حسام الدين بركة خان، وذلك في عام ١٢٤٦م/ ٦٤٤هـ، ثم استطاع الاستيلاء على الأملاك الصليبية في عسقلان وطبرية، وأصبح سكان عكا يخشون الخروج من مدينتهم، بعد أن استولى الصالح أيوب على معظم الأماكن المحيطة بعكا، أنظر :

سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٧٥٢، ٧٦٢، ٧٦٦، ٧٧٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٥٣، ٣٥٩، وراجع أيضا:

Matthew Paris, English History, vol. 2, pp. 68-69; Ann. T.S., p. 440.

[٢] حسين عطية : المراسلات، ص ٢٨٨.

والذي لا شك فيه، أن البابا إنوسنت الرابع فشل بالدبلوماسية في مهادنة الملك الصالح أيوب، وفي مساعدة الإمارات الصليبية على تجنب الخطر الإسلامي القادم من مصر، في وقت أنقسم الصليبيون فيه على أنفسهم، مما أضاع منهم بيت المقدس وتسبب في اندحار جيشهم في معركة غزة إلا أن البابا لم ييأس، وعاود الاتصال بالملك الصالح أيوب، إن لم يكن لصالح الصليبيين، فقياما بواجبه كزعيم لمسيحي العالم نحو الأماكن المقدسة، التي لم يعد في مقدور الصليبيين الدفاع عنها، ففي عام ١٢٤٥م/ ٦٤٣هـ، وبعد أن رفض الصالح أيوب السماح لحلفائه الخوارزمية بدخول مصر، ولم يكافئهم على تعاونهم معه في معركة غزة هاجموا كنيسة القيامة[١]، مما اضطر البابا إلى إرسال خطاب إلى الملك الصالح أيوب يشكو فيه من تلك الاعتداءات على الكنيسة، فرد الملك الصالح برسالة في ١٥ أغسطس ١٢٤٦م/ ٢٠ ربيع أول ٦٤٤هـ،يعلن فيها عن أسفه لهذا الحادث، ويعد البابا بأنه سيعاقب من قام بذلك، ويسلم مفاتيح الكنيسة إلى أصحابها، بعد إصلاحها[٢]، وفي الوقت نفسه حاول البابا كسب ود القوى الأيوبية الأخرى في بلاد الشام، وأرسل رسالة مليئة بعبارات السلام والهدوء في المنطقة إلى الناصر داود ابن المعظم، ورد الناصر بعبارات ودية أيضا في ٦ أغسطس ١٢٤٦م/ ٢١ ربيع الأول ٦٤٤هـ[٣]، وداوم البابا على إرسال المساعدات المالية إلى الإسبتارية من أجل تحصين قلعة عسقلان، كما منح

---

(١) كان الخوارزمية يأملون بعد كل ما قدموه من مساعدات للصالح أيوب أن يكافئهم بالسماح لهم في الاستقرار بمصر، ولكن الصالح خشي أن ينشروا الفوضى بمصر، بمنعهم من دخول مصر، فاضطر الخوارزمية إلى الانقلاب على الصالح ومحالفة أعداؤه، ولمزيد من التفاصيل، انظر :

ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٥٠-٣٥١؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٢٤.

(٢) Innocent IV, pope, Registres, ed. Berger, (Bibliotheque des Ecoles francaise d'Athenes et de Rome, Ser. 2), 4 Vols. (Paris, 1884 - 1921), Vol. 1, no. 3034; Rohricht,R., Rigesta, no. 1144, p. 3020.

راجع أيضا : حسين عطية: المراسلات، ص ٢٩٣.

(٣) Innocent IV, Pope, Registres, vol. 1, no. 3033. P. 455.

التيوتون وثيقة تبرع من أجل بناء برج في إحدى قلاعها المهمة[١]، لكن بالرغم مما سبق يؤكد في خطابه إلى البارونات الصليبيين في الشـام في ١٧ يوليو ١٢٤٧م/ ١١ ربيع الأول ٦٤٥هـ، يؤكد على تقديم البابوية لصراعها مع الإمبراطور على مصالح الإمارات الصليبية حيث دعاهم إلى عدم مساعدة أو مساندة أي شخص ينتمي إلى الإمبراطور[٢]، وتدفعنا تصرفات البابا تلك إلى محاولة التعرف على سياسة الإمبراطور فريدريك الثاني تجاه الصليبيين في تلك الفترة، في ظل صراعه المرير مع البابوية.

"لا يمكن أن يستغنى فرنج الشام عن فريدريك إذ أنهم بدونه كالرمل دون حصى، أو الحائط دون دهان"، بهذه الكلمات صور المؤرخ كانترويش Kantorowicz العلاقة بين صليبي الشام والإمبراطور الألماني فريريك الثاني[٣]، وفي الحقيقة فإن سياسة فريدريك تجاه الإمارات الصليبية تأثرت طوال تاريخها بعاملين رئيسيين، هما صراعه مع البابوية وصداقته الدائمة مع بني أيوب، وعندما علم بسوء أوضاع صليبي الشام،أرسل في عام ١٢٤١م/ ٦٣٩ه، إلى الملك الإنجليزي هنري الثالث خطابا يقول فيه: "إني أشعر بآلام الموجودين في الأراضي المقدسة ومعاناتهم، وكان من الممكن أن تكون أشياء كثيرة مختلفة جدا لو أن صديقي الكامل كان لا يزال على قيد الحياة"[٤]، وقد استغلت البابوية علاقة فريدريك الطيبة بالحكام الأيوبيين في التشهير وشغل فرديريك كثيرًا عن صليبي الشام بصراعه مع البابوية، حتى وقعت معركة غزة، وفقد الصليبيون بيت

---

(١) أصدر البابا إنوسنت الرابع وثيقته الخاصة بجماعة التيوتون، في ١٨ سبتمبر ١٢٤٥م، وكان هدفها بناء برج في قلعة مونتفورت، ولمزيد من التفاصيل، أنظر :
حسن عبد الوهاب : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ٢٥٦.

(٢) Innocent IV, Pope, Registres, vol. 1, no. 3033. P. 455

(٣) Kantorowicz, op. cit., p. 550.

(٤) Matthew Paris, Chronica , vol. 4, pp. 112-119.
بادر فريدريك بإرسال أحد رجاله، وهو روجر الصقلي Roger of Sicily إلى مصر لتعزية الصالح أيوب في وفاة أبيه الملك الكامل، أنظر :
Kantorowicz, op. cit., p. 557.

المقدس إلى الأبد، فأرسل فريدريك إلى ريتشارد أوف كورنوول رسالة حدد فيها القتلى والأسرى الصليبيين في معركة غزة، استنادًا إلى خطابات ومعلومات وصلت إليه من الإمارات الصليبية في الشرق، وعلى الرغم من استغلال الإمبراطور لهذه الهزيمة وضياع بيت المقدس من أيدي الصليبيين للإشادة بجهود مندوبيه في الأراضي المقدسة، والتهجم على البابوية وعلى أعدائه في الإمارات الصليبية في الشرق، وتحميلهم مسئولية ما حدث في غزة على الرغم من ذلك شمل هذا الخطاب ملاحظات تنم عن فهم الإمبراطور للأخطاء المحدقة بالإمارات الصليبية في الشام، وتأكيده على استحالة إنقاذها إذا استمرت البابوية في إتباع السياسة نفسها وتقديم صراعها معه على نجدة صليبي الشام، وإذا استمر هؤلاء في تشرذمهم ورفضهم الخضوع لسلطته المركزية، سوف ينهار الكيان الصليبي في بلاد الشام[1].

ومما أثر في موقف الإمبراطور فريدريك وسياسته تجاه الإمارات الصليبية في بلاد الشام العلاقة الودية بينه وبين سلاطين مصر في بني أيوب التي بلغت مبلغا، كان له تأثير كبير على سياسته تجاه تلك الإمارات، وبلغت هذه العلاقات ذروتها بين الأيوبيين وفريدريك الثاني حين أرسل الأخير رسالة إلى الملك الصالح يخبره فيها بأنباء الاستعدادات التي تجري في الغرب على قدم وساق، تحت رعاية الملك الفرنسي لويس التاسع، للخروج فيما يعرف بالحملة الصليبية السابعة وهدفها الأساسي مصر[2]، وقد ذكر المقريزي في خططه ذلك صراحة حين قال: "ونزل الصالح بقلعة دمشق، فورد عليه رسول الإمبراطور ملك الفرنج الألمانية بجزيرة صقلية في هيئة تاجر، وأخبره سرًا بأن بواش لويش الذي يقال له رواد فرنسي عازم على المسير إلى أرض مصر

---

[1] أرسل فريدريك هذه الرسالة في ٢٧ فبراير ١٢٤٥م/، أنظر :
Letter of Fredrick II to Richard of Comnouoills, Foggia, (27 Feb. 1245), in Huillard - Breholles, op. Cit, vol. 6, pp. 255-256.

[2] جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على مصر، ص ٧٨.

وآخذها"[١]، ويعلق الدكتور سعيد عاشور على ذلك بقوله: "كان من المفروض أن الإمبراطور فريدريك الثاني، وهو صاحب المصالح الكبيرة في بلاد الشام بوصفه والد كونراد –الوريث الشرعي لمملكة بيت المقدس– يؤيد لويس التاسع في حملته وجهوده لاستعادة أملاك الصليبيين المفقودة، ولكن فريدريك –على العكس من ذلك– لجأ إلى سلاح أخر في الخفاء فأتصل بالصالح أيوب سرًا، وأرسل إليه سفارة يحيطه علما بتحرك الصليبيين ونواياهم[٢].

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو : لماذا أفشى الإمبراطور فريدريك الثاني سر هذه الحملة الصليبية للملك الصالح أيوب؟ يذكر بعض المؤرخين أن سياسة الإمبراطور في هذه الفترة كانت ذات شقين متناقضين: الأول أن يظهر فريدريك بصورة الصليبي المدافع عن المسيحية، ومن ثم ساعد الحملة المرتقبة وأمدها بما تحتاج إليه[٣]، أما الشق الثاني فهو إفشاء خبر الحملة إلى الصالح رغبة منه في حفظ علاقاته الطيبة مع بني أيوب[٤]، وحسبما يرى الدكتور رأفت عبد الحميد لم تكن تعني فريدريك أطلال مملكة بيت المقدس الأسمية بقدر ما كانت

(١) كان ابن أيبك أكثر دقة في حديثه عن ذلك بقوله: "لما أحس به الإنبرور فريدريك كتب كتابا إلى السلطان الملك الصالح يعرفه بوصول الفرنسيسن إليه وهو طالب لثغر دمياط، وهذا الفرنسيس يسمى الريد أفرنس، ثم قال الإمبرور في كتابه للسلطان إنه وصل في خلق كثير، وقد اجتهدت غاية الاجتهاد على رده عن مقصده وخوفته فلم يرجه لقولي، فكن منه على حذر"، كذلك ذكر سبط بن الجوزي ما نصه: "إذ كانت الأخبار تتواتر إلى الملك الصالح بحركة ريد فرنس من جهة الإنبرور ملك بلاد الإنبردية وأبيه ليه، فإنه كان مصافيا للملك الكامل أبيه، فكذلك له"، أنظر:

المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٢٠ج، القاهرة (بولاق) ١٢٧٠م، ج١، ص ٢١٩، ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ص ٣٦٦؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان: ج٨، ق٢، ص٧٧٠.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٨٣٣.

(٣) Grousset,R., op. cit., t. 3, p. 427.

راجع أيضا: سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٨٣٢؛ حسن حبشي: الشرق العربي بين شقي الرحى، حملة القديس لويس على مصر والشام، القاهرة ١٩٤٩م، ص٣٠–٣١.

(٤) محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، ط١، القاهرة ١٩٦١م، ص٩١؛ جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على مصر، ص٧٩: عادل عبد الحافظ: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية المقدسة، ص٣٤٩.

تشغله تلك الحرب المستمرة بينه وبين البابوية، التي وضعت لها هدفًا لا تحيد عنه، هو تحطيم أسرة هنشتاوفن وزعيمها فريدريك الثاني[1]، وهكذا بات واضحا أن الصراع البابابوي الإمبراطوري كان يلقى بظلاله على مصير صليبي الشام، ويتحكم بشكل واضع فيما يمكن أن يقدمه الغرب الأوروبي من مساعدات لنجدة ما تبقى من الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

هذا عن طبيعة العلاقة بين الإمارات الصليبية والبابوية والإمبراطور فريدريك الثاني في تلك الفترة، ولكن ماذا عن إسهام دول الغرب الأخرى في تلك العلاقة وخاصة ملكي فرنسا وإنجلترا، بعد ما علموا جميعا بما حدث لصليبي الشام في غزة وأصبح الكيان الصليبي مهددًا بالفناء؟ من المعروف أنه عقب رحيل الحملة الإنجليزية من بلاد الشام في عام ١٢٤١م/ ٦٣٩هـ، بات واضحا عدم ملائمة الموقف في الغرب لإيفاد حملة صليبية جديدة إلى الأراضي المقدسة، فقد كانت ألمانيا وإيطاليا ممزقتين نتيجة للصراع البابوي الإمبراطوري، وانعكس ذلك على حرص الجانبين -كما أوضحنا فيما سبق- على عدم إرسال مؤيديهما بعيدًا في حملة صليبية إلى الشرق، في حين لم يسهم هاكون الرابع Hakon IV ملك النرويج إلا بوعود جوفاء، أما في إنجلترا فكان ملكها هنري الثالث مشغولا بقمع تمرد باروناته[2] بل أثار الوفد الإنجليزي في مجمع ليون الكنسي برئاسة جروتست أسقف لنكولن بعض القلاقل هناك، ورفض القرارات المالية التي أراد البابا فرضها لمصلحة صليبي الشام[3]، وكان الشئ الإيجابي الواضح آنذاك هو ترحيب الوفد الفرنسي المشارك في المجمع بقرارات

---

(١) رأفت عبد الحميد: الملك الكامل بين الإفراط والتفريط في مواجهة الصليبيين، ص١٩٦.

(٢) سادت إنجلترا موجة عارمة من الاستياء من الإبتزازات المالية البابوية وطالب البارونات بأن توظف الأموال التي تنزع منن الناس في خدمة الأهداف التي تؤخذ من أجلها، وتضافر ذلك بالرفض العام لسياسة الملك هنري الثالث بالاعتماد على الأجانب الوافدين من بواتو الفرنسية وسافوا الإيطالية، لمزيد من التفاصيل، أنظر :

Strayer,J., "The Crusades of Louis IX" in Setton (ed.) op. cit, vol. 2, p.490.

(٣) Matthew Paris, English History, vol. 1, p. 144.

البابا بالدعوة لقيام حملة جديدة، خاصة بعد أن أعلن الملك الفرنسي لويس التاسع استعداده التام لقيادة الحملة المرتقبة[١].

على أية حال، أوفد البابا عقب انتهاء مؤتمر ليون مندوبا عنه يدعى أدون دي شاترو Odon de Chateauroux للتبشير بالحملة الصليبية الجديدة في فرنسا بناء على طلب الملك لويس نفسه، وفي الوقت نفسه وصلت السفارة الصليبية برئاسة جاليران أسقف بيروت، وألبرت أسقف أنطاكية إلى فرنسا، للاستنجاد بملكها وشعبها[٢]، وعلى الفور استقبلا الملك الفرنسي السفارة الصليبية، وعقد في العام نفسه ١٢٤٥م/ ٦٤٣هـ مجلسًا كبيرًا في باريس، حضره أعضاء السفارة الصليبية، والمندوب البابوي، ورجال الدين الفرنسيين كافة، وألقى لويس على الحاضرين خطبة حماسية داعيا إياهم إلى حمل الصليب،/ وتمكن بفصاحته من إثارة غيرتهم الدينية، وضرب لهم المثل لذلك، غذ كان أول من حمل الصليب من الحاضرين في المجلس معلنا قيادة الحملة المرتقبة[٣].

وأخذ الملك الفرنسي يستعد لهمة لحملته المرتقبة[٤]، وأهتم اهتماما بإعداد الأسطول اللازم لتلك الحملة، وظهر دور الأساطيل الإيطالية التجارية، عندما

---

(١) Jean Richard, La Politique Oriental de saint Louis, La Croisa de1248, (Paris, 1976), p. 197

(٢) روتلان: المصدر السابق، ص ١٣٩-١٤٠، وراجع أيضا: جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على مصر، ص ٨٥.

(٣) تقرر أن يرافق الملك الفرنسي في حملته شقيقه روبرت كونت أرتو وشارل كونت أنجو، وأبنى عمة هيو دوق برجنديا وبطرس كونت بريتانى، واشتركت في الحملة الملكة مارجريت زوجته، وعدد من رجال الدين، منهم رئيسا أساقفة ريمز Rheims والسين Sens وأسقفا بورجBourges ولون Laon، انظر: جوانفيل، القديس لويس ص ٧٥-٧٦. راجع أيضًا:

Matthew Paris, English history, vol.2, p. 118; CF. also: Kedar, B.Z., The passenger list of a Crusadership, 1250; in S.M., vol.13, p. 268; Grousset,R., op. cit., t. 3, p. 429.

(٤) فضلا على ذاك التجأ الملك الفرنسي إلى خدعة دينية: لضم أكبر عدد ممكن من رعاياه إلى الحملة، بطريقة لم يسبقه إليها أحد منذ بدء الحركة الصليبية، فقد كان من عادة لويس أن يقدم الهدايا لكبار رجال المملكة من النبلاء والبارونات، وفى ليلة عيد الميلاد من سنة ١٢٤٥م أهدى كلا منهم وشاحا كان قد أمر بحياكة علامة الصليب علية سرا، وعندما لبسوا الخلع

أرسل ليوس مندوبيه إليها في عام ١٢٤٦م/٦٤٤هـ، ونجحوا في استئجار عدد من السفن من جنوة ومرسيليا[١]، وكانت صدمة الملك الفرنسي عندما رفض البنادقة تويده بما يحتاجه من سفن، على أساس أن مصلحتهم التجارية تتعارض مع الاشتراك في حملته على مصر[٢]، كذلك لجأ الملك الفرنسي إلى توفير المال اللازم لتغطية نفقات الحملة، عن طريق الاستعانة بالبابا في فرض ضرائب على رجال الدين جمعها عمال البابا، ثم شرع فيما يعرف بالحملة الصليبية السابعة[٣]، هذا عن موقف فرنسا تجاه واجبها الصليبي نحو الإمارات الصليبية في بلاد الشام، فماذا عن موقف إنجلترا؟

في ضوءما أنتهت اليه الدراسات التاريخية عن سياسة هنري الثالث ملك إنجلترا الصليبية، حمل هنري الصليب ثلاث مرات دون أن يقوم بحملة صليبية وفاء لنذره الصليبي[٤].وكانت سياسته مثيرة للدهشة، إذ وقف موقفا سلبيا من

الملكية أبصر كل منهم علامة الصليب مطرزة على كتف زميله، ففهموا حيلة الملك، ولم يكن أمامهم إلا الموافقة على الانضمام للحملة الصليبية المرتقبة، وأطلق على الملك الفرنسي منذ ذلك الحين "صائد الحجاج". ولمزيد من التفاصيل أنظر: جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على مصر، ص ٦٠.

(١) تم ذلك بموجب اتفاق، يقضي باستئجار عشرين سفينة من مرسيليا وست عشرة سفينة جنوية، وكان مندوبو الملك الفرنسي هما أندرية بولان Andre Polin ورينو دي فيشير Renaud de Vichiers والأول من أشهر رجال الدين، والثاني مقدم الداوية في فرنسا.

(٢) فايد حماد عاشور: العلاقة بين البندقية الشرق الأدنى الإسلامي، ص ٢٢٢

(٣) أناب الملك الفرنسي عنه في حكم البلاد أمه الملكة بلانش في أثناء غيابه، واستدعى باروناته وكبار رجال مملكته فتعهدوا أمامه بطاعة الملكة الأم والمحافظة على البلاد، وعندئذ غادر لويس فرنسا في ٢٥ أغسطس ١٢٤٨م/٤جمادى الأول ٦٤٦ه وتبعه المشتركون في الحملة، حيث وصل الجميع إلى جزيرة قبرص في سبتمبر ١٢٤٨م/ جمادى أول ٦٤٦ه، حيث اعتبرت قبرص هي الملتقى العام للجيوش الصليبية . لمزيد من التفاصيل أنظر: جوانفيل: القديس لويس، ص ٨٠. راجع أيضا: جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على مصر ،ص ٦٦-٦٧.

(٤) أعلن هنري الثالث منذ تولى عرش إنجلترا ثلاث مرات عن نذره بالقيام بحملة صليبية، وجاء نذره الأول عقب تتويجه مباشرة في الثامن والعشرين من أكتوبر ١٢١٩م، والثاني في السادس من مارس عام ١٢٥٠م، عقب ما رود بالغرب من أخبار عن فشل الحملة الصليبية السابعة، والثالث في أوائل ١٢٧١م، وأناب عنه -في القيام به- أبنه الأمير إدوارد، وكان حسبما ذكر المؤرخ تيرمان أن نذره الصليبي الأخير لم يخرج عن كونه أكثر من رد فعل للمرض ليس إلا، أنظر :

مجمع ليون عام ١٢٤٥م/ ٦٤٣هـ، ووضح ذلك في تصرفات بعثته هناك، حتى أنه عندما أرسل إليه البابا رسالة يناشده فيها -في ضوء قرارات المجمع- بتخصيص ١/٢٠ من الإيرادات الكنيسة في إنجلترا لمساعدة الأراضي المقدسة، وذكر البابا في رسالته أن مبعوثي الملك الإنجليزي عارضا بشدة قرارات المجمع كلها بشأن هذه المطالب المالية، خاصة وأن البابا قرر إسناد مهمة جمع هذه الضريبة للشخص الذي يختاره، فأثار استياء رجال الدين الإنجليز الحاضرين لهذا المجمع،واكتفى هنري الثالث بالتزام الصمت إزاء ذلك[1]، وعندما وصلت السفارة الصليبية المكونة من جاليرا أسقف بيروت وألبرت أسقف أنطاكية قادمة من ليون عام ١٢٤٥م/ ٦٤٣هـ، أن شرح أعضاؤها لهنري الثالث طبيعة الأوضاع المتردية في الأراضي المقدسة ناشد الأسقفان الملك السامح لهما بالدعوة لحملة صليبية وحاول هذا المبعوثان وفقا لما أورده متى الباريزي -استمالة الملك إلى جانبهما بقولهما إن ملك فرنسا ومعظم نبلائه حملوا الصليب، لكن هنري الثالث علق قائلا: "ليس من الغريب أن يحمل ملك فرنسا وشعبه الصليب، أما أنا فإنني محاط بالأعداء من كل جانب، فهذا هو الملك الفرنسي المكمن الرئيس لمخاوفي، وملك اسكتلندا الأكثر خطورة منه، وأمير ويلز الذي يعد مصدرًا لإثارة العداء ضدي أيضا، بالإضافة لحماية البابا لهؤلاء الثائرين ضدي، وبناء على ذلك على أن أختار بين أن أجعل مملكتي خالية من جنودها وأموالها أو أجعلها غير مستقرة وضعيفة"، وأضاف متى الباريزي : "أن السفارة الصليبية أصيبت بخيبة أمل"[2]، وهكذا أخفقت مساعي الصليبيين في إقناع هنري الثالث بحمل الصليب، بل وفي التبشير للحملة المرتقبة في إنجلترا بسبب التعنت الواضح من هنري الثالث.

Annales de Burton, p. 371; Lioyd, S., Politica Crusades in England, in C.S., ed. P.W. Edbury, (Caridff 1985), pp. 113-121; Tyerman, G., England and The Crusades 1095-1588, (Chicago, 1988), p. 124

(١) أفاض متى الباريزي في وصف تلك الحادثة، وأثنى على موقف الملك الإنجليزي، وتحامل بالطبع البابا إنوسنت الرابع، على أساس أن متى من رجال الدين الإنجليز المعارضين للسياسة البابوية آنذاك، أنظر :

Matthew Paris, English history, vol. 2, p. 116.

(٢) Matthew Paris, English history, vol. 2, p. 117.

وبالرغم من ذلك لم ينجح هنري الثالث في حظر المشاركة الإنجليزية في الحملة الصليبية السابعة، فإذا كان قد اعترض على الضريبة الكنسية لمساندة الحملة، ورفض التبشير بها في إنجلترا فقد وافق في النهاية على المشاركة الفردية في ذلك الأمر، فوجدنا ريتشارد أوف كورنوول يتمكن في عام ١٢٤٧م/ ٦٤٥هـ، من أخذ تفويض من البابا بجمع أموال هائلة من الشعب الإنجليزي، وأرسل بالفعل ما يقرب من ألف جنيه إنجليزي إلى الإسبتارية في الأراضي المقدسة[١]، وحمل عدد كبير من النبلاء الإنجليز الصليب في الفترة ما بين ١٢٤٧-١٢٤٩م/ ٦٤٥-٦٤٧هـ، وعلى رأسهم الأخ غير الشقيق لهنري الثالث[٢]، وفي يوليو ١٢٤٩م/ ربيع الثاني ٦٤٧هـ أبحرت فرقة إنجليزية بقيادة وليم لونجسبي William Longspee كجزء من جيش الملك الفرنسي ومعه مائتي فارس، وفي العام السابق لرحيله اشتكى للبابا فقرر موارده فحصل منه على منحة بابوية تقدر بألفي مارك، ويعلق متى الباريزي ساخرًا على سلوك البابا هذا لأنها المرة الأولى -كما يقول- التي يستخدم فيها البابا الأموال التي جمعت تحت شعار الصليبي لهدف صليبي، وفي هذا يقول: "إن البابا مثل شخص تغير جلده"[٣]، وحتى عام ١٢٤٩م/ ٦٤٧هـ كان العمل الإيجابي الوحيد الذي أقدم عليه الملك الإنجليزي هو التزامه بعدم التعدي على أملاك عدوه اللدود الملك الفرنسي، طالما كان الأخير مشتركا في الحملة الصليبية السابعة[٤].

إذا كان سقوط الرها في أيدي عماد الدين زنمكي في عام ١٢٤٤م/ ٥٣٩هـ ثم استيلاء صلاح الدين الأيوبي على مدينة بيت المقدس عقب انتصاره على الصليبيين في حطين في عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ دفع بغرب أوروبا إلى إرسال الحملتين الثانية والثالثة، فإن استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس مرة

---

(١) Matthew Paris English history. Vol. 2 p .236, CF. Also Tyeman, op. cit., p. 180.

(٢) هو جاي لوزينيان ومعه النبلاء كجيوفري أوف لاكي، وروبرت دي فير وبعض رجال الدين مثل والتر كانتلوب أسقف ورشستر Warcester، ولمزيد من التفاصيل، أنظر : Strayer,J., op. Cit., p. 490.

(٣) Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 626-628; CF. also: Tyennan, op. cit., p. 109.

(٤) Matthew Paris, English history, vol. 2, p. 479..

ثانية، والهزيمة المريرة التي مني بها صليبي الشام في عام ١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ، جعل الغرب الأوروبي يسارع بإرسال الحملة الصليبية السابعة استجابة لاستغاثة صليبي الشام، وبالرغم من أن الطريقة التي استجاب بها الغرب الأوروبي لنداء صليبي الشام جاءت واحدة في المرتين، إلا أن أوروبا كانت قد دخلت في عهد جديد أثر على حماستها الصليبية[١]، وبالتالي كانت الحملة الصليبية الأخيرة مختلفة كل الاختلاف عن سابقاتها من حملات[٢]، وكانت المحصلة النهائية هي عدم نجاحها في الاستيلاء على مصر، وشعور صليبي الشام بخيبة الأمل[٣]، وبالرغم من كثرة الشائعات في الغرب الأوروبي حول تحقيقها إنجازات عدة، انفرد بها متى الباريزي بالإشارة إليها، ورجع فيها إلى الرسالة التي بعث بها وليم سوناك William Sonnace مقدم الداوية (١٢٤٧-١٢٥٠م/ ٦٤٥-٦٤٨هـ)، عام ١٢٤٩م/ ٦٤٧هـ، أثناء وجود الحملة في مصر، إلى روبير

---

[١] حدثت عدة تغيرات في الغرب الأوروبي في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ولم تكن موجودة في القرن السابق له، فقد كانت النهضة الأوروبية الوسيطة قد أخذت تأتي أكلها، وأدت بالمجتمع الغربي إلى التفكير في آمال جديدة، وأهداف جديدة، وبدا الغرب وقد لبى الدعوة الصليبية آنذاك، فإنه لباها بروح غير الروح، وحماسة غير الحماسة التي لبى بها الدعوة لتلك الحرب عند منتصف القرن الثاني عشر، أنظر :
سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٨٣١-٨٣٢.

[٢] ظهر هذا الاختلاف في عدة أمور منها أن البابوية وعلى رأسها إنوسنت الرابع لم تكن لها دورًا هامًا كالتي كانت تقوم به فيما سبق من حملات، فقد كان لويس التاسع هو قائد الحملة والمسئول عنها، ولانفراده بالصدارة في المشروع الصليبي آنذاك، اتخذت الحملة طابعا فرنسيا بحتا أن أصبح غالبية المشتركين فيها من الفرنسيين، أنظر:
القديس لويس: ص ٨١، راجع أيضا:
Delaruelle, E., L'dee de Croisade au Moyen Age, (Torino, 1980), p.245.

[٣] ما أن وصل لويس بقوات حملته إلى الساحل المصري حتى استولى على دمياط في ٦ يونيو ١٢٤٩م/ ١٢ صفر ٦٤٧هـ، بعد أن هرب المدافعون عنها، وعندما قررت الحملة مواصلة تقدمها في الأراضي المصرية لاقت هزيمة قاسية في المنصورة ولقي روبرت كونت أرتو وشقيق الملك مصرعه، ثم ما لبث أن انتشرت الأمراض بين الجنود الفرنسيين، وتزامن ذلك مع اشتداد حماسة المسلمين في القتال، خاصة المماليك الذين تزعمهم بيبرس البندقداري، وانتهى الأمر بأسر الملك لويس التاسع الذي اضطر إلى قبول الصلح مع المسلمين، ومغادرة الحملة للأراضي المصرية، والتوجه إلى عكا في يوم ٨ مايو ١٢٥٠م/ ٤ صفر ٦٤٨هـ، وقد أورد الدكتور جوزيف نسيم يوسف هذه الأحداث مفصلة في كتابه عن حملة لويس على مصر، أنظر :
جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على مصر، صفحات متفرقة .

سلندفور Robert Sandford نائب الداوية في إنجلترا وفيها بعض التقارير الكاذبة، عن سقوط مدينة القاهرة في أيدي الصليبيين، وأن المسلمين أخلو مدينة الإسكندرية، وعقدوا العزم على مغادرة مصر، وفسر المؤرخ متى الباريزي الأمر بأن تلك الشائعات روجها صليبيو الحملة من أجل أن يسارع أهل الغرب الأوروبي بالذهاب إلى الشرق(١)، وكانت النتائج الإيجابية القليلة للحملة الصليبية السابعة ، ما قام به الملك الفرنسي في أثناء وجود الحملة في قبرص، وقبل توجهها إلى مصر، حينما طلب منه بوهيمند الخامس أمير إمارة أنطاكية المساعدة للدفاع عن أراضيه، بعد تعرضها لهجمات التركمان، فأرسل الملك إلى أنطاكية ستمائة فارس(٢)، وواصل الملك لويس بعد ذلك مساندة الإمارات الصليبية في شمال الشام، وكانت ذروة تلك المساندة عندما نجح في إقرار الامير بوهيمند السادس على الحكم في أنطاكية بالرغم من صغر سن الأخير في تلك الفترة، وإيمانا من الملك لويس بخطورة الأوضاع في إمارة أنطاكية(٣)، نجح لويس كذلك في التوسط للصلح بين الجنوية والبيازنية، بعد أن تطور النزاع بينهم إلى حرب مكشوفة في شوارع عكا، وتمكن من إقناع

---

(١) وأضاف متى الباريزي أن حقيقة هذه الأمور اتضحت فيما بعد، وأدرك الأوروبيين مدى كذب تلك الشائعات فعم السخط والغضب على الداوية لفعلتهم هذه، أنظر :
Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 319, 361.

(٢) عرف عن التركمان أنهم عشائر من الرعاة الرحل الوافدين من أواسط آسيا، ساقوا قطعان ماشيتهم أمامهم، وأتوا لينصبوا خيامهم تارة على هضاب الأناضول السلجوقية، وتارة في سهول حلب، وأحيانا في مراعي أنطاكية، ولا يميلون للعمل بالزراعة وحرفتهم الأساسية هي الرعي، وفي تلك الفترة أصبحت المناطق الريفية المحيطة بأنطاكية فريسة لهجماتهم المستمرة، مما دفع بوهيمند الخامس إلى طلب المساعدة من لويس التاسع، وهو الأمر الذي لم يشير إليه جوانفيل أثناء سرده لحياة الملك الفرنسي، أنظر :
حسين عطية : إمارة أنطاكية، ص ٣٧٣، ٣٧٦.

(٣) ساعد الملك لويس في استقرار الأمور في إمارة أنطاكية، ففي عام ١٢٥٢م، بلغ بوهيمند السادس الخامسة عشرة من عمره، وكان من حقه أن يتولى الحكم في أنطاكية ويتخلص من وصاية أمه، فنصبه لويس فارسا وطلب بوهيمند من الملك الفرنسي أن يجعله حاكما على الإمارة، لأن وجوده هو ووالدته في طرابلس جعل أنطاكية في حالة من الضعف، وبالفعل وبمساعدة الملك الفرنسي تم الأمر أخيرًا لبوهيمند السادس، وصدق البابا على ذلك، أنظر :
Innocent IV, Pope, Registers, vol.3, no. 507, p. 126.

الفريقين بعقد هدنة بين الطرفين المتحاربين لمدة ثلاث سنوات[1]، وكان أبرز نتائج الحملة الصليبية السابعة بقاء الملك لويس في الشرق، على عكس القادة الصليبيين السابقين جميعا -باستثناء قادة الحملة الأولى- الذين اضطروا بمجرد انتهاء حملاتهم -سواء بالنجاح أم بالفشل- إلى العودة إلى غرب أوروبا، فكان ما فعله لويس ظاهرة نادرة الحدوث، وجاءت في مصلحة ما تبقى من الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

ما أن وصل الملك لويس التاسع إلى عكا في ١٣ مايو ١٢٥٠م/ صفر ٦٤٨ه، حتى وصله خطاب من أمه الملكة بلانش، التي كانت تنوب عنه في الحكم تدعوه للعودة إلى مملكته، كما أبدى معظم رجاله الذين معه الرغبة في الرحيل إلى أوطانهم[2]، وأخيرًا وبعد مشاورات عدة، وبعد عقد ثلاث مجالس في ثلاثة أحاد متتالية في الفترة من ١٩ يونيو إلى ٣ يوليو ١٢٥٠م/ ١٧ ربيع الأول إلى غرة ربيع الآخر ٦٤٨هـ، قرر الاستجابة لتوسلات صليبيي الشام والبقاء في الأراضي المقدسة[3]، وكان أول ما فعله الملك الفرنسي هو أن أرسل من عكا في أغسطس ١٢٥٠م/ جمادى الأول ٦٤٨هـ، خطابا مسهبا إلى شعبه، يدعو فيه أهل الغرب الأوروبي عامة والفرنسيين خاصة لحمل الصليب واللحاق

---

(١) Eracles, L'Estoire pp. 346-374; CF. also: Grousset,R., op. cit., t. 3,pp.433-434.

(٢) جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع في الشرق الأوسط، ١٢٥٠-١٢٥٤، الإسكندرية، ط٢، ١٩٥٩م، ص٧٧.

(٣) أورد الدكتور جوزيف نسيم يوسف العديد من التفاصيل حول الدوافع التي قرر على أثرها الملك الفرنسي البقاء في بلاد الشام، ومنها على سبيل المثال: أنه أراد تحقيق الشطر الثاني من خطته وهو الاستيلاء على بيت المقدس، وإعانتها لصليبيي الشام، شعوره بأنه المتسبب فيما لحق بحملته من فشل، إحساسه بمدى الضعف التي تمر به الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وأنه لو أبحر عائدًا إلى بلاده لوقعت فريسة سهلة في قبضة المسلمين، وأيضا إدراكه بأن المسلمين يمرون بمرحلة انتقالية عقب اغتيال توران شاه، وهو وضع يعد فرصة سانحة لتعويض ما مني به من فشل في مصر، بالإضافة إلى ضياع هيبته الملكية بين قوى الغرب الأوروبي في حالة عودته عقب إخفاق حملته مباشرة، أنظر :

جوزيف نسيم يوسف: لويس في الشرق الأوسط، ص ٧٠-٧١.

به في بلاد الشام[1]، ولم يكتف بذلك فأرسل شقيقيه ألفونس دي بواتييه Auphons de Poitiers وشارل دو آنجو Charles d'Anjou –المرافقين له في حملته– إلى الغرب لإثارته، وإخباره بما حل بالحملة من كوارث، وموافاة الملك الفرنسي بما يحتاج إليه من نجدات وأموال وكلف هذه السفارة أيضا بالسعي لدي البابا إنوسنت الرابع للتبشير بالحملة الصليبية الجديدة[2]، وهكذا ولأول مرة في دراستنا لاستغاثات صليبي الشام بالغرب الأوروبي، نجد استغاثة صادرة من ملك أوروبي مقيم في الشرق، متخذا أسلوب القائمين على الإمارات الصليبية في استخدام الرسائل وإرسال السفارات الصليبية إلى الغرب الأوروبي، في الوقت الذي أصبح فيه صليبيو الشام في حالة يرثى لها من الضعف والانحلال، بعد أن أفقدهم هزيمتهم في مصر هيبتهم، ورحمتهم من زهرة فرسانهم الذين ذهبوا في الحملة السابق ذكرها، كما حرموا من المساعدات الأوروبية، وأصبحوا يعيشون في تلك الفترة من تاريخهم تحت رحمة ما عسى أن تتمخض عنه الظروف والأحداث في الشرق، لكن ماذا عن رد فعل الغرب الأوروبي تجاه ما حدث من إخفاق وكوارث للملك الفرنسي في الشرق؟

سرعان ما انتقلت الأخبار السيئة إلى الغرب الأوروبي كالعادة، واتجهت أنظار الناس جميعًا إلى البابوية –المحرك الرئيسي للحركة الصليبية– وعندما علما البابا إنوسنت الرابع بما حدث للحملة الصليبية السابعة أرسل خطابين أحدهما إلى الملك الفرنسي مواسيا ومشجعا له، والثاني إلى رجال الدين في أنحاء أوروبا يطالبهم بإقامة الصلوات من أجل الملك الفرنسي، وكان هذا هو كل

---

(1) استهل لويس خطابه باستعراض المحن التي قاساها هو وقواته في مصر حتى فشل حملته في تحقيق هدفها، ثم ناشد الأوروبيين قائلا: "وإنا لنهيب بكل مسيحي متحمس للحملة، وبكم أنتم خاصة، أن تعملوا على استرداد الأراضي المقدسة التي يجب عدها ملكا خاصا لكم، لقد سبقناكم إلى خدمة الله فتعالوا واتحدوا معنا، وسوف ينال من يحضر منكم أو يبعث بنجدات طوال فترة إقامتنا هنا رضا الله ويجب أن نيتم ذلك بسرعة، لأن كل تأخير سيترتب عليه عواقب وخيمة"، انظر :

Letter of Louis IX in Bongars, Gesta Dei Per Francos, 1, pp. 1196-1200.

أورد د. جوزيف نسيم يوسف نص الخطاب وترجمته، أنظر : جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على مصر، ص ٣٠٥-٣١٤.

(2) جوانفيل: القديس لويس، ص١٩٧؛ رونتلان: المصدر السابق، ص ٢١٢-٢١٣.

ما قدمه للصليبيين من معونة آنذاك[1]، وحينما وصلته رسالة من الملكة بلانش -أم الملك الفرنسي والقائمة بإدارة شئون العرش الفرنسي في أثناء غياب ابنها- تحثه على الإسراع بالتبشير بحملة صليبية جديدة على الشرق لنجدة الصليبيين هناك، لزم الصمت[2]، وعندما وصلت إليه السفارة التي أرسلها لويس من الأراضي المقدسة، تظاهر بانشغاله بصراعه مع الإمبراطور فريدريك الثاني، وعندئذ التمست السفارة أن يقدم العون للملك الفرنسي، الذي قاسى ضروبا شتى من المحن في سبيل البابوية ونصرة المسيحية، كما طالبوا البابا بعقد صلح مع عدو الإمبراطور، حتى تصبح الفرصة سانحة أمامهم لتقديم المساعدة للإمارات الصليبية، بدلا من استنفاد جهودهما في حروب وصراعات لا تفيد الحركة الصليبية، وعندما ظهرت على وجهه علامات اللامبالاة هدد أعضاء السفارة بإثارة فرنسا ضده، وبطرده من مدينة ليون الفرنسية التي كان يقيم فيها منذ فراره من روما عام ١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ أثناء صراعه مع الإمبراطور[3] متهمين إياه بالتسبب فيما لحق بالصليبيين لجشعه واستخدامه الضرائب الدينية التي جمعها باسم الحروب الصليبية في أغراض أخرى مثل صراعه مع فريدريك الثاني[4]، وعند ذلك أظهر إنوسنت الرابع حزنه بما حدث للحملة السابعة، وتعجب كيف يلقى أكثر ملوك أوروبا تدينا مثل هذه النهاية المؤلمة، ولكنه مع ذلك لم يحرك ساكنا، ولم يتخذ أية خطوات إيجابية لمساعدة الملك الفرنسي في محنته، وظل منغمسًا في حربه ضد فريدريك الثاني حتى وفاة الأخير في ١٣ ديسمبر ١٢٥٠م/ ٩ رمضان ٦٤٨هـ[5]، ولم يكتف البابا بذلك بل بشر بحملة صليبية لا لنجدة لويس التاسع والإمارات الصليبية، وإنما ضد كونراد الرابع

---

(١) جوزيف نسيم يوسف: لويس في الشرق الأوسط، ص ٩٣.

(٢) Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 390.

(٣) وعن فرار البابا إنوسنت الرابع من روماوإقامته في مدينة ليون الفرنسية، أنظرماسبق.

(٤) Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 391; Paul Wiegler, op. cit., p.261.

(٥) ذكر متى الباريزي أن البابا إنوسنت الرابع عندما بلغه خبر وفاة الإمبراطور فريدريك الثاني قال: "لتفرح السماء وتسعد الأرض"، وأضاف متى الباريزي أن الصليبيين فقدوا كثيرًا بوفاة الإمبراطور، أنظر :

Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 404.

Conard IV -ابن فريدريك- واعدا بمنح صكوك الغفران لكل مــن يشــترك فيها، كتلك التي كانت تمنح عادة للمشترك في حرب صليبية لمساعدة الإمارات الصليبية في بلاد الشام[١]، وهكذا انشغل البابا بصراع لا طائل من ورائه، فــي وقت كان مصير الإمارات الصليبية يتوقف على مقدار المساعدة التي تأتي إليــه من الغرب الأوروبي، ولقد شعر لويس التاسع بالألم من موقف البابــا الســلبي، متهما إياه بالجشع، والسعي وراء مكاسب شخصية دون النظر لمصير صــليبي الشام، وقد صدمت الملكة بلانش والشعب الفرنسي معها من تلك الأفعال التــي أتى بها البابا، وكيف يعد حملة لمحاربة الإمبراطور لا لنجدة لــويس وصــليبي الشام، واتخذت الملك إجراءات صارمة ضد من يبشر بحملة البابا في فرنســا، وقررت معاقبة أي شخص يفكر في الاشتراك فيها[٢]، هذا عــن موقــف البابــا إنوسنت الرابع الذي كان منشغلا دائما عن نجدة صليبي الشام والملــك لــويس بالعمل على استئصال شافه الهونشتاوفن الألمان، فماذا عن الموقف في إنجلتــرا وفرنسا؟

في إنجلترا تزايد الشعور بالسخط بسبب تدخل البابا في شونها وابتــزازه الأموال مما أفقر البلاد وأضعفها اقتصاديا[٣]، ووصلت أنبــاء كارثــة الحملــة الصليبية السابعة إلى إنجلترا، أو على الأخص إلى ريتشارد أوف كورنوول في لندن من خلال مبعوثه في الشرق الذي يدعى حنا John، فقد أرسل إليه رسالة في أغسطس ١٢٥٠م/ جمادى الولى ٦٤٨هــ، وصف فيهــا النهايــة المخيبــة للآمال لحملة لويس التاسع على مصر[٤]، ويلاحظ أن السياسة الصليبية لهنــري

---

(١) أضاف متى الباريزي في نقده لأفعال البابا آنذاك أن البابا وأتباعه استغلوا صكوك الغفران لزيادة ثرواتهم مقابل إعفاء بعض الصليبيين من تعهداتهم بالاشتراك في حملات إلى الأراضي المقدسة في الشرق، أنظر :
Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 462.

(٢) Matthew Paris, English History, vol. 2 p. 463; CF. also: Stevenson, . op. cit., p.290

(٣) Tyerrnan, op, cit., p. 111.

(٤) Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 383-386

الثالث ملك إنجلترا كانت تقليدية بحتة، إذ اقتصرت على إمداد الصليبيين بالأموال وبعض الجنود، حتى عام ١٢٥٠م/ ٦٤٨هـ، وهو العام الذي قرر فيه حمل الصليب متعهدا بنجدة إخوانه في الأراضي المقدسة[١]، وكان دافعه إلى ذلك حسبما يرى المؤرخ المعاصر متى الباريزي لم يكن ما سمعه من مآسي الحملة الصليبية السابعة، بل كان هدفه ابتزاز أموال النبلاء، الذين رفضوا من قبل الاستجابة لمطالبه في هذا الشأن، وذلك تحت تأثير الادعاء باستعادة الأراضي المقدسة والقيام بحملة صليبية، ولم يعتزم أبدا مساعدة الإمارات الصليبية حقا[٢]، ولكن سرعان ما تكشف نوايا الملك الإنجليزي عندما دفع للبابا إنوسنت الرابع مبلغا ضخما من المال نظير إعفائه من الوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه، وعندما قرر بعض النبلاء الإنجليز تجميع قواتهم، والاتجاه في أبريل ١٢٥٠م/ محرم ٦٤٨هـ، إلى المواني الإنجليزية لاتخاذ الترتيبات اللازمة لبدء حملتهم إلى الأراضي المقدسة لنجدة الملك الفرنسي، تكاتفت جهود الملك الإنجليزي والبابا لمنع رحيلهم إلى الشرق[٣]، وحصل هنري الثالث على تفويض من البابا يمنع بمقتضاه هؤلاء الصليبيين من الرحيل إلى الشرق، وهدد بالحرمان الكنسي من يجرؤ على الإبحار ضد رغبة الملك، مهما كانت الأخطار التي يتعرض لها الملك الفرنسي ورجاله في الشرق، وللحيلولة دون رحيل أولئك الصليبيين أرسل الملك إلى حاميات المواني الإنجليزية بعدم السماح بعبورهم – وقدر عدد هؤلاء بحوالي خمسمائة فارس- مع أتباعهم[٤]، وقد علل الملك

---

(١) Eracles, L'Estoire pp. 440; CF. also: Davis, England,p. 437.

(٢) Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 330

(٣) حدد هؤلاء الصليبيون شهر يونيو ١٢٥٠م، موعدا نهائيا لرحيلهم، وجعلوا الأسقف والتر كانتلوب واعظا دينيا لحملتهم التي لم يقدر لها الخروج، أنظر :
Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 330.

(٤) رأي هؤلاء الإنجليز أن ذهابهم إلى الشرق قبيل إقدام الملك على ذلك أمرًا ضروريا، أنظر:
Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 356-357 .

الإنجليزي سلوكه بأنه يرى تأجيل رحيل تلك القوات حتى يتمكن من الذهاب على رأس قوة كبيرة تتناسب مع الهيبة الملكية إلى الأراضي المقدسة، وهو الأمر الذي أثار سخرية المؤرخ المعاصر متى الباريزي الذي خطأ الملك في تصرفه هذا[1]، وكان العون الوحيد الذي تلقاه لويس التاسع من ملك إنجلترا هو موافقته على مد أجل الهدنة المبرمة بينهما إلى حين انتهاء الحملة وعودته إلى فرنسا، حيث كلف هنري الثالث أخاه ريتشارد أوف كورنوول بالعمل على تجديد الهدنة بين إنجلترا وفرنسا[2]، وهكذا وجدنا البابا وملك إنجلترا يتعاونان سويا من أجل عرقلة قوات صليبية متجهة إلى الشرق لدعم الإمارات الصليبية وملك أوروبي موجود هناك لخدمة القضية الصليبية.

أما عن فرنسا موطن الحملة الصليبية السابعة، فنجد الحزن يشمل أنحاء المملكة كافة، فالأمر لم يقتصر على فشل الحملة في تحقيق أهدافها، بل فقد الفرنسيون عددًا كبيرًا من أبنائهم وعم البكاء البلاد حسبما ذكر متى الباريزي وأصبح الناس جميعا يتساؤلون كيف تفشل حملة صليبية يقودها قديس[3]، ولازم سوء الحظ الملك الفرنسي، إذ أرسلت إليه أمه الملكة بلانش مبالغ ضخمة من العملة الفضية، لكن السفينة التي تحمل المال غرقت، وهي في طريقها إلى عكا، بعد تعرضها لعواصف شديدة[4]، أما عن الجهود التي بذلت في فرنسا لجمع مساعدات لملكهم ، فقد صادف نجاحا ضئيلا، بعد أن قنع النبلاء الفرنسيون بما وجهوه من اتهامات إلى البابا بالتخاذل[5]، واجتاحت البلاد حركة شعبية أطلق عليها صليبية أو حملة" الرعاة Pastouraux" أعلنت عن عزمها التوجه للشرق

---

(١) Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 329-330 .

(٢) Lloyd .S., English Society and The Crusade 1216-1307, (Oxford, 1988), p. 214 .

(٣) Matthew Paris, Chronica Majora, vol.5,p.117.

(٤) Matthew Paris, English History, vol. , p. 445.

(٥) Throop,P.A., Criticism, p. 262 .

لنجدة الملك الفرنسي هناك، لكن ما لبثت أن تحولت إلى حركة هدامـــة أثـــارت القلاقلَ في البلاد، مما دعا الملكة بلانش إلى القضاء عليهم[1]، وأعلن المــؤرخ المعاصر متى الباريزي أن هؤلاء الرعاة كانوا مأجورين من قبل الملك الصالح أيوب لنشر الاضطرابات في الأراضي الفرنسية، فيضطر الملك الفرنسي إلـــى العودة إلى بلاده ومغادرة الشام[2]، وهو الأمر الذي يفتقد إلى دليـــل أو إثبـــات، ويرجح أنها كانت مجرد إشاعة نشرها رجال الدين آنذاك لتشويه هذه الحركـــة التي حاربتهم وأساءت إليهم في تلك الفترة، خاصة وان متى الباريزي كان أحـــد رجال الدين البارزين في ذلك الوقت، بالإضافة إلى أنه كان من المعـــروف أن الملك الصالح قد توفى أثناء وجود لويس في مصر، ومتى الباريزي هو الوحيد الذي أورد هذه الحادثة دون باقي المصادر العربية والغربية؟

أما في أسبانيا فما أن صلت الأنباء بفشل حملة لويس التاســـع، وتـــدهور الإمارات الصليبية في بلاد الشام، حتى أعلن فرديناند الثالـــث Ferdinand III ملك قشتالة (١٢١٧-١٢٥٤م/ ٦١٤-٦٥٢هـ)، حمل الصليب ورغبته في قيادة حملة صليبية، لكن وفاته في العام نفسه ١٢٥٤م/ ٦٥٢هن حالـــت دون قيامـــه

---

[1] كان من الممكن لتلك الحركة أن تمد الملك الفرنسي بقوات ضخمة لو أحسن تنظيمها وقيادتها وتوجيهها إلى مكانها الصحيح، وظهرت تلك الحركة على يد راهب يدعى روجيه، أدعى أنه مكلف من قبل الرب بمهمة تحرير الأراضي المقدسة، ولكونه هنغاري المولد أطلق على نفسه سيد هنغاريا، وزعم أنه يتلقى الأوامر من السيدة العذراء لجمع الناس حوله، والذهاب لمساندة صليبيي الشام وإخراج الملك الفرنسي من محنته، وعرفت حركته بالرعاة لأن معظم المشتركين فيها من رعاة الأغنام، الذين اتخذوا الصليب شعار لحركتهم، وحدث أن انضمت إليهم جموع غفيرة من اللصوص والمجرمين والقتلة، وأخذوا يعيثون فسادا في أنحاء فرنسا، وأيدتهم الملكة بلانش أول الأمر، عسى أن ينجحوا في تقديم المساعدة لأبنتها في الشرق، غير أنه بعد توالي اعتداءاتهم سارعت إلى تأديبهم، فتعقبتهم وشتت شملهم، ولم ينج منهم سوى قلة قليلة، أنظر:

Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 453-455; Paul Wieglerg, op. cit., p.262.

[2] أضاف متى الباريزي أن هؤلاء الرعاة أساؤا إلى رجال الدين، متهمين إياهم بالانحراف عن العقيدة المسيحية، والجشع والسعي لجمع الــموال، أنظر :

Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 456.

بذلك[1]، وهكذا كانت أحوال الغرب الأوروبي المضطربة، وتخاذل البابا وتـردد هنري الثالث، أسبابًا حالت دون مساهمتهم في حملة جديدة لمسـاندة الإمـارات الصليبية في الشام، وعلى رأسها الملك الفرنسي الموجود هناك.

وفي خضم تلك الأحداث، كانت الإمارات الصليبية في بلاد الشام، عاجزة عن الاشتراك في حملة صليبية أخرى، بعد أن شـاهد صـليبيو الشـام فشـل الحملات الصليبية المتعاقبة، كما لم تنس الجاليات الإيطالية –سواء الجنويـة أو البيازنة، أو حتى البنادقة– ما لحقها من أضرار ماديـة نتيجـة فشـل الحملـة الصليبية السابعة على مصر، وأدرك صليبيو الشام أنه يجب أن يكـون مجـيء لويس التاسع إليهم هو لمنع الانقسامات الداخلية والحروب الأهلية التـي تنشـب فيما بينهم، علة يستطيع أن يقدم لهم ما عجز الغرب الأوروبي عن تحقيقه فـي الثلاث وستين عامًا الأخيرة، بداية من أولى استغاثاتهم التـي أعقبـت معركـة حطين عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ.

لكن لويس التاسع واجه مشكلات عدة وصعوبات فور استقراره في الشام، خاصة مع العجز الواضح في قوة الصليبيين العسكرية، وبعد أن أصبح الفرسان يؤثرون العودة إلى بلادهم مفضلين إياها على البقاء وسـط الحالـة المترديـة للإمارات الصليبية في بلاد الشام، وحقق الملك نجاحا ملحوظا في التغلب علـى تلك المشكلة[2]، كما قام خلال إقامته في الشام بعدة أعمال لمساندة صليبي الشام،

---

(1) لم يكن لويس التاسع يتوقع في الواقع قدوم أية مساعدات من أسبانيا، لأن الممالك المسيحية فيها كانت آنذاك في صراع مرير ضد المسلمين، فكان فرديناند الثالث نفسه قد دخل مع المسلمين حروبا عدة حتى نجح في عام ١٢٣٦م من فتح قرطبة –مقر خلافة بني أمية بالأندلس– وحول مسجدها الجامع إلى كاتدرائية، واستولى على إشبيلية عام ١٢٤٨م، أعظم حواضر الأندلس، واستمر في تلك الحروب حتى وفاته حتى أن البابوية أسبغت عليه صفة القداسة واعتبروه نموذجا للبطولة المسيحية، لذا فقد انشغل طيلة حياته بتلك الحروب، مما حال بينه وبين المساهمة في حروب خارج أسبانيا، أنظر :
يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس، ج٢، ص ٢٣٤-٢٣٥.

(2) وجد لويس أن الوسيلة الوحيدة لاستمالة المحاربين إليه هي إغراؤهم بالمال، فأخـذ ينفـق بسخاء على كل من التحق بخدمته لكن القوات التي انضمت إليه حينئذ كانت تتألف فـي الواقع من جماعات أو عصابات قليلة العدد، تختلف أجناسها وطباعهـا، جـاءت إلـى الشرق حباً في المغامرة، وطمعًا فيما يغدقه لويس عليهم من مال، أي أنها كانـت مـن المرتزقة الذين ينقصهم الحماس الصادق للحروب الصليبية، أنظر:

فإلى جانب قيامه بتحصين المعاقل الصليبية هناك مثل عكا وحيفا وقيسارية ويافا[1]، كان لوجوده في الشام وسياسته الدبلوماسية تجاه المماليك في مصر والأيوبيين في دمشق أثره، فقد جعلت هؤلاء ينشغلون بالسعي إلى كسب ود الملك الفرنسي، فكان للإمارات الصليبية أن تنعم بقدر من الهدوء والاستقرار خاصة في إمارة أنطاكي[2]، وقد حاول لويس مرارا استغلال المنازعات بين المماليك والأيوبيين في تدعيم صليبي الشام[3]، بل وحاول استمالة المغول الخطر الجديد الذي بات يهدد الجميع[4]، وأثبت نجاحا ملحوظا في معظم ما قام به نظرا

جوانفيل: القديس لويس، ص ٢١٩-٢٢٠. راجع أيضًا:

جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع في الشرق الأوسط، ص ١٠٨.

[1] أتم لويس عددًا من التحصينات في تلك المدن الصليبية، وأنفق على ذلك أموالاً طائلة، وقد جنى ثمار تلك الأعمال حين صمدت الإمارات الصليبية فيما بعد فترة من الزمن أمام الهجمات الإسلامية، ولمزيد من التفاصيل. انظر: جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع في الشرق الأوسط، ص ٢٧٤ – ٢٨٦.

[2] توسط لويس التاسع لعقد الصلح بين إمارة أنطاكية وأرمينيا، وتوثقت العلاقة بين الطرفين بزواج بوهيمند السادس أمير أنطاكية من سبيل Sibylle – ابنة هيثوم الأول ملك أرمينيا – وبنجاح لويس في إقرار الصلح بين الطرفين جنبهما الصراعات التي كانت قائمة بينهما واستفاد منها المسلمون كثيرًا آنذاك، لمزيد من التفاصيل. أنظر: حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٣٩٠ – ٣٩٣.

[3] عندما توفى الملك الصالح أيوب في ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م/ ١٥ شعبان ٦٤٧ هـ – أثناء وجود لويس وحملته بالأراضي المصرية – وعند ذلك تم استدعاء ابنه وولي العهد توران شاه من بلاد الشام، والذي ساءت علاقته بمماليك أبيه من أول لحظة وطأت قدماه أرض مصر، وتولى مقاليد الحكم فيها، فقتلوه في مايو ١٢٥٠م/ صفر ٦٤٨، لينتهي حكم بنى أيوب في مصر، وتزوجت شجرة الدر – أرملة الملك الصالح من عز الدين أيبك، الذي أصبح سلطانا على مصر، ليبدأ بحكمه عهد الدولة المملوكية في مصر. الأمر الذي لم يقبله الأيوبيين في الشام وقامت مناوشات بين المماليك والأيوبيين، وحاول الملك لويس أن يستغل الموقف فعقد معاهدة مع المماليك في مايو ١٢٥١م/ صفر ٦٤٩ هـ، على أن يسلموه أسرى الصليبيين في مصر، وبيت المقدس مقابل تعهده بمحالفتهم ضد الأيوبيين. لكن تصالح الأيوبيين مع المماليك، أفشل مخططات الملك الفرنسي، كذلك عندما أرادت طائفة الحشيشية التوقف عن دفع الجزية التي كانت يؤدوها لجماعة الإسبتارية، أجبرهم الملك الفرنسي على مواصلة دفعها. أنظر:

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ٢ ٣٦٤-٣٧٥، ج٧، ص ١-١٠؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٤٧-٣٨٥: سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص ٧٧٥-٧٨٩. أنظر أيضًا:

جوانفيل: القديس لويس، ص ١٩٩-٢٠٤.

[4] انظر ما سيأتي في الفصل الخامس .

لسيطرته على كل الفصائل الصليبية في بلاد الشام، وعلـــى عكـــس مـــا تـــرك الإمبراطور فريدريك الثاني الإمارات الصليبية عند عودته لأوروبا فـــي عـــام ١٢٢٩م/ ٦٢٩هـــ، وجدنا الإمارات الصليبية تنعم بكثير من الاستقرار في عهد الملك لويس التاسع، وصار الصليبيون جميعا شعبا واحدا في مملكة مغايرة تماما عن ذي قبل[١].

وعند تقييم الفترة الزمنية السابقة، نجد أن الصليبيين أضاعوا المكاســب التي حققها لهم الغرب الأوروبي، الممثل في الحملة الإنجليزية وفقدوا بعد ذلـــك مدينة بيت المقدس للمرة الثانيـــة وإلـــى الأبـــد، وانعكـــس الصـــراع البـــابوي الإمبراطوري في أوروبا عليهم في بلاد الشام، ثم كان تحرك الغرب الأوروبي بعد استغاثاتهم المتكررة الشبيهة باستغاثات ما بعد حطـــين، وأســـفر رد الفعـــل الأوروبي عن قيام حملة لويس التاسع، التي فشلت فشلاً ذريعًا، لكن بقاء لـــويس التاسع في بلاد الشام كان بمثابة الإنقاذ للإمارات الصليبية في بلاد الشام في تلك الفترة من الصراعات الداخلية المزمنة، والخطر الإسلامي المحيط بها، وانشغال البابا إنوسنت الرابع والإمبراطور فريدريك الثاني بصـــراعهما معـــا، والتـــردد الواضح في سياسة الملك الإنجليزي هنري الثالـــث نحـــو القضـــية الصـــليبية، وانشغال الممالك المسيحية الأسبانية الدائم بحروب الاسترداد، وأخيـــرًا اكتفـــاء القوى الأوروبية المختلفة بوعود جوفاء.

** ** **

---

(١) Jean Richard, Saint Louis Roi d'un France Féodale, Soutien de laTerre Sain, p. 254.

الفصل الخامس

دعم الغرب الأوروبي للإمارات الصليبية
حتى سقوط عكا
(١٢٥٤-١٢٩١م/ ٦٥٢-٦٩٠هـ)

يتناول هذا الفصل بالدراسة الدعم الأوروبي للإمارات الصليبية في بلاد الشام ، خلال الفترة الممتدة من عام ١٢٥٤م/ ٦٥٢ هـ إلى ١٢٩١م/ ٦٩٠ هـ، وهي مرحلة بالغة الأهمية في تاريخ العلاقة بين الطرفين إذ شهد العام الأول رحيل الملك الفرنسي لويس التاسع عن بلاد الشام، وهو أخر ملوك أوروبا الكبار الذين فكروا في التوجه إلى الشرق، وشهد العام الأخير المشهد الأخير من مشاهد الوجود الصليبي في بلاد الشام بسقوط عكا في أيدي المسلمين.

وواقع الأمر، أن المرحلة المذكورة تقتضي -بصورة ملحة- دراسة العلاقة بين الطرفين، من أجل إدراك عوامل القصور والضعف التي أدت في النهاية إلى تهاوي الكيان الصليبي في بلاد الشام، خاصة بعد أن طرأت أحداث مهمة، منها رحيل لويس التاسع من الشام، وتركه الصليبيين دون قيادة مركزية يخضعون لها، مما جعلهم في صراعات داخلية مستمرة، وقيام دولة المماليك في مصر، وإصرار سلاطينها على استئصال الكيان الصليبي من بلاد الشام، وظهور الخطر المغولي الذي بات يهدد الجميع، وفي غمار تلك الأحداث كان على السياسة الأوروبية -ممثلة في البابوية والملوك والحكام- أن تبرهن على قدرتها على إنقاذ الإمارات الصليبية في بلاد الشام قبل الانهيار.

في ٢٥ إبريل ١٢٥٤م/ ٥ ربيع الأول ٦٥٢هـ، غادر الملك الفرنسي لويس التاسع الأراضي المقدسة عائدًا إلى بلاده، بعد أن قضى بها أربع سنوات، بذل فيها جهدًا كبيرًا في تقوية الإمارات الصليبية في بلاد الشام[1]. وكان آخر ما قام به لويس أن ترك قوة رمزية في الأراضي المقدسة على نفقته الخاصة، تتألف من مائة فارس على رأسهم جيفروا دي سارجين [2] Jaffroi de Sarginus الذي أصبح مارشالاً للمملكة -للمحافظة على بقايا الممتلكات الصليبية المتداعية' على أن يكون يوحنا دي إيبلين John de Ibelin -سيد

---

[1] جوانفيل: القديس لويس، ص ٢٤٦-٢٤٧؛ روتلان: المصدر السابق، ص ٢٢٦.

[2] جيفروا دي سارجين، ولد في شمال فرنسا عام ١٢٠٥م، ووصل إلى بلاد الشام مرافقًا لقوات الحملة الفرنسية عام ١٢٣٩م، وكان من أقرب المقربين للملك لويس في أثناء وجود الأخير في بلاد الشام؛ لذا وثق الملك فيه وعهد إليه بأهم الوظائف وذلك قبيل رحيله من الشرق، انظر: رايلي-سميث: ما الحروب الصليبية؟ ص ٩٤-١٠٠.

أرسوف وصيًا على المملكة الصليبية، ومسيطرًا على زمام الأمور بها[1]. غير أن رحيله خلف في الإمارات الصليبية حالة من التدهور السياسي والعسكري، بل والاقتصادي، لم يسبق لصليبي الشام أن مروا بمثلها، حتى أن إحدى الحوليات المعاصرة أعلنت صراحة فقال كاتبها: "إنه كان خيرًا للإمارات الصليبية لو أن الملك لويس لم يغادر فرنسا من البداية"[2].

وفي حقيقة الأمر أوجد رحيل لويس التاسع عن الشام فراغًا في السلطة السياسية، إذ أثبتت الأحداث التالية عجز يوحنا دي إيبلين وجيفروا دي سارجين عن أن يقوما بمهمتهما، فلم تكن لأي منهما الشخصية القوية التي تكفل احترام الأمراء الصليبيين له.

وزادت أحوال الصليبيين سوءًا في مايو ١٢٥٤م/ ربيع الثاني ٦٥٢هـ؛ عندما توفي كونراد الرابع صاحب الحق الشرعي في المملكة الصليبية -تاركًا لقب مملكة بيت المقدس لابنه كونرادين، الذي لم يكن قد تجاوز الثانية من عمره -ومثلما كان شأن والده، لم يكن من المتوقع أن يتوجه إلى الشرق بحيث يباشر حكم المملكة الصليبية. وعلى الرغم من ذلك- أو ربما لهذا السبب بالذات- عد الصليبيون كونرادين الملك الشرعي للمملكة الصليبية ولو من الناحية الإسمية فقط[3]. وبات واضحًا من ذلك الحين أن من أبرز مظاهر ضعف الإمارات الصليبية عدم وجود ملك مقيم بها، بل كان الملوك -في معظم الأحيان- إما أطفالاً أو غائبين؛ وكان الأوصياء هم الذين يديرون شئون الحكم، ويعينهم

---

(1) يوحنا سيد أرسوف هو الابن الأكبر ليوحنا دي إيبلين سيد بيروت الكبير، وقد حصل على إقطاعية أرسوف بعد وفاة والده في عام ١٢٣٦م، عندما أصبحت أرسوف ضمن ميراثه، وكانت مخربة منذ عام ١١٨٧م، وظلت هكذا حتى عام ١٢٤١م، عندما بدأ يوحنا في تحصينها بمساعدة الأسبتارية، أما في مجال السياسة في المملكة الصليبية الأسمية، فقد حرص يوحنا على أن يتفوق على أقرانه. واستطاع بالفعل أن يصبح أقوى شخصية فيها ولم يكن يتفوق عليه سوى لويس التاسع في أثناء وجوده في بلاد الشام، وتولى منصب الوصاية على المملكة مرتين من ١٢٥٣م حتى ١٢٥٤م، والثانية من ١٢٥٦م-١٢٥٨م وظل سيدًا على أرسوف حتى وفاته عام ١٢٥٨م، انظر:
ياسر عبد الوهاب: آل إيبلين، ص ٢٦٠-٢٦٥.

(2) Chronica Salimben, p. 235.

(3) Riley- Smith, The Feudal Nobility, p.216.

بارونات المحكمة العليا الذين يحكمون السيطرة عليهم، ولم يكن ممكناً حينئذ الحصول على موافقة جماعية على سياسات مستمرة[١]. وثمة سبب آخر تكون مدتها عشر سنوات وعشرة أيام، وذلك في أواخر عام ١٢٥٦م/ ٦٥٤هـ[٢]، ويرجح الباحث أن السلبية التي أبداها الملك الإنجليزي تجاه استغاثة الصليبيين به هي التي دفعت الصليبيين إلى المسارعة إلى عقد الهدنة السابقة مع المماليك ومع بقايا البيت الأويبي في آن واحد .

وفى الوقت الذي بدأ المماليك فيه يظهرون كقوة جديدة على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى، افتقر فرنج الشام لقائد قوى يملأ الفراغ الناتج عن رحيل الملك الفرنسي، ومع اقتراب الخطر المغولي المتحفز للإطاحة بالجميع؛ اندلعت الخلافات الصليبية الداخلية مرة أخرى، وكانت أشد ضراوة من ذي قبل، فيما عرف بالحرب الأهلية بين جاليات المدن الإيطالية البحرية في عكا، وشملت أرجاء المملكة الصليبية في بلاد الشام[٣] ومن المعروف أن هذه الجاليات هي التي قامت بدور كبير في الشرق اللاتيني بمعظم ما حصلت عليه من موارد، كما أنهم سعوا على الدوام من أجل إقامة هدن ومعاهدات سلام مع المسلمين في مختلف المراحل، وأبلغ دليل على ذلك أن النشاط التجاري في المنطقة في القرن

---

(١) ظلت الوصاية على مملكة بيت المقدس لفترة طويلة شبه حكر على أسرة آل إيبلين، الذين استغلوا هذا المنصب لخدمة أهدافهم الخاصة في بعض الفترات؛ بل وفى النزاع فيما بينهم، مثلما حدث في الصراع يوحنا سيد أرسوف –السابق ذكره– مع ابن عمه يوحنا سيد يافا ١٢٤٦–١٢٦٦م وصاحب المؤلفات القانونية الشهيرة في المملكة، واستطاع الأخير انتزاع الوصاية من الأول في الفترة من عام ١٢٥٤ إلى ١٢٥٦م. ولمزيد من التفاصيل انظر:

Mayer, H.E., "Ibelin versus Ibelin" The struggle for the Regency of Jerusalem, 1253-1258, in P.A.P.S:, vol. CXXII, 1972, pp.. 33-36.

راجع أيضًا: ياسر عبد الوهاب: آل إيبلين، ص ٢٦٠–٢٦٩.

(٢) روتلان: المصدر السابق، ص ٣٢–٣٣، وقد ذكر بعض المؤرخين المحدثين أن يافا كانت هذه المرة ضمن المناطق التي تشملها الهدنة الثانية، معتمدين في ذلك على أن سياق الأحداث فيما بعد الذي يوضح أنها كانت كذلك، أنظر :

Grousset,R., op. cit., t.3, P. 533; Runciman,S., op. cit., vol. 3,p. 282; Jean Richard, The Latin kingdom, vol. 2, p. 347.

(٣) Grousset,R., op. cit., t.3, P. 534.

الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري وصل إلى ذروته، في الفترة التي تلت معاهدة يافا عام ١٢٢٩م/٦٢٦هـ حتى معركة غزة عام ١٢٤٤م[١]. ولكن لم تلبث كل جالية أن عينت لها قنصلاً عامًا في بلاد الشام، يرعى مصالحها ومصالح رعاياها، مما جعل هذه الجاليات عاملاً قويًا من عوامل تفكك الصليبيين في بلاد الشام[٢]؛ إذ نشبت الحرب الأهلية بعد تجدد النزاع القديم بين البنادقة والجنوية، وكان في هذه المرة بسبب دير "القديس سابا" "St. Sabas"[٣] ، ولم يكن الهدف هو السيطرة على الدير، بقدر ما كان السيطرة على ميناء عكا الذي يشرف عليه الدير، وكذلك تجارة شرقي البحر المتوسط بأكملها، والتهب الموقف عندما سارع الجنوية باحتلال الدير في أواخر عام ١٢٥٦م/٦٥٤هـ[٤] ووصل الصراع إلى ذروته بعدما تورط صليبيو الشام جميعًا فيه، حتى وصل بأمير أنطاكية بوهيمند السادس أن يمد أصدقاءه من البيازنة بما يقرب من ثمانمائة جندي من ضمن من تركهم الملك لويس التاسع لحماية الإمارات الصليبية؛ فانغمسوا بدورهم في الصراعات الداخلية بمنأى عن

---

(١) هايد: تاريخ التجارة، ج١، ص ٣٤٩.

(٢) في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي/ أواسط القرن السابع الهجري ظهر جليًا تعارض مصالح الجاليات الإيطالية التجارية مع الصالح الصليبي العام، واشتد التنافس فيما بينما، فلم يكن من السهل التدخل لفض هذه المشكلات المتداخلة؛ وذلك لضعف شخصية الأوصياء على مملكة بيت المقدس من جهة، وازدياد نفوذ قناصل هذه الجاليات من جهة أخرى، مما أنذر بخطورة الأوضاع آنذاك. لمزيد من التفاصيل انظر:

حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٣٩٦.

(٣) يقع دير القديس سابا أعلى تل النبي صمويل أو تل مونتيجو Mountiugo، وكان الجنوية يستحوذون على هذا التل بأكمله، فيما عدا الصخرة التي عليها الدير المشرف على ميناء عكا، انظر:

هايد: تاريخ التجارة، ج١، ص ٣٤٩-٣٥٠.

(٤) قام الجنوية بنهب عدد من دور البنادقة، والاستيلاء على سفنهم الراسية في ميناء عكا. انظر:

Annales Januenses, in M.G.H.SS., vol. 18, p. 240. L'es Gestes des Chiprois, p. 742; CF. Also: King, op.cit., p. 443.

مهمتهم الأصلية، وذلك في أوائل فبراير ١٢٥٨م/ ٢٤ محرم ٦٥٦هـ[1]، مما أدى إلى انقسام المعسكر الصليبي إلى قسمين: الأول بقيادة البنادقة الذين نجحوا في السيطرة على عكا، يساندهم البيازنة وتجاه مرسيليا وبوهيمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس، والداوية والتيوتون وأسرة إيبلين[2]. وفريق الجنوية الذين كانوا يسيطرون على مدينة صور، يؤازرهم فيليب مونتفورت حاكم صور، والجاليات الإنكونية وجماعة الأسبتارية، بالإضافة إلى عائلة أمبرياكو Aambriaco[3] ولحقت بالطرفين خسائر جسيمة بعد أن شملت الحرب كافة أرجاء المجتمع الصليبي في بلاد الشام[4] وأخيرًا أدرك الصليبيون ضرورة وقف القتال -ولو إلى حين- خاصة بعد ظهور الخطر المغولي، وتعاظم قوة المماليك المتحفزين للإطاحة بالكيان الصليبي[5].

---

[1] تحالف فيليب مونتفورت سيد صور مع الجنوية، منتهزًا الفرصة لطرد البنادقة مع مدينته التي يسيطرون على ثلثها، كذلك وقفت أسرة إيبلين بزعامة يوحنا -الوصي على المملكة آنذاك- بجانب البنادقة وتزعمهم، أي أن الصليبيين جميعًا تورطوا في هذا النزاع، انظر: روتلان: المصدر السابق، ص ٢٣٤، انظر أيضًا:

Ann. T.S., pp. 447-448; Eracles, L'Estoire, p. 447; CF. Also: Jean Richard, The Latin kingdom, vol. 2, p. 365.

[2] انزعج تجار عكا عندما شعروا أن فيليب دي مونتفورت سيد صور يحاول جعل صور منافسًا تجاريًا لمدينتهم؛ لذلك أبدوا تعاطفهم مع الفريق المساند للبيازنة، كما تخوفت أسرة إيبلين -التي اشتهرت بتمسكها بالقانون والحقوق الشرعية- من نوايا فيليب دي مونتفورت في الاستقلال بمدينة صور عن حكومة عكا. لمزيد من التفاصيل: انظر: روتلان: المصدر السابق، ص ٢٣٦. راجع أيضًا: ياسر عبد الوهاب: آل إيبلين، ص ٢٦٧.

[3] ما أن تولى هنري إمبرياكو Henery Ambriaco حكم جبيل (١٢٥٢-١٢٦٢م/ ٦٥٠-٦٦٠هـ) حتى عد بوهيمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس عدوه اللدود، وأعلن فورًا خروجه من تبعية بوهيمند السادس وانضم للجنوية أعداء بوهيمند في تلك الفترة، وأرسل قواته لمساندتهم، انظر:

حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٤٠١؛ سامية عامر: الصليبيون في فلسطين "جبيل" عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٢م، ص ١٢٢.

[4] Runciman,S., The Crusader states "1243-1261", in setton, history of the Crusades, vol.2., pp. 568-569.

[5] Ann. T.S., pp. 448-449; Eracles, L'Estoire, pp. 445-446; John LaMonte, Feudal Monarchy, p. 241.

ومما لا شك فيه أن هذه النزاعات الداخلية والحروب الأهلية تركت آثارًا عميقة على الإمارات الصليبية فإلى جانب الانقسامات هناك تلك الخسائر المادية والبشرية الضخمة التي لحقت بها جميعًا، فطبقًا لرواية روتلان قتل في السنة الأولى من هذه الحرب (١٢٥٧-١٢٥٨م/٦٥٥-٦٥٦هـ) حوالي عشرين ألفًا من الصليبيين، هذا بخلاف الخراب والدمار الذي ألم بعكا وصور وبقية أنحاء المملكة الصليبية، وما لحق بالتجارة من بوار وكساد[١].

ولم تكن الإمارات الصليبية في شمال الشام أحسن حالاً من بقية الممتلكات الصليبية في المنطقة؛ فقد واصل التركمان مهاجمة إمارة أنطاكية في هجمات أشد ضراوة من ذي قبل؛ وقتلوا عددًا كبيرًا من السكان وأسروا عددًا كبيرًا من المزارعين بعد سرقة ممتلكاتهم، وحرقوا محاصيلهم ودمروا الحقول، ووصلت هجماتهم إلى أسوار المدينة نفسها فأصبح سكانها محاصرين داخلها، غير قادرين على مزاولة أي نشاط خارجي؛ لاسيما وقد استولى التركمان أيضًا على البضائع الواردة إلى أنطاكية والخارجة منها، واضطر سكان أنطاكية إلى الهجرة من المدينة التي طالما عمرت بسكانها واشتهرت بكثرتهم وتعدد أصولهم، وأصبحت أنطاكية التي كانت "مرآة الشرق" Speculum Orientes وعاصمته "مضغة للكلاب"، على حد تعبير أميرها بوهيمند السادس في خطاب بعث به إلى هنري الثالث ملك إنجلترا في ١٤ مايو ١٢٥٥م/٥ ربيع الثاني ٦٥٣ هـ[٢]، كذلك لم تنج القرى المحيطة بإمارة طرابلس من هجمات التركمان، الذين دمروا معظمها وأسروا عددًا كبيرًا من سكانها[٣].

وكان طبيعيا أن تتأثر أحوال الإمارات الصليبية اقتصاديا لما سبق، إذ من المعروف أن الإمارات الصليبية اعتمدت -إلى حد كبير- على التجارة مع المدن الإسلامية الداخلية في بلاد الشام التي يتجه أهلها الموانئ الصليبية لعقد صفقاتهم، دافعين ضرائب متنوعة على هذه التجارة، إلى جانب المكوس التي

---

(١) روتلان: المصدر السابق، ٢٣٥.

(٢) وقد أورد حسين عطية ترجمة كامل لنص هذا الخطاب الذي كان المصدر الوحيد الذي يلقى الضوء على أحوال أنطاكية في ذلك الوقت، انظر: حسين عطية: إمارة أنطاكية الملحق رقم ٣ ص ٥١٧.

(٣) Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 5, pp. 305- 306.

يجبيها الصليبيون نظير مرور السلع من بوابات المدن الصليبية إلى المدن الإسلامية[١]، ومع الفوضى التي أحدثها التركمان لم يكن أحد يأمن المرور عبر إقليم أنطاكية إلى طرابلس، فقل عدد التجار المسلمين بعد أن كنت موانئ مثل طرابلس تعج بهم[٢]، وثمة سؤال يطرح نفسه: ما موقف الغرب الأوروبي من صليبيي الشام عقب رحيل لويس التاسع عن الشام؟

"مع أن لويس كان رجلاً تقيًا يخشى الله فإن الله قاده إلى كارثة، إذ جرى تفسير ما تعرض له الصليبيون في الأيام المتقدمة من سوء حظ على أنه عقاب لهم على ما ارتكبوه من أثر ورذئل، فإن هذه الفكرة السابقة لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها: أليس من الجائز أن الله تجهم لكل للحركة الصليبية بأجمعها؟"، بهذه الكلمات عبرت حولية سالمبين Chronica Salimbene عما يدور في عقول الأوروبيين[٣]، وفي الوقت نفسه تعرض الرهبان الذين دعوا للحملة الصليبية السابقة للإهانة البالغة، بعد أن فشلت الحملة، خاصة في معظم المدن الفرنسية[٤]، ويرى الباحث أن هذه نتيجة طبيعية، إذ لم يكن بد من البحث عن كبش فداء لهذا الفشل، وتمثل ذلك الكبش في الكنيسة ورجال الدين دعوا للحملة.

وكانت فرنسا مهيأة لذلك بالفعل، فقد أصبحت بعد وفاة الملكة بلانش -في أواخر نوفمبر ١٢٥٢م/ رمضان ٦٥٠هـ- مسرحا للفوضى والحروب الأهلية، وباتت الأخطار تهددها من الداخل والخارج، مما أدى إلى إسراع ملكها الغائب في الشرق بالعودة إلى فرنسا[٥] وما أن وصل إلى بلاده حتى جعل شغله الشاغل إعادة السلام والأمن الداخلي إلى فرنسا، مع الاهتمام بالتنظيم الإداري ونشر العدل هناك[٦]، ولم ينس الملك لويس مطلقا الإمارات الصليبية، فدأب كل سنة حتى وفاته على أن يرسل مبلغا من المال للانفاق على قواته التي جلفها في عكا تحت قيادة جيفروا دي سارجين، وكان لويس يأمل دائمًا في أن يعود للشرق مرة

---

(١) عن هذه المكوس وأنواعها، أنظر ما سبق من الفصل الثاني.

(٢) حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٣٧٨.

(٣) Chronica Salimbene, p. 236.

(٤) Chronica Salimbene, p. 237.

(٥) جوزيف نسيم يوسف: لويس في الشرق الأوسط، ص ٣٣٢.

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ص ٢٧٨.

أخرى في حملة صليبية جديدة في يوم من الأيام[١]، ومن المرجح أن صليبي الشام كانوا يدركون هذا وما يشغل الملك الفرنسي آنذاك، وأنه بذل في حملته ما بوسعه من أجلهم، لذا وجدناهم في تلك الفترة يركزون استغاثتهم نحو باقي قوى الغرب الأوروبي، خاصة البابوية منبت الحركة الصليبية، وإنجلترا وألمانيا.

بينما انشغلت القوى الأوروبي السابق ذكرها عن الإمارات الصليبية بما يعرف بالنزاع حول العرش الصقلي، إذ حدث أن انتقل هذا العرش إلى مانفرد، الابن غير الشرعي للإمبراطور الألماني فريدريك الثاني، والذي توج نفسه في مايو ١٢٥٤م/ ربيع ثان ٦٥٢هـ، مما دفع البابا إنوسنت الرابع للإسراع إلى محاربته، ولكنه لم يلبث أن هزم[٢]، فبادر البابا أولاً بعرض التاج الصقلي على ريتشارد أوف كورونوول –شقيق الملك الإنجليزي–، لامتلاكه ثروات هائلة، وهو بثرائه قادر على إتمام الاستعدادات العسكرية اللازمة للحرب ضد مانفرد، لكن ريتشارد رفض هذا الاقتراح[٣]، فلجأ البابا إلى هنري الثالث عارضًا تاج صقلية على ابنه الأمير إدموند Edmund ووافق الملك الإنجليزي على ذلك، بل أعلن –في مغالطة واجة– أن حملته في صقلية جواز مروره في حملته الكبرى المتجهة نحو إنقاذ الركائز الصليبية في الشام[٤]، وهكذا وجدنا البابوية تخطط لحملة عسكرية لمحاربة ملك ألماني بأيدي الإنجليز من أجل مصالح شخصية في صقلية، بينما تعاني الإمارات الصليبية في الشام من تدهور في الأوضاع الاقتصادية والعسكرية.

واستكمالاً لما سبق، وفي سابقة تعد الأولى من نوعها، أرسل البابا مندوبه

---

(١) جوانفيل : القديس لويس، ص ٣٠٦.

(٢) Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 88; CF. also: Powicke, F.M., The Thirteenth country, 1216-1307, 2nd, (Oxford, 1962), p. 120.

(٣) كان رد ريتشارد أوف كورنوول على البابا: "إنك تطلب مني التسلق للسماء والوصول للقمر والاستيلاء عليه، أنظر :

Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 89.

(٤) يدافع المؤرخ سيمون لويد عن الملك الإنجليزي قائلا: "إن هنري اعتقد أن بإمكانه القيام بالحملتن معًا، بمعنى التوجه إلى صقلية ومنها إلى بلاد الشام"، أنظر :

Lloyd,S., English Society and the Crusade, p. 222.

ألبير أسقف بارما Albert of Parma إلى إنجلترا، لتمويل النذر الصليبي لهنري الثالث نحو صقلية، بعد أن كان نحو الإمارات الصليبية في الشام[١]، وكان البابا ألكسندر الرابع Alexander IV (١٢٥٤-١٢٦١م/ ٦٥٢-٦٥٩هـ)[٢] ، قد أبدى اهتمامًا واضحًا بالقضاء نهائيًا على أسرة الهوهنشتاوفن، وتمسك باتفاق سلفه مع هنري الثالث، الذي يقضي بتخصيص أموال العشور الصليبية في إنجلترا وأيرلندا وويلز للحملة الصقلية، مع الوعد بالغفران الكنسي لمن يشاركون في هذه الحملة ضد مانفرد، وكأنهم ذاهبون لمساعدة الأراضي المقدسة في بلاد الشام[٣]، وزاد البابا ألكسندر الرابع ففرض ضريبة كنسية على رجال الدين الإنجليز لمدة ثلاث سنوات، لتمويل الحملة الصليبية ضد مانفرد كما أطلقت عليها البابوية –مما زاد من سخط رجال الدين الإنجليز[٤]، وعم السخط معظم الدوائر الكنسية ف يإنجلترا بعد أن عد رجال الدين تمويل الحملة الصقلية عملاً "غير شرعي ومنافيًا للمبادئ الصليبية"، وذلك في عام ١٢٥٦م/ ٦٥٤هـ ثم أدرك هنري الثالث ضرورة التغاضي عن اتفاقه مع البابوية بشأن صقلية، بعد تورط بلاده في ديون ثقيلة قدرت بحوالي أكثر من مائة وستة وثلاثين ألف مارك، واحتمال تعرض إنجلترا لعقوبة الحرمان الكنسي واللعنة في حالة عدم

---

(١) أعلن هنري الثالث أمام المندوب البابوي استحالة قيامه بغزو صقلية والتوجه إلى الأراضي المقدسة في آن واحد، لأن ذلك عبء ثقيل على موارد إنجلترا، فأرسل إليه البابا خطابا يعلن فيه أن البابوية تفضل أن يغزو صقلية أولاً قبل التوجه إلى بلاد الشام، لأن صقلية في هذه الحالة ستصبح قاعدة إمدادات لصليبيي الشام، أنظر :
Powicke, F.M., The Thirteenth country, p.122; Lloyd,S., English Society and the Crusade, p. 223.

(٢) هو رينالدو دي ساجيني Rinaldo de Segne، تولى الكرسي البابوي خلفا لإنوسنت الرابع في ١٢ ديسمبر عام ١٢٥٤م، وكان تفكيره مركزًا على القضاء على أسرة الهوهنشتاوفن وبسط سيطرته على إيطالية وصقلية، أنظر :
Hons Kuhner, Encyclopedia of papacy, p. 91.

(٣) عبر المؤرخ ورجل الدين الإنجليزي متى الباريزي عن ذلك قائلا: "إن البابا والملك الإنجليزي مثل راعيا الغنم اللذين تحالفا من أجل موت القطيع"، أنظر :
Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 143; CF. also: Tyerman, England and The Crusades, p. 121.

(٤) Smith .G., A history of England, (NewYork, 1974), p. 84.

سداد هذه الديون[1]، وزادت رغبته في ذلك عندما وجد معارضة شديدة للتدخل في صقلية من جانب البارونات ورجال الدين في المملكة الإنجليزية، وذلك في ظل نجاح مانفرد في بسط سيطرته في جزيرة صقلية في عام ١٢٥٨م/ ٦٥٦هـ[2].

وإذا حاولنا تقييم سياسة الملك الإنجليزي هنري الثالث تجاه الإمارات الصليبية في بلاد الشام، فنجد أنه تغافل عن نجدة صليبي الشام، عندما استغاثوا به في الفترة التي تلت رحيل لويس التاسع عن الشرق، وخاصة في الفترة بين ١٢٥٤-١٢٥٦م/ ٦٥٢-٦٥٤هـ، وعندما ظل فضل الاتجاه نحو صقلية كاد أن يقود بلاده إلى كارثة مالية، وثبت فشله عندما حول جهوده الصليبية لنجدة صليبي الشام، وفشل في الحصول على تاج صقلية لابنه إدموند، ومن ثم تضاءلت سريعًا فرص رحيله إلى الشرق، ليشبه الدائر في حلقة مفرغة، دار في مثلها الملوك الإنجليز جميعا في سياستهم الصليبية، ابتداء من هنري الثاني حتى إدوارد، باستثناء ريتشارد قلب الأسد بالطبع.

أما البابوية فقد تناست -بدليل الأحداث السابقة- صليبي الشام تمامًا في تلك الفترة، وشغلت بالإعداد لحملة صليبية – لها امتيازات الحملات الصليبية كلها لخدمة مصالحها الخاصة في صقلية واكتفى البابا ألكسندر الرابع في ١٠ أكتوبر ١٢٥٦م/ ١٩ رمضان ٦٥٤هـ بتخصيص ألف مارك من الفضة كانت وديعة لدى الداوية، لتنفق في الدفاع عن مدينة يافا[3] وعندما نشبت في المملكة الصليبية الحرب الأهلية عام ١٢٥٦م/٦٥٤هـ، تحرك البابا متأخرًا جدًا، حيث

---

(١) Powicke, F.M., op. Cit., p. 124.

(٢) كان الملك الإنجليزي قد تورط في نزاع مرير مع البارونات بزعامة الإيرل سيمون دي مونتفورت، بسبب الابتزازات المالية البابوية، ومحاولة هنري الثالث التدخل في صقلية، وكذلك التدخل الأجنبي السافر في إنجلترا، مما دفع هؤلاء البارونات الثائرين إلى الضغط على هنري وإجباره على الموافقة على سيطرتهم التهامة على إدارة البلاد بأنفسهم حتى عام ١٢٦٣م عندما أندلعت الحرب الأهلية بين هنري وباروناته، أنظر:
Powicke, F.M., op. Cit., p. 120; Tyerman, op. Cit., p. 120.

(٣) Ann. T.S., p. 446; CF. also: Mayer,H.E., Ibelin versus Ibelin, pp. 46-47.

استدعى مندوبين عن الأطراف الصليبية المتحاربة للاجتماع به في مدينة فيترب Viterbe الإيطالية في ٣ يوليو ١٢٥٨م / ٢ رجب ٦٥٦هـ، وأصدر أوامره لهم بوقف القتال بينهم في خلال ثلاثة أيام، وعقد هدنة مباشرة، لكنه فشل في وقف القتال الدائر آنذاك[١].

وتوقفت الحرب لا لأن البابوية أرادت ذلك بل لأن القوى الموجودة على الساحة آنذاك أحست بالخطر الذي بدأ يهدد الجميع ألا وهو الخطر المغولي. فما إن نجح تيموجين Temujin قائد إحدى القبائل المغولية في توحيد قبائل أقاليم آسيا الشرقية شمالي بلاد الصين تحت لوائه، مستعيناً بقبيلة ضد أخرى، حتى تربع على عرشها جميعًا واختير ملكًا عليها عام ١٢٠٦م/ ١٢ هـ، وسمى نفسه جنكيز خان Chingis Kh?n [٢]، واستطاع خلفاؤه في فترة وجيزة أن يصلوا بالنفوذ المغولي إلى حدود الغرب الأوروبي وحدود العراق في وقت واحد تسبقهم أنباء القتل والتدمير، والتي أثارت العالمين الإسلامي والمسيحي معًا ، وتطلب الأمر أن تقوم السلطات الدينية والعلمانية في الغرب الأوروبي بمحاولة جذب العنصر المغولي، واستمالته ضد المسلمين في مصر وبلاد الشام من جهة، وحماية الإمارات الصليبية من جهة أخرى، وحماية الإمارات الصليبية من جهة أخرى، وإبعادهم عن أوروبا من جهة ثالثة، وهو ما يعني أنها كانت فرصة الغرب الأوروبي الأخيرة لكي يظهر أنه على استعداد دائم لمساندة صليبي الشام في أوقات المحن.

---

(١) Ann. T.S., pp. 448-49; Annales Januenses, p. 240.

(٢) جنكيز خان تعنى "إمبراطور البشر جميعًا" وهو من مواليد عام ١١٦٧م / ٥٦٣هـ، وكان أول من نجح في تنظيم إمبراطورية المغول، ووضع لهم قانونهم المعروف باسم "الياسا" "Ysa"، وكان لاتباع المغاول لهذا القانون أثره في ترابط دولتهم وتفوقها وفى عهده بلغ عدد قوات الجيش المغولي حوالي ثمانمائة ألف رجل، وحين مات في عام ١٢٢٧م / ٦٢٣هـ خلف بعده إمبراطورية شاسعة امتدت من كوريا شرقًا إلى فارس غربًا، ومن جنوب روسيا شمالاً إلى المحيط الهادي جنوبًا، لمزيد من التفاصيل، انظر:

David, M., The Mongols in Syria, in C.S., p. 232., Jean Richard, The Mongals and the Franks, in J.A.H., vol. 111, p. 545-47.

وكذلك: عبد السلام عبد العزيز فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، القاهرة ١٩٨١م، ص ٣٣-٣٧، محمود سعيد عمران: المغول وأوروبا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٧م، ص ٣١-٣٧.

وبدأت أولى محاولات الغرب الأوروبي من أجل التقرب من المغول في عهد البابا إنوسنت الرابع، الذي بعث بثلاث سفارات إلى المغول في الفترة من ١٢٤٥-١٢٤٨م / ٦٤٣-٦٤٦هـ[١]. باءت جميعًا بالفشل، وظهر ذلك واضحًا في استقبال القائد المغولي بايجو Baiju للسفارة الثالثة، إذ طالب أعضاء السفارة بأن يحضر البابا بشخصه إليه، ويمثل أمامًا معلنًا خضوعه وإلا عده المغول عدوًا[٢] وبات واضحًا مما انتهت إليه السفارة البابوية الثالثة أن محاولات البابا إنوسنت الرابع فشلت في اجتذاب المغول للتحالف ضد المسلمين، ومساندة

---

[١] زود البابا تلك السفارات بخطابات لدعوة المغول للدخول في الديانة المسيحية وإحلال السلام محل الحرب بين الغرب الأوروبي والمغول، وأولى تلك السفارات تزعمها لورنس البرتغالي الذي لم يصلنا عن رحلته إلا قدر قليل من المعلومات، أما السفارة الثانية فتزعمها يوحنا أوف بلانوكاربينو الذي وصل إلى بلاط الإمبراطور المغولي في أواخر يوليو ١٢٤٦م، وقابل كيوك خان، وسلمه خطاب البابا وبالرغم من إكرام كيوك خان لسفارة البابا، لم يوافق على مطالبه، أما السفارة الثالثة فكانت تضم رهبانا من جماعة الدومينيكان، ورأس هذه السفارة إسلين اللمباردى، يرافقه سيمون أوف كونتين الذي كتب كل شئ عن هذه الرحلة في كتابه تاريخ التتار Historia Tartarorum وضمنه فنسنت دي بيفييه في موسوعته مرآة التاريخ وقد وصلت سفارة إسلين إلى تبريز في مايو ١٢٤٧م. وكانت تعليمات البابا تقضى بتسليم خطاباته لأول قائد مغولي يقابلونه. ولمزيد من التفاصيل. انظر:

Rockhill ,W., The Journey of Frair John of Pian de Carpine, as narrated by himself, Hakluyt Society, Ser.2.vol. 4, (London, 1900), pp. 1-33; Vincent de Beauvais, Speculam Historiale, Lib, 32. Ch. 50; CF. also: Pelliot, les Mongols el la Papauté, in R.O.C., vol. 23, 1922-1923, pp. 238-240.

راجع أيضًا: محمد مرسى الشيخ: أوروبا والتتار، الإسكندرية ٢٠٠٣م، ص ٢٩٧-٣٠٨.

[٢] وبصحبتها سفيرين من أتباع القائد بايجو، هما أيبج Ai-bed وسرجيس Sargis استقبلهم البابا في سرية شديدة، وكان الباعث على إرسالهم هو رغبة المغول في التجسس لمعرفة مدى قوة كل من البابا والغرب الأوروبي، حتى يتسنى لهم تحديد موقفهم من الغرب الأوروبي في ضوء المعلومات التي تصلهم، وقد أقام مبعوثي المغول في أوروبا حتى عام ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ، لمزيد من التفاصيل. انظر:

Vincent de Beauvis, Speculum Historiale, Lib. 32, Ch. 49-51; Matthew Paris, English History, vol. 2, p. 280.

راجع أيضًا: جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع في الشرق الأوسط، ص ٢٤٢-٢٤٣، عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ط ١، ١٩٩٧م، ص ٧١-٧١.

الإمارات الصليبية في الشام. وحمايتهم من الخطر المغولي القادم إلى المنطقة بالرغم من أن خضوع البابا مع ملوك الغرب الأوروبي لسيادة المغول كان مطلب المغول الوحيد.

وحين فشلت محاولات البابوية في التقارب مع المغول بادرت السلطة العلمانية الأوروبية بالسعي عساها أن تنجح فيما فشلت فيه السلطة الدينية، وهو ما حدث في أثناء وجود الملك الفرنسي لويس التاسع في قبرص في طريقه لقيادة حملته الصليبية المتجهة إلى مـــصر[1]. وعلى الرغم من فشل تلك المحاولة واصل لويس جهوده من أجل إتمام هذا الأمر إلا أنه لم يحقق نجاحًا ملحوظًا في ذلك[2]. وهكذا فشلت السلطات الدينية والعلمانية في الغرب الأوروبي في جذب المغول إلى صفها، وإبعاد خطرهم عن الإمارات الصليبية في الشرق، وفي ظل هذه المتغيرات السياسية والعسكرية كان على صليبي الشام أن يتحملوا وحدهم مسئولية مواجهة الخطر القادم مهددًا الجميع.

---

[1] وفى ذلك يقول المؤرخ جوانفيل –المصاحب للملك الفرنسي في حملته– "إنه بينما كان الملك مقيمًا في قبرص أنفذ إليه ملك التتار رسولين من قبله يحملان له رسالة طيبة وكريمة، وكان من بين ما ذكره ملك التتار استعداده لمعاونة الملك الفرنسي في غزو الأراضي المقدسة، وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين". انظر: جوانفيل: القديس لويس، ص ٨٤-٨٥.

[2] أوفد الملك الفرنسي في محاولته الأولى ثلاثة من الرهبان –في يناير ١٢٤٩م– حاملين معهم الهدايا النفيسة لخان المغول، وكان رد خان المغول قاسيًا على الملك الفرنسي، إذ قال له في رده "عليك أن ترسل إلينا بشئ من ذهبك وفضتك، فإن لم تفعل ذلك فإننا سندمرك أنت وشعبك كما دمرنا ملوكا من قبل"، وفى محاولته الثانية أوفد سفارة بقيادة الراهب وليم روبروك وصلت إلى البلاط المغولي في ديسمبر ١٢٥٣م وعادت برد مغولي أعنف من الرد السابق، إذ أرسل منكوخان إلى الملك الفرنسي قائلا: "إن العالم سيكون في سلام في حالة خضوعه من مطلع الشمس إلى موضع غروبها لأمر الخاقان المغولي، وإذا عرفت أوامرنا وأطعتنا أبعث إلينا بمبعوثيك، وإذا لم تطعنا فستعرف ما في مقدورنا القيام به، حتى ولو كان بينك وبيننا بحار وجبال". ولمزيد من التفاصيل:
Willima Rubruk, Itinerorium, trans. By W. Rockluyt Society, ser. 2, vol. 41, (London, 1900), pp. 203-204.
وانظر أيضًا: جوانفيل: القديس لويس، ص ٢١٨-٢١٩.

وحين زِاد الخطر المغولي أسرع هيثوم الأول Hethoum I ملك أرمينيا الصغرى (١٢٢٦-١٢٦٩م / ٦٢٣-٦٦٧هـ) بتقديم فروض الولاء والطاعة للمغول، لإنقاذ مملكته الصغيرة من مصير محتوم[1]. بل يقول المؤرخ الأرميني هايتون Hayton إن هيثوم نجح في الحصول على وعد من المغول بأنه في حالة انتزاع المغول الأراضي المقدسة من المسلمين، فسوف يردونها إلى صليبي الشام[2]، وعندما وصلت جحافل المغول إلى مدينة حلب في شمالي الشام يقودهم هولاكو، كان ميسورًا على الملك الأرمينى الأول أن يقنع زوج ابنته -بوهيمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس- بأن يحذو حذوه وهو ما حدث بالفعل، فذهب بوهيمند إلى معسكر المغول وسجد أمام هولاكو معلنًا خضوعه وتصور بوهيمند أن مشكلاته قد انتهت، وما عليه إلا دفع الجزية للمغول، إلا أن الأحداث أثبتت عكس ذلك، فقد كان يوثيميوس Euthymius بطريرك أنطاكية اليوناني، الذي طرده بوهيمند من المدينة بناء على أوامر البابوية، قد قابل هولاكو وأعلن

---

(١) في عام ١٢٤٨م أرسل الملك الأرميني شقيقه المؤرخ سمباد إلى بلاط جيوك خان، ولم يكتف بذلك بل ذهب بنفسه إلى بلاط الخان منكو -في عام ١٢٥٤م- وعندما عاد إلى بلاده كان قد حصل من المغول على وعد بسلامة ووحدة بلاده، وإعفاء الكنائس والأديرة الأرمينية التي تقع داخل الإمبراطورية المغولية من الضرائب. انظر:

Bretschneider, King Haithom's Journey to Mangolia, in Medieval Researches, 2 vols, (London, 1888), vol. 1, pp. 164-172; Boyle, J.A., The Journey of Hethum I, King of Littele Armenia, to the court of the Great Khan Mongke; in C.A.J., 1964; pp. 177-181; Runciman,S., the Crusades States, p. 572

(٢) طبقًا لسير الأحداث بعد ذلك، ندرك أن رواية هايتون ليس لها -إذا كانت رواية صادقة- نظير في كتابات المؤرخين الآخرين المعاصرين مثل كيراكوس وسمباد -شقيق هيثوم نفسه- عن حديثه لرحلة أخيه إلى بلاط المغول -بالإضافة إلى أن هيثوم قد توجه لمقابلة خان المغول كتابع يملؤه الخوف لا كحليف وند، انظر:

Hayton, La Flor de Estoira de la terre dorient, in R.H.C. –Doc. Arm., vol. 2, pp. 146-166; Marino Sanudo, Liber Secretorum, p. 236-237; Sempad, p. 561; Kirakos de Grajak, Histoire d'Arménie (Etrait). Ed. M. Dulaurier, in J.A., vol. IXI, 1858, p. 488.

وراجع أيضًا: حسين عطية: سفارات الأرمن إلى المغول وأثرها على العلاقات الأوروبية المغولية، بحث ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٤٠-٢٤٢.

خضوعه له، فما كان من الأخير إلا أن قرر إعادة البطريرك اليوناني إلى منصبه في أنطاكية[١]. وضحى بوهيمند بوحدة الكنيسة اللاتينية في الشرق ولم تكن مصالح الكنيسة ولم تكن مصالح الكنيسة تهم بوهيمند على أية حال، وهو الذي حرص -مثل أسلافه من أمراء أنطاكية- بدءًا من بوهيمند الثالث- على مصالحة الشخصية، دون النظر إلى الصالح الصليبي العام -وتلقى بوهيمند من المغول ثمن خضوعه لهم- فقد سلموا له أملاكه التي كانت بحوزة المسلمين. كما استولى بوهيمند في الوقت نفسه على اللاذقية وجبلة مستغلاً الفوضى التي أثارها الغزو المغولي في أملاك المسلمين، واستطاع ربط كونتيه طرابلس بإمارة أنطاكية[٢].

ولم يكن تصرف بوهيمند في حقيقة الأمر قدوة للفرنج في عكا. فقد رفضت بقية القوى الصليبية في بلاد الشام موقف بوهيمند من التحالف، لخوفها من المغول الذين أنذروا الصليبيين مهددين بتدمير أسوار عكا والحصون الصليبية[٣] كما كانت موافقة بوهيمند على إعادة بطريرك أنطاكية إلى منصبه -استجابة لأوامر هولاكو- شرخًا في جدار وحدة مسيحي الشرق[٤] ثم إن صدام بعض القوى الصليبية مع قوات المغول نبه بقية القوى اللاتينية إلى خطورة الغزاة الجدد، فقد حدث أن حاول جوليان Julian حاكم صيدا (١٢٤٧-١٢٥٧م

---

[١] حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٤١٨-٤١٩.

[٢] وعندما تقدم جيش هولاكو إلى دمشق واستولى عليها في مارس ١٢٦٠م / ربيع الأول ٦٥٨هـ كان يعاونه الأرمن وقوات بوهيمند السادس. انظر:
ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦م، ص ٣٢٥، ٣٣٠-٣٣١، ٣٤٥، رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج ١، ص ٣٠٧-٣٠٨، ابن العميد، تاريخ الأيوبيين، ص ١٧٤، المقريزي: السلوك، ج١، ق ٢، ص ٤٢٦، وراجع أيضًا:
Cartulaire, vol. 2., no. 3022, p. 29; Inventaire de Piéces de Terre Sainte de L'Ordrede Opital, edl J. Delaville le Roulx; in R.O.L., vol. 3, 1845, nos. 325-326, p. 98; CF. also: Cahen,C.,Syrie du Nord, p. 706.

[١] Peter Jackson, The Crisis in The Holy Land in 1260, in E.H.R., 1980, pp. 490-492. Peter Jackson, The Crisis in The Holy Land in 1260, in E.H.R., 1980, pp. 490-492.

[٤] حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٤٣٥.

/ ٦٤٥-٦٧٣هـ) استغلال فرصة انحدار المسلمين أمام المغول في الإغارة على ما حوله من أملاك المسلمين لكنه اضطر إلى الاصطدام بالقوى المغولية الموجودة في تلك المنطقة، وتبع ذلك توغل المغول في مدينة صيدا ونهبوها وأخذوا ثلاثمائة أسير صليبـي[١].

وإزاء ما سبق، قرر البارونات الصليبيين الاجتماع في عكا ليناقشوا الموقف، فإما أن يخضعوا للمغول أو يعانوا ما عاناه المسلمون من قوات كتبغا -القائد المغولي الذي خلف هولاكو بعد عودة الأخير إلى بلاده- وقرروا استبعاد فكرة الخضوع، لأنهم أدركوا أن الخضوع للمغول يعنى دفع جزية ضخمة، وهو أمر لم يكن بمقدورهم القيام به في تلك الفترة[٢]. ولما اجتاح المغول بعض القرى الفرنجية، كان على الصليبيين أن يحسبوا حساب الغزاة الجدد، ولما لم يكن لهم حاكم يقطع في جليل أمورهم، بالإضافة إلى أن المندوب البابوي بالشام توماس أجنى Thomas Agni لم يكن على دراية بسياسة الشرق، بسبب هذا كله تحصن الصليبيون في معاقلهم استعدادًا للخطر القادم[٣] وفي الوقت نفسه أرسلوا استغاثات عاجلة إلى قوى الغرب، في ١ مارس ١٢٦٠م / ٢٢ ربيع الأول ٦٥٨هـ أرسل توماس أجنى رسالة استغاثة إلى ملوك أوروبا وأمرائها ورجال الدين فيها، يخبرهم فيها كيف أنذر هولاكو حكومة عكا وطالب بأن يخضع له الصليبيون جميعًا[٤]، وبعد الاستغاثة بثلاثة أيام أرسل توماس بيرارد

---

(١) Ann. T.S., p 440; Hayton, La Flor, p. 174; Eracles, L'Estoire, pp. 444-445; CF. also: John La Monte, The Sidon, in B., vol. 17, pp. 206-209.

(٢) Jean Richard, The Latin Kingdom, vol. 2, p. 388.

(٣) استعد الصليبيون للخطر المغولي بعدة طرق، خاصة في عكا، فقد جلبوا الحجارة من مقبرة المدينة، لاستخدامها كقذائف ضد آلات الحصار، وقطعوا الأشجار المحيطة بالمدينة، وهدموا الأبراج الموجودة بالبساتين المحيطة بالمدينة، انظر:
Marino Sanudo, Liber Secretorum, p. 22.
وأيضًا روتلان: المصدر السابق، ص ٢٤١.

(٤) ومن الملاحظ أن توماس أجني حاول في استغاثاته تلك استثارة الحماسة الدينية لدي قـوى الغرب الأوروبي، يقول: "إن ملك التتار أرسل إلينا خطابات عدة مليئة بالكفر والكبريـاء، إذ يخبرنا بأنه كانت سلطة الرب موجودة فهي السماء، أما الأرض فتخضع لسلطانه هو"، أنظر:

Thomas Berard مقدم الداوية (١٢٥٦-١٢٧٣م / ٦٥٤—٦٧١هـ) في ٤ مارس ١٢٦٠م / ٢٥ ربيع الأول ٦٥٨هـ رسالة استغاثة أخرى إلى أمادي Amadeus نائب الداوية في إنجلترا يخبره بالمآسي التي تمر بها الإمارات الصليبية في بلاد الشام والأخطار التي تحدق بها، وكيف خضع الأمير الأنطاكي بوهيمند للمغول وركع مثل العبيد –على حد تعبيره– بين قدمي هولاكو، ويختتم توماس رسالته بطلب المساعدة الفورية من الملك الإنجليزي هنري الثالث[١]. وفى الوقت نفسه أرسل أحد رجال الداوية –وهو جي دي باسلفيل Guy de Bassalville رسالة سرد فيها الأحداث السابق ذكرها إلى فرانكو دي بورن Franco de Born نائب الداوية في مقاطعة أكويتانيا في أبريل ١٢٦٠م / ربيع ثان ٦٥٨هـ [٢]، ثم كانت أهم الاستغاثات تلك التي أرسلها توماس أجنى وسادة الفرنج –من علمانيين ورجال دين– إلى شارل كونت أنجو– شقيق الملك الفرنسي– في يوم ٢٢ أبريل ١٢٦٠م / ٩ جمادى الأول ٦٥٨هـ يصفون فيها أخطار الغزو المغولي على بلاد الشام، ويختمون خطابهم بطلب المساعدة من شارل وقوى الغرب الأوروبي، وبقولهم "ونحن نسأل جلالتكم بركب جاثية ، وأيدي متشابكة ودموع مسفوحة .... أن تساعدونا دون تأخير... ونسأل أن يتلى هذا الخطاب على الجميع في الغرب .... لكي يتحمسوا لتحرير إخوانهم المسيحيين"[٣]. وتظهر أهمية تلك الرسالة في أنها أفادت إلى حد كبير في معرفة أحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام في تلك الفترة، فقد أشارت إلى أن

Letter of Thomas Agin the papal Legate to all kings, princes, Archbishops, et,. Acte, (` Mars, 1206), Menkonis. Chronica, in M.G.H.S, col. 23, pp. 247-249.

(١) Letter of Thomas Berad Master of the Temple to Amadeus receptor of the Temple in England Acre, (4 Mars,1260), in Annals Burtonesis, pp. 491-495.

(٢) Letter of Guy de Bassalile toFrancon de born, Acre, (April. 1960), in Matthew of Westminster, vol. 2., pp. 382-383.

(٣) Letter des Chrétiends de Terre Saint ? Charles d'Anjou, Acre, (22 April,1260), ed. Delaborde, in R.O.L., in R.O.L., vol. 2., (Paris, 1894), pp. 213-215.

الصليبيين ندموا أشد الندم على اندحار الدولة الأيوبية، آنذلك أتاح للمغول التوغل بسهولة داخل بلاد الشام ، وكيف لا يستطيع صليبيو الشام مقاومة المغول لفترة طويلة مما يدل على ضعف إمكاناتهم العسكرية والاقتصادية آنذاك، ونستنتج حقيقة هامة تظهرها إحدى العبارات الواردة في الخطاب وهي تلك التي يقول فيها صليبيو الشام: "إن ما ينقصنا لا يغيب عن فطنتكم وجلالتكم"، في إشارة واضحة إلى أن الغرب الأوروبي كان يدرك تماما ما تحتاجه الإمارات الصليبية في تلك الفترة الهامة مما يلقي الضوء على طبيعة العلاقات بين الطرفين، وهي المور التي لم تسجلها لنا المصادر الصليبية المدونة في الشرق، ليكون ذلك دليلاً هامًا على رد الفعل السلبي للغرب الأوروبي تجاه ما يحيط بصليبي الشام من مخاطر.

وعندخروج المماليك من مصر وتقدمهم للشام –بقيادة قطز– لملاقاة المغول، واقترابها من عكا [1]، بعث قطز إلى الصليبيين يطلب أن يقفوا على الحياد بينه وبين المغول، وألا يعترضوا طريقه في أثناء مروره في أراضيهم، حتى يضمن عدم قيام أي تحالف بين المغول والصليبيين في الوقت الذي كان يعرف فيه أن هولاكو عاد إلى فارس، وأنه ليس مع كتبغا القوات المغولية الكافيـــة[2]. وجاءت مبادرة قطز في وقت لم يكن الصليبيون فيه قد نسوا أعداء

---

[1] كان هولاكو قد أرسل سفارة مغولية من أربعة رجال إلى قطز، يطالبونه بالاستسلام ويهددونه بتدمير مصر إن لم يخضع لهولاكو، فأمر قطز بقتل الرسل، وخرج بجيش مصر في ٢٧ يوليو ١٢٦٠م / ١٥ شعبان ٦٥٨هـــ، واستولى على غزة وفر حاكمها المغولي، ثم واصل تقدمه في الشام لملاقاة المغول هناك، انظر:

اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٣٦٥؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٨-٤٣٠؛ ابن أيبك: الدرة الذكية، ص ٤٩.

[2] كانت القوات المغولية قليلة مقارنة بأعدادها في أثناء وجود هولاكو بينهم، وقد اختلف المؤرخون حول العدد الصحيح الذي تركه هولاكو لقائده كتبغا، فبينما اتفق كيراكوس وفارتان على أن كتبغا دخل المعركة ومعه عشرون ألف مقاتل، فإن تاريخ هرقل يقدر تلك القوات بمائة ألف مقاتل، بينما اتفق ابن العبري وهايتون على أنها عشرة آلاف فقط، والأرجح أن يكون ما قاله كيراكوس وفارتان الأقرب للصواب، انظر:

Vertan le Grand, Histoire Universsele, Extrait, ed. M.Dularier, in J.A., vol. 16, 1868, p. 498; Hayton, la Flor, pp. 172-173; Eracles, L'Estoire, p. 444; Kiraks, Histoire d'Arménie, p. 498; Bar Hebraeus, The Chronography, ed. And trans. By E.A. Wallis Budge, 2 vols,

المغول على صيدا، فمالوا لتلبية طلبات المماليك لولا أن عارض هذا القرار أنوسانجر هاوزن Annosanger Hausen مقدم التيوتون (١٢٥٦-١٢٧٣م / ٦٥٤-٦٧٢هـ) قائلاً: "إنه ليس من الحكمة أن نضيع حياة المسيحيين في نصر قد يشجع المسلمين على أنه يستديروا بعده ضد الفرنج"، واقتنع المجتمعون برأيه ورفضوا تقديم أي مساعدة للمماليك عسكريًا، لكنهم صرحوا لهم بالمرور من أراضيهم وشراء المؤن من أسواقهم[١]. وهكذا تفرغ قطز لملاقاة كتبغا وقواته، واستطاع الانتصار على المغول في موقعة عين جالوت في سبتمبر ١٢٦٠م / ٢٤ رمضان ٦٥٨هـ[٢].

وفى خضم الأحداث السابقة، ومع استغاثات الصليبيين بالغرب الأوروبي، كان رد الغرب هو الصمت والسلبية الواضحة، يقول المؤرخ متى أوف ويستمنستر Mathew of Westminster، أنه عندما قرأ أمادي نائب الداوية في إنجلترا استغاثة صليبي الشام على الملك هنري الثالث وباروناته لم يعد رد فعل الملك الإنجليزي إظهار تأثره وحزنه[٣]، أما لويس التاسع ملك فرنسا فحين علم بالخطر المغولي على الصليبيين فلم يفعل شيئًا إلا عقد اجتماع في باريس في ١٠ إبريل ١٢٦١م / ١١ جمادى الآخرة ٦٥٩هـ، أصدر فيه أوامره، بإقامة الصلوات ومنع إقامة الصلوات ومنع إقامة الحفلات والألعاب الرياضية في بلاده لمدة عامين، مساندة للإمارات الصليبية في محنتها[٤] وابتهج البابا ألكسندر الرابع بانتصار المماليك على المغول وعده إنجازًا للصليبيين غير أن أحدًا لم يكن يتوقع مجئ بيبرس وما فعله مع الصليبيين بعد ذلك[٥]. وكان على صليبي

(Oxfoed, 1932), p. 437; CF. also: Peter, T., The Battle of Ayn Jalute, a Reexamined, in C.S., pp. 236-237.

راجع أيضًا: حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٤٤١.

(١) المقريزي: السلوك ج١، ق ٢، ص ٤٣٠؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٦٤.

راجع أيضًا: روتلان: المصدر السابق، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) عن معركة عين جالوت، انظر:

ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ١٧٥؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٠-٤٣١؛ رشيد الدين الهمزاني: جامع التواريخ، م ٢، ج ١، ص ٣١٣-٣١٥.

(٣) Matthew of Westminster, op. cit., vol. 2, p. 383.

(٤) Amadi, op. cit., vol. 1, p. 205.

(٥) Petter Jackson, op. cit, p. 507.

الشام أن يعتمدوا على أنفسهم في تقرير مصيرهم، وينقذوا ما تبقى من ممتلكاتهم في الشرق.

وفى ظل الضعف الصليبي الواضح، ظهر جليًا أن السلطان بيبرس أعد نفسه للقضاء على الإمارات الصليبية في بلاد الشام [١]، وقرر توطيد علاقته بالقوى المجاورة في المنطقة، من أجل عزل الكيان الصليبي في الشرق [٢]، ولكي يدرك حقيقة نوايا الغرب تجاه صليبي الشام أقام علاقات ودية مع حاكم صقلية مانفريد [٣]، فكان على المنافس الأول لمانفريد وهو شارل كونت أنجو أن يسعى لصداقة بيبرس، ويرسل بسفارة ودية إليه من أجلِ هذا الهدف[٤] وجدنا شارل كونت آنجو -الذي يعلق عليه صليبيو الشام آمالاً كبيرة- يقيم علاقات

---

[١] عقب انتصار قطز في عين جالوت، في أثناء عودته بالقوات إلى مصر انقض عليه الأمير بيبرس البندقداري وقتله، وعندما دخل بيبرس بالقوات إلى مصر اعترف الأمراء به سلطانا، وتلقب بالملك الظاهر بيبرس، وذلك في أكتوبر ١٢٦٠م / ذي القعدة ٦٥٨هـ، ولمزيد من التفاصيل. انظر:

المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٢؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٤، ص ٣٧٠؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٣-٨٤؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٧٦-٧٨؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ١٧٦، راجع أيضًا:

جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس في مصر، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٤١.

[٢] أقام بيبرس علاقة طيبة ببركة خان زعيم مغول القبيلة الذهبية الذي اعتنق الإسلام، وصار من أعداء هولاكو وللتضييق على المغول وحلفائهم الأرمن، ساعد بيبرس عز الدين كيكاوس السلجوقي -كما تحسنت علاقاته بميخائيل باليولوغوس الإمبراطور البيزنطي، لمزيد من التفاصيل، انظر:

ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٨، ٢٤١؛ إسحق عبيد: الدولة البيزنطية في عصر باليولوغوس، ط بنى غازي ب.ت، ص ٦١؛ فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، القاهرة ١٩٧٦م / ص ٧٥-٧٨.

[٣] على الرغم من أن البابوية تحالفت مع شارل كونت آنجو في حربها ضد مانفريد من أجل انتزاع صقلية منه، إلا أنه بوفاة مانفريد عام ١٢٦٦م، وجدت البابوية أن شارل حل محل الأباطرة الألمان في أطماعهم في الأملاك البابوية، انظر:

R?hricht, Etudes Sur Les dernier temps due Royaume de Jersalem, in A.O.L.2, (Paris, 1884), p. 368; Ziada ,M., The Mamluk Sultans to 1293, in Setton, The Crusaders, vol. 2., pp. 748.

[٤] في يوليو ١٢٦٤م / رمضان ٦٦٢هـ، وصل رسول شارل إلى القاهرة، ومعه رسالة سلام ومحبة وعلاقات ودية مع السلطان بيبرس، انظر: المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢١٣. راجع أيضًا: سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٩١٩.

طيبة مع بيبرس- ونجح الأمر في تحقيق هدفه، الذي هو عزل الإمارات الصليبية في بلاد الشام عن القوى الكبرى في الغرب الأوروبي.

وفى ذلك الحين، تجددت الحروب الأهلية بين الجاليات الإيطالية التجارية، وتسببت في إضعاف الصليبيين في تلك الفترة [(١)]، ونتيجة لما سبق اضطروا إلى الإسراع إلى بيبرس طالبين الصلح، لكن شروط بيبرس القاسية كانت سببًا في فشل مساعيهم[(٢)] وبات واضحًا أن بيبرس كان يهدف إلى إفشال تلك المفاوضات، وقد فشلت بالفعل وعندما رفض الإسبتارية والداوية التخلي عن أسرى المسلمين الذين في حوزتهم لأهمية هؤلاء الأسرى اقتصاديًا للجماعتين، إذ كانوا صناعًا مهرة يستفيد الصليبيون كثيرًا من وجودهم بينهم[(٣)] قطع السلطان المفاوضات وتوجه إلى الناصرة ودمر كنيسة العذراء، وشن هجومًا مفاجئًا على عكا في ١٤ ابريل ١٢٦٣م / ٢٢ جمادى الأولى ٦٦١هـ، فدار قتال عنيف خارج أسوار المدينة، أصيب فيه جيفروا دي سارجين بجراح خطيرة، لكن السلطان لم يكن وقتئذ مستعدًا لمنازلة المدينة -فانسحب بعد أن نهب أراضيها[(٤)].

ويرى الباحث أن ما حدث يبرز أن من أهم أهداف بيبرس في حملاته على الإمارات الصليبية الضغط اقتصاديا على الصليبيين، وذلك بتدمير المناطق

---

(١) في ١٦ أغسطس ١٢٦١م / ١٥ رمضان ٦٥٩هـ، تجدد القتال بين الجنوية والبنادقة في عكا، ودمرت سفن تخص الجانبين، انظر:

Eracles, L'Esoire, pp. 455-456.

راجع أيضًا: هايد: تاريخ التجارة، ج ١، ص ٣٥٤-٣٥٥.

(٢) في عام ١٢٦١م / ٦٥٩هـ طلب يوحنا كونت يافا عقد صلح مع بيبرس، فوافق بيبرس وفق شروط قاسية على الصليبيين، وفى عام ١٢٦٣م / ٦٦١هـ، جاء رسل الداوية والإسبتارية يطلبون الصلح، فعرض بيبرس عليهم شروطًا عدوها مهينة فلما رفضوها طردهم، عن ذلك انظر:

ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١١٧-١١٨، ١٥١، ١٥٧؛ بيبرس الداوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٨٥؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢٣، ص ٣٦٤، ٤٨٤-٤٨٧. راجع أيضًا:

ياسر عبد الوهاب: آل إيبلين، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٣) Ann. T.S., p. 450.

(٤) اصطحب السلطان بيبرس في تلك الهجمات ثلاثين ألف مقاتل، وعهد إلى الأمير علاء الدين طيبرس بتدمير كنيسة العذراء بالناصرة ولمزيد من التفاصيل. انظر:

المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٨٧. وكذلك:

Eracles, L'Estoire, pp. 443; CF. also: R?hricht,Gescicte, p. 923.

الواقعة حول المدن الصليبية وتخريبها، وكانت تمثل الثقل الاقتصاد، إذ كانت تشمل الحقول والمراعي الخاصة بها.

وشعر الصليبيون بمدى الخطر المحدق نتيجة هجمات بيبرس ضدهم، فسارعوا إلى الغرب الأوروبي طالبين المساعدة؛ فأرسلوا خطابًا إلى هنري الثالث ملك إنجلترا في ١٤ إبريل ١٢٦٣م/ ٢٣ جمادى الأولى ٦٦١هـ، يشرحون فيه مدى معاناتهم وحاجتهم إلى الأموال والأقوات، ورغبة بيبرس في القضاء على الكيان الصليبي، وكذلك ما أحدثه المغول من دمار اقتصادي في بلاد الشام[١]. كما ذهبت سفارة صليبية إلى الغرب الأوروبي، حيث التقت بالبابا أوربان الرابع Urban IV[٢]، وشرحت تهديدات بيبرس الأخيرة، وحصاره لعكا العاصمة السياسية والعسكرية للمملكة الصليبية في الشرق[٣] لكن الغرب الأوروبي لم يكن مستعدًا الاستعداد الكافي لتقديم المساعدة الفعالة لهم؛ فقد كانت البابوية مشغولة باستئصال الوجود الألماني من صقلية، الممثل في الملك مانفريد. أما الملك الإنجليزي فكان في نزاع دائم مع باروناته وتطور الأمر إلى نشوب حرب أهلية في عام ١٢٦٧م / ٦٦٥هـ استمرت فترة طويلة، حتى نجح

---

(١) Strehlke, no. 124; Delaville le Roulx, cart. No. 3058.

(٢) جيمس بانتليون فرنسي المولد، وكان راهبا في ليون، ودرس في باريس حيث حصل على درجة علمية كبرى في القانون اللاهوتي، وعمل مندوبا بابويا في بولندا، وفي عام ١٢٥٤م تم اختياره بطريركا لبيت المقدس، لكنه لم يصل إلى عكا إلا في ٣ يونيو ١٢٥٦م، وفي خلال فترة شغله منصب البطريركية حاول بطريرك أنطاكية تولي هذا المنصب، لكنه فسل، ثم تولاه رئيس أساقفة صور حتى وفاته، ثم رئيس أساقفة قيسارية لحين وصول جيمس، وفي ٤ سبتمبر ١٢٦١م اختير جيمس ليعتلي الكرسي البابوي، تحت اسم أوربان الرابع، وكان قد جمع فيما مضى بين منصب بطريرك المملكة ومنصب المندوب البابوي، ويلاحظ أن معظم بطاركة بيت المقدس منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي جمعوا بين هذين المنصفبين مما جعلهم أداة في أيدي البابوات، كما أنهم اصطدموا بأسقف عكا، لإقامتهم بها بعد طردهم من القدس نهائيا عام ١٢٤٤م، وقد عالج أوربان الرابع هذه المسألة عندما تولى المنصب البابوي، بأن جمع للطريرك بين أسقفية عكا وبطريريكية المملكة، أنظر :

Mckiham, A.E., Achronicle of the Popes from st. Peter Toqius X, (London, 1912), pp. 34-38.

(٣) Strehilke, no. 124; Urban IV, Pope, Registres, ed. J. Guiropd, (Bibioth Eque des Ecoles Fracoises d'Athénes ed Rome, Ser, 4 vols., (Paris, 1901-1929), no. 344.

الملك في هزيمة باروناته المتمردين في موقعة إيفشهام Evesham في عام ١٢٦٧م / ٦٦٥هـ[١]. وكان ما قدمه الغرب آنذاك أن أرسل البابا أوربان الرابع مبالغ مالية كبيرة مع السفارة الصليبية التي التقى بها، لتنفق على إصلاح بعض القلاع الصليبية، مع ضرورة أن يتسلم تلك الأموال وليم الثاني أوف أجن William II of Agen بطر يريك بيت المقدس (١٢٦٢-١٢٧٠م / ٦٦٠-٦٦٨هـ)، وهو ما حدث بالفعل[٢].

ومهما يكن من أمر، قرر بيبرس أن يجعل من الفترة الزمنية بين عام ١٢٦٥م / ٦٦٣هـ وعام ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ مرحلة تحرير إسلامية استهدف فيها إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالصليبيين، وإسقاط مراكزهم في بلاد الشام. وبالفعل استولى في شهرين (فبراير – مارس ١٢٦٥م / ربيع الثاني – جمادى الأولى ٦٦٣هـ) على قيسارية وحيفا، ودمر عثليت بعد مقاومة الداوية بالقلعة، ثم أرسوف وقتل فيها من الداوية، ثم تبين وهونيين[٣] ولم يكتف بذلك بل توالت ضرباته على الصليبيين ففتح دربساك ويافا وشقيف أرنون[٤]. وكان بوهمند السادس أمير أنطاكية من أعداء بيبرس، وأول من خطط للانتقام منه لموالته للمغول في الوقت الذي عدّ الصليبيون –في عكا وفي روما– فيه بوهمند حليفًا لأعداء المسيحية، خاصة بعد قرار الحرمان البابوي عليه، استطاع بيبرس الاستيلاء على إمارة إنطاكية في ١٨ مايو ١٢٦٨م/٥ رمضان ٦٦٦هـ[٥] وإذا

---

(١) Powicke, op. cit., pp. 189-1192.

(٢) Ann. T.S, p. 451; Amadi, op. cit., vol. P. 207.

(٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص ١١٣-١١٥؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٣١. راجع أيضًا:

Ann. T.S, pp. 451-452; Eracles, L;Estoire, p. 450-454.

(٤) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٩٣؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ١٩، وراجع أيضًا:

– إبراهيم سعيد: المرجع السابق، ص ٢٥٦؛ سرور على عبد المنعم: الدور السياسي لحصن شقيف أرنون في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة طنطا ١٩٩٧م، ص ١٢٣-١٣٠.

(٥) لمزيد من التفاصيل عن سقوط أنطاكية، انظر:

كان استيلاء الصليبيين على أنطاكية في عام ١٠٩٧م/٤٩١هـ يمثل أول ظهور للوجود الصليبي في بلاد الشام، فإن استرداد بيبرس لها يحدد نهاية الاحتلال الصليبي لشمالي الشام. يأتي ذلك في الوقت الذي لم تتقطع فيه استغاثات جاك دي إيبلين Jacque d'Ibelin حاكم يافا (١٢٦٤-١٢٦٨م/ ٦٦٢-٦٦٦هـ)، الذي أرسل في عام ١٢٦٧م/ ٦٦٦هـ رسالة إلى البابوية يحثها على إرسال أية مساعدات -ولو مادية- لإنقاذ مدينته قبل سقوطها في يدي لسلطان بيبرس، لكن خاب مسعاه في ذلك[١] واكتفى البابا كليمون الرابع Clement IV (١٢٦٥-١٢٦٨م/ ٦٦٣-٦٦٧هـ)[٢] بالرد برسائل مواساة وجهها لبطريرك بيت المقدس، ورؤساء الأساقفة والأساقفة، ومقدمي الجماعات العسكرية الرهبانية[٣]بينما عم الحزن أرجاء الغرب الأوروبي، ووضح ذلك من خلال تلك القصيد التي نظمها شاعر التربادور بونوميل Bonomille وتتضح فيها المرارة والحزن ، ويشكو فيها من أن المسيح أصبح على ما يبدو سعيدا لمل حل بالمسيحيين من ذل ومهانة ، في ظل تقاعس قوى الغرب عن مساعدتهم[٤].

ولم تجد الاستغاثات الصليبية المتتالية من الغرب الأوروبي أذناً صاغية، إذ كانت تمزقه الخلافات والصراعات الداخلي، فالبابوية منهكة في صراعها مع خلفاء فر يدريك الثاني، الذين كانوا بدورهم في صراع ضد شارل كونت آنجو

- ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٠٧-٣١٣؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٦٨؛ الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص ١٨٨. وراجع أيضًا:
- حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص ٤٧٠-٤٧٣.

(1) Eracles, L'Estoire, p. 455; CF. also: Mas-Latrir, op.. cit., vol. 1, p. 413.

(٢) تولى الكرسي البابوي في ٥ فبراير عام ١٢٦٥م، خلفاً للبابا الراحل أوربان الرابع، وقد استمر كليمون في منصبه حتى وفاته في ٢٩ نوفمبر عام ١٢١٨، انظر:
Hans Kũhner, Encylopedia of the Papacy,pp.92-93.

(٣) Clement IV, Registres. ed. E. Jordan, (Paris, 1896-1955),p. 192, no, 412.

(٤) وردت قصيدة بونوميل في :
Bartholemaeis,Poesie Provenzial Storiche relative all,Italia 2 vols(Rome,1931),vol2,pp.222-224.

في إيطاليا وصقلية، ونجاحه في السيطرة على صقلية في عام ١٢٦٦م/ ٦٤٤هـ[١]، واكتفى شارل بإرسال رسول إلى بيبرس يوصي بوقف هجماته على صليبي الشام، وفي الوقت نفسه حضر رسول آخر من جانب البابا كليمنت الرابع متخفيا ليعرف نوايا بيبرس[٢]، ومن ثم يرى الباحث أن ذلك دليل على اختلاف رد فعل حكام أوروبا على انتصارات صلاح الدين فيما سبق، والأمر المؤكد أن إسقاط تلك المراكز الصليبية السابقة أدى إلى إضعاف الصليبيين، وحرمانهم من عناصر تثبيت أقدامهم في المنطقة، ومن المعروف أن الوجود الصليبي استمر معتمدا على دعم الغرب الأوروبي والضعف الإسلامي العام، في مراحل الضعف التي سبقت الوحدة التي جعلت الكيان الصليبي على أعتاب الانهيار.

وكانت الفترة التالية، فترة الأمل الصليبي الأخير في محاولات الإنقاذ الأوروبية وعلى هذا الأساس أبحر جيمس الأول ملك أراجون من برشلونة في سبتمبر ١٢٦٩م/ المحرم ٦٦٨هـ، بأسطول قوي إلى الشرق لنجدة الإمارات الصليبية، لكنه ما لبث أن عاد إلى بلاده بعد هبوب عاصفة على أسطوله، ووصل ولداه إلى عكا في نهاية السنة، إلا أنهما لم يفعلا شيئا بعد أن علما بوقوع الحامية الفرنسية التي تركها لويس التاسع في عكا في كمين نصبه لها المسلمون، ولم يلبثا أن عاد إلى بلادهما دون أن يحققا شيئا لصليبي الشام([٣])، وكان البابا كليمون قد أرسل عام ١٢٦٨م/ ٦٦٧هـ -وفي ظل ما سمعه عن أحوال الشرق- رسالة حماسية إلى حكام أوروبا يشرح لهم فيها حالة صليبي الشام، وما عانوا من التدمير والعنف على يدي بيبرس، وطالبهم بالتوجه بحملة

---

(١) Powicke, King Henry III and The Lord Edqard, 2 vol. (Oxford, 1947) vol. 2, pp. 599-601.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروضة الزهراء، ص ٣٥٤-٣٥٥.

(١) ابن عبد الظاهر: الروضة الزهراء، ص ٣٦٢-٣٦٤، وراجع أيضا :
Eracles, L'Estoire, pp. 457-478; Ann. T.S., p. 454.
- بينما أخطأ كاتب أعمال القبارصة فجعل تاريخ الحملة سنة ١٢٦٧م، أنظر :
Les Gestes des Chiproise, pp. 183-186.

إلى الشرق([1])، وفي الوقت نفسه كان لويس قد وصلته رسالة استفزازية من بيبرس قال فيها : "إننا ملكنا أنطاكية بالسيوف والجنود التي تركت قبل رحيلك، ولو أتيت وشاهدت قبور موتاك قد نبشت وقصورك قد نهب وحصونك قد حرقت وحولت على أطلال لصدمت من أهوال ما رأيت"([2])، فقرر لويس التاسع حمل الصليب وقيادة حملة جديدة، لنجدة ما تبقى من الكيان الصليبي([3])، وتزامن ذلك مع إدراك الملك الإنجليزي هنري الثالث خطورة ترك بلاده والمشاركة في حرب مقدسة بعيدة، خاصة وأنه بعد انتصاره على البارونات في معركة إيفشهام لم يحاول البابا كليمون الرابع حثه على الوفاء بنذره الصليببي، فقد اتحدت السياسة البابوية مع المصالح الإنجليزية، لتكون عاملاً مضادًا لرحيل هنري الثالث إلى الأراضي المقدسة، ولعل البابوية اقتنعت بعد زوال خطورة الهوهنشتاوفن العدو اللدود لها، بأن دور هنري الثالث ليس القيام بحملة صليبية بل الحفاظ على استقرار إنجلترا وولائها للبابوية([4])، وقد انعكس هذا الاتجاه البابوي على الأمير إدوار Edward أكبر أبناء هنري الثالث، والمتحمس لمصاحبة الملك الفرنسي في حملته المرتقبة، فقد اجتمعت كل من البابا وهنري الثالث في معارضة رغبة الأمير إدوارد وإصراره على الرحيل إلى بلاد الشام، وأرسل البابا مندوبا بيعفي الملك الإنجليزي من نذره الصليبي بشرط توجه الابن الآخر الأمير إيدموند إلى الأراضي المقدسة بدلا منه لا الأمير إدوار، وبرر البابا ذلك بأنه استجابة لطلب من الملك الإنجليزي، بسبب أن إدوارد هو الوريث المرتقب للعرش الإنجليزي، وهذا يتطلب وجوده في البلاد، لأن صحة هنري

---

(٢) Campbel, G., The Crusades, (London, 1935), p. 213.

(٣) والملاحظ أن بيبرس أشار في سخرية إلى قضائه على القوة التي تركها لويس في الأراضي المقدسة، بالاضافة لكل التحصينات التي أقامها في يافا وقيسارية وأرسوف، أنظر :

مكسيموس موندوند، المرجع السابق، ص ٣٤٥.

(٤) جوانفيل : القديس لويس، ص ٢٤٧.

(١) Throop, Criticism, p. 81.

الثالث آخذه في التدهور وقد تفقد البلاد ملكها في أي لحظة([1])، وفي خطاب من البابا كليمنت الرابع إلى الملك الفرنسيَ لويس التاسع، في يناير ١٢٦٨م/ جمادى الأولى ٦٦٦هـ، أشار إلى ما سبق، بل أعلن صراحة أن استقرار إنجلترا أهم عند البابوية من رغب الأمير إدوارد، وأخيرا أقتنع البابا والملك الإنجليزي بإمكان قيادته للحملة الصليبية بنفسه، وذلك في يونيو ١٢٦٨م/ رمضان ٦٦٦هـ([2])، وأتاح ذلك كله لبيبرس حرية الحركة، بدون تحسب لوصول أية مساعدات إلى فرنج الشام، فشرع في استكمال فتوحاته في أملاك بوهمند السادس في طرابلس([3])، لتكون محصلة ذلك هي أن السياسة البابوية الإنجليزية في تلك الفترة هي التي أخرت حملة الأمير إدوارد وهو الأمر الذي أعطى بيبرس الفرصة لاستكمال الانقضاض على الكيان الصليبي في الشام.

وفي عام ١٢٩٦م/ ٦٦٧هـ توجه الأمير الإنجليزي إدوارد إلى فرنسا، لمقابلة ملكها لويس التاسع، للاتفاق بشأن حملتهما الصليبية المشتركة([4])، وفوجئ

---

(٢) Lloyd,S., English Society and the Crusade, pp. 231-232.

(٣) في يوليو ١٢٧٠م أعلن هنري الثالث رسمينا تخيله عن المشاركة بنفسه في حملته الصليبية، وسلم الصليب إلى الأمير إدوارد، أنظر :

Tyerman, op. cit., p. 124.

(٤) بدأ بيبرس في فبراير ١٢٧١م/ رجب ٦٦٩هـ في اجتياح المناطق المحيطة بطرابلس، فاستولى على قلعة صافيتا وحصن الأكراد وكانا للداوية والأسبتارية، ثم حاصر حصن عكا، أحد ممتلكات بوهيمند السادس في المنطقة، ونجح في الاستيلاء عليه في ١١ مايو/ أخر رمضان من السنة نفسها، مما جعل إمارة طرابلس مكشوفة تماما أمام بيبرس، ولمزيد من التفاصيل، أنظر :

ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٧٤-٣٧٨، مفضل بن أبي الفضائل: المنهج السديد، ص ٥٢٨-٥٢٩، وراجع أيضا :

وكذلك : حسين عطية : إمارة أنطاكية، ص ٤٨٠-٤٨١.

(٤) تم الاتفاق على أن يقدم لويس سبعين ألف جنيه فرنسي، يتم تخصيص خمسة وعشرين منها لأحد الأمراء، والباقي يحصل عليه إدوارد، على أن يتم تسديد المبلغ على دفعات، كما تم الاتفاق على تجميع الحملة في ميناء أجمورت الفرنسي، أنظر :

R ohrichate, La Croisade du prince Edward D'Angleterre, (1270-1272), in A.O.L, vol. 2, (paris, 1881), pp. 618-620.

الأمير الإنجليزي، بإبحار لويس التاسع بقواته الفرنسية نحو تونس بدلا من الأراضي المقدسة، بعد أن تأثر برأي شقيقه شارل كونت آنجو وغير وجهة الحملة الصليبية([1])، وعندما وصلت حملة لويس إلى تونس في ١٨ يوليو ١٢٧٠م/ ٢٧ ذي القعدة ٦٦٨هـ، تفشى المرض بين أفرادها ومات معظمهم، وكان من بين الموتى الملك لويس نفسه فخلفه في قيادة الحملة وعلى العرش الفرنسي فيليب الثالث Filipp III (١٢٧٠-١٢٨٥م/ ٦٦٩-٦٨٣هـ)، الذي قرر الانسحاب بعد

عقد اتفاقية صلح مع حاكم تونس([2])، ما أن وصلت إلى الشرق أنباء ما حدث بتونس، حتى ساد الحزن والآسى صفوف الصليبيين، وكان له ما يبرره، إذ أيقن صليبيو الشام أنه لن يخرج من الغرب الأوروبي بعد ذلك جيش ملكي، لإنقاذ ما تبقى من إمارتهم الصليبية، فقد كان لويس أكثر ملوك أوروبا صلاحا وتقوى وحبا للأراضي المقدسة، غير أنه لم يجلب إليها الحزن والآسى والآلام، وحينما كان على فراش الموت، كان يفكر في المدينة المقدسة التي لم يرها مطلقا، ولم يستطيع استردادها، وكانت أخر كلماته : "إني أرى بيت المقدس، سنتوجه إلى بيت المقدس"([3]) ، وبوفاءة الملك الفرنسي لويس التاسع تلاشى الأمل الأخير الذي كانت تتعلق به الإمارات الصليبية في بلاد الشام، فقد كانت تنظر

---

(٢) من السذاجة الاعتقاد بأن لويس رأى أن غزو مصر سيكون سهلا من تونس، التي تفصلها عنها صحراء شاسعة قاحلة، لذا أتجهت الآراء إلى أن شارل هو الذي أقنع لويس بالتوجه لتونس لتأديب أمرائها الحفسين، أنظر :

Stayer, J., "The Crusades of Louis IX", in Setton (ed.) A History of the Crusades, vol. 2, pp. 513-516.

([2])لمزيد من التفاصيل عن حملة لويس التاسع على تونس ووفاته، وعقد اتفاقية رحيل الحملة وعودتها، أنظر : سامية عامر: الصليبيون في شمال أفريقيا "حملة لويس التاسع على تونس" ١٢٧٠م/ ٦٦٩هـ، عين للطباعة، ط١، ٢٠٠٢م.

.

([3])جوانفيل: القديس لويس، ص ٢٥٧، أنظر أيضا:

Matthew of Westminster, op. cit., vol. 2., p. 450.

إلى ملوك فرنسا -بوجه خاص- على أنهم المدافعون الحقيقيون عن مصالح الأراضي المقدسة.

أما فيما يخص الشطر الثاني من الحملة الصليبية التي دفعتها أوربا في تلك الفترة - والمقصود بها الحملة الإنجليزية التي يقودها الأمير ادوارد - ففي أثناء وجود الحملة في صقلية لقضاء فصل الشتاء قبل توجهها للشرق، أعلن معظم النبلاء المرافقين لإدوارد عن رغبتهم في العودة إلى إنجلترا؛ موضحين أن فشل حملة لويس يعنى عدم حتمية توجههم للأراضي المقدسة[١]، وقد رفض الأمير إدوارد ذلك، وأقسم «أنه إذا تخلى عن جميع رجالي وجنودي فسوف أذهب إلى الأراضي المقدسة، وسوف أحافظ على نذرى الصليبي حتى وفاتي" وهكذا لم يعد إدوارد بالقوات إلى بلاده مثل ما فعلت قوات حملة لويس وفاء بنذره الصليبي، والأهم من ذاك أنه فوت على بارونات إنجلترا فرصة العودة إلى التمرد على الملكية الإنجليزية[٢]. وبالفعل وصل إدوارد بقوته إلى عكا في ٩ مايو ١٢٧١م/٢٧ رمضان ٦٦٩هـ، وأنعش آمال الصليبيين في الأراضي المقدسة[٣] وعلى الرغم من أن عدد قواته لم يتجاوز الألف مقاتل[٤] فكان يأمل -وهو متجه إلى الشرق في الاعتماد على قوة الصليبيين المحلية. ويمكن القول إن الأمير إدوارد لم يكن على دراية كافية بالإمارات الصليبية وأحوالها، لذلك صدم عندما علم أن العمل الرئيسي للبنادقة والجنوية هو التجارة مع مصر، وأن المحكمة العليا الصليبية في عكا وافقت على هذا وأجازته، ولما كانت التجارة تتركز بشكل أساسي في توريد البنادقة والجنوية الخشب والحديد اللازمين لبناء السفن؛ فقد أدرك إدوارد مدى خطورة هذه التجارة، ثم كانت صدمته الكبرى عندما فوجئ بان الملك القبرصي هيو الثالث -الذي أصبح ملكًا على بيت المقدس أيضًا منذ عام ١٢٦٩م/٦٦٧هـ- ليست له السيطرة الكافية على

---

(١) Tyerman, op. cit., p. 125.

(٢) R?hrichte, la Croisade du Prince Edouard, p. 621

(٣) Annales Lenodonienses, Chronicles of Rigns of Edward I, vol. 1, p. 81; CF. also: Powicke, king Henry III, vol. 2, p. 599.

(٤) Powicke, king Henry III, vol. 2, p. 605.

بارونانه، إلى الحد الذي يلزمهم معه بالبقاء في بلاد الشام، والمشاركة في مشروعاته من أجل مملكته في الأراضي المقدسة[١]. وعندئذ حاول الأمير الإنجليزي أن يستأنف محاولات البابوية والملك لويس التاسع لاستمالة المغول، والتحالف معهم ضد المسلمين في مصر وبلاد الشام؛ إلا أنه لم يحقق نجاحًا يذكر في هذا الأمر[٢] ومع إخفاق حملة الأمير إدوارد، وتلاشى إمكان التحالف مع المغول، قرر الصليبيون ويمثلهم هيو الثالث ملك قبرص وبيت المقدس -عقد هدنة مع السلطان بيبرس، وعقدت الهدنة في ٢٢ إبريل ١٢٧٧م/٢١ رمضان ٦٧٠هـ، لمدة عشرة سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام؛ للمحافظة على البقية من الكيان الصليبي في بلاد الشام[٣]، ويعلق المؤرخ الإنجليزي بويك Powicke على حملة الأمير إدوارد قائلاً إنها كانت عاجزة حتى عن الاستيلاء على حصن قليل الأهمية، ولم تكن إمكانياتها تؤهلها لاسترداد بيت المقدس، حتى لو انضم المغول بكل قوتهم لها لأن صليبي الشام كانوا على درجة من الضعف والانقسام تجعلهم لا يستفيدون من هذا التحالف بل كانوا سيصيرون على الأرجح خاضعين لسلطة المغول[٤]. وحسبما يرى الباحث أن هذا التحالف اخفق في أول تجربة عملية له، وعاد ادوارد إلى بلاده، بعد أن أدرك مدى ضعف الداخلي والتفكك اللذين يعانى منهما الكيان الصليبي في بلاد الشام، وبانتهاء حملة الأمير ادوارد تنتهي أخر مشاركة إنجليزية مهمة على مسرح الحروب الصليبية ، وبعد نهاية المشهد الفرنسي الأخير أيضا بوفاة لويس التاسع في أثناء حملته على

---

(١) Dondolo, Chionicon, in R.L.S., vol. 12, p. 380; Eracles, L'Estoire, pp. 462-464; CF. also; John La Monte, Feudal Monarchy, p. 198.

(٢) كانت القوات المغولية التي أرسلها أبغا Abaga خان مغول فارس جزءًا من حامية الأناضول، ويقودها القائد صمغار Samagar فنهب شمال الشام في ٢٢ أكتوبر ١٢٧١م/١٥ ربيع الأول ٦٦٩هـ، لكنها كانت أضعف من أن تجازف بالدخول في معركة كبيرة ضد بيبرس فاضطرت إلى التراجع والانسحاب، انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٩٥-٣٩٦؛ وانظر:
Eracles, L'Estoire, p. 461; CF. also: Powicke, op. Cit., vol. 2, p. 602.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٩٨، وراجع أيضًا:
Ann. T.S., p. 455; Marino Sanudo, Liber Secretorum, p. 224.

(٤) Powicke, King III, vol. 2, p. 603.

تونس، تعلقت آمال الصليبيين بالبابوية ،فماذا هي فاعلة في ظل تلك الظروف العصيبة ؟

بينما كان ثيبالدو رئيس أساقفة ليج Tebaldo of Liége يرافق الأمير الإنجليزي إدوارد في حملته بالشرق، بلغته أنباء غير متوقعة باختياره لشغل الكرسي البابوي تحت اسم جريجوري العاشر Gregory X (١٢٧١-١٢٧٦م/٦٦٩-٦٧٤هـ)[١]، فجعل شغله الشاغل توحيد جهود الممالك المسيحية في العالم، من أجل مساعدة الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وشهدت بابويته آخر المحاولات لإعداد حملة صليبية تنقذ الكيان الصليبي قبل انهياره، ووصف المؤرخ ثروب Throopعهده بأنه " آخر محاولة لإحياء الحروب الصليبية"[٢] ولتحقيق ذلك أخذ يجمع التقارير التي رفعها إليه الدعاة ورجال الدين، للوقوف على أصلح السبل لإحياء الروح الصليبية، ومن هذه التقارير أربعة جديرة بالاهتمام، الأول منها وصله من جيلبرت دي تورناى Gelbert de Tornay -وهو أحد الرهبان الفرنسيسكان - قال فيه أن من أسباب فشل الحملات الصليبية التي ترسلها البابوية إلى الشرق فساد رجال الدين، خاصة فيما يخص استغلال أموال الضرائب التي تجمع للحملات الصليبية لصالحهم، وتهربهم من دفعها في بعض الأحيان؛ بل ومقاطعتها في بعض المناطق خاصة في إنجلترا[٣] ثم كان التقرير الثاني الذي أرسله برونو أسقف أولموتز Bruno bishop Olmutz وأشار فيه إلى أن الحروب الصليبية تحتاج -في المقام الأول- إلى أن يسود السلام في الغرب الأوروبي، تحت قيادة حاكم قوى[٤]، ثم كان التقرير الثالث وهو الذي بعث به إلى البابا وليم الطرابلسي William of Tripoli -

---

(١) تولى الكرسي البابوي في ١ سبتمبر ١٢٧١م، ويعده المؤرخون آخر البابوات المهتمين بشئون الإمارات الصليبية في بلاد الشام، حتى أطلقوا عليه لقب "موقظ الحروب الصليبية في الشرق" ولمزيد من التفاصيل، انظر:

Hans ,K.,, Encyclopedia, pp. 93-94.

(٢) Throop,P.A., Criticism, p. 16.

(٣) أورد المؤرخ ثروب تفاصيل هذا التقرير في دراسة مفصلة، انظر:

Throop,P.A., Criticism, pp. 69-104.

(٤) يرى برونو أن هذا الحاكم القوى يجب أن يكون سيده أوتوكار ملك بوهيميا. انظر:

Throop,P.A., Criticism, pp. 105-114.

أحد الرهبان الدومنيكان في عكا- وتكمن أهمية هذا التقرير في أن كاتبه اتصف بالحياد والموضوعية، لكونه موجودًا بين صليبي الشام في تلك الفترة وبصفته أحد أعضاء جماعة الدومنيكان كان من رأيه أن البعثات التبشيرية لا السيف هي الوسيلة الوحيدة والفعالة، التي يجب أن تسعى إليها البابوية لو أرادت استرداد الأراضي المقدسة، وعن رأيه في بيبرس قال للبابا: «بالرغم من أن يوليوس قيصر يتفوق من حيث الفروسية والمهارة العسكرية على بيبرس إلا أن الأخير كان أشد شرًا من الطاغية الروماني نيرون»[1] على أن الراهب الدومنيكاني الآخر همبرت أوف رومانز Humbert of Romans أرسل للبابا أوفى التقارير عن كيفية إنجاح الحملات الصليبية بعد أن أشار إلى السلبيات التي واجهتها الحملات السابقة[2] وأشار فيه إلى صعوبة تحويل المسلمين إلى المسيحية، وأن الطريقة المثلى للتعامل مع المسلمين في الشرق هي محاربتهم، وأعلن صراحة ضرورة قيام حملة صليبية لنجدة الإمارات الصليبية في الشام، وإنقاذها قبل الانهيار على رجال الدين في الغرب أن يبذلوا ما في وسعهم للتبشير بتلك الحملات، وأوضح في أسى وحزن كيف أن الحماسة الصليبية فترت في قلوب الأوروبيين، والدليل على ذلك القصائد التي يروجها شعراء التروبادور، وأن على أهل الغرب جميعًا أن يحرروا أنفسهم من الذنوب والآثام، حتى يكتب النجاح للحملة المرتقبة، وأنه يجب عقد مجمع كنسي كبير قبل الشروع في توجيه تلك الحملة تلك إلى الشروق[3]. ويرى الباحث أنه بالرغم من أهمية تلك التقارير فإنها أغلت الإشارة إلى المشكلات الرئيسية التي كانت تعرقل أي مجهود يبذلك الغرب لنجدة صليبي الشام، كاستخدام البابوية الحروب

---

(١) William of Tripoli, Tractatus de Statu Saracenorum, ed. Hanz Prutz, in Kulturgeschichte der Krezzuge, (Berlin, 1883) pp. 585-589; CF. also: Throop, Criticism, pp. 118-121 .

(٢) رايلي سميث: ما الحروب الصليبية؟ ص ٢٥-٢٦.

(٣) Humbert of Ramans, opus Tripatitum, ed. E. Browen, (London, 1890), in Riley-Smith, the Crusades, pp. 103 – 117.

كذلك أورد ثروب خلاصة وافية لتقرير همبرت أوف رومانز، انظر:

Throop,P.A., Criticism, pp.147 – 213.

الصليبية لتحقيق أغراضها، وأن كل ملك من ملوك الغرب كان مشغولا بمشكلاته الخاصة، مع فتور الروح الصليبية لديهم.

وقرر البابا جريجوري العاشر عقد مجمع كنسي كبير في مدينة ليون الفرنسية، في أول مايو ١٢٧٤م / ٢ شوال ٦٧٢هـ، - أطلق عليه مجمع ليون الثاني - ليبحث على رأس موضوعاته وسائل تقوية الكيان الصليبي، وإرسال حملة صليبية عاجلة لإنقاذه[١]، وقد شهده عدد كبير من رجال الدين، قدر عددهم بخمسمائة من الأساقفة وبخمسين من رؤساء الأديرة وألف من الرتب الدينية الصغيرة، كما حضرت سفارة من صليبيي الشام، ضمت أسقف طرابلس ووليم دي بوجيه William de Bouge مقدم الداوية (١٢٧٣ - ١٢٩١م / ٦٧١ - ٦٩٠هـ) وبعض رجال الدين الآخرين[٢] غير أن الدعوات الملحة التي أرسلت إلى ملوك الغرب الأوروبي، لم تلق إلا التجاهل والإهمال، فالملك الفرنسي فيليب الثالث اعتذر دون إبداء أسباب معقولة، بينما خاب أمل البابا في إدوارد الأول ملك إنجلترا[٣] الذي كان يتوقع حضوره، إذ اعتذر بانشغاله بالأوضاع في بلاده، وضرورة إحكام سيطرته على شئون الحكم في المملكة[٤] كذلك اعتذر عن الحضور ملوك هنغاريا والسويد وأرمينيا وقشتالة. وهكذا اكتفى ملوك أوروبا وحكامها بإرسال مندوبين عنهم كان معظمهم من رجال الدين[٥] وكان جيمس

---

(١) Norman, H., the Later Crusades, 1274 – 1580, Lyons to Alcazar, (Oxford, 1992), p. 7

(٢) حضر المؤتمر أيضًا مندوب من قبل الإمبراطور البيزنطي، ووعد بأن تخضع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما، نظرًا لتخوف الإمبراطور من أطماع شارل كونت آنجوا في بلاده، انظر:
Elizabeth Siberry, op. cit., pp. 1 – 3.

(٣) في أثناء عودة الأمير إدوارد بحملته من الشرق علم بوفاة أبيه هنري الثالث في السابع عشر من نوفمبر ١٢٧٢م، وأنه أصبح ملكا على إنجلترا، ولكونه آخر الحكام الكبار الذين توجهوا من الغرب إلى الأراضي المقدسة؛ عقد البابا جريجوري العاشر آمالا كبيرة عليه، انظر:
Powicke, King Henry III, vol.2, p 606.

(٤) Powicke, King Henry III, vol.2 p. 615.

(٥) رايلي سميث: ما الحروب الصليبية؟، ص ٦٧.

الأول ملك أراجون الملك الوحيد الذي حضر هذا المجمع، وهو الذي لاقت مغامرته الصليبية الأولى الفشل الذريع قبل خمس سنوات. حدث آنذاك أن أرسل أبغا خان المغول سفارة لحضور هذا المجمع، مكونة من ستة عشر عضوًا، وقد قدمهم البابا للحاضرين في نهاية الجلسة الرابعة لأعمال المجمع، في يوم ٧ يوليو / ٨ ذي الحجة، وتليت رسالة الخان المغولي باللغة اللاتينية – بواسطة مترجمين – وجاء بها: "نحن نريد أن نعلن لجميع من يعيشون تحت الشمس أن ملكنا صاحب العظمة أبغا خان يريد التحالف مع المسيحيين"[١]. ويمكن القول بأن قرارات المجمع تضمنت الإشارة إلى ما يقوم به بيبرس من شن هجمات على الصليبيين في الأراضي المقدسة، ومدى معاناة صليبيي الشام من جرأ ذلك، ودعا البابا إلى توجيه حملة صليبية كبرى إلى بلاد الشام، تتحالف مع المغول هناك استعادة ما فقد من الركائز الصليبية.وفيما يتعلق بإعداد تلك الحملة قرر البابا فرض ضريبة على رجال الدين تقدر بعشر دخولهم لمدة ست سنوات، كما منح الغفران للمشاركين في الحملة أو من يقدم المال بدلاً عن ذلك، مع الإشارة إلى تكرار القرارات السابقة والمتعلقة بالتجارة مع المسلمين والتهديد بالحرمان الكنسي لكل من يعارض ذلك[٢]. وكبادرة منه لحث حكام الغرب على التحرك، أرسل البابا قوة صغيرة قوامها أربعين فارسًا وأربعمائة وستين من الجنود المشاة للمساعدة في إصلاح الحصون الصليبية في الشـــام، تمهــيدًا لوصول الحملة الصليبية الجديدة التي دعا إليها في هذا المجمع[٣].

---

(١) نشر الباحث الألماني بورخارد روبرج رسالة خان المغول بلغتها اللاتينية في عام ١٩٧٣م في مقالة "التتار في مجمع ليون الثاني في عام ١٢٧٤م". انظر:
Burkhrd Reberg, "Die Tartaren oufdem 2. Knzil vonlyon 12o74," Annuarium Histare Conciliarum, 1973, Heft 2, pp. 247 – 302.
وعن الترجمة العربية لهذا الرسالة، انظر:
عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص ٢٧٨ – ٢٨٢.

(٢) Documents On the Later Crusades, 1274 – 1580, ed. Trans. By Norman Huosley. (New York, 1996), pp. 15 – 21.

(٣) Annales Londonienses, op. cit., vol. 1, p. 88; CF. also: Throop,P.A., Criticism, p. 272 – 273.

ولكن يبدوا أن دعوة البابا في ليون ذهبت أدراج الرياح، بسبب الوضع السياسي في الغرب، إذا حالت الأوضاع دون استعداد ملوك أوروبا للقيام بحملة صليبية جديدة، فها هو رودلف أوف هابسبورج Rudolf of Habsburg إمبراطور ألمانيا المنتخب (١٢٧٢-١٢٩٢م/ ٦٧٠-٦٩٠هـ منهمك في خلافات مع ألفونسو العاشر Alfons X ملك قشتالة (١٢٧٢-١٢٨٤م/ ٦٧٠-٦٨٣هـ)، مما استنزف موارد مملكته[١]، وفيليب الثالث ملك فرنسا غير مستعد لقيادة الحملة المنتظر، والدليل أنه عندما وصلته سفارة المغول عقب مؤتمر ليون تحثه على القيام بحملة مشتركة في الشرق، لم يفعل أكثر من حسن استقبال السفراء المغول[٢]، ومن ثم يرى الباحث أنه لم يكن يهم فيليب الثالث من أمر الصليبيين شئ، الذي حفظ علاقاته طيبة بالبابوية، وقد تكون سياسته تلك ناتجة عن إخفاقات والده -لويس التاسع- في حملاته على الشرق ولم يكن لديه أية رغبة في الاستمرار في سياسة والده بالاشتراك في مشروعات صليبية جديدة.

أما الملك الإنجليزي إدوارد الأول -الذي كان من وجهة نظر البابا جريجوري العاشر القائد المرتقب لأية حملة صليبية جديدة والمنفذ المنتظر للأراضي المقدسة- والذي يجب أن ينال كل تشجيع وتأييد من البابوية، خاصة بعد أن نجحت الأخيرة في القضاء على سلطة الهوهنشتاوفن في أوروبا، حاولت استمالة إدوارد الأول إليها للتصدي للطموحات المتزايدة الخطرة لشارل كونت آنجو ملك صقلية، ونتيجة للإلحاح البابوي المستمر اضطر الملك الإنجليزي - حسبما يرى المؤرخ الإنجليزي سيمون لويد- أن يعلن في عام ١٢٧٥م/ ٦٧٣هـ ـن حمل الصليبي إرضاء للبابا فقط[٣]، وحين استقبل السفارة المغولية

---

(١) Setton,K., The Papcy and The Levant. vol. 1, p128.

(٢) Howorth, History of The Mongols, vol. III, (London, 1888), p. 281.

(٣) تقابل الجيش المملوكي مع الجيش المغولي الذي قاده مانكوتمر -شقيق أبغا خان- يسانده أسبتارية حصن المرقب، وانتصر المماليك، ولمزيد من التفاصيل، أنظر :

القادمة من فرنسا أرسل معها رسالة إلى خان المغول قال فيها: "من المتعذر علينا في الوقت الحاضر أن نخبركم بأية أخبار مؤكدة عن ميعاد وصولنا إلى الراضي المقدسة، ولا عن مجئ قوات أخرى قادمة من الغرب الأوروبي[1]، ومن خلال الكلمات السابقة ندرك -بشكل واضح- أن الملك الإنجليزي لم تكن له رغبة في العودة إلى الشرق في حملة صليبية جديدة، وهكذا كانت الأحوال السياسية في الغرب الأوروبي تؤكد على أن المناخ غير مناسب للقيام بحملة صليبية لنجدة ما تبقى من الكيان الصليبي في الشرق.

وزاد من يأس صليبي الشام في مجئ المدد المنتظر من الغرب الأوروبي، وفاة البابا جريجوري العاشر في أوائل عام ١٢٧٦م/ ٦٧٤هـ، على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها لتهيئة المناخ في أوروبا للقيام بالحملة الصليبية المرتقبة، فالوعود التي تلقاها من الأمراء والملوك كانت مجرد شعارات لم تجد طريقها للتنفيذ، لانشغال كل منهم بمشكلاته الداخلية[2]، وتعاقب على الكرسي البابوي بابوات ضعاف غير قادرين على مساعدة الأراضي المقدسة، التي ازدادت أوضاعها سوءًا، وعندما حدثت معركة حمص في ٣٠ أكتوبر ١٢٨١م/ أول رجب ٦٨٠هـ[3]، أرسل جوزيف دي شانسي[4] Joseph de Chuncy

---

رشيد الدين الهمزاني: جامع التواريخ، م٢، ج٢، ص ٨٣-٨٤؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٩٢.

(١) Throop, ,P.A., Criticism, p, 233

(٢) Howerth; op. cit., vol III, p. 280

(٣) Setton,K., The Papcy and The Levant. vol. 1, pp. 126-128;

(٤) كان جوزيف دي شانسي أمين خزانة الأسبتارية في عكا، وكان إنجليزيا من يورك شاير، ومكث في الأراضي المقدسة مدة أربعة وثلاثين عاما وعهد إليه الملك إدوارد بتزويده بصور عن الأوضاع القائمة في الأراضي المقدسة، بعد مغادرة إدوارد للشرق عام ١٢٧٧م، أنظر :

رسالة إلى الملك الإنجليزي إدوارد الأول يوضح له فيها مدى تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية لصليبي الشام، ترتكز -في معظمها- على وصف الوضع في الإمارات الصليبية، والقتال الذي دار في حمص -وكان أحد الذين شاركا فيه مع فرسان الأسبتارية- وأرسلت هذه الرسالة في ٣١ مايو ١٢٨٢م/ غرة المحرم ٦٨١ه[١]، وجاء رد الملك الإنجليزي في العام التالي ١٢٨٣م/ ٦٨٢هـ، مخيبًا لآمال صلبي الشام، إذ أعلن أنه يشعر بمعاناتهم ويأسف لذلك، لكن بعض الأمور الداخلية تمنعه من أن يقوم بأي عمل حاسم لمساعدتهم في الوقت الحاضر، وأنه ينتظر الظروف الملائمة لتنفيذ واجبه الصليبي[٢].

وكانت المحاولة الأخيرة للغرب الأوروبي، لإنقاذ ما تبقى من الإمارات الصليبية في الشام، هي إحياء التحالف مع المغول، وقد وصل التقارب بين الغرب ومغول فارس في عهد أرغون خان (١٢٨٤-١٢٩١م/ ٦٨٣-٦٩٠هـ) ذروته، إذ أرسل الأخير أربعة سفارات لإعادة التحالف العسكري مع الغرب، ودراسة تفاصيله، وتحديد موعد التقاء القوات المتحالفة، وقد كان الغرب في حاجة ماسة للتعاون العسكري مع المغول، لأن المماليك كانوا يسقطون المواقع الصليبية الواحدة تلو الأخرى في بلاد الشام[٣]. وعندما وصلت سفارة أرغون الأولى في عام ١٢٨٥م/ ٦٨٤هـ كان البابا هونوريوس الرابع Honorius IV (١٢٨٥-١٢٨٧م/ ٦٨٤-٦٨٦هـ) عاجزًا عن فعل أي شئ، خاصة بعد اندلاع الثورة الصقلية، وتمرد أهالي صقلية على حاكمهم شارل كونت آنجو، وتأييد

Les Gestes des Chiproise, p. 210.

(١) Letter of Joseph de Chuncy to Edward I King of England, Acre, (31 May, 1282), in P.P,T.S., vol. V, pp 1- 16

(٢) Letter of Edward I King of England, to Joseph de Chuncy (May, 1283), in P.P,T.S., vol. V, pp 16- 17.

(٣) محمود سعيد عمران : المغول وأوروبا، ص ٢٥٣ .

بعض حكام الغرب للثوار، مما جعل أوروبا تنقسم إلى معسكرات متناحرة[1]، وبعد فقدان الأسبتارية لقلعتهم الشهيرة في المرقب وسقوطها في أيدي المماليك في عام ١٢٨٥م/ ٦٨٤هـ، دون أن يتدخل الغرب لنجدتهم، وأرسل أرغون سفاته الثانية للغرب الأوروبي علها تنجح في إقناع قادته بمد يد العون للمغول الصليبيين ضد المماليك في بلاد الشام[2]، ورأس هذه السفارة رابان سوما Robban Souma ووصلت إلى روما في عام ١٢٨٧م/ ٦٨٦هـ، حيث التقى برجال الدين، ولم يحصل منهم على أي اتفاق فعلي[3]، ثم اتجه الوفد إلى فرنسا، حيث قابل ملكها فيليب الرابع Philippe IV (١٢٨٥-١٣١٤م/ ٦٨٤-٧١٣هـ) ولم يحصل منه أيضا على رد حاسم في مسألة التحالف، وحينما توجه إلى إنجلترا والتقى بالملك إدوارد الأول، وسمع منه مجرد وعود، إذ قال إدوارد: "إن شارة الصليب على جسدي، وفي انتظار الفرصة لمساندة صليبي الشام"[4]، وقد أخذت أحوال الصليبيين تزداد سوءًا مع مرور الوقت، مع المصالح المتضاربة لباروناتها من جهة، والصراع بين البنادقة والجنوية من جهة أخرى، وغرقوا في تلك المنازعات الداخلية غافلين عن الخطر الذي يهددهم بالفناء

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث ، أنظر :
Runcima, (S.), The Ciciliam Vespers, (Cambrdge, 1958); Setton, The Papcy and The Levant. vol. 1, pp 134-143.

(٢) عادل هلال : العلاقات بين المغول وأوروبا، ص ١٢٠، وعن قلعة المرقب، أنظر :
آمال هاشم : المرقب وقلعتها ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي في عصر الحروب الصليبية (١٠٥٩-١٢٩١م/ ٤٨٧- فبراير) رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٧م.

(٣) ظل كرسي البابوية شاغرًا بعد وفاة البابا هونوريوس الرابع في ٣ أبريل ١٢٨٧م، حتى ٢٢ فبراير ١٢٨٨م، وعلى هذا فقد استقبل رابان سوما الاثنى عشر كاردينالا المقيمون بروما، أنظر :
Hans Kuhner, Encylopedia, p 98.

(٤) Sinor, "The Mobgols and Wstm Europe" in Setton, vol.2, pp. 531-537.

على أيدي المماليك[1]، وكانت الضحية في هذه المرة طرابلس آخر إماراتهم الصليبية؛ إذ استطاع السلطان المملوكي سيف الدين قلاوون انتزاعها من أيديهم في إبريل ١٢٨٩م /١٤ ربيع الثاني ٦٨٨ه[2]ـ وهو ما دعا الصليبيين إلى إرسال سفارة صليبية برئاسة جان دو جوريل Jean Gaureille لتطوف الغرب الأوروبي طالبة النجدة[3]. واستقبل السفارة البابا نيقولا الرابع Nichola IV (١٢٨٨-١٢٩٢م/ ٦٨٧-٦٩١هـ)، ثم كتب في أسى وحزن شديدين إلى ملوك الغرب، يلتمس منهم إرسال مساعدة عاجلة لصليبيي الشام[4]. كذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض في بلاد الشام سوى عاصمتهم عكا وصور وصيدا وعثليث وبيروت[5]. ولكن ماذاعن رد فعل الغرب الأوروبي إزاء سقوط طرابلس ؟

على الرغم من الأهمية الاقتصادية والسياسية والدينية لطرابلس، فيبدو أن الغرب الأوروبي لم يتأثر كثيرًا لسقوطها في أيدي المماليك، بل إن ألفونسو الثالث Algonso III ملك أراجون (١٢٨٥-١٢٩٠م/ ٦٨٤-٦٨٩هـ) أسرع إلى عقد معاهد مع السلطان المملوكي قلاوون في ٢ أبريل ١٢٩٠م / ١٣ ربيع الآخر ٦٨٩هـ، يتعهد للسلطان فيها بعدم تقديم أي عون لصليبيي الشام، أو القيام بأية حملة صليبية لمساعدتهم، وقد عبر عن ذلك المؤرخ ابن عبد الظاهر بقوله:

---

(١) قامت تلك المنازعات بسبب إمارة طرابلس، التي اضطربت أحوالها عقب وفاة بوهمند السادس، وعندما وضعت الإمارة تحت حماية الجنوية رحبوا بالعرض لأهمية طرابلس من الناحية التجارية؛ مما أثار غضب البنادقة وانقسمت بقايا المملكة الصليبية بسبب ذلك على أحزاب متناحرة، انظر:

Marino Sanudo, Liber Secretorum, 230-231; CF. also: Runciman,S., A History of the Cursades, vol. 3,pp. 403-408.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن سقوط طرابلس، انظر:
المقريزى: السلوك، ج١، ق٣، ص ٧٤٦-٧٤٧. انظر أيضًا:

Irwin, The Mamluk Conquest of the County of Tripoli, in C.S, pp. 246-250.

(٣) Mas-Latrie, Hist. de Chypre, vol. 1, p. 468

(٤) Les Gestes des Chiproise, p. 313.

(٥) Grousset. Op. cit., t. 3, p. 745.

"وأنه متى طلب البابا بروما، وملوك الفرنج الروم والتتار، وغيرهم من الملوك من ملك أراجون مراكب أو سلاح أو معونة لا يوافقهم على شئ من ذلك ، لا سرًا ولا جهرا متى اطلع على أن أحدا منهم يقصد بلاد مولانا السلطان بمحاربة، يعرف مولانا السلطان بخبرهم، وبالجهة الأخرى التي اتفقوا على قصدها في أقرب وقت"(١) ، وكان واضحا أن ملكي فرنسا وإنجلترا ليسا على استعداد لتقديم عون سريع لصليبي الشام، في ظل ضعف البابوية الواضح، ووضح ذلك من خلال السفارة المغولية الثالثة التي أرسلها أرغون خان عقب إسقاط طرابلس، وترأسها مبعوثه بوسكاريلي دي جيسولفي(٢) Busucarelli de Gisolfi، الذي وصل إلى روما في أغسطس ١٢٨٩م/ رجب ٦٨٨هـ حيث التقى بالبابا نيقولا الرابع وحصل من البابا على رسالة تزكية إلى ملكي فرنسا وإنجلترا يقول فيها: "إن أرغون خان المغول سوف يخرج بنفسه للانضمام إلى الحملة الصليبية المتحالفة لاسترداد الأراضي المقدسة من المسلمين، ويجب عليكم مساعدته لإنجاز هذا الأمر"(٣) ، وعندما وصل بيسكاريلي إلى فرنسا وقابل ملكها فيليب الرابع، قدم له رسالة البابا، ورسالة من أرغون تتضمن قراره بتوجيه قواته في يناير ١٢٩١م/ المحرم ٦٩٠هـ نحو الشام، بشرط وجود قوات أوروبية هناك في الوقت عينه، وختم رسالته للملك الفرنسي فيليب قائلاً: "إننا بمقتضى صدق كلامك سوف نرسل قواتنا، فإذا انتصرنا على المماليك فسوف نعطيكم بيت المقدس تعويضا لكم عن سقوط طرابلس على يد المماليك"(٤) ، لكن

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، القاهرة، ١٩٦١م، ص ١٥٩-١٦٠

(٢)بوسكاريلي هو أحد الجنوية الذين كانوا يعملون في خدمة المغول، واختاره أرغون، لأن الجنوية أكثر من أضير من ضياع طرابلس، لعله يسطتيع إقناع الغرب بخطورة الموقف في بلاد الشام، كذلك أراد أرغون أن يجبر البابا على الحديث في الأمور العسكرية لا الدينية، إذ كان المغول في حاجة للعمل العسكري الأوروبي أكثر من الديني، انظر :
Ryan, J.D., The International of the Oriental Mission and Crusade Activies ot the papacy Uder Nicholas IV 1288-1292, (New Yourk University, 1972), pp. 80-81,

(٣) Ryan, op. cit., p. 85

(٤) Henisch, E., 'Zaden Brifen de Mongoilischen Il-Khame

فيليب الرابع أصم أذنيه تماما عن النداءات البابوية وعرض على المغول المشجع له، بل أرسل للبابا في ٩ ديسمبر ١٢٩٠م/ ١٠ ذي الحجة ٩٨٩هـ، يطلب إعفائه من الذهاب إلى الأراضي المقدسة[١]، وعندما وصلت السفارة المغولية إلى إنجلترا في ٥ يناير ١٢٩٠م/ ٦ المحرم ٦٨٩هـ، أحسن إدوارد الأول استقبالها وأعلن أمام السفراء أن هدفه القضاء على المماليك، واسترداد ما فقدته الإمارات الصليبية في الفترة الأخيرة، لكنه يحتاج لفترة من الوقت لكي يستعد لتنفيذ ذلك[٢]، ليشعر المغول بخيبية الأمل في القوى الأوروبية، التي من المفروض أن تكون في حالة تحفز بعدما علمت بالكوارث التي حلت أخيرا بصليبي الشام، وفي حقيقة الأمر كان إدوارد الأول كعادة ملوك إنجلترا مترددا مماطلا في قيادة الحملة الصليبية المرتقبة، وكان فيليب يرى أن فرنسا لم تجن من وراء اشتراكها في الحروب الصليبية إلا المتاعب، وحملات لويس التاسع لا زالت عالقة بأذهان الشعب الفرنسي.

وبات واضحا أن البابا نيقولا الرابع أعجز من يحرك ملوك الغرب الأوروبي وأمراءه لحشد الجيوش، والتحالف مع المغول حتى ولو هذا الأمير يعني أيضا النجدة الحاسمة للكيان الصليبي في الشرق بعد سقوط أنطاكية وطرابلس وكان البنادقة هم الاستثناء الوحيد وأكبر المستفيدين تجاريا من العاصمة عكا -ولهذا قدموا عشرين سفينة لنقل الصليبيين الذين استطاعت البابوية تجنيدهم لنجدة صليبي الشام، ولم يجد الأخيرون سوى تأجير المرتزقة من الرعاع والدهماء والعاطلين من شمال إيطاليا، وبلغوا حوالي ثلاث آلاف

Argun und Oijectu an den philip den Frankerich 1289u, 1305." (Oriens, 1949), p.220.

(١) Sylvia Schein "Philip IV and the Crusade: Areconsidertion" in C.S., pp. 121-122.

(٢) Lockhart, op. cit., pp. 25-30; Powicke, King Henery III, vol. 2, pp. 730-730.

وخمسمائة رجل وصلوا إلى عكا في أغسطس ١٢٩٠م/ شعبان ٦٨٩هـ[١]، كان هؤلاء عديمي الخبرة بشئون الحرب يتصفون بالحماسة لكن تنقصهم الخبرة والنظام، وجعلهم ذلك أقرب إلى حملة العامة التي شكلت القسم الأول من الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦م/ ٤٩٠هـ، وبات التساؤل الذي يطرح نفسه هو : هل هؤلاء القلة في كل شئ سوف يدافعون عن نتائج أخطاء البابوية وقاد الغرب الأوروبي طوال قرنين من الزمان في بلاد الشام؟

والملاحظ أن الصليبيين في الشام في تلك المرحلة لم يكونوا في حاجة إلى مثل هذا النوع من الرجال، لأنهم لن يحققوا الغرض المطلوب، بل على العكس يخشى من أن يرتكبوا بسبب جهلهم حماقات تزيد موقف الصليبيين بالشام سوءًا وهذا ما حدث بالفعل[٢]، عندما قام هؤلاء بقتل بعض التجار المسلمين، ورفضوا طلبا من السلطان قلاوون بتسليم الجناة لمعاقبتهم على جريمتهم، مما دعا السلطان إلى إعلان الحرب على الصليبيين طردهم نهائيا من بلاد الشام[٣]، لكن المدينة عاجلته قبل تحقيق هدفه، فخلفه في الحكم ابنه الأشرف خليل (١٢٩٠-١٢٩٣م/ ٦٨٩-٦٩٢هـ)، الذي عمل على تحقيق هدف والده[٤]، وعندما وصلت إلى أسماع البابا نيقولا الرابع ما حدث، أدرك أن المماليك قرروا القضاء على الكيان الصليبي نهائيا، فأرسل في ٥ ديسمبر ١٢٩٠م/ ٦ ذي الحجة ٦٨٩هـ، رسالة عاجلة إلى فيليب الرابع ملك فرنسا يحثه على إرسال نجدة عاجلة إلى الراضي المقدسة، محذرًا إياه من: إذا لم يكن يرغب في الذهاب للشرق، فعليه أن يسلم العشور الصليبية -التي لازالت تجمع في مملكته لحسابه- إلى المندوبين كي تذهب فعلاً للأراضي المقدسة، واستقبل فيليب رسال البابوية بلا مبالاة[٥]، وفي عام ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ، وصلت إلى الغرب الأوروبي السفارة

---

(١) Ryan, op. cit., pp. 80- 82.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٩٣١..

(٣) مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ج٢، ص ٣٨٦؛ المقريزي، ج١، ق٣، ص ٧٥٣-٧٥٤، وأنظر أيضا:

Les Gestes des Chiprois, loc, cit.

(٤) بيبرس الدوادار: زبد الفكرة، ج٩، ص ٢٥٢.

(٥) Ryan, op. cit., pp. 120- 121

الرابعة لأرغون، حيث التقى أعضاءها بالبابا وملكي إنجلترا وفرنسا في محاولة أخيرة لتوقيع تحالف عسكري، يتوجه لبلاد الشام في أقرب وقت[1].

وفي أثناء ذلك نجح السلطان الأشرف خليل في الاستيلاء على عكا وبيروت وصيدا وصور وجبيل وعلثيت وطرسوس، وسقطت معظمها دون قتال بعد فرار سكانها لقبرص فدمر هذه المواقع كلها في أواخر عام ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ[2]، دون أدنى تدخل من أية قوة أوروبية منهيا بذلك الوجود الصليبي في الشرق الأدنى الإسلامي.

وفي حقيقة الأمر فشلت السياسية الأوروبية -بشكل واضح- في المحافظة على الكيان الصليبي في بلاد الشام، خاصة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري، وبالتحديد منذ رحيل لويس التاسع عن الشام عام ١٢٥٤م/ ٦٥٢هـ، حتى انهيار الكيان الصليبي نهائيا عام ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ، وليس السبب في ذلك ما يراه المؤرخ الفرنسي رينيه جروسية وهو إخفاق الغرب في التحالف الأوروبي مع المغول، على أساس أن أي تعاون بينهما كان من شأنه أن يؤدي إلى تحقيق نتائج فعالة ضد المسلمين[3]، لكن هذا التعليق من جانب جروسية مبالغ فيه كثيرًا لأن انهيار الكيان الصليبي في الشام يرجع إلى عوامل عدة مهمة منها: الخلافات الداخلية بين الصليبيين أنفسهم، التي وصلت إلى الصدام المسلح بين تجار المدن الإيطالية في الأراضي المقدسة، وكذلك الصدام بين الهيئات الرهبانية العسكرية، وعدم وجود قيادة مركزية يخضع لها الصليبيون في بلاد الشام، بعد رحيل ملك فرنسا إلى بلاده عام ١٢٥٤م/ ٦٥٢هـ بالاضافة إلى الانتصارات الباهرة التي حققها المسلمون

---

(١) Chronicle of Bury st. Edmunds, 1212-1301, Tran. From Latin by Antonia Gransden, (London, 1964), p. 97.

(٢) عن فتح المعاقل الصليبية، أنظر :
المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص ٧٦٥؛ العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٥٦-٥٨؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص٨٠٥؛ الحريري: الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين من بلاد المسلمين، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص ٧٠-٧٢.

(٣) Grousset,R., op. cit., t. 3, pp. 651-652

تحت قيادة المماليك، ونجاحهم في فترة زمنية وجيزة في إعادة بلاد الشام إلى السيطرة الإسلامية، ثم كان السبب الأخير والأهم بالنسبة لدراستنا، وهو أن الوجود الصليبي في الشام كان يعتمد على الظهير الأوروبي في الإمدادات العسكرية والاقتصادية وعدة نواحي أخرى، وبانقطاع هذه الإمدادات للظروف السابقة ولظروف الغرب الأوروبي نفسه –أصبحت بقايا الإمارات الصليبية في الشرق– خاصة بعد توحد مصر والشام تحت حكم المماليك بعد عين جالوت ١٢٦٠م/ ٦٥٨هـ– في موقف لا تحسد عليه، ومن سقطت المدن والقلاع الصليبية واحدة تلو الأخرى دون أي تدخل أو مساعدة حاسمة من المركز الأم في أوروبا، التي شغلت القوى فيها من بابوية وحكام بمشكلات خاصة، بعيدة كل البعد عن التفكير في الإمارات الصليبية في الشام.

وليس أدل على هذا مما ذكره السفير المغولي رابان سوما في مذكراته عن مهمته في أوروبا إذ قال: "أرسلني الخان أرغون في سفارة إلى أوروبا للتفاوض بشأن مصير بيت المقدس وأراضيهم المقدسة، ورغم مرور عام على بقائي هنا، إلا أن المنصب البابوي لايزال شاغرًا، ماذا سأقول؟ وما الإجابة التي سأعطيها للمغول؟ يقال عن المغول إن قلوبهم قاسية مثل الصخر، ومع هذا يريد المغول الاستيلاء على بيت المقدس، أما هؤلاء –يقصد الأوروبين الذين من المفروض أن يهمهم مصيرها، لا يفكرون فيها على الاطلاق، بعد أن شغلتهم مصالحم الشخصية عن ذلك[1].

** ** **

(١) Rabban Sawma, The Monks of Kublai khan or History of the life and Travelers of Rabban Sawma – eng.Trans, from Syriac By Wallis Budge, (London, 1928), p. 188

الخاتمة

إن ما يلفت النظر من خلال تتبع طبيعة الدعم الأوروبي لصليبي الشام نجد أن العلاقات بين الإمارات الصليبية في بلاد الشام والغرب الأوروبي، اتسمت بالتناقض في فترات زمنية عديدة، وهذا التناقض في تلك العلاقات من الدوافع الأساسية لدراسة هذا الموضوع، فنجد أن أوروبا بعد أن قدمت الدعم للركائز الصليبية في الحملة الصليبية الأولى غفلت عنها حتى الحملة الثانية، التي تسبب فشلها في ميل ميزان القوى في بلاد الشام لصالح المسلمين، وعندما حاول صليبيو الشام لفت انتباه أوروبا لخطورة الوضع، لم يجدوا منه آذاناً صاغية حتى كانت موقعة حطين ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ، وما تلاها من انتصارات حققها صلاح الدين في إيقاع مبهر وسريع، وعندما توالت استغاثات الصليبيين بالغرب في صورة رسائل وسفارات تشرح للناس فيه حقيقة الأحوال السيئ التي يمرون بها، وخطورة وضع المقدسات المسيحية بعد سيطرة صلاح الدين على زمام الأمور، بات الجميع ينتظر رد فعل الغرب، وتباينت ردود أفعال الغرب ما بين ردود إيجابية وأخرى سلبية، وإحجام، فبينما أسرع الملك الصقلي وليم الثاني بتلبية نداء الصليبيين في الشرق وأرسل أسطوله لمساعدتهم، وجدنا ملكي إنجلترا وفرنسا ينتظران أكثر من ثلاث سنوات حتى يقوما بعمل مجد لصليبي الشام أمضياها في صراعاتهم المريرة، وتحطمت الآمال المعقودة على الإمبراطور فريدريك بارباروسا بغرقه في نهر ساليف، واقتصرت جهود البابوية على إثارة حكام الغرب فقط، وكان أكبر نجاح حققه الغرب هو المحافظة على بقايا الإمارات الصليبية ومنعها من الانهيار عقب حطين، والنجاح الوحيد التي حققته الحملة الثالثة الاحتفاظ للفرنج بذلك الشريط الساحلي الضيق الذي بات هو المنفذ لعلاقة صليبي الشام بأوروبا، بالإضافة لجعل قبرص بمثابة قاعدة إمدادات لصليبي الشام، وبالرغم من الحماسة التي أبداها الإمبراطور هنري السادس، والجهود المضنية التي قام بها البابا إنوسنت الثالث، ومن بعده البابا هونوريوس الثالث واتخاذهما كافة الوسائل لمساعدة الإمارات الصليبية، إلا أن الغرب

الأوروبي بقياداته الدينية والعلمانية فشل تقديم الدعم المطلوب للإمارات الصليبية في بلاد الشام، ولم تستطيع أوروبا بجيوشها الجرارة ودعمها المادي –عقب حركة الاسترداد التي قام بها صلاح الدين عقب حطين– أن تعيد للصليبيين ما فقدوه في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، وأبلغ الدلائل على ذلك الحملتين الرابعة والخامسة، وبات واضحا تغير الفكر الصليبي لدي الأوروبيين وذلك مع بدايات القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، حيث ظهر جليًا أن صليبي الشام تأثروا إلى حد كبير بالأحوال السياسية التي سادت الغرب الأوروبي آنذاك، خاصة ما عرف بالصراع البابوي الإمبراطوري ومحاولة كل طرف منهما استخدام الإمارات الصليبية كورقة سياسية في الصراع، وهو ما فعله البابا جريجوري التاسع بمهارة بالغة، كذلك نلحظ أنه بالرغم من النجاح الذي أبداه الإمبراطور فريدريك الثاني في حملته –المعروفة بالحملة السادسة– واستعادته بيت المقدس بالطرق الدبلوماسية، إلا أن صليبي الشام اعتبروا ذلك نجاحًا ظاهريًا، ولم يشعروا بالاستفادة السياسية والعسكرية منه، وكذلك الاقتصادية، علاوة على أن الحملة قد تركت بذور حرب أهلية داخلية استمر فترة طويلة، ولولا انشغال بني أيوب بخلافاتهم الداخلية، واحترامهم للهدنة الموقعة مع الإمبراطور لانهار الكيان الصليبي كله في تلك الفترة، وعندما حاولت الحملة الإنجليزية التي قدمت إليهم في أواخر عام ١٢٤١م/ ٦٣٨هـ تقديم بعض المكاسب للصليبيين أضاعوها، وبات ذلك واضحًا في فقدانهم لبيت المقدس للمرة الثانية وهزيمتهم الفادحة في معركة غزة عام ١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ، وواصلوا الاستغاثة بالغرب حتى جاءت إليهم حملة لويس التاسع، وبالرغم من الفشل الذريع الذي لحق بها إلا أن بقاء لويس في بلاد الشام كان بمثابة المنقذ للإمارات الصليبية في تلك الفترة، ولكن مع رحيله إلى الغرب دخل الصليبيون في حروب أهلية عد، نظرًا لافتقارهم لوجود قيادة مركزية يخضعون لها في ظل انشغال الغرب بخلافات وصراعات بعيدة كل البعد عن أي روح صليبية تدعوا لنجدة إخوانهم في الشرق، ولما كان الوجود الصليبي في بلاد الشام يعتمد على الظهير الأوروبي للحصول على الإمدادات العسكرية والاقتصادية، فإن انقطاع هذه الإمارات للظروف السابقة ولظروف

الغرب الأوروبي نفسه، جعل بقايا الإمارات الصليبية في الشرق، خاصة بعد توحيد بلاد الشام ومصر تحت حكم المماليك بعد نصر عين جالوت ١٢٦٠م/ ٦٥٨ه، في موقف لا تحسد عليه، ومن ثم سقطت المدن والقلاع الصليبية واحدة تلو الأخرى، دون تدخل أو مساعدة حاسمة من غرب أوروبا، وبات واضحا أن السياسة الأوروبية فشلت وبشكل واضح في المحافظة على الكيان الصليبي في بلاد الشام، وعلى امتداد فصول الرسالة الخامسة، تعرض هذا العمل لعدة قضايا لم تتعرض لها الدراسات التاريخية الحديثة، وفرضها على البحث المنهج الذي اتبع في معالجة هذا الموضوع -العلاقات بين الإمارات الصليبية في بلاد الشام وغرب أوروبا- كذلك لعبت المادة التاريخية التي أمكن الحصول عليها دورًا هامًا في ذلك، فقد ثبت أنه عقب معركة حطين ظهر لكل ذي عينين فشل الصليبيين -بإمكاناتهم المحلية المحدودة- في أول معركة حاسمة كبرى، وأنه ولابد إذا ما أرادوا إنقاذ بقايا الوجود الصليبي في بلاد الشام، لابد من حلف دفاعي استراتيجي لهم مع الغرب الأوروبي، كذلك لاحظ الباحث تعمد الصليبيين في استغاثاتهم المستمرة بالغرب اختلاق بعض الأكاذيب وهو ما ظهر واضحًا في خطاب الأسبتارية الذي أرسلوه إلى أرشيمبالدو -رئيس أسبتارية إيطاليا- في أواخر أغسطس ١١٨٧م/ أوائل جمادى الأولى ٥٨٣هـ، وفيه تعمدوا ذكر وقوع صور في يد صلاح الدين -وهو أمر لم يكن قد حدث- وأرجعه الباحث إلى رغبتهم في إثارة حماس الغرب الأوروبي تجاه القضية الصليبية، ورجح الباحث أن الغرب سواء البابوية أم الحكام العلمانيين قد أصيبوا بما يشبه الصدمة عند سماعهم بما حدث في الشرق، ذلك على الرغم من معرفتهم بسوء أحوال صليبي الشام قبيل حطين، أو لم يكونوا يتوقعون ما حدث من نجاح المسلمين في تحقيق مثل هذه الانتصارات العسكرية المبهرة فيما لا يزيد عن شهرين، علاوة على قيام الغرب الأوروبي بعمل حربي كبير وسريع كان امرًا صعبًا للغاية في ظل ما كانت تعانيه أوروبا من صراع باباوي إمبراطوري، ونزاع دائم ما بين ملكي فرنسا وإنجلترا، كذلك طرح الباحث العديد من التساؤلات التي فرضت نفسها والتي تطلبت الإجابة عليها، ومنها على سبيل المثال تباين الآراء حول قبول الإمبراطور فردريك بارباروسا الخروج بحملته، ولماذا لم يخرج بها من

قبل وقد جاءته نداءات واستغاثات متكررة من صليبي الشام قبيل حطين فلماذا انتظر حتى وقعت الكارثة؟ وفيها أثبت الباحث أنه بالإضافة لبعض الأسباب الخاصة بأحوال أوروبا السياسية في تلك الفترة والتي ركز المؤرخين في الحديث عنها، فقد أضاف الباحث على أن وضع الصليبيين في فترة ما قبل حطين لم يكن يشجع على القول بأنهم على وشك الانهيار –من وجهة نظر فرديريك على الأقل– وعندما قام بحملته جاءت استجابة لنداءات صليبي الشام المتعددة خاصة من جانب كونراد دي مونتفرات وما بين الطرفين من قرابة أزال فريدريك في قيادة الحملة، وهناك سبب أخر وهو أن فريدريك أراد أن يمحو آثار ما مني به من فشل في أثناء مشاركته في الحملة الصليبية الثانية قبل أكثر من أربعين عام، بالرغم من أن عمره كان قد قارب السبعين عامًا، وكذلك يرى الباحث أن وفاة البابا أوربان الثالث –أخر الباباوات المناوئين لفريدريك– قد فتحت مجال العلاقة الطيبة بين الأخير والبابوية، والدليل على ذلك نجاح البابا كلمينت الثالث في إقناع فرديريك بضرورة قيادة الحملة الصليبية، والإقلاع عن محاربة أعدائه في ألمانيا، وأخيرًا أراد فريدريك أن يثبت للجميع أنه أقوى حكام أوروبا بلا منازع.

وعن رأي الباحث في الجهود التي بذلتها بقية الغرب الأوروبي عقب معركة حطين، فقد أدرك الباحث أن الملك الصقلي وليم الثاني كان صادق النية في خدمة القضية الصليبية، ولم تكن دوافعه إلى ذلك دينية فقط بل أراد إعلاء شأن مملكته في الدول الأوروبية، وكان على اقتناع تام بأن المشاركة في الحروب الصليبية ستحقق له ذلك، لذا كان أول من لبى نداء الصليبيين من الملوك الكبار، ثم هناك المشروع الذي قدمه، والوصية التي تركها، لكن ما طرأ على صقلية من تطورات بعد وفاته حتم على الغرب الأوروبي أن يبحث عن نصير أخر من أجل إنقاذ البقية من الإمارات الصليبية، فكانت أولاً فرنسا التي يرجح الباحث على أن ملكها فيليب أغسطس كان يرى أن الإمارات الصليبية وليدة فكرة فرنسية خالصة ويجب التدخل لإنقاذها ولكن مع النظر لرغبته الأكيدة في التفوق على عدوته اللدود إنجلترا، الذي أثبت الباحث أن ملكها هنري الثاني كان في تردد دائم في محاولة الإقدام بالذهاب على رأس حملته للشرق، وكان

يتحل من ذلك بإرسال الأموال لصليبي الشام، على عكس ابنه وخليفته ريتشارد الذي كانت لديه الرغبة الصادقة في المشاركة في حملة صليبية تتجه لنجدة الإمارات الصليبية، كذلك توصل الباحث إلى أن ما يلفت النظر في المرسوم البابوي الذي أصدره البابا جريجوري الثامن عقب حطين وفقدان بيت المقدس في الدعاية الصليبية، مما يعيد للذاكرة ما دعا إليه البابا أوربان الثاني في الحملة الصليبية الأولى.

وتوصل الباحث إلى عدة استنتاجات من خلال سياسة البابا إنوسنت الثالث تجاه الإمارات الصليبية خاصة في مسألة استلام التقارير الواردة من هناك وبناء سياسة تستند على ما يرد في هذه التقارير، فقد أثبت وصول بعض التقارير الغير صحيحة للشرق إلى البابا مما دفع الأخير إلى دفع الاعتقاد بأن الدولة الأيوبية على وشك الانهيار، كذلك أراد البابا إتباع أسلوب الدبلوماسية مع بني أيوب، مع إرسال الجواسيس في الوقت نفسه، وأراد من ذلك كله إعداد حملة صليبية، يمكنها أن تنجح فيما فشلت فيه الحملات السابقة منذ سقوط مملكة بيت المقدس عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ، وأثبت الباحث أنه بالرغم من حصاد الحملة الألبجنسية كان انتصارًا لإنوسنت الثالث، إلا أنه كان انتصارًا منقوصًا إذا أضرت الحرب التي شنها تحت الرايات الصليبية بسمعة الحركة الصليبية ذاتها بشكل خطير، كما أنه أكد الظن بأن القوات الضخمة التي وجهتها البابوية يمكن إطلاقها لتحقيق أغراض غير الدفاع عن الإمارات الصليبية في بلاد الشام بعد أن استغل البابا المثال الصليبي في بعض الأغراض البابوية .

وأيضًا يرد الباحث على الرأي الذي يرجع اتخاذ البابوية لقرار الحرمان على الإمبراطور فريدريك الثاني على أنه سببه هو تأجير الأخير لتنفيذ وعده الصليبي، وهو الأمر الذي لم يكن بهذه البساطة إذ أن هذا القرار يدخل في إطار العلاقة بين البابوية والإمبراطورية، تلك العلاقة التي تميزت بالعداء في أغلب الأوقات وازدادت حدتها في عهد أسرة الهوهنشتاوفن واشتعلت في عهد البابا جويجوري التاسع الذي حاول تطبيق السمو البابوي، ووجدنا في عهده كيف تطور الصراع البابوي الإمبراطوري ليلقي بظلاله على مستقبل ومصير الإمارات الصليبية، كذلك خرج الباحث بعدة ملاحظات من خلال الوصية التي

تركها الملك الفرنسي أراد أن يثبت أن لصليبيي الشام وضعًا لدى حكام فرنسا، من حيث فرض ما يشبه الوصاية عليها، وعلى من يتولى عرش حكمها، بالإضافة لاستمرار الإمدادات التي لها ولو كانت مادية، وثمة ملاحظة أخرى من هذه الوصية هي أن الملك الفرنسي قد استثنى جماعة التيوتون من المنح المالية التي منحها للجماعتين الأخيرتين الدواوية والأسبتارية، لكونهم أمان وينالون امتيازات ومنح عديدة وباستمرار من الإمبراطور فريديريك الثاني كذلك فقد كانوا مكروهين في الشرق والغرب بسبب سياسة الإمبراطور وصراعه مع البابوية، كذلك توصل إلى عدة نتائج من بين ثنايا التقرير الذي أرسل من صليبيي الشام إلى بعض النبلاء الفرنسيين في ٦ أكتوبر ١٢٣٨م/ ١٣ ربيع أول ٦٣٦هـ، ويلاحظ أن من أصدر هذا التقرير هم حزب النبلاء المعارض للوجود الإمبراطوري في الإمارات الصليبية، وهم أحد طرفي الصراع في الحرب الأهلية، والتي انتهت بشكل مؤقت، ومن هنا نلاحظ عدم اهتمامهم باحترام الهدنة التي وقعها الإمبراطور مع الملك الكامل -هدنة يافا- والتي لا تزال سارية المفعول حتى وقت كتابة التقرير، ولعل طلب بارونات الشرق من الغرب الأوروبي الإسراع في المجئ كان لدعم موقفهم تجاه أتباع الإمبراطور الذين كانوا لا يزالون يسطرون على صور كذلك من الملاحظ في التقرير أن تحدي مواني خروج الحملة، وخاصة مرسيليا وجنوة الواقعين خارج سيطرة الإمبراطور حتى يتجنبوا أي معارضة أو عرقلة من جانبه، وقد لا يسمح بخروج أي حملة من مناطق نفوذه قبل مدة الهدنة، كذلك اختيارهم لقبرص لتكون مركز استراحة للحملة، هو اختيار صائب لسيطرة هؤلاء النبلاء وعلى رأسهم آل إيبلين على الوضع في قبرص .

كذلك عالج الباحث رسائل رينشارد أوف كورنوول -قائد الحملة الإنجليزية- التي بعث بها لبعض الحكام والأمراء في الغرب والتي أدرك الباحث من أن قائد الحملة أراد أن يثبت للجميع أن حملته حققت عدة إنجازات لصليبيي الشام وهو الأمر المبالغ فيه لأنه قلما تعترف الشخصيات العامة بأخطائها والدليل تفجر الصراعات المحلية في الإمارات الصليبية عقب رحيله، وهو ما سعى إليه الملك الصالح أيوب من خلال المعاهدة التي أبرمها مع

ريتشارد أوف كورنوول حيث أراد توجيه ضربة للتحالف القائم بين الداوية وعدوه اللدود الصالح إسماعيل ملك دمشق، ومن جهة أخرى إشعال الخلاف بين الداوية والأسبتارية، وبالتالي إضعاف الإمارات الصليبية في بلاد الشام وهو ما أكدته الأحداث فيما بعد.

كذلك ولأول مرة في دراستنا لاستغاثات صليبي الشام بالغرب الأوروبي، وجدنا الاستغاثة صادرة من ملك أوروبي مقيم في الشرق -لويس التاسع ملك فرنسا- متخذًا أسلوب القائمين بشأن الإمارات الصليبية في استخدام الرسائل وإرسال السفارات الصليبية إلى الغرب، وذلك بقاؤه في بلاد الشام عقب فشل الحملة الصليبية السابعة، كذلك تم الرد على ما أورده أحد المؤرخين المعاصرين على اتهامه للملك الصالح أيوب بأنه استأجر ما عرف في أوروبا بحركة الرعاة رغبة منه في إشاعة الفوضى في فرنسا حتى يجبر الملك الفرنسي على العودة لبلاده، وهو الأمر المستبعد تمامًا لافتقار المصادر الغربية والإسلامية لأي إشارة لهذا الأمر، علاوة على أن الدليل الأهم ألا وهو وفاة الملك الصالح أثناء أحداث الحملة ووجودها في مصر، ومن المرجح أن تلك الإشاعة روجها رجال الدين آنذاك -من أمثال متى الباريزي- لتشويه حركة الرعاة التي أساءت لرجال الدين في تلك الفترة.

وأثبت الباحث على أن صليبي الشام ركزوا استغاثاتهم على ملك إنجلترا والبابوية دون غيرهم بعد فشل الحملة السابقة لإدراكهم أن لويس التاسع قد انشغل فور عودته بترتيب الأمور في بلاده، وأنه بسبب السلبية الواضحة التي أبداها الملك الإنجليزي هنري الثالث اضطر الصليبيون إلى عقد هدنة مع المسلمين عام ١٢٥٦م/ ٦٥٤هـ، وأيضا توصل الباحث إلى أن سياسة البابوية تجاه صليبي الشام ظلت متباينة ومختلفة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي فوجدنا في سابقة تعد الأولى من نوعها تحول النذر الصليبي لهنري الثالث إلى صقلية بدلاً من مساعدة صليبي الشام، بل أن البابا إنوسنت الرابع أشار في مغالطة واضحة أن انتزاع التاج الصقلي سوف يجعل مساعدة الإمارات الصليبية أكثر سهولة، بل البابوية وضعت عدة عراقيل أمام حملة الأمير إدوارد المتجهة للشرق، وكان أمل الصليبيين الوحيد في البابوية تلك التي

تمثلت في اعتلاء البابا جريجوري العاشر للكرسي البابوي وعندما طالب بإعداد تقارير عن كيفية إحياء الحركة الصليبية وإنقاذ ما تَبقى من الإمارات الصليبية أغفلت تلك التقارير –حسبما يرجح الباحث– الإشارة إلى المشاكل الرئيسية التي تعرقل أي مجهود من قبل الغرب لنجدة صليب الشام مثل أن البابوية تستخدم الحروب الصليبية لتحقق أغراضها الخاصة، وأن ملوك وحكام الغرب كلاً كان منشغلاً بمشاكله الخاصة، في الوقت الذي فترت فيه الروح الصليبية لديهم، كذلك أثبت الباحث اختلاف رد فعل انتصارات صلاح الدين –فيما سبق– لديهم، بعد أن نجح بيبرس في تحقيق هدفه في عزل الإمارات الصليبية عن كل مصادر العون لها.

كذلك توصل الباحث إلى عدة استنتاجات خاصة بعلاقة قوى الغرب الكبرى بصليبي الشام في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، فمثلاً وجدنا فرنسا عقب وفاة ملكها لويس التاسع في عام ١٢٧٠م وفي عهد ملكها فيليب الثالث ومن بعده فيليب الرابع بات واضحًا أنها لم تكن لديها الرغبة في الاستمرار في مساندة ودعم الصليبيين في الشام، وبفشل حملة الأمير إدوارد انتهت أخر مشاركة إنجليزية هامة على مسرح الحروب الصليبية، كذلك أثبت الباحث أن السياسة الأوروبية فشلت وبشكل وضاح في المحافظة على الكيان الصليبي في بلاد الشام في الفترة ما بين رحيل الملك لويس من الشام حتى انهيار هذا الكيان نهائيًا عام ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ، وليس كما يراه المؤرخ الفرنسي رينية جروسية الذي يحدد بفشل الغرب في التحالف مع المغول لنه رأى مبالغ فيه كثيرًا لأن انهيار الكيان الصليبي أرجعه الباحث إلى عدة عوامل هامة مثل: خلافات الصليبيين الداخلية والصدام المسلح في بعض الفترات، وعدم وجود قيادة مركزية يخضعون لها، والانتصارات الباهرة التي حققها المماليك في فترة زمنية وجيزة، ثم كان السبب الأخير والأهم بالنسبة لمحور دراستنا تمثل في أن الوجود الصليبي كان يعتمد على الظهير الأوربي في الإمدادات العسكرية والاقتصادية وعدة نواحي أخرى، وبانقطاع هذه الإمدادات للظروف السابقة ولظروف الغرب نفسه –جعل بقايا الإمارات الصليبية في الشرق– خاصة بعد توحيد بلاد مصر والشام تحت حكم المماليك في موقف لا تحسد عليه ومن ثم

سقطتِ المدن والقلاع الصليبية واحدة تلو الأخرى دون تدخل أو مساعدة حاسمة من المركز الأم في أوروبا والتي انشغل كل من فيها من بابوية وحكام بمشاكل خاصة بعيدة كل البعد عن التفكير في الإمارات الصليبية المتواجدة في بلاد الشام.

** ** **

– بيان بالمختصرات الوارد ذكرها في حواشي الكتاب

A.O.L. : Les Archives de L'Orient Latin
A.H.R. : American Historical Review.
Ann.T.S. : Annales de Terre Sainte
B. : Bulletin des Etudes Orientale
B.E.O. : Byzantion.
B.F.L.S. : Bulletin de la Faculte des Lettre de Strasbourg
B.I.H.R. : Bulletin of the Institute of Historical Research
C.A.J. : Central Asian Journal
C.E.H. : Cambridge Economic History
C.H.R. : : The Catholic Historical Review.
C.S. : Crusade and Settlement
C.S.H.B.: Corpus Scriptorium Historiae Byzantinae.
D.T.C. : Dicitionnaire de Theologie Catholique.
E.H.R. :. English Historical Review.
G.D.F. : Bongars, Gesta Dei Per Francos.
J.A. : Journal Asiatique .
J.A.H. : Journal of Asian History.
J.A.O.S. : Journal of the American Oriental Society.
M.G.H.E.S: Monumenta Germaniae Hostorica Epistolae Saeculi XIII

M.G.H.S: Monumenta Germaniae Hostorica, Scriptores.
M.H. : Mediaeval History.
M.S. : Mediaeval Studies.

P.A.P.S. : Proceedings of American Philosophical Society.

P.L. : Patrologia Latina.

P.O. : Patrologia Orientale.

P.P.T.S.: Palestine Pilgrims Texte Society.

R.H.C.Doc.Arm : Recueil des Historiens des Croisades Documents Armeniens.
R.H.C- H.OCC : Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux
R.H.G.F.: Recueil des Historiens des Gaules et de la France.
R.I.S. : Rerum Italicarum Scriptores.
R.O.C. : Revue de L'Orint Chretien.

R.O.L. : Revue de L'Orint Latin.
R.S. : Rolls Series.
S.M. : Studia Medivalia.
S.V. : Studi Venziani.

المراجع

أولا: مجموعات الحروب الصليبية

Bongars, J. (ed.),

- Gesta Dei Per Francos, nve Orientalium a Peditionus et regru Francorum Hierusalimitani historia (ab a.l 095 ad 1220) avorus sed illius aevi Scriptoribus. Litteris, 2t, (Hanover, 1612).

Bouquet. T. M. (ed.),

- Recueil des Historiens des Gaules et de la France, 24vols, (Paris, 1738- 1904).

Huillard - Breholles. (ed.),

- Historia Diplomatica Friderica Secundi, 7vols., (Paris, 1851- 1862).

Les Archives de L'Orient Latin,

- Publiee Par La Societe de L 'Orient Latin, 2 vols, Paris, 1881 et 1887, Textes, inventaires, et etudes Originnales.

Migne. J.P. , (ed.),

- Patro Logia Latina, 221 vols, (Paris, 1844- 1855).

Monumenta Germaniae Historiea,

- Epistolae Saeculi XIII, 3 vols, (Berlin, 1883- 1894).
- Legum, 5vols, (Berlin, 1853- 1875).
- Necrologia Germoniae, 2 vols, (Berlin, 1888- 1890).
- Scriptorum, 34 vols, (Hannover, 1826- 1980).

Muratori Antonio, (ed.),

- Rerum Italocarum scriptores ab anno aerae Christianae Quinsentesimo ad millesimunquingentesimum, 29 vol, (Millano, 1723- 1751).

Palestine Pilgrims Texts society,

- 13 vols, and general Index, (London, 1887- 1897).

Recueil des Historiens des Croisades,

- (public Par les Sains de L' Academia des Inscriptions et Bellas - Lettres, in 16 folio vols, Paris, 1841- 1906).

1- Historiens Occidentaul, 5 tomes, (1844- 1895).

11- Documents Armenians, 2 tomes, (1869- 1906).

III - Louis, 2 tomes, (1841- 1843).

Revue Lorient Latin

- Publiee Sous La direction de M.M.Le Marquis e Vogue par R.Graffin et F. Nav, (Paris, 1906- 1924).

ثانياً: المصادر الأجنبية

(أ) الوثائق الرسمية

Carl Rodenberg,

- Epistolae Saeculi XIII regestis Pontifi cum Romanorum Selectae,2vols,(Berlin,1883- 1887).

Documents,

- Documents on the Later crusodes ,1274- 1580, ed. trans. ByNorman Hausley, (New York, 1996).

Strehlke, E. ,

- ed. Tabula Ordinis Theutonici, (Berlin 1869, new edition, e.byMayer,H.E.,(Toronto,1975).

Le Raulx ,D.,

- ed. Cartulair generalde L'ordre des Hospitliers de S1. Jean de Jerusalem, 1100- 1310, 4vols, (Paris, 1894- 1906).

Mas- Latrie ,

- Histoire de L'ile de Chypre Sous Le regne des Princes de la Maison de Lusignan, 3 vols, vol. 1, Histoire, vol. 2-3, Documents, (Paris, 1852- 1861).

Rohricht ,R.,

- ed. Regesta Regni Hierosolymitani, 2 vols (Innsbruk, 1892-1904).

Tafel ,G.L. and Thomas ,G.M.,

- Urkunden Zur alteren Handels and staatsgeschichte der Republik
Vending, 3 vols, (Vienna, 1869).

(ب) الخطابات الرسمية

Aimery the Monk (Patriarch of Jerusalem),

- Letter of Aimery the Monk to pope Innocent III, Acre, (Nov. 1199), in Vincent de Beavais, Speculum Historiale, Lib. XXIX, ch. Lix.

Amoury (Patriarch of Antioch),

- Letter of Amoury to Henry II king of England (Sept. 1187), in Roger of Hoveden, Annales, vol. 2, pp. 84-85.

Armand de périgord (master of the Temple),

- Letter of Armand de perigord to Gualtero de A vesnis, Acre, Mar. 1239), in Chronicon Alberic des Trois Fontaines,P.945: (Rohricht, Regesta, no. 1088, p. 284.
- Letter of Armand de perigord to Robert of Sand Ford,

Acre,
(Nov. 1243), in Matthew Paris, English Hisory, vol. 10, p. 483.

Bohemond VI (Prince of Antioche),

- Letter of Bohemend VI to Henery III king of England (14 May. 1255), in Annales de Burton, pp. 369-371.

Charles D'Anjou,

- Letter des Chretiens de Terre Saint a Charles d'Anjou, Acre,
(22 April. 1260), ed. Delobord, in R.O.L., vol. 2, (Paris, 1894),pp.213-215.

Conard de Montforrat,

- Letter of Conrad de Montforrat to Bella III king of Hungary, Tyre, (Jan.1188), in Rohricht, Regesta, No. 670, p. 179
Letter of Conrad de Montforrat to Baldwin Archbishop of Canterbury, Tyre, (Sept.1188), in Roger of Wendover, Flowers of History, vol. 2, p. 71-72.

Frederick II,

- Letter of Frederick II to pope Homorius III, (22 Nov. 1220), in
Huillard - Breholls (ed.), Historia Diplomatica Friderica Secundi, vol. 1, pp. 584-586.

- Letter of Frederick II to Henry III king of England (17 Mar. 1229), in Roger of Wendover, op. cit., vol. 2, pp. 522-523.

- Letter of Frederick II to Crusaders in France, Vercelli, (7 Nov. 1238), in Huillard c-Breholles. op. cit., vol. 5, pp. 140-142.
- Letter of Frederick II to Conrad de Hohenstauffen, San Germano, (June. 1240), in Huillard - Breholles, op. cit., vol. 5, pp. 1003-1004.
- Letter of Frederick II to Senate, people in Rome, Viterbe, (Dec. 1243), in Huillard - Breholles, op. cit., vol. 6, pp. 145-146.
- Letter of Frederick II to Richard of Cornnouoilles, Foggia, (27Feb.1245),in Huillard - Breholles, op. cit., vol. 6, pp. 255-256

  Gerold (Patriarch pf Jerusalem),
- Letter of Gerold to Pope Gregory IX, Acre, (7 Mar. 1229), in Huillard – Breholles, op. cit., vol. 3, pp. 86-90.

Gregory VIII,Pope,

- Letter of Gregory VIII, accords the Church's protection to the Crusader Hinco of Zerotin (21 Oct. 1187), in Louis and Riley - Smith, Idea and Realty, p. 101.
- Letter of Gregory VIII to all kings, Princes Archbishops, etc.(29Oct. 1187), in Roger of Hoveden, pp. 37-38

  Gregory IX, Pope,
- Letter of Gregory XI to John d'Ibelin, Latran, (28 Mar. 1234),in M.G.H., ES.XII, vol. 1, p. 471.
- Letter of Gregory XI to Henry III king of England, Spolete,

(2Sep.1234) , in Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 3, pp.280-287.

- Letter of Gregory XI to Louis IX, Perouse (6 Nov. 1234), inMatthew Paris, Chronica Majora, vol. 3, p. 294. Letter of Gregory XI to Archbishops in France, (28 Sep. 1235),in M.G.H., SS.XIII, vol. 1, p. 561. Letter of Gregory XI to Archbishops in England, (2 Sep. 1235),in Roger of Wendover, vol. 2, p. 412 . **Guy de Bassal,**

- Letter of Guy de Bassal to Francon de Born, Acre, (April. 1260),in Matthew of Westminster, vol. 2, pp. 382-383.

Henry Duke Lurein,

Letter of Henry Duke Lurein to Archbishop of Cologne, in Chronica Regia Coloniensis, pp. 160-161.

Henry II (king of England),

- - Letter of Henry II to the Patriarch of Jerusalem and Antioch and Prince of Antioch, (Mar. 1188), in Roger of Hoveden,pp.85-89.

Herman Yon Salza (Master of the Theutonic order),

- Letter of Herman Von Salza to Pope Grigory IX, (15 Mar. 1229), in Huillard - Breholls, vol. 3, pp. 90-92.

Honorius III, Pope,

- Letter of Pope Honorius III to Pelagius (9 July. 1221), in Regesta Honorii III, vol. 1, no. 3495, p. 568.

- Letter of Pope Honorius III to Bishop ofTusculum (10 Nov.

1220),in Huilland - Breholles, vol. 1, pp. 880-881 . Letter of Pope Honorius III to Frederick II (Sept. 1218), in James Powell, Honorius III, pp. 526-527 Letter of Pope Honorius III to Frederick II (19 Nov. 1221), Rodenberg,Vol.1,PP.128-130.

Innocent III, Pope,

- Letter of Pope Innocent III to the Nobles of Tuscany (Oct. 1198),in Ursula Schwerin, p. 93. Letter of Pope Innocent III to the Venetians (June. 1198), in Thatcher, A source Book, pp. 535-537.
- Letter of Pope Innocent III to Philip Augusts (1205), in Rohricht, Regesta, no. 808, p.212. Letter of Pope Innocent III, Proclaims the fifth Crusade(19-29 April. 1213), in Louis and Reily - Smith, Idea and Reality, pp.123.
- Letter of Pope Innocent III to king of Denimark (Dec. 1215),in Regesta Lucius III, Pope, in P.L., vol. 215. Col. 258;CF.also:Thacher,p.248. Letter of Pope Lucius III to Henry II king of England (Dec. 1184), in Roger of Hoveden, vol. 2, p. 46.

Nicolaus I (Patriarch of Alexandria),

- Letter of Nicolaus I to Pope Honorius III (May. 1223), in Potthast, no.4363; Rohricht, Rogest, no. 964, p. 254.

Peter de Mountiago (Master of the Temple),

- Letter of Peter de Mountiago to all the faithful in England (Jan. 1222), in Roger of Wendover, vol. 2, pp. 437-438.

Philip de Albeney,

- Letter of Philip de Albeney to Ralph Earl Chester, in Roger of Wendover, vol. 2, pp. 435-436.

Richard of Cornnouailles,

- Letter of Richard of Comnouailles to Frederick II, in Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 138-141.
- Letter of Richard of Comnouailles to Baudouin de Riviers count Deves (23 April. 1242), in Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 141- 144.
- Letter of Richard of Comnouailles to Count Poietou (May. 1242),in Matthew Paris, Chronica, vol. 4, pp. 144-146

Robert de Nentes (Patriarch of Jerusalem),

- Letter of Robert de Nentes to Pope Innocent IV, Acre, (11 Sep. 1244),in Chronica de Mailrose,pp. 92-93; Rohricht, Regesta, no. 1123, p. 299.
- Letter of Robert de Nentes to all the Faithful, Acre, (25 novo 1244), in Annales de Burton, pp. 257-263.
- Letter of Robert de Nentes to Kings, Princes, Archbishops in France and England, Acre, (12 Dec. 1244), in Matthew Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp.307-311.

Rustana (Queen of Georgia),

- - Letter of Rustana to Pope Honorius III (12 May. 1224), in Rohricht, Regesta, no. 957. p. 255.

Sibylla (EX - Queen of Jerusalem),

- Letter of Sibylla to Fredrick I, in http.History (Hanover,

Mar.2001)

Terricius (Master of the Temple),

- Letter of Terricius to Pope Urban III, Tyre, (August. 1187), in Roger of Hoveden,vol. 2, pp. 68-69.
- Letter of Terricius to Henry II king of England, Tyre, (Jan. 1188),inRoger ofHoveden,vol.2,pp.90-91.
- **Letters from the East,**
- Letter from the East to Master of Hospitalers in Italy, Acre, (August. 1187), in http://History.Hanover.edu /texts /declin2. Html .December 2001.
- Letter from the East to Thibaut de Champagne, Roi de No Varre,Robert de Courtenacy, Acre, (6 Oct. 1238), in Rohricht, Regesta, no. 1083. pp.282-283.
- - Letter from the East to Frederick II, Acre, (7 May. 1241), in A.O.L., vol. 1, pp. 402-403.
- Letter from the East to Henry III king of England, Acre, (Feb. 1255), in Annales de Burton, pp 368-369.

Thomas Agni (The Papal Legate),

- Letter of Thomas Agni to all Kings, Princes, Archbishops, etc. Acre, (1 Mar.l206), in Menkonis, Chronican, in M.G.H.S, vol. 23, pp. 247- 249.

Willia de Chateau - Neuf (Master of Hospitalers),

- Letter of William de Chateau-Neufto Preceptor of the Hospitalers in New Castle, Cairo, (Nov. 1244), in Matthew

Paris, Chronica Majora, vol. 4, pp. 307-311.

(ج) المصادر الأصلية الأجنبية

Albérfc des Trois Fontaines,

- Chronicon, in M.G.H.S, vol. XXIII.

Amadi,

- Chroniques d' Amadi et Strambaldi, ed., R. de Mas - Latrie,2vols, (Paris, 1891 - 1893).

Ambroise,

- The Crusade of Richard Lion - Heart, Trans from the Old FrenchBy Merton Jerome Hubert. with notes and documentationByJ.L.,LaMont, (New York, 1941).

Annales Colonienses,

- In M.G.H.SS., vol. XVII.

Annales de Burton,

- ed. H.R. Laurd, in Annales Manastici, I, 'R.S. 36", (London, 1864).

Annales de Terre - Sainte,

- Publiees Par R. Rohricht, et G. Raynaud, III A.O.L., V.II, pp.429-461.

Annales Januenses,

- In M.G.H.SS., vol. XVIII.

Annales Londonienses,

- Chronicles of Rigns of Edward I and Edward II, vol. I,

(ed.)Stubbes,W., in "R.S", (London, 1881).

- **Ansbert,**
- Expeditio Friderici, III Quellen Sur Geschichte des Kreuzzuges Kaiser Friedrichs I, ed. A. Chroust, in M.G.H., (Berlin, 1892).

Arnold of Lubeck,

- Chronica Slavorum, III M.G.H.SS., III Usum Scholarum, (Hanover, 1868).

Bar Hebraeus,

- The Chronography, ed. and trans. by E.A.Wallis Budge, 2vols, (Oxford, 1932).

Bartholomaeis,

- Poesie Provenziale Storiche relative all' Italia; Instituto Storico Italiano, (Rome, 1931).

Benedict of peterbrough,

- Gesta Regis Henrici Secundi, ed.W.Stubbs, 2 vols, in R.S., (London, 1867).

Chronica de Mailros,

- ed. A. and M. Anderson, (London, 1936).

Chronicale of Bury st. Edmunds,

- "1212-1301", Trans. From Latin by Antonia Gransden, (London, 1964).

Chronica Regia Coloniensis,

• In M.G.H.SS., in Usum Scolorum, (Hanover, 1880).

Clement IV, Pope,

• Registres, ed. E.Jordan, (Paris, 1893-1945).

Coninuation de Guilliamde Tyre,

• ed. M.R.Morgan, in Documents Relat ifs a L' Histoire des Croisades, (Paris, 1982).

وقد اعتمد الباحث على الترجمة العربية بعنوان عنوان : ذيل وليم الصـــورى ، ترجمة / حسن الحبشى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٢

De Vitry (Joques),

• History of Jerusalem (A.D. 1180) Translated from original LatinBy Aubrey Stewart, in P. P.T.S., vol. IX, (London, 1897).

وقد اعتمدنا على الترجمة العربية لهذا المصدر وهى تحت عنوان : : جاك دى فيترى : تاريخ بيت المقدس ، ترجمة / سعد البيشاوى ، دار الشروق – عمان – ١٩٩٨ م

Epistolae de Morte Friderici Imperatris,

• In Quellen Geschichte des Kreuzzuges Kaiser Friderici I, ed. A.Chroust, in M.G.H., (Berlin, 1892).

Eracles,

• L' Estoire de Erac1es Empereur et la conqueste de la Terre d' Outre- mer, R.H.C. - H. Occ, T.II, (Paris, 1859).

Ernoul,

• Chronique de Ernoul et de Bernard Le Tresorier, ed. L. de

Mas - Latrie, (Paris, 1871).

Francesco Pipino,

- La Lumia, Storia Sicilia Sotto Guglielmo il Buono, (Florence, 1867).

Geoffry de Vinsauf,

- History of Expedition of Richard to the Holy land, (London, 1848).

Gervas of Canterbury,

- Opera Historica, ed, W. Stubbes, 2 vols, in R.S., (London, 1879- 1880).

Gesta Regis Recardi,

- ed. W. Stubbes, in R.S., (London, 1967).

Girout de Bornelb,

- Telsgen Prezich, Sermone, ed. A. Kolsen, Samtliche, Lieder des Trobadors Girout de Barnelh, (Halle, 1910).

Gregory IV D'gba (Catbolicus),

- Elegy on the foll of Jerusalem, in R.H.C- Doc. Arm., vol. I.

Gregory IX, Pope,

- Les Registres, ed. L. Auvray (Bibliotheque des Ecoles Francaises Athenes et de Rome. Ser.Z, 3 vols. (Paris, 1896- 1955).

- La Flor de Estoire de La Terr d' Orient, in R.H.C. - Doc.Arm., vol. 2.

Historia Diplomatica Friderici Secundi,

- ed. J.L.A. Huillard - Breholls, 7 vols, (Paris, 1851-1862).

Historia Regni,

- In M.G.H.SS. ,vol. XVIII.

Honorius III, Pope,

- Regesta Honorii Papae III, ed. P. Pressutti, 2 vols, (Rome, 1888- 1895).

Humbert of Romans,

- Opus Tripatitum, ed. E. Brown, (London, 1890).

Innocent IV, Pope,

- Registres, ed. Berger, (Bibliotheque des Ecoles Francaise d' Athenes et
- de Rome, Ser. 2),4 vols., (Paris, 1884- 1912).

Itinerarium Peregrinorum,

- et gesta Ricardi, ed. W. Stubbes, in R.S., (London, 1865).

وقد اعتمد الباحث على الترجمة العربية التى ظهرت تحت عنـوان : الحـروب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد) ترجمة حسن الحبشى ، جزءان ط ١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠

Joinville ,Jean de.,

- - Chronicle of the Crusode of st, Lewis, ed. and trans. By Frank Marzials, (London, 1965).

ولقد رجعنا إلى الترجمة العربية تحت اسم " القديس لويس " حياته وحملاته على

مصر والشام ، ترجمة وتعليق / حسن الحبشى ، ط ١ ، القاهرة ١٩٦٨ م

Juvaini (Ala - .adin Ata Malik),

- The History of the World Conquerors. Trans. By J.A Boyle,2vols, (Manchester, 1958).

Kirakos de Ganjak,

- Histoire d'Armenie (Extrait) ed. M. Dulaurier, In J.A., vol. LXI, 1858.

Le Raulx (D.),

- ed. Cartulair general de L'ordre des Hospitliers de St. Jean de Jerusalem 1100- 1310, 4 vols, (Paris, 1894 - 1906).
- **Les Gestes des Chiprois,** In R.H.C. - Doc. Arm, vol. 2.

Marino Sanudo,

- Liber Secretorum Fidelium Crucis, ed. 1. Bongars, in G.D.F., vol. 2.

Matthew of Westminster,

- The Flowers ofHistoru, trans. By C.D. yonge, 2 vols, (London, 1853).

Matthew Paris,

- Chronica Majora, ed. H.R.Laurd, in R.S., 7 vols, (London, 1872- 1882); CF. also: English trans. English History from 1235 - 1237, by J.A Giles, 3 vols, (London, 1852 - 1854).

Michelles Surien,

- Chronique, ed. en Francais, Par J.B. Chabot, 4 tomes, (Paris,1899- 1924).

Nicetas Coniates,

- Historia, in C.S.H.B., (Bonn, 1836).

Odo of Devil,

- De Prefection Ludovice VII, trans. By Virginia Gingerick, (New York, 1948).

Oliver of Paderborn,

- Historia Damiatans, trans. By J.Gavigan as The Capture fDomietta, (Philadelphia, 1948).

Otto of Saint Blaise,

- Chronica (ed. Hofmeister), M.G.H.SS., in Usum Scholarum,1912,Folio,xx.

Patrologia Latina,

- ed. J.P.Migne, 221 vols., (Paris, 1844 - 1855), (Spec. vol. 214 - 216).

Paul Weigler,

- The Infidal Imperor and his Strauggles against the Pope, trans. By B. Downs, (London, 1930).

Philip Mousket,

- Historia rerum Franconum, in R.H.G.F., vol. XXII.

Philip of Novare,

- The Ware of Fredrick II against the Ibelins in Syria and

Cyprus, trans. J.L.La Monte & M.J.Hubert, (New York, 1936).

Potthast, C.A.S.,

- ed. Regesta Pontificum Romanorum, 2 vols, (Berlin, 1873 - 1875).

Robban Sawma,

- The Monks of Kublai Khan or Hidtory of the life and Travelsof Rabban Sawma. Eng. trans. from. Syriac. By Wallis Budge, (London, 1928)

Radulf de Diceto,

- Ymagines Historiarum, 2 vols, ed. W.Stubbes, in R.S., (London, 1876).

Regesta Imperii, V, 1198- 1272

- ed. Lf'.Bohmer, (Innsbruck, 1881 - 1882).

Rigord,

- Gesta Philippi II Augusti, in M.G.H.SS. ,vol. XXVI.

Robert of Clary,

- The Conquest of Constantinople, trans. by E.H.Mc Neal, (New York, 1966).

وقد اعتمد الباحث على الترجمة العربية لهذا المصدر وهى تحت عنوان : فتح القسطنطينية على أيدى الصليبيين ترجمة حسن الحبشى ، القاهرة ١٩٦٤

Rockhill ,W.,

- The Journey of Frair John of Pian De Carpine, as narrated byhimself Hakluyt Society, Ser. 2, vol.4, (London, 1900).

Roger of Hovden,

- The Annales, trans. By Henry Riley, 2 vols., (London, 1883).

Roger of Wendover,

- Flowers of History, trans. By J.A. Giles, 2 vols., (London, 1849) .

Rohricht ,R.,

- ed., Regesta Regni Hierosolymitani, 2vols., (Innsbruck, 1892 - 1904).

Rothelin,

- Continuation de Guilliaum de Tyr de 1229 a 1261. Dite du manuscript de Rothelin, in R.H.C.H.Occ., t. II, pp. 489-639,(Paris,1869).
  وقد اعتمد الباحث على الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت اسم " تتمة كتاب وليم الصوري " لمؤلف مجهول والمنسوب خطأ إلى روتلان (١٢٢٩ -١٢٦١) ترجمة وتعليق د . أسامة زكى ، الدلتا للطباعة ،الإسكندرية ١٩٨٩م .

Salimbene de Adam,

- Chronica, in M.G.H.SS., vol. 32.

- Sempad Le Connetable,

- Chronique, in R.H.C.- Doc. Arm. vol. 1.

Urban IV, Pope,

- Registres, ed. J: Guiraud, (Bibiotheque des Ecoles Francais d' Athenes, et de Rome, Serz, 4 vols., (Paris, 1901 - 1929).

Vartan Le Grand

- Histoire Universselle (Extrait), ed. M. Dularier, in J.A., vol. 16, 1868.

Villehardouin (Geofrey),

- The Chronicle of the Fourth Crusade, trans. by F .Marzials,(London,1908).
ولقد رجعنا إلى الترجمة العربية لهـذا المصـدر وهـي تحـت عنـوان : فيلهاردوين :مذكرات فيهاردوين وفتح القسـطنطينية ، ترجمـة / حسـن الحبشـي ، ط ١ ، القـاهرة ١٩٨٣ م .

Vinent de Beauvais,

- Speculum Historiale, (Graz - Austria, 1965).

Willbrand of Oldenburg,

- Itinerarium Terrae Sanctae, ed. J.M. Laurent, In Peregrinators medii aeviquatuor, 2nd ed., (Leipzig, 1873).

William Newburgh,

- History of Reigns of Stephen, Henry II, and Richard I, ed. Richard Howlett, in Medievol Source book, Document. 2002.

William of Tripoli,

- Tractatus de Status Saracenorum, ed. Hang Prutz, in Kulturgeschichte der Kreuzzuge, (Berlin, 1883).

William of Tyre,

- A History of Deeds Done Beyond the Sea, 2 vols., trans.

and annotated by Emily Babcock and A.C. Krey, (New York, 1943).

وقد اعتمدنا على الترجمة العربية لهذا المصدر وهى تحت عنـوان : : ولـيم الصوري: الحروب الصليبية ، ترجمة وتقديم / حسن الحبشى ، أربعة أجـزاء ، القاهرة ١٩٩١- ١٩٩٥ م

William Rubruk,

- Itinerarium, trans. by W.W. Rockhill, Hakluyt Society, Ser. 2, vol. 41, (London, 1900).

ثالثا : المصادر العربية

ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) أبو الحسن ابن أبى الكـرم الملقـب عزين الدين

- الكامل فى التاريخ ١٢ جزء ، بيروت ١٩٨٢ م

ابن أبيك الدوادار (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٣ م) أبو بكر بن عبد الله :

- الدرة الزكية فى اخبار الدولة التركية " وهو الجزء الثامن من " كنز الدر وجامع الغرر " ، تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة ١٩٧١ م.

ابن شداد : (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٩ م) بهاء الدين أبو المحاسن يوسف ابـن رافع بن تميم:

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف ب" سيرة صلاح الدين ، تحقيق سعد كريم النفقى ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية ب . ت .

ابن عبد الظاهر : (ت ٦٩٢ هـ /١٢٩٢م)

- تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، حققه د /مراد كامل ، راجعه محمد على النجار ، الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦١ م .

• الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر " ، تحقيق عبد العزيز الخويطر – الرياض ١٩٧٦م.

ابن العديم (ت ٦٦٠هـ /١٢٦٢) م كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد ابن هبة الله :

• زبدة الحلب من تاريخ حلب " ثلاثة أجزء ، نشر وتحقيق سامى الدهان – دمشق ١٩٥١م.

ابن العميد : (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ م) جرجس أبو عبدالله بن أبى اليسر الملقب بـ المكين :

• تاريخه تاريخه ، نشره كلودكاهن تحت عنوان : تاريخ الأيوبين أنظر :

Cahen (Claud), La Chronique des Ayyoubides d, Al-Makin B.Al- Amid , in B.E.O., vol . 15 , 1955 ,pp. 109- 184

ابن نظيف الحموى : (ت ٦٣٧هـ /١٢٣٩م) أبو الفضائل محمد بن على بن بن عبد العزيز بن بركات الحموى

• تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان " المعرف بـ " التاريخ المنصورى " ، تحقيق أبو العبد دودو ، دمشق ١٩٨١ م .

ابن واصل : (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله بن محمد سليم :

• مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب " خمسة أجزاء – ج ١ ، ٢ ، ٣ ، تحقيق جمال الدين الشيال – القاهرة ١٩٦٠ م ج ٤ ، ٥ ، تحقيق حسنين ربيع – القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢ ، ١٩٧٧ م.

أبو شامة : (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم ابن عثمان شهاب الدين :

• كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية " ، جزءان فى مجلد واحد القاهرة ١٩٥٦ –١٩٦٢

• الذيل على الروضتين " نشره السيد عزت العطار – بيروت – ط ٢ ، ١٩٧٤ م.

أبو الفدا : (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا إسماعيل :

- " المختصر فى أخبار البشر " أربعة أجزاء فى مجلدين – القاهرة (المطبعة الحسينية) / ١٣٢٥ هـ.

أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى :

- النجوم الزاهرة فى ملوك القاهرة ، أثنى عشر جزء ، القاهرة ١٩٢٩ – ١٩٥٦ .

بيبرس الدوادار : (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) الأمير ركن الدين بيبرس المنصورى :

- زبدة الفكرة فى تاريخ أهل الفكرة ، الجزء التاسع ، تحقيق زبيدة محمد عطا ،القاهرة ب ت.

الحريري : (عاش فى القرن السابع الهجرى / القرن الثالث عشر الميلادى) احمد بن على :

- الإعلام والتبين فى خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين " دار الدعوة الإسكندرية ١٩٨٤ م .

الذهبى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان

- دول الإسلام ، جزءان فى مجلد تحقيق فهيم شلتوت – محمد مصطفى إبراهيم ، القاهرة ١٩٧٤ م.

سبط بن الجوزى : (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلى :

- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان " الجزء الثامن فى ثلاثة أقسام – ديدر أباد ١٩٥١ .

السلاوى :

- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى " ، الجزء الثانى ، تحقيق جعفر الناص ، ومحمد الناصر ، مطبعة دار الكتاب – الدار البيضاء ١٩٥٤ م .

العماد الكاتب : (تِ ٥٩٧ هـ /١٢٠١ م) عماد الدين محمد بن محمد بن أبو بكر

الفتح القسى فى الفتح القدسى " تحقيق محمد محمود صبح ، سلسلة الذخائر – القاهرة ٢٠٠٣

العينى : (ت ٨٥٥ هـ /١٤٥١ م) بدر الدين أبو محمد بن أحمد بن موسى :

- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، عصر سلاطين المماليك " ، حققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين أربعة أجزاء – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٨٨ م .

المقريزى : (ت ٨٤٥ هـ /١٤٤٢ م) تقى الدين أبو العباس أحمد :

- المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار " ، جزءان، بولاق ١٢٧٠ هـ
- السلوك لمعرفة الملوك " نشر محمد مصطفى زياد ، الجزء الأول فى ثلاث أجزاء القاهرة ١٩٣٤ – ١٩٤٢ م.

مفضل بن ابى الفضائل : (ت فى منتصف القرن ٨ هـ / منتصف القرن١٠ م)

- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ بن العميد " نشره مع ترجمة فرنسية بلوشيه أنظر:

Mouazzal Ibn Abil – Fazail , Histore des sultans Mamlouks , texte Arbe publeé et Traduit en francais , por E. Blochot , in P.O., trans XII , VIX , paris , 1911 - 1912 .

النسوى : (ت ٦٤٧ هـ ١٢٤٩ م) شهاب الدين محمد بن عبد الواحد المنشئ النسوى:

- سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى "، نشره حافظ حمدى – القاهرة ١٩٥٣ م

الهمذاى: (ت ٧١٨ هـ / ١٣١٩م) رشيد الديم بن عماد الدولة أبى الخير الملقب بالهمذانى

- جامع التواريخ" الجزء الأول ، المجلد الثانى ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون ، القاهرة ١٩٦٠ م.

الونيني : (ت٧٢٦ هـ /١٣٢٦ م) قطب الدين موسى نب محمد :

● نيل مرأة الزمان ، جزءان ، حيدر أباد ١٩٥٤ -١٩٥٥ م.

رابعا : المراجع الثانوية الأوروبية

Addison ,C.H.,

- The Knights Templars, (London, 1842).

Alan ,F.,

- The Military Orders, in the Oxford Illustrated History of the Crusades, (Oxford, 2001).

Allen ,W .E.D.,

- The History of the Georgian People, (London, 1932).

Anthony ,J.C.,

- The Crusades, (Exeters, 1966).

Austin ,P.,

- The Albigensian Crusades, in Setton, (ed) A History of The Crusades, vol. 2, pp. 277 - 324.

Atiya ,A.S.,

- The Crusade in The Later Middle Ages, (London, 1938).

Barker ,E.,

- The Crusades, (London, 1949).

Bartlett ,W .B.,

- God Wills it! An Illustrated History of the Crusades, (London. 2000).

Bartsch,

- La Langue et La Litterature Francais, (Paris, 1887).

Bedier,

- Les Chansons de La Croisade (Paris, 1909).

Boyle ,J.A.,

- The Journey of Hetum I, King of Little Armenia, to the Court of The Great Khan Mongke; in C.AJ., 1964.

Brenda ,B.,

- Perhaps you do not know? Innocent III, Approach to Release of Capt: Ves, (Vatican, 2000).

Bretschneider,

- King Haithom's Journey to Mongolia, in Medieval Researches, 2 vols, (London, 1888).

Bryce ,J.,

- The Holy Roman Empire, (London, 1950).

Burkhard ,R.,

- 'Die Tartaren ouf dem 2. Kanzil Van Lyon 1274", Annuarium Histare
- Conciliarum, 1973, Heft 2, pp. 247-302.

Byrne ,E.H.,

- Genoese Trade with Syria, in A.H.R., vol. 25.

Brehier ,L.,

- L'Eglise et L'Orient au Moyen Age, Les Croisades, (Paris, 1928).

Cahen ,C.,

- Un Traite d' Armurerie Compose Pour Saladin, in B.E.O., vol. 12, 1947 - 1948.
- Notes Sur L'Histoire des Croisades, III, in B.F.L.S., no. 8, 1951.
- La Syria du Nord a L'Epoque des Croisades et la Principaut Franque d' Antioche, (Paris, 1940).

Chalandon,

- Domination Normande en Italie, 2vols, (Paris, 1907).

Cheney ,C.R.,

- The Letters of Pope Innocent III, in Medieval Texts and Studies, (Oxford, 1973).

Collevill,

- Les Chansone Allemandes de Croisades, (Paris, 1936).

Campbell ,G.,

- The Crusades, (London, 1935).

Conder ,C.R.,

- The Latin Kindom of Jerusalem, 1099 - 1291, (London, 1897).

Dialliez ,L.,

- Les Chevaliers Teutoniques, (Paris, 1973).

David ,N.,

- Essential Histories, The Crusades, (London, 2001).

Davis ,H.C.,

- England Under The Normans and Angevins, 1066 - 1272. 9th ed., (London, 1928).
  Delaruelle ,E.,

- Lidee de Croisade au Moyen Age, (Torino, 1980).

Donald ,Q.,

- Medieval Diplomacy and The Fourth Crusades, (London, 1980).

Donovan ,J.,

- Pelagius and The Fifth Crusade, (Philadelphia, 1950).

Ducange ,C.,

- Les Familles d' Otremer, ed. by G. Rey, (Paris, 1869).

Duggan ,A.,

- The story of the Crusades, 1097 - 1291, (London, 1963).

Edward ,A.,

- Frederick The First King of Itlay, (London, 1871).

Elizabeth, S.,

- Criticism of Crusading, 1095 - 1274, (Oxford, 1985).

Galbraith,

- Roger Windover - Matthew Paris, (Glasgow, 1944).

Gill ,J.,

- Franks, Venetians and Pope Innocent III, in S.V., 1970.

Gransden ,A.,

- Historical Writing in England, C. 550 to C. 1307,2 vols., (London, 1974).
Gutsch ,M.R.,

- A twelfth Century Preacher, Fulk of Neuilly, III Crusades and other
Historical Essays Presented to Dana Monro, ed. L. J. Paetow, (New York, 1925).
Guzman ,G.,

- Simon of Saint- Quentin and the Dominicans Mission to Mongol Baiju. A Reappraisal, in Speculum, vol. 46, 1971.

Haenisch ,E.,

- Zuden Briefen der Mongolisshen IL - Khane Argun and oljectu an den Philipp den Schonen von Frankreich 1289 u.1305, (Oriens, 1949).
Hans ,K.,

- Encyc1pedia of the Papacy, (London, 1959).

Hayward ,F.,

- A History of the Popes, trans. by Monks (A.), (London, 1939).

Hefel ,C.J.,

- Histoire des conciles, ed. H.Leslercq, 1.5, (Paris, 1913).

Helene ,W.,

- The Norman Kingdom of Sicily and the Crusades, in Setton, (ed) A History of the Crusades, vol. 2, pp. 3-44.
Henry ,P.,

- A History of Europe (London, 1961).

Hernkrutz, A.S.E.,

- The place of Saladin in The Noval History, in J.A.O.S., vol. 75.

Hill ,G.A.,

- A History of Cyprus, 3 vols, (Cambridge, 1948).

Holt ,P.M.,

- The Age of the Crusades, (London, 1986).

Howorth ,H.,

- History of the Mongols, 5 vols, (London, 1876-1888).

Humphreys,R.S.,

- From Saladin to the Mongols, (London, 1980).

Irwin,

- The Mamluk conquest of the country of Tripoli, III C.S., (Cardiff, 1985).

James ,B.,

- The Crusades: A Documentary Survey, (Wisconsin, 1976).

James ,P.,

- Honorius III and The Leadership of the Crusades, in C.H.R., vol. LXIII,
  no. 4, October 1977, U.S.A.
- Anatomy ofa Crusade, 1213 - 1221, (Philadelphia, 1986).

Johnson ,N.,

- The Crusades of Fredrick Barbarossa and Henry VI, in Setton, (ed) A History of the Crusades, vol.2, pp. 87- 122.

Jonatan ,P.,

- The Latin East, in the Oxford Illustrated History of the Crusades, (Oxford, 2001).

Kantorowacz ,E.,

- Fredarick The Second, (London, 1931).

Kelly,

- Oxford Dictionary of Popes, (Oxford, 1996).

Kedar ,B.Z.,

- The Passenger List of a Crusader Ship., 1250; in S.M., vol. 13.

La Monte ,J.,

- Feudol Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100 - 1291, (New York, 1970).
- The communal Movement in Syria in the 13th century, in Taylor (ed), Haskins Anniversarry essays in M.H, (Boston, 1929).

- John Iblin 'The Old Lord of Beirut., in B., vol. 12, 1937.
- The Lord of Sidon, in B., vol. 17.
- **Lamb ,H.,**
- The Crusades: The Flame of Islam, (London, 1931).
- Lloyd ,S.,
- The crusading movement, in The Oxford Illustrated History of The
  Crusades, (Oxford, 2001)
- - Political Crusades Movement, in England, in C.S., (Cardiff, 1985).
- English Society and The Crusades, 1216 - 1307, (Oxford, 1988).
- **Longnon,**
- L 'Empire Latin de Constantinople, (Paris, 1949).

Lopez ,R.S.,

- The Trade of Medieval Eurpe, The South, in C.E.H., vol. 2, 1952.

Louise and Riley - Smith,

- The Crusaders, Idea and Reality, (London, 1981).

Luchier,

- Innocent III: La question d'Orient, (Paris, 1907).

Mas – Latrie,

- Histoire de L' He de Chypre Sous Le regne des Princes

de la Maison de Lusignan,3vols.,vol.I ,Histoire, vol.2-3 ,Documents,(Paris, 1852 - 1861).

Mckilham ,A.E.,

- A Chronicle of the Popes from St. Peter to Pius X, (London, 1912).

Mayer ,H.E.,

- Henry II king of England and the Holy Land, In E.H.R., (London, 1982).
- "Ibelin Versus, Ibelin" The Struggle for the Regency of Jerusalem, 1253 - 1258, in P.A.P.S., vol. CXXII, 1972.

Morgan ,D.,

- The Mongols in Syria, in C.S., (Cardiff, 1985).

Murno ,D.,

- The Children Crusades, in A.H.R., vol. 19, 1914.

Norman ,H.,

- The Later Crusades, 1274 - 1580, from Lyons to Alcazar, (Oxford, 1992).

Ostrongorsky ,G.,

- History of The Byzantine State, English trans. by J.Hussey, (Oxford, 1956).

Pears ,S.,

- The fall of constantinpole, the story of the Fourth Crusade, (New York, 1972).
- Les Mongols et la Papaute, in R.O.S., vols. 3-4,1922-24

Penny ,C.,

- The Preaching of the crusades to the Holy Land, 1095 - 1247,
  Peter Munz,
- Frederick Barbarossa, A study in Medieval Politics, (London, 1969) .

Powicke ,F.M.,

- King Henry III and the Lord Edward, 2 vols., (Oxford, 1947).

Prawer ,J.,

- The Latin Kingdom of Jerusalem, (Jerusalem, 1972).
- Histoire du royaume Latin de Jerusalem, traduit de l'Hebreu Par. G. Nahon, second edition (Paris, 1975).

Regine (Pernard),

- The Crusades, trans. E. Grant, (London, 1963).

Richard ,J.,

- La Polotique Orientale de Saint Louis, La Croisade de 1248.
- Colonies Marchandies Privilegiees et March seigneurial, in MoyenAges, vol. 59, 1975.
- The Mongols and the Franks, in J.A.H., vol. III.
- The Latin Kingdom of Jerusalem trans. by J. Sheriley, 2 vols., (Oxford, 1979).

Richards ,D.S.,

- The Crusades of Fredrick II and the Hamah Succession, Extracts form
- The Chronicle oflbi Al- Damn, in B.E.O., t. XIV, 1993.

Rdhricth, R.,

- Geschichte des Konigriches Jerusalem, 1100-1291, (Innsbruck, 1898).
- La Croisasde du Prince Edouard D' Angleterre, 1270 - 1272, in A.O.L.,vol. 2, (Paris, 1881).
- Etudes Sur les dernier temps du Royaum de Jerusalem, in A.O.L., vol. 2, (Paris, 1884).

Runciman ,S.,

- The Cicilian Vespers, (Cambridge, 1958).
- A History of the Crusades, 3 vols., (Cambridge, 1968).
- The Crusades State, 1243 - 1291, in Setton, (ed) A History of the Crusades, vol. 2, pp. 557-598.

Ryan ,J.P.,

- The International of Oriental Mission and Crusades Activities of the Papacy under Nicholas IV, 1288 - 1292, (New York University, 972).

Saunders,

- The History of the Mongols Conquests, (London, 1971).
- (ed.-in-chief) A History of the Crusades, 5 vols., (Philadelphia, 1969 - 1985)

Sidney ,P.,

- The Third Crusade: Richard The Lion Hearted and Philip Augustus, in Setton, (ed.), A History of the Cusades, vol. 2, pp. 44-86.

Sinoir, D.,

- History of Hungary (London, 1979).

Sinor,

- The Mongols and Western Eurp, in Setton, (ed.), A History of the Crusades, vol. 3.
- **Smith ,J. R.,**
- The Feudal Nobility and the kingdom of Jerusalem, 1174 - 1277, (London, 1973).
- Government in Latin Syria and the commercial Privileges of foreign merchants, in Relations between East and West in Middle Ages, ed, Baker, (Edinburgh, 1973)

Stento ,D.,

- Roger of Howden and Benedict, in E.H.R., 1953.

Strayer ,J.,

- The Crusades of Louis IX, in Setton, (ed.), A History of the crusades, vol. 2, pp. 487-521.

Stubbs ,W.,

- Germany in the Early Middle Ages, 476 - 1250, ed. A.Hossol, (London, 1908).

Sylvia ,S.,

- Philip IV and the Crusade: A Reconsideration, in C.S., (Cardiff, 1953)

Thatcher ,0., and Meneal ,E.,

- A Source Book for Medieval History, (New York, 1905).

Thorau, R.,

- The Battle of Ayn Jalut, a Reexamined, in C.S., (Cardiff, 1985).

Throop ,P.A.,

- Criticism of the Crusades, in European History, vol. 12, 2nd edition, (Philadelphia, 1975).

Tout ,T.,

- The Empire and Papacy, (London, 1924).

Tumler,

- Der Deustch Orden in Werden, Wachen und Wirken bis 1400 mit einem Abriss neusten Zeit, (Montreal, 1955).

Tyerman ,G.,

- England and the Crusades, 1095 - 1588, (Chicago, 1988).

Uilmann ,W.,

- The growth of Papacy government in Middle Ages, (London, 1955).

U. Lyons and Riley - Smith,

- Ayobids, Mumlukes and Crusades, Selections from Tarikh Al- Duwal, Waal Muluk oflbn Al- Furat, 2 vols.,

(Cambridge, 1971).

Ursula, S.,

- Die Aufrufe Derpapste zur Befreiung des Heiligen Beiszum Ausgang Innozennz IV, (Berlin, 1937).

Van Cleve ,T.C.,

- The Fifth Crusades, in Setton, (ed.), A History of the Crusades, vol. 2, pp.377-428.
- The Crusade of Fredrick II, in Setton, (ed.), A History of the Crusades, vol. 2, pp. 429-462.
- The Emperor Frederick II of Hens tau fen, (Oxford, 1972).

Vaughan ,R.,

- Matthew Paris, (Cambridge, 1958).
- Waley, - Later Medieval Europe from St. Louis to Luther, (London, 1976).

Wolf ,L. R.,

- Boldwin of Flanders and Hainaut , first Emperor of Constatinople , in Seculum , vol . 27

Ziada ,M.M .,

- The Mumluk Sultans to 1293 , in Setton , (ed.), A History of the Crusades , vol. 2. pp . 735 – 758 .

خامساً:المراجع العربية والمعربة

ابراهيم خميس سلامة (دكتور):

- إبراهيم خميس: العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين في مصر والشام، الإسكندرية، ٢٠٠٢م .
- الصراع على عرش مملكة بيت المقدس، ومقتل كونراد دي مونتفرات (١١٨٨-١١٩٢م/ ٥٨٤-٥٨٨هـ)، بحث منشور في كتاب دراسات في الحروب الصليبية، الإسكندرية، ٢٠٠٤م .

ابراهيم طرخان (دكتور) :

- الناصر صلاح الدين وتحرير القدس،القاهرة ب ت.

أحمد مختار العبادي (دكتور) :

-دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٩م.

اسحق عبيد (دكتور) :

-الدولة البيزنطية في عصر باليوغوس ،ط. بني غازي ،ب ت .

أرنست باركر :

-الحروب الصليبية ،القاهرة ١٩٦٠م.

إسمت غنيم (دكتور) :

- الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

أمال هاشم (دكتور):

- المرقب وقلعتها في الصراع الصليبي الاسلامي في عصر الحروب الصليبية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ،كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٩٨٧م

جمال الدين سرور (دكتور) :

- دولة الظاهر بيبرس في مصر ، القاهرة ١٩٦٠م.

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :
- لويس التاسع في الشرق الأوسط، ١٢٥٠-١٢٥٤، الإسكندرية، ط٢، ١٩٥٩م.
-العدوان الصليبي على مصر – هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور – دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية ١٩٨٩م .

جوزيف جاي ديس:
- الزنديق الأعظم، ترجمة / أحمد نجيب هاشم، القاهرة، ب.ت.

حامد زيان غنيم (دكتور) :
-الامبراطور فريدريك والحملة الصليبية الثالثة ، القاهرة ١٩٧٧م.

حسن حبشي (دكتور) :
-الشرق العربي بين شقي الرحي ، حملة القديس لويس على مصر والشام ، القاهرة ١٩٤٩م .

حسن عبدالوهاب (دكتور) :
- تاريخ جماعة فرسان التيوتون في الاراضي المقدسة ، الاسكندرية ١٩٨٩م .
- هدنة القدس في ضوء فتوى المؤرخ القاضي ابن أبي الدم الحموي ١٢٢٩م/ ٦٢٦هـ، دراسة تحليلية مقارنة، بحث منشور في مؤتمر مصادر تاريخ القدس، القاهرة، مارس ١٩٩٨.

حسين محمد عطية (دكتور):
- إمارة إنطاكية والمسلمون(١١٧١-١٢٦٨م)،الإسكندرية ١٩٨٩م.
- المراسلات المتبادلة بين بابوات روما وسلاطين مصر من بني أيوب (١١٨٣-١٢٤٥م/٥٧٨-٦٤٣هـ) ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب – جامعة الاسكندرية ، مجلد ٣٨ ، عام ١٩٩٠م.
- قومون صور (١١٨٧-١١٨٩م)، (نشأته وأهدافه ونهايته)- بحث في كتاب دراسات في تاريخ الحروب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص ١٧٧-٢٢٨.

- عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية في غرب أوروبا ومملكة بيت المقدس الصليبية، في دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص١١٤-١٦٩.
- سفارات الأرمن إلى المغول واثرها على العلاقات الاوروبية المغولية، بحث منشور ضمن كتاب دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية، الاسكندرية ٢٠٠٢م.

حسنين ربيع (دكتور):
-رسالة الصليبيين الى الامبراطور فريدريك الثاني أثناء حصار دمياط ١٥ يونيو١٢١٨م ،ندوة مصر وعالم البحر المتوسط من ١٣-١٥ ابريل ١٩٨٥م ،باداب القاهرة .

رأفت عبد الحميد (دكتور):
- السمو البابوي بين النظرية والتطبيق، بحث منشور في مجلة ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثالث، القاهرة ١٩٨٥م
- المسألة الإيطالية في السياسة الألمانية في العصور الوسطي ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٣٠ ، ١٩٨٤م .
- بيزنطة وخيانة القضية الصليبية -ضمن كتاب قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٩٨.
-الفكر البابوي الصليبي ، بحث في قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٩٨.
- الملك الكامل بين الإفراط والتفريط في مواجهة الصليبيين، بحث في قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٢٣-٢٠١.

رايلي سميث:

-ما الحروب الصليبية ؟ ترجمة : محمد فتحى الشاعر ، دار الأمين للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٩م .

زبيدة محمدعطا (دكتور):
-الشرق الاسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين ، القاهرة ١٩٩٤م .
زينب عبدالمجيد عبد القوي (دكتور):
-الانجليز والحروب الصليبية (١١٨٩-١٢٩١م) عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٦م .

سعد زغلول (دكتور):

- العلاقة بين صلاح الدين وأبو يوسف يعقوب المنصور -مجلة كلية الأداب- جامعة الإسكندرية، م ٦-٤، عام ١٩٥٢-١٩٥٣م، ص ٨٤-١٠٠
سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):
- الامبراطور فريدريك الثاني والشرق العربي ،المجلة التاريخية المصرية ،العدد الحادي عشر ،القاهر ١٩٦٣م.
- الحركة الصليبية "صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الاسلامى فى العصور الوسطي، جزءان، ط٦، القاهرة ١٩٩٤م.
- أوربا في العصور الوسطي، جزءان، القاهرة ١٩٩٤م
- مصر والشام في عصر الأيوبين والمماليك ،بيروت ب ت .
سامي سلطان سعد (دكتور):
- أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدني والجمهوريات الايطالية ، القاهرة ١٩٥٨م.
سامية عامر (دكتور):

-الصليبيون في فلسطين "جبييل " عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠١م .
- الصليبيون في شمال افريقيا" حملة لويس التاسع على تونس "، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٢م .
سرور علي عبد المنعم (دكتور):
-الدور الساسي لحصن شقيف أرنون في عصر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ،كلية الأداب – جامعة طنطا ١٩٩٧م .
عادل عبد الحافظ (دكتور):
- العلاقات السياسية بين الدول الايوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠١م.
عادل اسماعيل هلال(دكتور):
-العلاقات بين المغول و اوربا واثرها على العالم الاسلامى ، عين للدراسات والبحوث الأنسانية والاجتماعية ،القاهرة ١٩٩٧م
عبدالسلام عبد العزيز فهمي (دكتور):
-تاريخ الدولة المغولية في ايران، القاهرة ١٩٨١م .
عبداللطيف عبد الهادي (دكتور):

- دراسة نقدية لمنهج الكتابة التاريخية عند جاك دي فيتري، بحث منشور في: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

على محمود الغامدى:(دكتور):

-الرؤية الأوروبية للعرب والاسلام خلال العصور الوسطي ، ندوة اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ٢٠٠٣م .

فايد حمادعاشور (دكتور):

- العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، القاهرة ١٩٧٦م .

قاسم عبده القاسم (دكتور):

- الشعر والتاريخ ، دراسة تطبيقية على الحركة الصليبية ، مقال بالمجلة التاريخية ، مجلد ٢٨-٢٩ ،القاهرة ١٩٨٢م .

كلود كاهن :

- الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة / أحمد الشيخ، مركز سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٥.

ليلي عبدالجواد (دكتور):

- البابوية والإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (١٢٠٤-١٢٦١م/ ٦٠٢-٦٥٩هـ)، بحث منشور في دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور):

- تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية،الاسكندرية ١٩٩٠م

- عصر الحروب الصليبية في الشرق ، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٧م.

- اوربا والتتار ، دار المعرفة الجامعية،الاسكندرية ٢٠٠٣م

محمد محمد عبدالحميد فرحات (دكتور):

- بيروت ودورها في الصراع الصليبي الاسلامي ، رسالة دكتوراة لم تنشر بعد ،الإسكندرية ١٩٩٤م.

محمد مؤنس عوض(دكتور):

– العلاقات بين الشـــرق والغـــرب، عـــين للدراســـات والبحـــوث الإنســـانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٠م.
محمد مصطفى زيادة (دكتور):
- حملة لويس التاسع على مصر وهزيمتـــه فـــي المنصـــورة، ط١، القـــاهرة ١٩٦١م.
محمود سعيد عمران (دكتور):
- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل كومنين (١١٤٣–١١٨٠م)، الإسكندرية ١٩٨٥م .
- الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دي برين على مصر (١٢١٨–١٢٢١م/ ٦١٥–٦١٨هـ)، الإسكندرية، ١٩٨٥م.
- الهدن بين المسلمين والصليبيين في عصر الدولة الأيوبية ، بحث ألقي في ندوة العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي ، الإسكندرية١٩٩٢م .
- " المغول واوربا ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٩٧م .
محمود الحويري (دكتور):
– العادل الأيوبي صفحة من الدولة الأيوبية، ط القاهرة، ١٩٨٠.
محمودعلي مكي (دكتور):
– الشعر الغنائي" –بحث في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبيـــة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص٤٨–٦٢.

مصطفي محمد الحناوي (دكتور):

- جماعة الفرسان الأسبتارية ودورها في الصراع الصليبي الإســـلامي فـــي عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، غيـــر منشـــورة، الإســـكندرية، ١٩٨٠م.
مكسيوس مونروند:
–تاريخ الحروب الصليبية المقدسة في المشرق المدعوة بحرب الصليب، ترجمة مكسيوس مظلوم، ط أورشليم، دار الرهبان الفرنسيسكان، ١٨٦٥م.

موريس كين:
- حضارة أوروبا العصور الوسطى، ترجمة: قاسم عبده قاسم، عين الدراسات البحوث الإنسانية والاجتماعية،القاهرة، ١٩٩٤م.
ميخائيل زابوروف :
- الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو ١٩٨٦م.
ميشيل بالار:
- الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة: بشير السباعي، ط١، عين للطباعة والنشر، ٢٠٠٣م.
كانتور :
- التاريخ الوسيط " قصة حضارة البداية والنهاية " ، جزءأن ، ترجمة وتعليق : قاسم عبده قاسم ، القاهرة ١٩٩٧م.
هانز ابراهارد ماير :
-تاريخ الحروب الصليبية ،ترجمة: عماد الدين غانم، منشورات مجمع الفاتح للجامعات ،١٩٩٠م.
هايد:
- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا ، مراجعة وتقديم: عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، أربعة اجزاء، القاهرة، ١٩٨٥- ١٩٩٢م.
ياسر عبد الوهاب (دكتور):
- أل إيبلين ودورهم في الصراع الصليبي الاسلامي (١١٣٠-١٢٩١م/٥٢٤-٦٩٠ه) رسالة ماجستير لم تنشر بعد، كلية الأداب - جامعة الاسكندرية ٢٠٠٠م .
يوشع براور :
- عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن، القاهرة، ١٩٩٩م.
يوسف أشباخ:
- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة : د/عبدالله عنان ، ط٢ ، جزءان ، القاهرة ١٩٩٦م.



المؤلف في سطور

د/ياسر مصطفي عبد الوهاب

الوظيفة الحالية : أستاذ مساعد بقسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ

- ليسانس أداب – من قسم التاريخ – كلية الأداب – جامعة الإسكندرية.
- ماجستير فى الأداب من قسم التاريخ من كلية الأداب جامعة الإسكندرية.
- دكتوراه فى الأداب من قسم التاريخ من كلية الأداب – جامعة طنطا .
- * الأبحاث العلمية المنشورة :
- "المسألة الصليبية فى السياسة الفرنسية زمن الملك فيليب الرابع (١٢٨٥ – ١٣١٤ م / ٦٨٤ – ٧١٤ هـ) " منشور بمجلة كلية التربية – العدد الثالث – جامعة كفر الشيخ عام ٢٠٠٦م.
- "مشروع إيمانويل بيلوتى لإستعادة الأراضى المقدسة فى القرن الخامس عشر الميلادى / التاسع الهجرى"منشور بمجلة كلية الاداب – العدد الاول – جامعة كفر الشيخ عام ٢٠٠٩م.
- "الغزو الفارسى لمصر (٦١٦ – ٦٢٨ م) "– منشور بمجلة الجمعية السعودية للدراسات الاثارية –العدد الخامس – جامعة الملك سعود عام٢٠١٠م

- "الزواج السياسى واثره فى علاقات بيزنطة بالغرب الاوربى (٩٧٢ – ١٢٠٤م) " منشور بمجلة كلية الاداب – العدد ٢٣- جامعة بنها عام ٢٠١٠م.
- " ليودبراند اوف كريمونا وتاريخه لاحوال اوربا فى القرن العاشر الميلادى"- منشور بمجلة كلية الاداب – العدد ٦٥- جامعة الاسكندرية عام ٢٠١١م.
- "محاولات التحالف العثمانى المملوكى ضد المغول واثر ذلك على بيزنطة (١٣٨٨-١٤٠٢م/٧٩٠-٨٠٤هـ)" بحث القى ونشر فى المؤتمر الدولى الخامس بعنوان"العرب والترك عبر العصور " بكلية الاداب – جامعة قناة السويس فى الفترة من ٤-٦ مارس ٢٠١٣م.

الفهـــــــــرس

هذا الكتاب

نجح صليبيو الحملة الصليبية الأولى في تأسيس أربع ركائز صليبية في الشرق الأدنى الإسلامي، ويعتبر العقدين الأولين من تاريخ الإمارات الصليبية في الشرق فترة مد صليبي لم تواجهه مقاومة إسلامية منظمة أو فعالة، أو تتناسب وحجم الخطر الصليبي، وبظهور عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود الذين وضعا اللبنة الأولى لجبهة إسلامية متحدة تواجه الكيان الصليبي، في الوقت الذي انشغلت أوروبا فيه بمشكلاتها الداخلية، حدث توازن في ميزان القوى بين الطرفين بظهور صلاح الدين الأيوبي، الذي تمكن من توحيد القوى الإسلامية في الشرق، وتكوين دولة ذات إمكانية مادية وبشرية، الأمر الذي مكنه من توجيه ضربة شديدة للكيان الصليبي، سقطت على إثرها مملكة بيت المقدس الصليبية، وفتح صلاح الدين غالبية ما كان بأيدي الفرنجة في بلاد الشام بعد أن أحرز انتصارًا حاسمًا على القوت الصليبية في حطين عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ.

وإذا كان الكيان الصليبي قد بدأ في الانهيار، حتى سقط تمامًا في بداية العقد الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي، فإن ما أبقى على هذا الكيان بعد موقعة حطين وحتى سقوطه نهائيًا، كان في حقيقة الأمر، الدعم الأوروبي للإمارات الصليبية، فالحرب ضد المسلمين أو عقد الهدن واتفاقيات السلام معهم، لم تكن لتكفي لتأمين الكيان الصليبي في بلاد الشام، كما لم تكن الموارد الخاصة بالإمارات الصليبية تكفي لذلك، إلى جانب ذلك فإن الحملة الصليبية المتتابعة من الثالثة إلى السابعة، لم تحل مشكلات الفرنج في بلاد الشام، وكان لابد من قيام علاقات مستمرة بين الإمارات الصليبية وغرب أوروبا، دعمًا لهذه الإمارات ولم تكن الحملات الصليبية إلا مظهر من مظاهر هذا الدعم.



I.S.B.N. 978-977-276-634-5
6 222008 910479
المكتب العربي للمعارف